جامعـــة الجزائـــر

كلّيـّة العلــوم الإسلاميّــة

قســم العقائــد والأديــان

أثر الإيمان في تحقيق الشّهود الحضاري

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في العلوم الإسلاميّة

تخصّص العقيدة

إعداد الطّالب : عبد الغني عكّاك

السّنــة الجامعيّة 2009 ــ 2010 م

جامعــــة الجزائـــر

كلّيـــّة العلـــوم الإسلاميّـــة

قســـم العقائـــد والأديـــان

أثر الإيمان في تحقيق الشّهود الحضاري

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في العلوم الإسلاميّة

تخصّص العقيدة

إعداد الطّالب : عبد الغني عكّاك

إشراف الأستاذ : أ . د عمّار جيدل

أعضاء لجنــة المنــاقشـــة

اسم الأستـــاذ	الصّفة	الرّتبـــة	المؤسّســـة
أ . د / شافية صدّيق	رئيسا	أستاذة التّعليم العالي	كلّية العلوم الإسلاميّة جامعة الجزائر
أ . د / عمّار جيدل	مقرّرا	أستاذ التّعليم العالي	كلّية العلوم الإسلاميّة جامعة الجزائر
أ . د / عبد القادر بخّوش	عضوا	أستاذ التّعليم العالي	جـامعـة الأمير عبد القـادر قسنطينـة
د / محمّد يعيش	عضوا	أستاذ محاضر " أ "	كلّية العلوم الإسلاميّة جامعة الجزائر
أ . د / صالح نعمان	عضوا	أستاذ التّعليم العالي	جـامعـة الأمير عبد القـادر قسنطينـة
د / أحمد عيساوي	عضوا	أستاذ محاضر " أ "	جـامعـــة بـاتنـــة

السّنـــة الجامعيّة 2009 ــ 2010 م

بســم الله الرّحمن الرّحيــم

الإهداء

إلى الفئة المؤمنة الّتي حملت الإسلام بروح رسالية رائدة ، إلى النّخبة الواعية الموجودة في كلّ زمان و مكان الّتي يقف في طليعتها الحكّام المتّقون ، والعلماء العاملون ، والمجاهدون الصّادقون ، و العامّة الطّيبون من مختلف المهن والصّناعات الذين يعيشون روح الإسلام بقلوبهم وعقولهم وأعمالهم ، إلى كلّ من علّمني وأخذ بيدي حتّى أنجزت هذا البحث ، إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل

الشّكر والتّقدير

الحمد لله ربّ العالمين صاحب الفضلِ والإنعام ، أحمده سبحانه وتعالى حمدا يوافي نعمه ، ويكافئ آلاءه وإحسانَه ، فبنعمته تتم الصّالحات وبتوفيقه تتحقّق المقاصد والغايات ، وبرحمته تتنزّل البركات والخيرات وبعد :

أتقدّم بالشّكر الجزيل والثّناء الجميل إلى كلّ من ساهم في إخراج هذا البحث من قريب أو بعيد ، وأخصّ بالذّكر أستاذي الفاضل : الأستاذ الدّكتور عمّار جيدل المشرف على هذه الأطروحة ، كما أشكر لجنة الأساتذة التي تكرمت بقبولها مناقشة هذا البحث ، والشّكر موصول لكلّية العلوم الإسلاميّة التي تدرّجت في أقسامها ، من مرحلة اللّيسانس إلى مرحلة الدّكتوراه ، ولا يفوتني أن أتوجّه بالشّكر الجزيل إلى إدارة الكلّية وعمّالها المحترمين الّذين هيّئوا لنا هذا اللّقاء دون أن أنسى القائمين على مكتبة كلّية العلوم الإسلاميّة لخدماتهم القيّمة التي يقدّمونها للطّلبة والباحثين عموما .

المقدّمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، له الحمد الحسن والثّناء الجميل والصّلاة والسّلام على إمام الأنبياء والمرسلين ، وآل بيته الطيّبين الطّاهرين وصحابته أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدّين ، وبعد :

أهمّيــة البحــث

الإيمان بالله وما يتفرّع عنه من عقائد أمر على غاية الأهمّيّة في حياة الإنسان ذلك أنّ وجوده سبحانه وتعالى حقيقة ثابتة في الأزل وإلى الأبد ، وهي مستقلّة في ثبوتها عن كلّ موجود فلا علاقة لوجودها بإيمانه أو إنكاره ، بل لا علاقة لها بوجوده أصلا ، وعليه فإنّها تستمدّ قيمتها وقداستها من ذاتها بوصفها الحقيقة الأولى من حقائق الوجود ، وإذا كان الإيمان بالحقيقة يعدّ فضيلةً في ذاته فكيف به إذا كان إيمانا بأمّ الحقائق ؟ وإذا كان هذا الإيمان مطلبا بذاته من هذا الوجه فإنّه يطلب أيضا لما يحدثه من آثار إيجابيّة في الحياة ، حيث يُضْفِي عليها من خيريّته ما لا تنالُه أبدا بدونه بل إنّ الحياة بدونه لا تكون إلاّ في شقاء ، وهذا ما نلمسه ونحن نتلوا قوله تعالى ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)) [الأعراف 96] وقوله : ((وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)) [النّحل 112] وإذا كان الإيمان بالله يثمر صلاحا على النّحو فإنّ العلاقة بين الإيمان وصلاح الحياة هي علاقة تلازم بين طرفين ، بحيث يكون تحقّقُ الملزوم وهو الإيمان بالله مفضيا لتحقيق اللاّزم وهو

صلاح الحياة وهذا يدعو إلى البحث في قضاياه بمنهج محرّك للنّفوس بهدف بيان أثره في تحقيق سعادة الإنسان ، وعليه فإنّ بسطَ المنافعِ التّي يحدثها الإيمان وإظهارَها للنّاس إظهارا عقليا بالتّحليل المنطقي ، أوإظهارا عيانيا بالاستشهاد التّاريخي من شأنه أن يهيّئَ النّفوسَ للإقبال على الله بالتّعمّق في معرفته وزيادة التّصديق به لأنّ المنافع إذا لاحت للنّاس فإنّها تدفعهم إلى التّمسّك بأسبابها للحصول عليها ولمّا كان الإنسان حريصا على تحقيق سعادته مندفعا إلى البحث عن أسبابها سلك الأنبياء عليهم السّلام في دعوتهم إلى الله منهجا واحدا ، حيث أسهبوا في بيان ما يجنيه المؤمنون من بركات وخيرات ، وما يحصده المنكرون من شقاء وخذلان وهذا دليل صلاحية هذا المنهج لجميع الأوضاع وفي كلّ الأوقات والأحوال ممّا يدعو إلى تبنّيه واعتماده في عرض حقائق الإيمان .

أسباب اختيار الموضوع

أمّا عن أسباب اختيار الموضوع فيمكن إجمالها فيما يأتي :

1 ـ ما حدث في هذا العصر من طغيان الفكر المادّي على المبادئ السّامية التي تقوم عليها الحضارات ، حيث تبوّأت المادّة المكانة البارزة ، فاحتجبت إزاءها كثير من حقائق الإيمان التي كانت في أيّام الإسلام الزّاهرة في طليعة القيم وتراجعت أمامها محاولات الوصول إلى المكانة المرموقة بالمبادئ الإيمانية عند كثير من النّاس ، ظنّا منهم أنّ الإيمان بالله من شأنه أن يعطّل الطّاقات عن العمل والإنتاج كما يعطّل عن البحث العلمي الذي يؤدّى إلى ذلك ، مستشهدين بما نشأ من تحضّر وعيش رغيد في مجتمعات لا تؤمن بالله إيمانا صحيحا ، وهو ما يغري العقول والنّفوس بالاعتقاد أنّ سعادة الشّعوب لا علاقة للإيمان بوجودها أو فقدها إن لم يكن الإيمان سببا عكسيا في ذلك ، وهذه فتنة لا يمكن أن تقاوم إلاّ بمنهج مضاد يبرهن على أنّ سعادة الإنسان مرهون بالإيمان .

2 ـ يعود إلى تلك الظّاهرة التي يلحظهـا رجال الفكـر ، وهي : تركيز بعض الأنظمة التّربوية على الجوانب المادّيّة وإهمال القيم الرّوحيّة في السّعي لتحقيق أهـدافها ، والنّظر إلى الـدّين نظرة استخفاف ، حتّى أصبح التّعليم يعـاني مـن الخـواء الرّوحـي ، بسبب وقـوع عمـوم الأمّـة في موازينهـا الفكريّـة ومشـاعرها الوجدانيّـة في منطقة الجاذبيّة الغريبة لاعتقادها أنّ السّبيل الوحيد للتّعامـل مع الحياة والكون اعتماد موازين الحضارة الغربية ، إلاّ أنّنا لا نشكّ إطلاقا أنّ في السّـاحة الفكريـة جهـودا معتبـرة تستحقّ التّنويـه ، لمـا لهـا مـن الحصـانة الفكريـة والمناعة العقديّة ، ما يعصمها من التّأثّر بهذه الجاذبيّة وهذا يحفّز على الإسهام في تدعيمها وتعزيز مساعيها في دراسة معمّقة ، تجمع ما تفرّق وتفصّل ما أجمل وتؤصّل وتحلّل ، مستثمرة في ذلك الوضع الفكـري الرّاهـن القائم على المنفعة حيث يمكن اعتماده بنجاعة لبيان ما يثمره الإيمان في حياة النّاس من المنافع .

3 ـ ما آل إليه أمر المسلمين من ضعف في حياتهم العمليّة ، وهـو الشّيء الذي يوقع في نفوس بعضهم أنّ الإيمان بالله لم يحقّق لهـم المنافع الدّنيويّة قياسا في ذلك على غيرهم ممّن لا يؤمنون بـالله الإيمـان الحقّ مـن الأمـم التي تعيش حياة الرّفـاه والغلبـة ، وهـذه فتنـة تغـري بالانسـلاخ مـن الإيمـان بـالله ، أو بالتّحلّـل مـن الرّابطة التّي جاء بهـا الـوحي في مجالات الحياة ، والإبقاء على الصّلة الرّوحيّة التّي لا علاقة لها بالحياة الاجتماعية ، وهـو مـا يحدث اليوم على نطاق واسع متمثّلا في المنـزع العلمـاني الـذي فشـا في حيـاة المسـلمين ، لـذلك نحتـاج إلى دراسة دقيقة تعزّز مساعي المصلحين لمقاومة هذه الفتنة ومحاصرة آثارها .

4 ـ هناك ظاهرة بالغة الأهميّة في حياة الشّعوب دلّ عليها القرآن الكريم في آيات عدّة ، هي أنّ قيام الأمم وسيادة الدّول مرتبطة بسنن ثابتة لا تتبـدّل ، وكـذا انهيارهـا ، الـذّي يحصـل لأسـباب كثيـرة منهـا : الجحـود بآيـات الله ، أو الغـرور

بالثّروة الماديّة ، أو الظّلم الاجتماعي والاقتصادي ، أو الاستبداد السّياسي ، أو القعود عن عمارة الأرض ، وغيرها من الأسباب ، ومع ذلك فإنّ كثيرا من مشاريع الإصلاح تهمل المعاني الإيمانيّة وتستبعد اعتبارها من العوامل الفاعلة القويّة في إحداث الإصلاح المنشود ، بينما يتركّز اهتمامها على الأموال المرصودة ، والثّروات المدّخرة ، والإمكانات الماديّة المتوفّرة ، ممّا أفضى إلى العجز عن إيجاد السّلم والرّخاء لغالب شعوب العالم ، لأسباب عدّة وعيوب شتّى ، من أهمّها على الإطلاق البعد عن حقيقة الإيمان .

وإيمانا منّا أنّ سعادة الشّعوب مشروطة بالرّجوع إلى دين الله الخالص ، وأنّ الإصرار على الإعراض يزيد البشريّة شقاء ، فإنّ الحاجة لبيان أثر الإيمان تتأكّد بكلّ الوسائل والأساليب ، بغية تجديد معانيه في القلوب والأذهان وبعثها في النّفوس ، غير أنّ حقيقة الإيمان بالله لا تنحصر في التّقرّب إليه بالشّعائر التّعبّديّة المشروعة وهو النّصاب الأدنى الذي لايكون المسلم بدونه متديّنا ، إنّما تشمل مختلف نشاطات الحياة ، حيث تتجلّى العقيدة في المجال السّياسي في إفراد الله بالحاكميّة ورفض حكم الهوى ومجاهدة قوى الباطل طلبا لمرضاة الله ، و في المجال الاقتصادي في الاعتراف لله بمالكيّة المال وخلافة البشر له ، وتجسيد أبعاده في شعاب الحياة ، وفي المجال العلمي بتوحيد معقول العلم ومنقوله في سبيل الاستزادة من معرفة الله وتسخيره للتّوسّع في العبادة ، وبهذا يكون الإيمان مرادفا للتّديّن ، وهو التزامٌ بتعاليم الإسلام كلِّه عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا وهذا المعنى هو الذّي نعوّل عليه في دراستنا هذه

عرض الإشكال

وإذا تأمّلنا في حال المسلمين اليوم ، فإنّنا نلاحظ أنّهم يعانون من التّخلّف في كثير من الميادين الحضاريّة مقارنة بغيرهم من أهل الدّيانات الأخرى وهم يقرّون

أنّ الإيمان هو الذّي حقّق لهم نهضتهم في كافة مجالات الحياة ، **فإذا كان الإيمان بالله مصدر قوّتهم وعزّهم ، فلماذا لم تتحقّق هذه القوّة اليوم بالقدر المطلوب في ميادين البناء والتّعمير مع وجوده ؟**

فرضيّات البحث

ولحلّ هذا الإشكال انطلقت من الفرضيّات الآتية :

الفرضيّة الأولى : الإيمان بالله يحقّق التّحضّر في الدّنيا ، غير أنّ الأمّة في عمومها لم يتّصفوا به حقّ الاتّصاف ، فآل أمرهم إلى ما هم عليه .

الفرضيّة الثّانية : إيمان أفراد الأمّة محقّق غير أنّ مبادئه لا علاقة لها بترقية حياة الإنسان في مختلف مجالاتها من سياسة واقتصاد واجتماع ، لكونه ينحصر في الجانب النّظري من قضايا الاعتقاد .

وانطلاقا من هذه الفرضيات شرعت في إنجاز هذا البحث لمعرفة الآثار التي أحدثها الإيمان في حياة المسلمين ، للكشف عن سرّ التّحضّر الذي حصل لهم في فترة قياسيّة وجيزة ، وعن إمكانيّة بعثه من جديد ، معتمدا في هذا على تجربتهم الرّائدة واتّخاذها نموذجا للسّير على منواله ، حتّى نتمكّن من معرفة ما يجب أن نقوم به للوصول إلى ما وصلوا إليه ، ولتحقيق هذا الغرض اخترت موضوعا أسميته " **أثر الإيمان في تحقيق الشّهود الحضـــاري** " وعرضته في مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة .

ــ **المقدّمة** : بيّنت فيها أهمّيّة الموضوع وأسباب اختياره ، وعرضت إشكاليّة البحث والفرضيّات التي انطلقت منها ، وعناوين الفصول والمباحث والمطالب ثمّ أشرت إلى الدّراسات السّابقة في الموضوع معلّقا عليها ، وأنهيتها ببيان بعض الضّوابط المنهجيّة التي تقيّدت بها ، والصّعوبات التّي واجهتني .

ـ **الفصل الأوّل** : الإيمان في القرآن الكريم والسنّة النّبويّة : جعلته في ثلاثة مباحث ، الأوّل : تناولت فيه الإيمان لغة وشرعا ، ضمن مطلبين تناولت في الأوّل : الإيمان عند أهل اللّغة ، وفي الثّاني الإيمان في استعمال الشّرع ، أمّا المبحث الثّاني فقد تناولت فيه مذاهب العلماء في بيان حقيقة الإيمان ، في مطلبين خصّصت المطلب الأوّل لعرض المذاهب المعتبرة في بيان حقيقة الإيمان ، أمّا المطلب الثّاني فقد ذكرت فيه علاقة الإيمان بالعقيدة والشّريعة ، وأمّا المبحث الثّالث فقد تناولت فيه مصادر المعرفة في العلوم النّظريّة والعقيدة الإسلاميّة في مطلبين ، الأوّل عرضت فيه مصادر المعرفة اليقينيّة في العلوم النّظريّة ، وعرضت في الثّاني مصادر المعرفة في العقيدة الإسلاميّة .

ـ **الفصل الثّاني** : مذاهب العلماء في تعريف الحضارة ، تعرّضت فيه لبيان أراء العلماء في الحضارة ، ودور العقيدة في البناء الحضاري ، وهذا في مبحثين . الأوّل : تناولت فيه مفهوم الشّهود الحضاري في اللّغة والاصطلاح ، وعرضته في ثلاثة مطالب ، المطلب الأوّل : الشّهود في اللّغة والشّرع ، المطلب الثّاني : الحضارة في اللّغة والاصطلاح ، المطلب الثّالث : قيمة التّحضّر ، أمّا المبحث الثّاني فبيّنت فيه أهمّية العقيدة في حياة الإنسان في مطلبين ، الأوّل : دور العقيدة في صياغة الحضارة ، الثّاني : أهمّية الأخلاق في البناء الحضاري ، الثّالث : منهج الإسلام في تعريف الإنسان بالحضارة .

ـ **الفصل الثّالث** : عرضت فيه البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة والكون في العقيدة الإسلاميّة وتناولته في مبحثين ، الأوّل : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة في العقيدة الإسلاميّة وقد حرّرته في مطلبين ، الأوّل : مظاهر الألوهيّة في الكون والحياة ، الثّاني : أهمّية تحرير الوجدان في تحقيق الفعل الحضاري أمّا المبحث الثّاني فقد خصّصته لبيان البعد الحضاري لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة

في ثلاثة مطالب : الأوّل : الآثار الحضاريّة لمعرفة الإنسان معرفة عقديّة المطلب الثّاني : الآثار الحضاريّة لمعرفة الحياة في العقيدة الإسلاميّة ، المطلب الثّالث : الآثار الحضاريّة لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة .

ــ **الفصل الرّابع** : أثر الإيمان في حياة الإنسان في ثلاثة مباحث الأوّل : الإيمان وأثره في الأوضاع الاجتماعيّة في ثلاثة مطالب ، الأوّل أثر الإيمان في تحقيق الفعل الحضاري على الفرد ، الثّاني : أثر الإيمان في تحقيق الفعل الحضاري على المجتمع ، الثّالث : أثر الإيمان في تحقيق التّقدّم العلمي . الثّاني : الإيمان وأثره في الأوضاع السّياسيّة في ثلاثة مطالب ، الأوّل أثر الإيمان في توحيد الأمّة الثّاني أثر الإيمان في تحقيق العدل ، الثّالث أثر الإيمان في إرساء سيادة القانون والحريّات الفرديّة . المبحث الثّالث : الإيمان وأثره في الأوضاع الاقتصاديّة في مطلبين ، الأوّل : أثر الإيمان في دفع النّهضة الاقتصاديّة ، الثّاني : دور القيم الإيمانيّة في بعث التّنمية الاقتصاديّة .

ــ **الخاتمة** : تناولت فيها النّتائج التي خلصت إليها ، ثمّ أعقبتها ببعض التّوصيات ، وذيّلت البحث بوضع فهارس فنّيّة على النّحو الآتي :

1 ــ فهرس الآيات القرآنيّة

2 ــ فهرس الأحاديث النّبويّة

3 ــ فهرس الأعلام

4 ــ فهرس المصطلحات العلميّة

5 ــ فهرس المصادر والمراجع

6 ــ فهرس الموضوعات

الدّراسات السّابقة

أمّا عن الدّراسات السّابقة المتعلّقة بالموضوع فحاصل ما اطّلعت عليه :

1 ــ **كتاب** : الإيمان والحياة ، للدّكتور يوسف القرضاوي ، تناول فيه آثار الإيمان في حياة الفرد ، مبرزا دوره الفعّال في تزكية الأخلاق وبناء الشّخصيّة ، اقتصر على بعض جوانب الاعتقاد وعرضه بأسلوب أدبي متحاشيا الأسلوب الأكاديمي في العرض والتّحليل لكونه موجّها لعموم النّاس من القرّاء .

2 ــ **كتاب** : الإيمان وأثره في حياة الإنسان ، للدّكتور حسن التّرابي ، تناول فيه آثار الإيمان في حياة الإنسان ، بأسلوب كان أدقّ وأعمق في التّحليل من كتاب الإيمان والحياة ، حيث تمكّن من بيان الإيمان وأثره في الحياة ، ومع ذلك فهو في حاجة إلى مزيد من التّحليل والتّأصيل ، لأنّه لم يقصد الإحاطة بالموضوع إنّما كانت خواطر راودته فسعى لتقييدها كما صرّح في آخر فقرة من مقدّمته .

3 ــ **كتاب** : الإيمان وأثره ، للدّكتور محمّد عبد الله الشّرقاوي ، عقد مبحثا في أثر الإيمان في حياة الفرد من الصّفحة 26 إلى الصّفحة 56 اعتمد فيه على كتاب الإيمان والحياة ، إضافة إلى الآيات التّي كان يكتفي بتفسيرها تفسيرا تحليليا .

4 ــ **المباحث المبثوثة في كتب العقائد** : التّي تناولت أثر الإيمان في حياة الفرد والمجتمع لاسيما الكتابات الحديثة ، حيث تناولت الموضوع في بضع صفحات أثناء تناول مباحث العقيدة ، ولا يخفى على الدّارسين أنّها ذكرت الموضوع عرضا وليس غرضا مقصودا لذاته .

5 ــ **البعد الحضاري للعقيدة الإسلاميّة ، بين نظرة الإنسان وتوجيه القرآن :** البحث الذّي تقدّم به الطّالب نبيل مشكاريني لنيل درجة الماجستير من جامعة الجزائر ، تعرّض فيه لبيان بعض الآثار التّي تحدثها العقيدة ، بإيجاز وإجمال ودون تمثيل ، حيث ذكر هذه الآثار في إحدى عشرة ورقة من البحث ، كما حصر العقيدة في التّصديق الجازم لأركان الإيمان السّتّة ، دون الإشارة إلى الجانب العملي الذّي ينتج عادة عن الاعتقاد ، مع إغفال أثر الاعتقاد على الحياة

السّياسيّة ، والاقتصاديّة ، والاجتماعيّة ، والثّقافيّة .

4 ـــ **الأبعاد الوظيفيّة للإيمان** : للطّالبة سميّة شباطة التّي تقدّمت به لنيل درجة الماجستير من جامعة باتنة ، أرادت معرفة حقيقة الإيمان هل تنحصر في التّصديق أم تتعدّى إلى العمل ؟ وتساءلت عن سبل تقوية الإيمان وبعثه من جديد ؟ وهل يؤثّر في مجالات الحياة ، السّياسيّة ، والاقتصاديّة ، والعلميّة والاجتماعيّة ؟ وقد برهنت أنّ الإيمان منهج حياة وبالإمكان توظيفه في كافّة مجالاتها ، أمّا دراستنا هذه فتنطلق من التّسليم بأنّ الإيمان يؤثّر في سائر مجالات الحياة ، وتبيّن كيف يمكنه تحقيق التّفوّق الحضاري لأهله .

ولقد بدا لي من مطالعتي لتلك الدّراسات أنّ موضوعنا هذا بحاجة إلى إفراده بالتّأليف ليتيسّر الرّجوع إليه ، علما أنّ بذور هذا العمل قد لاحت لي ملامحه في الدّراسة التّي تقدّمت بها إلى كلّيّة أصول الدّين ـــ لنيل درجة الماجستير ـــ تحت عنوان **منهج القرآن الكريم في الاستدلال على العقائد** " **الإلهيات أنموذجا** " حيث أسفرت النّتائج التي توصّلت إليها على إعطاء ملامح الآثار المباركة للإيمان في بعض نواحي الحياة ، ممّا يحفّز على المزيد من التّعمّق فيه عملا ببعض التّوصيّات التّي ذيّلت بها البحث ، التي تنصّ على ضرورة ربط الجانب العملي بالجانب النّظري لقضايا الإيمان ، **وقد تنوّع منهج الدّراسة بين تحليل واستقراء حسب ما اقتضاه المقام ، وإن كان في عمومه تحليليا .**

الضّوابط المنهجيّة المعتمدة

أمّا عن الضّوابط المنهجيّة التّي التزمت بها ، فهي :

1 ـــ اعتمدت في الاستشهاد بالآيات القرآنيّة على رواية حفص وعزوت الآيات إلى مواضعها من المصحف بذكر السّورة ورقم الآية .

2 ـــ إذا نقلت كلاما نقلا حرفيا وضعته بين علامتي تنصيص ، أمّا إذا تصرّفت في

بعض ألفاظه أشرت إلى ذلك في الهامش بلفظة : بتصرّف ، وأمّا إذا كان منقولا بمعناه أو بتصرّف كبير ، صدّرت الإحالة بلفظة : انظر .

3 ـ اكتفيت في الإحالة على المراجع في الهامش بذكر المؤلِّف والعنوان ، أمّا بيانات الكتاب كاملة فوضعتها في فهرس المراجع .

4 ـ ترجمت لغالب الأعلام الذين ذكروا في المتن ، وإذا كانت التّرجمة في أكثر من ثلاث صفحات ، ذكرت رقم الصّفحة الأولى ، ثمّ كتبت كلمة : وما بعدها .

5 ـ اكتفيت في تخريج الأحاديث وفق ما يتيسّر الرّجوع إليها ، بذكر المصدر والكتاب والباب والرّاوي ورقم الحديث .

الصّعوبات

علما أنّ هذا الموضوع ليس من الموضوعات التّي حظيت بدراسات كثيرة بحيث يصبح بيّن المعالم ، ولهذا فإنّ دراسته لا تخلو من صعوبات ، منها ما يرجع إلى تشعّب مباحثه ، ومنها ما يرجع إلى قلّة الخبرة ، لأنّ درجة الدّكتوراه في حدّ ذاتها ما هي إلاّ تأشيرة تعين على الدّخول في عالم الباحثين .

هذا وإنّي بذلت وسعي في معالجة مسائل هذا البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، غير أنّ قلّة بضاعتي وتشعّب مسائله ، تثني عن كثير ممّا أردت ، فالله أسأل أن يعينني على تحقيق غايتي ، ويقرّبني إلى الصّواب ، ويجعلني من الذّين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه ، والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل ، وسلام على المرسلين ، و الحمد لله ربّ العالمين .

الفصل الأوّل
الإيمان في القرآن والسنّة

المبحث الأوّل : الإيمان في اللّغة والشّرع

المبحث الثّاني : مذاهب العلماء في بيان حقيقة الإيمان

المبحث الثّالث : مصادر المعرفة في العلوم النّظريّة والعقيدة الإسلاميّة

المبحث الأوّل : الإيمان في اللّغة والشّرع

دراسة أثر الإيمان في تحقيق الشّهود الحضاري ، تقتضي شرحا وتحليلا للمصطلحات المستخدمة ، حتّى نتمكّن من تقييم ما نتوصّل إليه تقييما بعيدا عن الغموض ، قريبا من الدّقة والوضوح ، فيكون حينئذ التّحاكم على أساسها عملا بقاعدة : **الحكم على الشّيء فرع من تصوّره .**

المطلب الأوّل : الإيمان عند أهل اللّغة

أوّلا : تعريف الأثر

الأثر لغة : العلامة ، وتأثّر الشّيءُ ظهر فيه الأثر ، وتأثّر بالشّيء تطبّع به (1) و هو أيضا ما بقي من رسم الشّيء ، والتّأثير : إبقاء الأثر في الشّيء (2) وأثارة من علم أي بقيّة من علم ، والأثر : البقيّة (3) ومن معانيه الخبر والنّتيجة وهي الحاصل من الشّيء وما يترتّب على الشّيء وهو المسمّى عند الفقهاء بالحكم (4) والمأثرة المكرمة لأنّها تؤثر ، ومآثر العرب مكارمها ومفاخرها التي تؤثر عنها أي تذكر وتروى (5) وأثرُ الشّيء حصول ما يدلّ على وجوده والجمع آثار ، ومنه قوله تعالى : ((فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ)) [الرّوم 50]
ومن هذا يقال للطّريق المُسْتَدَلِ به على من تقدّم : آثار (6) .

---

(1) ـــ انظر : الزّجّاج : معاني القرآن و إعرابه 29/5 . المجمع اللّغوي : المعجم الوسيط 5/1 .
(2) ـــ انظر : الفيروزبادي : القاموس المحيط 112/1 . ابن منظور : لسان العرب 38/1 . الزّبيدي تاج العروس من جواهر القاموس 11/6 .
(3) ـــ انظر : الزّمخشري : أساس البلاغة ص 11 الغريبين في القرآن والحديث : الهروي 45/1 .
(4) ـــ الجرجاني : التّعريفات ص 13 . التّهانوي : كشّاف اصطلاحات الفنون 88/1 . البستاني : محيط المحيط ص 03 . (5) ـــ الأزهري : تهذيب اللّغة 120/15 . الجوهري : الصّحاح 575/2 . لسان العرب 39/1 . (6) ـــ الرّاغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ص 62 .

فأثر الإيمان : الثّمار التّي التي يثمرها أو التّأثير الذي يحدثه في حياة المؤمن أو النتيجة التي يفضي إليها ، علما أنّ علماء اللّغة ميّزوا بين الأثر والعلامة ، فقالوا : " الأثر يكون بعد الشّيء بينما العلامة تكون قبله ، فيقال الغيوم والرّياح علامات المطر ، ومدافع السّيول آثار المطر . " (1)

ثانيا : تعريف الإيمان

الإيمان لغة : **من الأمن** ضدّ الخوف ، وهو عدم توقّع مكروه في الزّمن الآتي وأصله طمأنينة النّفس وزوال الخوف (2) وهو من الأمانة أيضا التّي هي ضدّ الخيانة ومعناها سكون القلب (3) ويقصد به أيضا التّصديق وضدّه التّكذيب ، **قال ابن منظـور** (4) " اتّفق أهل العلم من اللّغويين وغيرهم على أنّ الإيمان معناه التّصديق ، قال تعالى : ((وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ)) [يوسف 17] أي مصدّق لنا " (5)

---

(1) ــ أبو هلال العسكري : معجم الفروق اللّغويّة ص 15 .

(2) ــ معجم مفردات ألفاظ القرآن ص 21 ، تاج العروس 23/18 .

(3) ــ ابن فارس : معجم مقاييس اللّغة 133/1 . القاموس المحيط 182/1 .

(4) ــ **محمّد بن مكرم بن منظور (630 هـ / 711 هـ)**

هو أبو الفضل محمّد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي صاحب لسان العرب الإمام اللّغوي الحجّة نشأ في طرابلس الغرب وخدم في ديوان الإنشاء في القاهرة ، ثمّ ولي القضاء في طرابلس وعاد إلى مصر فتوفّي بها ، قال ابن حجر كان مغرى باختصار كتب الأدب المطوّلة ، من آثاره مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها . انظر : محمّد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والذّيل عليها 39/4 ــ 40 ابن حجر العسقلاني : الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة 262/4 ــ 263 جلال الدّين السيّوطي : بغية الوعاة في طبقات اللّغويّن و النّحاة 248/1 .

(5) ــ انظر : لسان العرب 114/1 أساس البلاغة 22 الصّحاح 2071/5 النّحّاس : معاني القرآن الكريم 403/3 . الزّجّاج : معاني القرآن و إعرابه 401/2 . معجم مفردات ألفاظ القرآن ص 22 الغريبين في القرآن والحديث 110/1 . المعجم الوسيط 1/ 28 .

وقال الإمام الطّبري (1) " ومعنى الإيمان عند العرب التّصديق ، وفسّر الآية بقوله : "وما أنت بمصدّق لنا في قولنا " (2) وقال في موضع آخر " الإيمان اسم للتّصديق كما قالته العرب وجاء به كتاب الله تعالى ذكره خبرا عن إخوة يوسف لأبيهم وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين " (3)

وقال القاضي الباقلاّني (4) " الإيمان هو التّصديق بالله وهو العلم ، والتّصديق يوجد بالقلب ، فإن قيل ما الدّليل على ما قلتم ؟ قيل له إجماع أهل اللّغة قاطبة على أنّ الإيمان في اللّغة قبل نزول القرآن وبعثة النّبيّ هو التّصديق ، لا يعرفون في لغتهم إيمانا غير ذلك ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ((وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ)) [يوسف 17] أي ما أنت بمصدّق لنا ، ومنه قولهم فلان

(1) **ــ محمّد بن جرير الطّبري : (224 هــ / 310 هــ)**

محمّد بن جرير بن يزيد الطّبري أبو جعفر المؤرّخ المفسّر الإمام ولد في طبرستان واستوطن بغداد وتوفّي بها ، كان من أكابر العلماء يرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، عارفا بأقاويل الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم ، خبيرا بأيّام النّاس وأخبارهم ، من تصانيفه : اختلاف الفقهاء و التّبصير في الأصول " و " أخبار الرّسل والملوك " وغيرها . انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء 2441/6 وما بعدها ، الذّهبي : سير أعلام النّبلاء 267/14 وما بعدها .

(2) ــ محمّد بن جرير الطّبري : جامع البيان في تأويل القرآن 133/1 .

(3) ــ الطّبري : التّبصير في معالم الدّين ص 190 .

(4) **ــ محمّد بن الطيّب البّاقلاّني : (338 هــ / 403 هــ)**

هو أبو بكر محمّد بن الطيّب ، بن محمّد بن جعفر ، قاض ، انتهت إليه الرّئاسة في مذهب الأشاعرة ولد في البصرة ، وسكن بغداد وتوفّي بها ، كان مالكيا ورعا فاضلا ، كان جيّد الاستنباط سريع الجواب . من مصنّفاته : " إعجاز القرآن "و " مناقب الأئمّة " و " دقائق الكلام " و " كشف أسرار الباطنيّة " وغيرها . انظر ترجمته عند القاضي عيّاض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك 585/2 وما بعدها ، ابن خلّكان : وفيات الأعيان 269/4 ــ 270 .

يؤمن بالشّفاعة وفلان لا يؤمن بعذاب القبر ، أي لا يصدّق بذلك ، فوجب أن يكون الإيمان في الشّريعة هو الإيمان المعروف في اللّغة ، لأنّ الله عزّ وجلّ ما غيّر لسان العرب ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله ، وتوفّرت دواعي الأمّة على نقله ، ولغلب إظهاره وإشهاره على طيّه وكتمانه ... " (1)

وقال القاضي عيّاض (2) : " الإيمان في وضع اللّغة التّصديق . (3)

وقال سيف الدّين الآمدي (4) : " الإيمان في اللّغة التّصديق ، وإذا ثبت أنّ معنى الإيمان في اللّغة هو التّصديق وجب حمل كلّ ما ورد من ألفاظ الكتاب والسنّة عليه ، إلاّ ما دلّ دليل على مخالفته " (5)

---

(1) ــ محمّد بن الطيّب الباقلاّني : تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل 389 ــ 390 .

(2) ــ **القاضي عيّاض : (476 هــ / 544 هــ)**

عيّاض بن موسى بن عيّاض أندلسي الأصل ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في زمانه ، كان من أعلم النّاس بكلام العرب وأيّامهم ، عالما بمذهب مالك ، ولي القضاء توفّي بمرّاكش ، من تصانيفه " الشّفا بتعريف حقوق المصطفى " " الإلماع إلى معرفة أصول الرّواية وتقييد السّماع " انظر : ابن عميرة الضّبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس 383 ــ 384 ابن فرحون المالكي : الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب 270 ــ 273 .

(3) ــ القاضي عيّاض : شرح صحيح مسلم " إكمال المعلم بفوائد مسلم " 203/1 .

(4) ــ **سيف الدّين الآمدي : (551 هــ / 631 هــ)**

هو علي بن محمّد بن سالم التّغلبي أبو الحسن ، سيف الدّين الآمدي ، أصولي ، تفقّه على مذهب أحمد ثمّ صار شافعيّا ، اشتغل بعلم الخلاف وتفنّن في علم النّظر ، قال عنه العزّ بن عبد السّلام : ما علمت قواعد البحث إلاّ عن السّيف الآمدي ، وما رأيت أحدا يلقي الدّرس أحسن منه له عدّة مصنّفات ، منها : " الإحكام في أصول الأحكام " و " المبين في شرح معاني الحكماء والمتكلّمين " و " دقائق الحقائق " وغيرها . انظر : وفيات الأعيان 293/3 ، سير أعلام النّبلاء 364/22 ــ 367 ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشّافعيّة 79/2 ــ 80 .

(5) ــ سيف الدّين الآمدي : أبكار الأفكار في أصول الدّين 09/5 .

وعرّف البيضاوي (1) الإيمان بقوله " الإيمان في اللّغة عبارة عن التّصديق مأخوذ من الأمن ، كأنّ المُصَدِّقَ أمن المُصَدَّقَ من التّكذيب والمخالفة ، وتعديته بالباء لتضمّنه معنى الاعتراف ، وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث إنّ الواثق بالشّيء صار ذا أمن منه " (2) **وقال أبو حيّان الأندلســـي** (3) : " الإيمان في اللّغة التّصديق وأصله من الأمن والأمانة ومعناهما الطّمأنينة ، وأمن به وثق به . " (4)

وقال ابن حجر العسقلاني (5) : " الإيمان لغة : التّصديق " (6)

---

(1) ــ **عبد الله بن عمر البيضاوي : (ت 685 هـ)**

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمّد بن علي ، قاضي القضاة ، ناصر الدّين أبو الخير البيضاوي ولد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز ، صاحب المصنّفات وعالم أذربيجان وشيخ تلك النّاحية ، ولي قضاء شيراز ، برع في الفقه والأصول ، من مصنّفاته " طوالع الأنوار " في التّوحيد "منهاج الوصول إلى علم الأصول ". انظر : ابن قاضي شهبة : طبقات الشّافعيّة 172/1 ــ 173 شذرات الذّهب 392/3 ــ 393 ، ابن الغزي : ديوان الإسلام 257/1 ــ 258 .

(2) ــ البيضاوي : تفسير البيضاوي أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل ، 374/1 .

(3) ــ **أبو حيّان الأندلسي : (654 هـ ــ 745 هـ)**

هو محمّد بن يوسف بن علي أبو حيّان ، من كبار العلماء باللّغة والتّفسير والحديث ، كان ثبتا فيما ينقله عارفا باللّغة ، من آثاره : ارتشاف الضّرب من لسان العرب " انظر : ابن حجر : الدّرر الكامنة 302/4 وما بعدها ، السّيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللّغويّن والنّحاة 280/1 وما بعدها .

(4) ــ أبو حيّان الأندلسي : تفسير البحر المحيط 162/1 .

(5) ــ **ابن حجر العسقلاني : (773 هـ ــ 852 هـ)**

هو أحمد بن علي بن محمّد الكنّاني العسقلاني ، من أئمّة العلم والتّاريخ أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده ووفاته بالقاهرة ، ولع بالأدب والشّعر ثمّ أقبل على الحديث ، حبّب إليه علم الحديث وأقبل عليه ، من تصانيفه : " الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة " " الإصابة في تمييز الصّحابة " . انظر السّخاوي : الضّوء اللاّمع 36/1 ، شذرات الذّهب 270/4 وما بعدها .

(6) ــ ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري : 39/1 .

يتبيّن لنا من هذه الآراء أنّ الإيمان لغة هو التّصديق بشهادة أهل اللّغة وفقهاء الإسلام ، وقد أسهبت قليلا في بيان معنى الإيمان لغة لأنّ **ابن تيمية** (1) نازع في هذا الأمر إذ لم يعتبر الإيمان مرادفا للتّصديق ، حيث ميّز بينهما من ثلاثة أوجه فقال : " وليس لفظ الإيمان مرادفا للفظ التّصديق ، كما يظنّه طائفة من النّاس فإنّ التّصديق يستعمل في كلّ خبر ، فيقال لمن أخبر بالأمور المشهورة ، مثل الواحد نصف الاثنين والسّماء فوق الأرض : صدقت وصدّقنا بذلك ، ولا يقال آمنّا لك ولا آمنّا بهذا ، حتّى يكون المخبر به من الأمور الغائبة فيقال للمخبر : آمنّا له وللمخبر به آمنّا به كما قال إخوة يوسف : ((وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ)) أي بمقرّ لنا ومصدّق لنا لأنّهم أخبروه عن غائب ، فالإيمان لا يستعمل في جميع الأخبار ، بل في الإخبار عن الأمور الغائبة ونحوها ممّا يدخلها الرّيب ، فإذا أقرّ بها المستمع قيل آمن بخلاف لفظ التّصديق ، فإنّه عام متناول لجميع الأخبار . " (2)

فظهر بهذا أنّ الفرق بين الإيمان والتّصديق من وجوه :

الأوّل : التّصديق يقع ولو مع عدم اقتران الخبر بما يحصل به الأمن في النّفس بأن لا يقترن بالخبر دليل ، أو بأن لا يكون المخبِرُ أمينا على الأخبار ، والإيمان

---

(1) ــ **أحمد بن عبد الحليم بن تيمية : (661 هــ ــ 728 هــ)**

هو أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الإمام الأصولي الفقيه ، المجتهد الحافظ متبحّر في علوم الشّريعة والفلسفة والكلام ، ولد في حرّان ثمّ انتقل إلى دمشق ومات بها ، وهو من المكثرين في التّأليف ، من تصانيفه : " درء تعارض العقل والنّقل " " منهاج السنّة النّبويّة " انظر : الذّهبي : سير أعلام النّبلاء 503/17 ــ 504 ابن رجب : الذّيل على طبقات الحنابلة 387/2 وما بعدها ، ابن حجر : الدّرر الكامنة 144/1 وما بعدها ، شذرات الذّهب 80/6 ــ 81 .

(2) ــ ابن تيميّة ، مجموعة الفتاوى ، كتاب الإيمان الأوسط 324/7 ــ 325 .

يقع بما يحصل به الأمن في نفس المصدّق . (1)

الثّاني : التّصديق يقع فيما يشاهد وفيما يغيب ، والإيمان لا يكون إلاّ في الخبر عن أمر غائب ، لأنّه لم يستعمل لفظ الإيمان في اللّغة إلاّ في الخبر عن غائب .

الثّالث : ويتميّز الإيمان عن التّصديق بالالتزام كما في قوله تعالى : ((وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ)) [آل عمران 81] فهذا الالتزام للإيمان والنّصر للرّسول ، وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام بخلاف لفظ التّصديق المجرّد ، فإذا تضمّن خبر المخبر طاعة المستمع لم يكن مؤمنا للمخبر إلاّ بالتزام طاعته مع تصديقه ، لذلك يستعمل لفظ الكفر مقابلا للإيمان في هذه الحالة . فكفر إبليس لم يكن من جهة عدم التّصديق والعلم ، فإنّ إبليس لم يخبره أحد بخبر ، بل أُمر بالسّجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين (2)

مناقشة ابن تيميّة فيما ذهب إليه : يبدو لي من كلامه أنّه لم ينكر إطلاق التّصديق على الإيمان ، إنّما اعتبره أعمّ منه ، بحيث يستعمل التّصديق لكلّ خبر ، بينما يختصّ الإيمان بالأخبار المتعلّقة بالأمور الغائبة ، لكن الذّي نميل إليه أنّ الإيمان لغة مرادف للتّصديق ، وعليه فإنّنا نتحفّظ على ما ذهب إليه لما يأتي :

أوّلا : عندما اعترض على الذّين نقلوا إجماع أهل اللّغة أنّ الإيمان هو التّصديق لم ينقل أقوال القائلين بخلاف ذلك من أهل اللّغة ، ولم ينقل شواهد من كلام العرب تدلّ على صحّة ما قال ، حتّى يتبيّن لنا أنّ الإجماع الذّي صرّح به أولئك

---

(1) ـــ ابن تيمية : مرجع سابق 325/7 .

(2) ـــ ابن تيمية : مرجع سابق 324/7 ـــ 327 بتصرّف .

العلماء غير صحيح ، كما أنّنا لم نعلم في حدود ما اطّلعنا عليه من أنكر ذلك الإجماع من أهل اللّغة .

ثانيا : شهادة أولئك العلماء على إجماع أهل اللّغة ، لها من القوّة واليقين ما تجعلنا نتبنّى أقوالهم مطمئنّين ، فابن منظور الذّي نقل لنا اتّفاقهم وهو من اللّغويّين المطّلعين على مصنّفات السّابقين ، اعتمد في حكمه على عالمين من كبار علماء اللّغة ، وهما : أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهري (1) اللّغوي المشهور ، وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدَه الأندلسي (2) حيث قال في ما كتبا ، ولم أجد في كتب اللّغة أجمل من تهذيب اللّغة لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري ، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي رحمهما الله ، وهما من أمّهات كتب اللّغة على التّحقيق ، وما عداهما بالنّسبة إليهما ثنيّات للطّريق (3) ثمّ قال : كلّ واحد من هؤلاء العلماء انفرد برواية رواها وبكلمة سمعها من العرب شفاها ، ولم يأت في كتابه بكلّ ما في

(1) ـ **محمّد بن أحمد الأزهري : (282 هـ ـ 370 هـ)**

هو أبو منصور محمّد بن أحمد بن الأزهر الهروي كان فقيها شافعيا ، غلبت عليه اللّغة فتبحّر فيها واشتهر بها ، رحل وطاف في بلاد العرب في طلبها ، فوقع في أسر القرامطة ، وكانوا عربا نشؤوا في البادية يتكلّمون بطباعهم ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن أو خطأ فاحش فاستفاد منهم ، كان جامعا لشتات اللّغة ، مطّلعا على أسرارها ودقائقها من آثاره : تهذيب اللّغة ، غريب الألفاظ . انظر : ابن خلّكان ، وفيات الأعيان 334/4 ـ 336 السّبكي ، طبقات الشّافعيّة الكبرى 106/4 .

(2) ـ **علي بن إسماعيل بن سِيدَه : (398 هـ ـ 458 هـ)**

هو علي بن إسماعيل ، المعروف بابن سيده أبو الحسن ، إمام في اللّغة وآدابها حافظا لهما ، ولد في الأندلس وتوفّي بها ، كان ضريرا ، اشتغل بنظم الشّعر مدّة ، ونبغ في آداب اللّغة ومفرداتها فصنّف المخصّص ، وهو من أثمن كنوز اللّغة العربيّة ، والمحكم ، والمحيط الأعظم ، وغيرها من المصنّفات . انظر : ابن خلّكان ، وفيات الأعيان 330/3 ـ 331 .

(3) ـ ابن منظور : لسان العرب 09/1 .

كتاب أخيه ، فصارت الفوائد في كتبهم مفرّقة ، فجمعتُ منها في هذا الكتاب ما تفرّق ، وأنا مع ذلك لا أدّعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت ، أو فعلت أو صنعت ، أو شددت أو رحلت ، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت ، فكلّ هذه الدّعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالا ، ولم يخليا فيه لأحد مجالا ، فإنّهما عيّنا في كتابيهما عمّن رويا ، وبرهنا عمّا حويا ، ونشرا في خطّيهما ما طويا ، ولعمري لقد جمعا فأوعيا ، وأتيا بالمقاصد ووفّيا . (1)

ثالثا : استدلّ بقوله تعالى ((وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ)) [التّحريم 12]

وقوله صلّى الله عليه وسلّم : ((**تكفّل اللّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاّ الجهاد في سبيله وتصديق كلماته**)) (2) وفي رواية : ((**أنتدب اللّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاّ إيمان بي وتصديق برسلي**)) (3) وقال : " ففي هذه الألفاظ جعل لفظ التّصديق بالكلمات والرّسل " (4) لأنّها حسب ما ذهب إليه مشاهدة وليست غائبة والعرب لا تستعمل لفظ الإيمان فيما هو مشاهد .

ولكن هناك نصوص استعمل فيها الله عزّ وجل لفظ الإيمان في ما يشاهد ولا يغيب ، قال تعالى : ((وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا

---

(1) ــ ابن منظور : لسان العرب 10/1 .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب التّوحيد ، باب : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، رقم 7457 . ذكر الحديث بلفظ : تكفّل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاّ إيمان بي وتصديق بكلماتي ، وقد خرّج الحديث عامر الجزّار وأنور الباز اللّذان اعتنيا بهذه الطّبعة ، وعندما رجعت إلى صحيح البخاري وجدت الرّواية كما أثبتها في المتن .

(3) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الإيمان ، باب : الجهاد من الإيمان ، رقم 36 .

(4) ــ مجموعة الفتاوى 326/7 .

﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا)) [الإسراء 90 ــ 93]

فقوله : لن نؤمن لك ، كان ينبغي أن تكون لن نصدّق لك ، وكذلك قولهم ولن نؤمن لرقيّك ، ينبغي أن تكون لن نصدّق لرقيّك . (1)

إذن النصّ القرآني يخالف دعوى لفظ الإيمان لا يستعمل إلاّ لما يغيب ، وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلّمته فقالت إنّي لم أخلق لهذا ولكنّي خلقت للحرث قال النّاس سبحان اللّه قال النّبي فإنّي أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطّاب**)) (2) ففي هذا النّص استعمل النّبيّ مادّة آمن في موضوع حسّي وليس في موضوع غيبي .

رابعا : أمّا قوله التّصديق يختلف عن الإيمان حيث يقع التّصديق ولو مع عدم اقتران الخبر بما يحصل به الأمن في النّفس ، أو بأن لا يكون المخبِرُ أمينا على الأخبار ، والإيمان يقع بما يحصل به الأمن في نفس المصدّق (3) : غير مسلّم به أيضا ، فإنّ التّصديق قد يقع مع حصول الاطمئنان بخبر المصدّق ، والدّليل على هذا قول أبي بكر عند إخباره عن الإسراء : ((**واللّه لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ! فواللّه إنّه ليخبرني أنّ الخبر ليأتيه من السّماء إلى الأرض**

(1) ــ **ملاحظة** : يتعدّى الفعل باللاّم إذا تعلّق الأمر بتصديق المخبِر أي المتكلّم ، ويتعدّى بالباء إذا تعلّق الأمر بتصديق المُخْبَرِ به أي الخبر . انظر : ابن تيمية مجموعة الفتاوى 324/7 .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب فضائل أصحاب النّبيّ ، باب : قول النّبيّ لو كنت متّخذا خليلا ، رقم 3663 .

(3) ــ مجموعة الفتاوى 325/7 .

الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد ممّا تعجبون منه)) (1) وقوله عليه الصّلاة والسّلام : ((**إنّ اللّه بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت**)) (2) ولا يخفى أنّ تصديق أبي بكر كان مقرونا بالاطمئنان ، وأنّ المُخْبِرَ وهو النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ممّا يُطْمَأَنُّ لصدق خبره ، وفي حديث جبريل كان يقول للنّبيّ صدقت : فقال عمر فعجبنا له يسأله ويصدّقه ولم يقل يؤمن به ، ومعلوم أنّ تصديق جبريل كان مقرونا بالاطمئنان ، وممّا يدلّ على صحّة ما ذهبنا من عدم اشتراط انتفاء الطّمأنينة على الصّدق أنّ ابن تيمية نقل عبارة تدلّ على صحّة ما قرّرناه حيث قال : الصّادق يطمئنّ إلى خبره والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصّدق طمأنينة والكذب ريبة (3) وهذا يدلّ على جواز اقتران الاطمئنان بالصّدق بل إنّ الإيمان قد يحصل دون اطمئنان ، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السّلام ((وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِىۖ)) [البقرة 260] فقد حصل له الإيمان دون اطمئنان .

<u>**خامسا :**</u> أمّا قوله يتميّز الإيمان عن التّصديق بالالتزام ، فهذا كذلك لا يسلّم له به فإنّنا نجد في النّصوص ذكرا للتّصديق مفضيا إلى الالتزام ، قال تعالى : ((إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)) [الحجرات 15] فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله ورسوله ، والتزموا بما آمنوا به ، فسمّاهم صادقين ، فالصّدق كذلك يرتبط بالالتزام ، وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**إنّ اللّه كتب على ابن آدم**

(1) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 42/2 ــ 43 . (2) ــ البخاري عن أبي الدّرداء ، كتاب : فضائل أصحاب النّبيّ ، باب : قول النّبي لو كنت متّخذا خليلا ، رقم 3661 .

(3) ــ مجموعة الفتاوى 325/7 .

حظّه من الزّنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النّظر ، وزنا اللّسان النّطق ، والنّفس تمنّى وتشتهي ، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه)) (1) فاستعمل التّصديق هنا للتّعبير عن الالتزام بين السّلوك النّظري والتّطبيقي ، وهذا يدلّ على ارتباط التّصديق بالالتزام أيضا ، فظهر بهذا صحّة قول القائلين الإيمان لغة التّصديق .

وقال سعد الدّين التّفتازاني (2) : " الإيمان في اللّغة : التّصديق بشهادة النّقل عن أئمّة اللّغة ودلالة موارد الاستعمال ، ولم ينقل في الشّرع إلى معنى آخر ، لأنّ النقل خلاف الأصل لا يصار إليه إلاّ بدليل ، لأنّه كثير في الكتاب والسنّة خطاب العرب به ، بل كان ذلك أوّل الواجبات وأساس المشروعات ، فامتثل من امتثل من غير استفسار ولا توقّف إلى بيان ، ولم يكن ذلك من الخطاب بما لا يفهم وإنّما احتيج إلى بيان ما يجب الإيمان به ، فبيّن وفصّل بعض التّفصيل حيث قال النّبيّ لمن سأله عن الإيمان : **((الإيمان أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه))** (3) فذكر لفظ تؤمن بالله تعويلا على ظهور معناه عندهم ، ثمّ قال : **((هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم))** ولو كان الإيمان غير التّصديق لما كان هذا تعليما و إرشادا ، ولو قيل إنّه في اللّغة لمطلق التّصديق

---

(1) ــ البخاري عن أبي هريرة في كتاب الاستئذان ، باب : زنا الجوارح دون الفرج رقم 6243 ومسلم في كتاب القدر ، باب : قدّر على ابن آدم حظّه من الزّنا وغيره رقم 20 .

(2) ــ **سعد الدّين التّفتازاني : (712 هـ ــ 793 هـ)**

مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني سعد الدّين من أئمّة العربيّة والبيان والمنطق ، ولد بتفتازان من بلاد خرسان ، وأقام بسرخس ثمّ أبعد إلى سمرقند ، فتوفّي بها ودفن في سرخس ، قال عنه ابن حجر : العلاّمة الكبير تصانيفه تنافس الأئمّة في تحصيلها والاعتناء بها ، وكان قد انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق ، بل بسائر الأمصار ، ولم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم ، من آثاره المطوّل ، في البلاغة ، وتهذيب المنطق والكلام ، وشرح العقائد النّسفيّة . انظر ابن حجر ، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة 350/4 ، شذرات الذّهب 319/3 وما بعدها .

(3) ــ مسلم عن عمر بن الخطّاب ، كتاب الإيمان ، باب : الإيمان والإسلام والإحسان رقم 08 .

وقد نقل في الشّرع إلى التّصديق بأمور مخصوصة فلا نزاع (1) وإنّما المقصود أنّه تصديق بالأمور المخصوصة بالمعنى اللّغوي ، ويخالفه التّكذيب وينافيه التّوقّف والتّردّد . (2)

<u>والحاصل أنّ الإيمان في اللّغة :</u> من الأمن الذي هو ضدّ الخوف ، وأصله طمأنينة النّفس وزوال الخوف ، وهو من الأمانة أيضا التّي هي ضدّ الخيانة ، و التّي تدلّ على الوفاء بالعهد ، وضدّها الخيانة ، و هو من التّصديق بالشّيء الذي ضدّه التّكذيب ، ثمّ استعمل في التّصديق مجازا ، للعلاقة التي بين المعنى الحقيقي وهو إعطاء الأمن ، والمجازي وهو التّصديق ، لأنّ من يصدّق شخصا في كلامه يجعله ذا أمن من التّكذيب ، وهذه العلاقة هي علاقة اللّزوم المعتبرة في علاقات المجاز فهو انتقال من الملزوم إلى اللاّزم ليس إلاّ . (3)

والذي نستفيده من هذا البيان : أنّ المعاني المتعلّقة بالإيمان يجب أن تجتمع فيه إذ لا يمكن معرفة أثره إلاّ إذا اجتمعت كلّ مكوّناته التي تشكّل حقيقته لمعرفته معرفة بيّنة ، لضمان صحّة النّتائج التّي نتوصّل إليها .

---

(1) ــ يريد بكلامه هذا أنّه لا ينازع من قال : الأسماء الشّرعية نقلت من معناها اللّغوي إلى معان أخرى ، كابن حزم الذي قال : وأكثر الأسماء الشّرعيّة موضوعة من عند الله على مسمّيات لم يعرفها العرب قط ، كالصّلاة فإنّها في لغة العرب الدّعاء فقط ، فأوقعها الله على حركات محدودة معدودة ... والزّكاة موضوعة في اللّغة للنّماء والزّيادة ، فأوقعها الله على إعطاء مال محدود معدود من جملة أموال ما ، موصوفة محدودة ، فإن هو تعدّى شيئا من ذلك لم يقع على ذلك اسم الزّكاة فظهر فساد قول من قال الأسماء لا تنقل في الشّريعة عن موضوعها في اللّغة . انظر : الفصل في الملل والنّحل 235/3 ــ 237 .

(2) ــ سعد الدّين التّفتازاني : شرح المقاصد 184/5 ــ 185 يبدو أنّ الخلاف لفظيّ بين الفريقين فإنّ القول إنّ الشّريعة لم تنقل الألفاظ عن أصل وضعها اللّغوي إنّما خصّصتها يفضي إلى نفس القول الذي ذهب إليه ابن حزم .

(3) ــ انظر : البدر العيني ، عمدة القارئ 102/1 .

المطلب الثّاني : الإيمان على لسان الشّرع

الإيمان في الشّريعة : هو التّصديق بكّل ما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من ربّه والعمل بمقتضاه ، وتقريرا لهذا المعنى قال **محمّد رشيد رضا** (1) : " الإيمان هو التّصديق الجازم المقترن بإذعان النّفس وقبولها استسلامها ، وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان ، عند عدم الصّارف الذي يختلف باختلاف درجات المؤمنين في اليقين ". (2) أي إنّ الإيمان اعتقاد جازم ، وقبول لما آمن به قبولا يدلّ على الرّضا والاستسلام وثمرته العمل بمقتضى هذا الاعتقاد .

وقال البيهقي (3) : **الإيمان باللّه عزّ وجلّ :** إثباته والاعتراف بوجوده ، **والإيمان له :** القبول عنه والطّاعة له ، **والإيمان بالنّبيّ :** إثباته والاعتراف بنبوّته ، **والإيمان للنّبيّ** اتّباعه وموافقته والطّاعة له ، **ثمّ إنّ الإيمان باللّه ورسوله قسمان :** منه ما يخفى وينكتم وهو الواقع منه في القلب ، و يسمّى اعتقادا ، ومنه ما ينجلي ويظهر وهو

---

(1) **ــ محمّد رشيد رضا : (1865 م ــ 1935 م)**

محمّد رشيد بن علي رضا البغدادي الأصل الحسيني النّسب صاحب مجلّة المنار وأحد رجال الإصلاح من العلماء بالتّفسير والحديث والأدب والتّاريخ ، لازم الشّيخ محمّد عبده وتتلمذ له توفّي بالقاهرة ودفن بها ، من آثاره " مجلّة المنار " و " تفسير القرآن الكريم " المشهور بتفسير المنار و " الوحي المحمّدي " انظر : خير الدّين الزّركلي ، الأعلام 126/6 .

(2) ــ تفسير المنار : محمّد رشيد رضا 109/1 .

(3) **ــ أحمد بن الحسين البيهقي : (384 هــ ــ 458 هــ)**

هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر ، من قرى بيهق بنيسابور كان كثير التّحقيق ، حسن التّصنيف ، وكان على سيرة العلماء ، قانعا من الدّنيا باليسير ، متجمّلا في زهده وورعه ، قال عنه الذّهبي : لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك ، لسعة علومه من آثاره : السّنن الكبرى ، الأسماء والصّفات ، دلائل النّبوّة . انظر : سير أعلام النّبلاء 163/18 ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشّافعيّة 220/1 ــ 222 .

الواقع باللّسان ويسمّى إقرارا وشهادة ، **وكذلك الإيمــان للّه ولرسوله** ينقسم إلى جليّ وخفيّ ، الخفيّ منه : النّيّات والعزائم التي لا تجوز العبادات إلاّ بها والجليّ منه : كالصّلاة ، والزّكاة ، و القيام بسائر الواجبات ... إلخ .

ــ **والإيمان باللّه ورسوله :** أصل وهو الذي ينقل من الكفر إلى الإيمان ، **والإيمان للّه ولرسوله :** فرع وهو الذي يكمل بكماله الإيمان ، وينقص بنقصانه الإيمان . ومعنى هذا أنّ أصل الإيمان إذا حصل ثمّ تبعته طاعة زائدة زاد الإيمان المتقدّم بها لأنّه إيمان انظمّ إليه إيمان كان يقتضيه ، ونقصان الإيمان هو انفراد أصله عن بعض فروعه ، أو انفراد أصله وبعض فروعه عمّا بقي منها (1) .

وهذا يعني أنّ الإيمان قسمان : علمي وعملي ، النّظري يتعلّق بإثبات المبدأ والتّصديق به تصديقا نظريّا ، والعملي تنفيذ الأوامر التّي يقتضيها ذلك التّصديق . والقسم الأوّل يتعلّق بالقلب والثاني بالجوارح ، فعبادة الله تكون بالإيمان بربوبيته لنا ابتداء ، وإعلان هذا الإيمان على مستوى اللّسان ، وهذا ما يسمّى إقرارا و شهادة ، ثمّ يتمّ الانتقال إلى العمل (أي القسم الثّاني) بتطبيق أوامر الله تطبيقا يدلّ على صدّق العبوديّة ، بإخلاص النيّة وحسن العمل ، **وعليه فإنّ الإيمان : اعتقاد وقول وعمل ، أصله : الاعتقاد ، وفرعه : القول والعمل كما سنفصّل بعد حين** . والقسم الأوّل هو الذّي يدخل به الإنسان إلى حظيرة الإيمان فينجو من الكفر والخلود في النّار ، والقسم الثّاني هو الذّي يصل به المؤمن إلى أعلى مقامات الإيمان ويستحقّ رضوان الله والفوز بجنّته ، وهذا يعني أنّ النّاس متفاوتون في إيمانهم ، وأنّه يتزايد من شخص إلى آخر ، وعند الشّخص من حال إلى حال زيادة يقابلها نقصانا ، والسّؤال الذّي يُطرح هنا ، ما المقصود بهذه الزّيادة ؟ وهل تؤثّر في صحّته ؟ هذا ما نقوم ببيانه فيما يلي :

(1) ــ البيهقي : شعب الإيمان 35/1 .

معنى زيادة الإيمان

بناء على ما سبق ، الإيمان يزيد وينقص ، لكن لا ينقص عن أصله ، لأنّه إن نقص عن أصله أدّى ذلك إلى زوال اليقين ، وهذا يتنافى مع الإيمان ، وأمّا الذي يزيد فهو فرعه المعبّر عنه بالعمل ، وتفاوت زيادته يدلّ على نقصانه من وجه وهذا ما أشار إليه **ابن حزم** (1) حيث قال : " والتّصديق بالشّيء لا يمكن أن يقع فيه زيادة ولا نقص ، و كذلك التّصديق بالتّوحيد والنّبوّة ، لأنّ التّصديق إذا داخلته داخلة وقع في الشكّ لأنّ معنى التّصديق أن يوقن بصحّة وجود ما صدّق به ، ولا سبيل إلى التّفاضل في هذه الصّفة فإن لم يقطع ولا أيقن بصحّته فقد شكّ فيه ، فليس مصدّقا به ، وإذا لم يكن مصدّقا به فليس مؤمنا به ، فصحّ أنّ الزّيادة التي ذكرها الله في الإيمان ليست في التّصديق أصلا ولا في الاعتقاد البتّة فهي ضرورة في غير التّصديق ، وليس هاهنا إلاّ الأعمال فقط " (2)

هذا الكلام وإن كان صحيحا في عمومه إلاّ أنّنا نتحفّظ على إطلاق القول بأنّ التّصديق لا يمكن أن يقع فيه زيادة ولا نقص ، لأنّ النّاس يتفاوتون في قوّة التّصديق واليقين ، وهذا ما ذهب إليه **أبو حامد الغزالي** (3) حيث قال : " الإيمان

---

(1) ــ **علي بن أحمد بن حزم : (384 هــ ــ 456 هــ)**

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظّاهري ، أبو محمّد عالم الأندلس وأحد أئمّة الإسلام ، ولد بقرطبة ، كان فقيها حافظا مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنّة ، كان متفنّنا في علوم جمّة ، من آثاره : الإحكام لأصول الأحكام ، المحلّى بالسّنن والآثار . انظر : ابن عميرة الضّبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس 364 ــ 366 ابن خلّكان : وفيات الأعيان 325/3 وما بعدها .

(2) ــ الفصل في الملل والنّحل 232/3 ــ 233 .

(3) ــ **أبو حامد الغزالي : (450 هــ ــ 505 هــ)**

هو محمّد بن محمّد الغزالي الطّوسي أبو حامد حجّة الإسلام ، متبحّر في العلوم الشّرعيّة ، كان شديد الذّكاء ، قويّ الإدراك ذا فطنة ثاقبة ، قال عنه الذّهبي : الشّيخ الإمام البحر حجّة الإسلام =

يطلق للتّصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتّقليد من غير كشف وانشراح صدر ، وهو إيمان العوام ، وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تشتدّ تارة وتقوى وتضعف تارة وتسترخي ، والعمل يؤثّر في نماء هذا التّصميم وزيادته ، كما يؤثّر سقي الماء في نماء الأشجار ، ولذلك قال تعالى : ((وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا)) [الأنفال 02] وقال : ((هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ)) [الفتح 04] وكذلك الأمر اليقيني تختلف طمأنينة النّفس إليه ، فليس طمأنينة النّفس إلى أنّ الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أنّ العالم مصنوع حادث ، وإن كان لا شكّ في واحد منهما ، فإنّ اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النّفس إليها . " (1)

وقد قرّر هذا الرّأي **محمّد الطّاهر بن عاشور** (2) فقال " ومعنى زيادة الإيمان : قوّة اليقين في نفس الموقن على حسب شدّة الاستغناء عن استحضار الأدلّة في

= أعجوبة الزّمان ، الشّافعي صاحب التّصانيف والذّكاء المفرط ، تفقّه ببلده ثمّ تحوّل إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين ، خاض في كثير من الفنون كالفقه وأصوله ، والمنطق ، و الفلسفة ، و الكلام والتّصوّف ، وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله ، من آثاره : المستصفى من علم الأصول ، الاقتصاد في الاعتقاد ، تهافت الفلاسفة . انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 19 / 322 ــ 336 ابن قاضي شهبة : طبقات الشّافعيّة 293/1 ــ 294 .

(1) ــ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدّين 160/1 ــ 161 بتصرّف .

(2) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : (1879 م ــ 1973 م)

هو الشّيخ محمّد بن الطّاهر بن عاشور ، رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزّيتونة فقيه ومفسّر وأصولي ، عيّن عام 1932 م شيخا للإسلام مالكيّا ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، من آثاره : " التّحرير والتّنوير " في التّفسير ، و " أصول النّظام الاجتماعي " و "مقاصد الشّريعة الإسلامية " وهو والد العالم محمّد الفاضل بن عاشور رحمهما الله جميعا . انظر : الأعلام 174/6 .

نفسه وعن إعادة النّظر فيها ودفع الشكّ العارض للنّفس ، فإنّه كلّما كانت الأدلّة أكثر وأقوى وأجلى مقدّمات كان اليقين أقوى ، فتلك القوّة هي المعبّر عنها بالزّيادة وتفاوتها تدرج في الزّيادة ، و يجوز أن تسمّى قلّة التّدرّج في الأدلّة نقصا لكنّه نقص عن الزّيادة وتلك مع مراعاة أصل حقيقة الإيمان ، لأنّها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهيّة الإيمان وقد أشار **البخاري** (1) إلى هذا بقوله" **باب زيادة الإيمان ونقصانه ، فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص** " (2) فلو أنّ نقص الأدلّة بلغ بصاحبه إلى انخرام اليقين لم يكن العلم الحاصل له إيمانا حتّى يوصف بالنّقص فهذا هو المراد في وصف الإيمان بالزّيادة في القرآن الكريم (3) وهو بيّن ، ولم يرد عن الشّريعة ذكر نقص الإيمان ، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمّة إذا قالوا الإيمان يزيد (4) كما قال **الإمام مالك بن أنس** (5) الإيمان يزيد ولا

---

(1) ـ **محمّد بن إسماعيل البخاري : (194 هـ ـ 256 هـ)**

هو أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري ، حبر الإسلام ، ألهم حفظ الحديث منذ صغر سنّه ورحل في طلبه إلى مختلف الأمصار التي عرفت به ، فسمع من شيوخ لا يحصون ، حيث قال كتبت عن ألف وثمانين نفسا ليس فيهم إلاّ صاحب حديث ، ألّف صحيحه وانتقاه من نحو 600 ألف حديث ، من آثاره : " التّاريخ الكبير " و " الأدب المفرد " و " خلق أفعال العباد " . انظر : سير أعلام النّبلاء 391/123 وما بعدها ، ابن حجر : تهذيب التّهذيب 33/5 وما بعدها .

(2) ـ كتاب الإيمان : باب زيادة الإيمان ونقصانه ، فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص .

(3) ـ يقصد الإشارة إلى قوله تعالى : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)) [الأنفال 02]

(4) ـ هذا رأي الشّيخ بن عاشور ، لكن الذي نعرفه عن جماهير العلماء أنّهم يقولون الإيمان يزيد وينقص . انظر : اللاّلكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنّة 1023/5 .

(5) ـ **مالك بن أنس : (95 هـ ـ 179 هـ)**

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر إمام أهل الحجاز في الفقه والحديث ، أخذ =

ينقص ، وهي عبارة كاملة " (1) كما يمكن أنّ نفسّر زيادة الإيمان بزيادة الإيمان بالفروض التّي يتعلّمها المؤمن فكلّما تعلّم فرضا لم يكن يعرفه من قبل زاد إيمانه ، ويزيد الإيمان بالثّبات عليه والدّوام على التّمسّك بخصاله ، فتكون الزّيادة بطول مدّته ". (2) وقال **الإمام النّووي** (3) : " فالأظهر والله أعلم أنّ نفس التّصديق يزيد بكثرة النّظر وتظاهر الأدلّة ، ولهذا يكون إيمان الصدّيقين أقوى من إيمان غيرهم ، بحيث لا تعتريهم الشّبه ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض ، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال " . (4)

= العلم عن محمّد بن شهاب الزّهري ، ونافع مولى عبد الله بن عمر وغيرهما ، وأخذ عنه الشّافعي وكثير من شيوخ البخاري ومسلم وأصحاب السّنن ، من آثاره : الموطّأ ، الرّدّ على القدريّة ، و تفسير غريب القرآن . انظر : الشّيرازي: طبقات الفقهاء 67 ــ 68 القاضي عيّاض : ترتيب المدارك 144/1 وما بعدها ، ابن فرحون : الدّيباج المذهّب ص 56 وما بعدها .

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : تفسير التّحرير والتّنوير 257/5 ــ 258 .

لكن هذا الرّأي إحدى الرّوايات عن مالك ، وهي رواية محمّد بن القاسم عنه ، كما ذكر القاضي عيّاض في ترتيب المدارك 89/1 وابن عبد البر في التّمهيد 164/5 وهناك روايات عنه صرّح فيها بزيادة الإيمان ونقصانه . انظر : ابن بطّال ، شرح صحيح البخاري 57/1 ابن عبد البر ، التّمهيد 165/5 ــ 166 النّووي ، شرح صحيح مسلم 131/1 ابن السّبكي طبقات الشّافعيّة 130/1 ــ 130 .

(2) ــ لقد أشار الإمام أبو المُعين النّسفي إلى هذه المعاني في كتابه : تبصرة الأدلّة في أصول الدّين 809/2 .

(3) ــ **محي الدّين النّووي : (631 هـ ــ 676 هـ)**

هو الإمام الحافظ يحيى بن شرف بن مري أبو زكريّا النّووي ، الإمام الحافظ صاحب التّصانيف النّافعة ، كان زاهدا قنوعا متّبعا للسّالفين ، من أهل السنّة والجماعة ، لا يصرف ساعة في غير طاعة ، متفنّنا في أصناف العلوم فقها ، ومتون الأحاديث وأسماء الرّجال . وكان رأسا في المذهب الشّافعي ، من تصانيفه : رياض الصّالحين ، وشرح المهذّب للشّيرازي . انظر : الذّهبي ، تذكرة الحفّاظ 1470/4 ــ 1474 ، ابن السّبكي : طبقات الشّافعيّة الكبرى 395/8 وما بعدها .

(4) ــ النّووي : شرح صحيح مسلم 133/1 .

ويبدو ممّا سبق أنّ الإيمان يزيد في أصله من حيث زيادة اليقين والاطمئنان وركون النّفس لما آمنت به ركونا يزول معه الرّيب ، وذلك بتوارد البراهين الدّالّة على صحّة ما آمن به أو المفنّدة لما يناقضه ، ويزيد أيضا في جانبه المتعلّق بالعمل ، فإنّ المؤمن كلّما قام بالواجبات واجتنب المنكرات انكشفت له وعود الله بالخيرات وأعانه على تحقيق مقاصده في الحياة ، فيزداد يقينا وهداية ورشادا لقوله تعالى : ((وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)) [العنكبوت 69] " أي الذّين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون " . (1)

والحاصل : أنّ أصل الإيمان الذي هو التّصديق القلبي يتعرّض للزّيادة فيكون إيمان المتقدّم من النّاس أقوى من إيمان المتأخّر ، ويكون إيمان الشّخص في حالة أقوى من إيمانه في حالة أخرى ، بسبب الآيات التي تنكشف أو الشّبهات التي تنقشع ، وكذلك فرعه يزيد بالأعمال ، سواء تعلّق الأمر بأعمال القلوب أم بأعمال الجوارح ، ولهذا يتفاوت النّاس في الإيمان بحسب اختلافهم في استحضار معاني الخوف والرّجاء ، والصّدق والإخلاص ، كما يتفاوتون في الأعمال بحسب تفاوتهم في الإقبال على الله ، فمن زاد خوفه من الله ، ورجاؤه في أفضاله ونعمه ، وتعظيمه لمقامه زاد إقباله عليه بالطّاعات واجتنابه للمنكرات فيزداد إيمانا على إيمان ويقينا على يقين ، بما يفتح الله له من الأسرار والتّوفيق ويعصمه من الزّلاّت ، فالمسألة لا تنحصر في القناعة العقليّة فقط ، إنّما تتعلّق بأعمال القلوب والجوارح جميعا ، فهي عوامل أساسيّة في زيادة الإيمان وتقويته كما أنّ التّفريط فيها سبب في ضعف الإيمان وفتوره ، وهي في الوقت ذاته مظهر من مظاهر قوّة الإيمان وسلامته ، لذلك فإنّ الإيمان الذي جعله الله حياة للقلوب ونورا للعقول ووسيلة لتحقيق الشّهادة على النّاس هو الذي يجمع هذه المعاني .

(1) ـ تفسير ابن كثير 296/6 .

المبحث الثّاني: مذاهب العلماء في بيان حقيقة الإيمان

المطلب الأوّل : المذاهب المعتبرة في بيان حقيقة الإيمان

عرض المذاهب المعتبرة للعلماء (1) في بيان حقيقة الإيمان ، يقتضي تقديم المبادئ التي اتّفقوا عليها ، لتتيسّر علينا معرفة محلّ الخلاف وطبيعته وثمرته .

فلقد اتّفقوا على جملة من القضايا يمكن إجمالها في النّقاط الآتية :

أوّلا : اتّفقوا على أنّ من أقرّ بلسانه ظاهرا وكذّب بقلبه ليس مؤمنا ، وهؤلاء هم المنافقون الذين أخبر الله عنهم بقوله ((إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ)) [النّســـاء 145] وقوله : ((إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ)) [المنافقون 01] (2)

ثانيا : اتّفقوا على أنّ المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق صفة الإيمان ، فلا بدّ من الإقرار باللّسان : وإلاّ لزم الحكم بإيمان كثير من الكفّار الذّين يعرفون حقّيّة

(1) ــ عدلت عن ذكر مذاهب تعرّضت لبيان معنى الإيمان لظهور ضعف أرائها **كالجهميّة** التي اعتبرت الإيمان : المعرفة وحدها . **والكرّاميّة** : التي اعتبرت الإيمان : الإقرار بالشّهادتين وحده . **والمعتزلة والخوارج** : الذين اعتبروا الإيمان اعتقاد وقول وعمل و أنّ العمل جزء من ماهية الإيمان ، وأنّ مرتكب الكبيرة خارج عن الإيمان داخل في الكفر عند الخوارج وفي منزلة بين المنزلتين عند المعتزلة . انظر آراءهم في : الفصل في الملل و النّحل لابن حزم 227/3 وما بعدها الملل و النّحل للشّهرستاني 59/1 ، مجموعة الفتاوى لابن تيمية 333/7 ــ 337 ، شرح العقيدة الطّحاويّة لابن أبي العزّ 505/2 ــ 506 فتح الباري لابن حجر 40/1 عمدة القارئ للبدر العيني 163/1 وما بعدها ، طبقات الشّافعيّة لابن السّبكي 91/1 وما بعدها .

(2) ــ النّووي : شرح صحيح مسلم 131/1 .

النبوّة والرّسالة (1) كما قال تعالى : ((ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ)) [البقرة 146]

ثالثــا : اتّفقوا على أنّ الله عزّ وجل أراد من العباد القول والعمل ، والمقصود بالقول التّصديق بالقلب والإقرار باللّسان ، وهذا معنى قولهم الإيمان قول وعمل **ولكنّهم اختلفوا في العمل ، هل هو جزء من الإيمان ؟ أم من مستلزماته ؟** (2)

رابعـــا : اتّفقوا على أنّ العبد لو صدّق بقلبه وأقرّ بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه فإنّه يكون عاصيا لله ورسوله ، ومستحقّا للوعيد الذي ذكره الله في كتابه ورسوله في سنّته . (3)

خامسا : اتّفقوا أنّ مرتكب الكبيرة ليس كافرا مادام غير مستحلّ لها ، فهو في مشيئة الله إنّ شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه ، قال النّووي : " واعلم أنّ مذهب أهل الحقّ أنّه لا يكفّر أحد من أهل القبلة بذنب ، ولا نكفّر أهل الأهواء والبدع وأنّ من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردّته وكفره ، إلاّ أن يكون قريب عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممّن يخفى عليه فيعرف ذلك " (4)

سادسا : اتّفقوا على أنّ الإيمان الحقيقي ، المتمثّل في التّصديق والقبول والعمل إنّما هو بالنّظر إلى ما عند الله تعالى ، واستحقاق دخول الجنّة وعدم الخلود في النّار ، أمّا الإيمان بالنّظر إلى أحكام الدّنيا ، فهو مجرّد الإقرار باللّسان والنّطق بالشّهادتين ، فمن أقرّ بهما أجريت عليه الأحكام المتعلّقة بالمسلمين في الدّنيا فطولب بالتزامهما وأعطي حقوقهما ، قال ابن حجر : " وهذا كلّه بالنّظر إلى ما

(1) ــ انظر : البيجوري ، تحفة المريد على جوهرة التّوحيد ص 54

(2) ــ شرح العقيدة الطّحاويّة : ابن أبي العزّ 508/2 ــ 509 .

(3) ــ المرجع نفسه 509/2 .

(4) ــ شرح صحيح مسلم للنّووي 134/1 .

عند الله ، أمّا بالنّظر إلى ما عندنا ، فالإيمان هو الإقرار فقط ، فمن أقرّ لم يحكم عليه بكفر ، إلاّ إذا اقترن به فعل يدلّ على كفره " (1)

المذهب الأوّل : الإيمان : هو التّصديق

ذهبت جمهور الأشاعرة (2) والماتريديّة (3) وبعض الفقهاء كحمّاد بن أبي سليمان (4)

---

(1) ــ ابن حجر : فتح الباري 40/1 .

(2) ــ **الأشاعرة ومؤسّسها أبو الحسن الأشعري : (260 هـ ــ 324 هـ)**

الأشعرية مذهب من المذاهب الإسلاميّة في تفسير قضايا علم التّوحيد ، مؤسّسه الإمام علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن ، ولد بالبصرة ونشأ بها ، ثمّ انتقل إلى بغداد إلى أن مات ، أخذ الفقه على كبار فقهاء الشّافعيّة ، وأمّا الكلام فقد تتلمذ على شيخ المعتزلة في زمانه أبي علي الجبّائي ، ثمّ رجع عن الاعتزال وأسّس مذهبه ، من آثاره : " مقالات الإسلاميين ، استحسان الخوض في علم الكلام ، الإبانة عن أصول الدّيانة . انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 85/15 وما بعدها ، ابن السّبكي : طبقات الشّافعيّة الكبرى 223/3 وما بعدها ، ابن عساكر : تبين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري 34 وما بعدها .

(3) ــ **الماتريديّة ومؤسّسها أبو منصور الماتريدي : (ت 333 هـ)**

هو محمّد بن محمّد بن محمود أبو منصور الماتريدي ، إمام الهدى وإمام المتكلّمين ، ومؤسّس المذهب الماتريدي وما تريد مدينة بسمرقند ، امتاز بالذّكاء والنّبوغ ، و أتقن كثيرا من الفنون العلميّة ، ترك عدّة مصنّفات معظمها مفقود ، منها : كتاب الدّرر في أصول الدّين ، كتاب الجدل تأويلات أهل السنّة . انظر : قاسم بن قُطْلُوبْغَا : تاج التّراجم في طبقات الحنفيّة ص 59 .

(4) ــ **حمّاد بن أبي سليمان : (ت 120 هـ)**

هو العلاّمة فقيه العراق حمّاد بن أبي سليمان ، روى عن أنس بن مالك وتفقّه على يد إبراهيم النّخعي ، وهو أنبل أصحابه وأفقههم ، وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة والرّأي وحدّث أيضا عن سعيد بن المسيّب وغيره ، وهو في عداد صغار التّابعين وروى عنه تلميذه أبو حنيفة . انظر : الشّيرازي : طبقات الفقهاء 83/1 سير أعلام النّبلاء 231/5 وما بعدها .

وأبـي حنيفـة (1) والطّحـاوي (2) إلـى القـول بـأنّ الإيمـان شـرعا هـو التّصـديق وعمدتهم في ذلك :

أ ـ الشّواهد اللّغوية الدّالة على أنّ الإيمان في لسان العرب : التّصديق ، حيث قالوا : الإيمان لغة التّصديق ، ولـم يبيّن الشّارع للإيمان معنى آخر ، والأصل إبقاؤه على معناه الأصلي (3) كما جاء في قوله تعالى وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ لأنّه لو كان الإيمان معرفة كما قال الجهم بن صفوان (4) للزم

---

(1) **ـ أبو حنيفة النّعمان بن ثابت : (80 هـ ـ 150 هـ)**

هو النّعمان بن ثابت الكوفي إمام الحنفيّة المجتهد المحقّق ، كان قويّ الحجّة حسن الهيئة ، ومن أكثر النّاس وقارا وأحسنهم سمتا وأبلغهم منطقا ، وأبينهم عمّا في نفسه ، قال عنه الشّافعيّ : النّاس عيال في الفقه على أبي حنيفة ، وقيل فيه : كلامه في الفقه أدقّ من الشّعر لا يعيبه إلاّ جاهل ، و قال الذّهبي الإمامة في الفقه ودقائقه مسلّمة لهذا الرّجل . توفّي ببغداد وأخباره كثيرة . انظر : الشّيرازي ، طبقات الفقهاء 86/1 الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 390/6 ـ 403 .

(2) **ـ أبو جعفر الطّحاوي : (239 هـ ـ 321 هـ)**

هو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمّد الطّحاوي نسبة إلى طحا قرية من قرى الصّعيد بمصر ، نشأ في بيت علم وفضل تفقّه على يد خاله الإمام المزني أفقه أصحاب الشّافعي وناشر علمه ، لكنّه تحوّل إلى مذهب أبي حنيفة ، كان ثقة ثبتا فقيها عالما باختلاف العلماء بصيرا بالتّصنيف ، قال عنه الذّهبي الإمام العلاّمة الحافظ الكبير ، محدّث الدّيار المصريّة وفقيهها ، ومن نظر في تواليف الإمام علم محلّه من العلم وسعة معارفه ، من آثاره : شرح معاني الآثار وشرح مشكل الآثار في الفقه ، وسنن الشّافعي . انظر الذّهبي : تذكرة الحفّاظ 808/3 ـ 811 ، السيّوطي : طبقات الحفّاظ ص 339 ، السّمعاني : الأنساب 53/4 ـ 54 .

(3) ـ انظر : الباقلاّني ، التّمهيد ص 346 ـ 347 أبو المعين النّسفي ، تبصرة الأدلّة 800/2 .

(4) **ـ الجهم بن صفوان : (ت 128 هـ)**

هو جهم بن صفوان السّمرقندي أبو محرز ، من موالي بني راسب ، رأس الجهميّة تلميذ الجعد =

صرفه عمّا يفهم عند العرب إلى معنى آخر من غير قرينة ، وذلك باطل ، وإلاّ لجاز مثله في سائر الألفاظ ، وفيه إبطال للّغات ، وللزم تطرّق الخلل إلى الدّلالات السّمعية ، وارتفاع الوثوق عليها ، وهذا خلف . (1)

بـ ــ كما أنّ الله عزّ وجلّ جعل القلب محلاّ للإيمان ، في قوله تعالى : ((وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ)) [الحجرات 14] وقوله : ((أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ)) [المجادلة 22] وقوله: ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ)) [المائدة 41] (2)

وكذلك جعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القلب محلاّ للإيمان فقد أنكر على أسامة بن زيد (3) عند قتل الذي نطق بالشّهادتين خوفا من السّيف قائلا له : ((**أفلا**

= بن درهم مات في زمن صغار التّابعين ، قال بفناء الجنّة والنّار وأنّ الإيمان هو المعرفة ، والكفر هو الجهل ، وقال بالجبر المحض ، وأنّ القرآن مخلوق . انظر : أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين 338/1 وما بعدها ، الشّهرستاني : الملل والنّحل 97/1 ــ 99 ، عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص 194 ــ 195 ، الذّهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرّجال 426/1 ، ابن حجر : لسان الميزان 175/2 ، ابن الأثير : الكامل في التّاريخ حوادث (128 هــ) 342/5 .

(1) ــ البدر العيني : عمدة القاري 167/1 ــ 168 .

(2) ــ انظر : الباقلاّني ، الإنصاف ص 49 ابن السّبكي ، طبقات الشّافعيّة 96/1 محمود بن زيد اللاّمشي الماتريدي : التّمهيد لقواعد التّوحيد ص 373 .

(3) ــ **أسامة بن زيد : (07 ق هــ ــ 54 هــ)**

هو الصّحابيّ أسامة بن زيد بن حارثة ، ولد بمكّة ونشأ على الإسلام ، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحمله مع الحسن ويقول اللّهمّ إنّي أحبّهما فأحبّهما ، أمّره على جيش فيه أبو بكر وعمر ، وهو دون العشرين ، مات بالمدينة سنة 54 هــ كما رجّح ذلك ابن عبد البر له في كتب الحديث 128 حديثا . انظر : طبقات ابن سعد 61/4 ابن عبد البر : الإستيعاب في معرفة الأصحاب 170/1 ــ 172 ابن حجر : الإصابة 49/1 .

شققت عن قلبه)) (1)

جـ ــ لمّا سأل جبريل عليه السّلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الإيمان ما أجاب إلاّ بالتّصديق ثمّ قال : ((**هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم**)) ولو كان الإيمان اسما لما وراء التّصديق ، لكان آتيا ليلبّس عليهم أمر دينهم لا ليعلّمهم .

د ــ جعل الله الإيمان شرطا لقيام الأعمال الصّالحة بقوله : ((فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ)) [الأنبياء 94]

ولو كان الإيمان اسما لجميع الأعمال الصّالحة والخيرات ، لكان شرط الشّيء وما به قيامه هو ذلك الشّيء وهو محال . (2)

هـ ــ وجاء الإيمان مقرونا بالعمل في آيات عدّة كما في قوله تعالى : ((ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ)) [الرّعـــد 29] والعطف عنا يدلّ على التّغاير فعطف الأعمال الصّالحة على الإيمان يدلّ على أنّ كلاّ منهما غير الآخر ، وللإجماع على أنّ الإيمان شرط العبادة ، وأنّ من صدّق وأقرّ ومات قبل أن يعمل فهو مؤمن . (3)

تلك هي مجمل أدلّتهم على هذه المسألة ، غير أنّه لا ينبغي أن يفهم من كلامهم أنّهم ينكرون العمل ، إنّما مقصد قولهم أنّ الأعمال من ثمرات الإيمان وليست من ماهيته ، وعليه فمن قصّر في العمل عندهم لا يزول عنه وصف الإيمان . (4)

---

(1) ــ مسلم عن أسامة بن زيد ، كتاب : الإيمان ، باب : تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلاّ الله ، رقم 158 .

(2) ــ أبو المعين النّسفي : تبصرة الأدلّة 802/2 .

(3) ــ انظر : السّعد التّفتازاني ، شرح المقاصد 193/5 .

(4) ــ انظر : ابن السّبكي ، طبقات الشّافعيّة 130/1 ، التّفتازاني ، شرح المقاصد 195/5 .

ولا يقصد من نفي أن يكون العمل من ماهية الإيمان جعل تارك العمل سالما من المذمّة في الدّنيا والعقاب في الآخرة ، بل اتّفق الجميع على وجوب العمل وأنّ الله أراد من العباد القول والعمل ، أي التّصديق بالقلب والنّطق باللّسان والعمل بالجوارح . (1) وقد صرّح الباقلاّني بعدم إنكارهم للعمل بقوله : " واعلم أنّنا لا ننكر أن نطلق القول بأنّ الإيمان عقد بالقلب وإقرار باللّسان وعمل بالأركان على ما جاء في الأثر (2) لأنّه صلّى الله عليه وسلّم إنّما أراد بذلك أن يخبر عن حقيقة الإيمان الذّي ينفع في الدّنيا والآخرة " . (3)

المذهب الثّاني : الإيمان تصديق وقول وعمل

الإيمان عند جمهور السّلف (4) : تصديق وقول وعمل . **قال مجاهد** (5) : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . (6)

---

(1) ــ انظر : النّووي ، شرح صحيح مسلم 131/1 ، ابن تيمية : مجموعة الفتاوى 109/7 ، البدر العيني : عمدة القاري 166/1 ــ 167 .

(2) ــ لعلّه يقصد قوله عليه الصّلاة والسّلام : **((الإيمان بضع وستّون أو بضع وسبعون شعبة))**

(3) ــ الباقلاّني : الإنصاف ص 49 .

(4) ــ **السّلف لغة** : من سَلَفَ أي تقدّم وسبق ، جمعه أسلاف : كلّ من تقدّمنا من الآباء في السنّ أو الفضل ، ويجمع على سالف ، وهو كلّ عمل صالح قدّمناه ، المعجم الوسيط 443/1 ــ 444
أمّا اصطلاحا : فهم أهل القرون الثّلاثة الأولى التي شهد لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالخيريّة ، ويراد بهم الصّحابة والتّابعون وأتباعهم ، وقد تميّزوا باتّباع الكتاب والسنّة ، وتقديمهما على ما سواهما . انظر : البوطي ، السّلفيّة مرحلة زمنيّة مباركة لا مذهب إسلامي ص 09 ــ 10 .

(5) ــ **مجاهد بن جبر : (21 هــ ــ 104 هــ)**
هو التّابعي المفسّر أبو الحجّاج مجاهد بن جبر من أهل مكّة ، شيخ القرّاء والمفسّرين ، أخذ عن ابن عبّاس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم ، وأخذ عنه عكرمة وطاووس وعطاء . انظر ابن سعد : الطّبقات 466/5 ــ 467 ، الذّهبي : السّير 449/4 وما بعدها ، الشّيرازي : طبقات الفقهاء 69/1 .

(6) ــ اللاّلكائي : شرح أصول اعتقاد أهل السنّة 1023/5 .

وقال **الحسن البصري** (1) ليس الإيمان بالتّحلّي ولا بالتّمنّي ، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال (2)

وقال الإمام الشّافعي (3) الإيمان قول وعمل يزيد وينقص يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية (4) ثمّ تلا قوله تعالى : ((وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا)) [المدثّر 31] وقد استدلّوا بجملة من الأدلّة من الكتاب والسنّة ، منها :

أ ــ قوله تعالى : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ

---

(1) ــ **الحسن البصري : (21 هــ ــ 110 هــ)**

هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي ، كان سيّد أهل زمانه علما وعملا ، ولد بالمدينة شبّ في كنف عليّ بن أبي طالب ، كان أنس بن مالك إذا سئل بعد أن تقدّم في السنّ يقول سلوا الحسن فإنّه سمع وسمعنا وحفظ ونسينا ، قال عنه أبو حامد الغزالي : كان الحسن البصري أشبه النّاس كلاما بكلام الأنبياء ، وأقربهم هديا من الصّحابة ، انظر ابن سعد : الطّبقات 132/7 وما بعدها ، الذّهبي : السّير 563/4 وما بعدها ، ابن حجر : تهذيب التّهذيب 263/2 وما بعدها .

(2) ــ ابن بطّة : الإبانة 805/2 ، الخطيب البغدادي : اقتضاء العلم العمل ص 42 ــ 43 .

(3) ــ **الإمام الشّافعي : (150 هــ ــ 204 هــ)**

محمّد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي أبو عبد الله أحد الأئمّة الأربعة وإليه تنسب الشّافعيّة كافّة ولد بغزّة فلسطين ثمّ حمل إلى مكّة وهو صغير ، من شيوخه مالك بن أنس ، كان عالما بأشعار العرب ولغتها ، متضلّعا في الفقه والقراءات ، قال الإمام أحمد : ما أحد ممّا بيده محبرة أو ورق إلاّ وللشّافعي في رقبته منّة ، كان شديد الاتّباع للحديث ، من آثاره كتاب الأمّ و المسند و الرّسالة في الأصول . انظر الذّهبي : السّير 5/10 ــ 95 ، عيّاض : ترتيب المدارك 221/1 ، السّبكي : طبقات الشّافعيّة 192/1 وما بعدها ، أبو نعيم : حلية الأولياء 63/9 وما بعدها .

(4) ــ الأصفهاني : حلية الأولياء 115/9

وَمَغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ)) [الأنفال 02 ـــ 04]

فقد بينّ الله عزّ وجل في هذه الآيات أنّ الإيمان يتضمّن عمل القلب ، وهذا في قوله تعالى : وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ، وعمل اللّسان ، من خلال قيامهم بالصّلاة ، و عمل الجوارح المعبّر عنه بالصّلاة والزّكاة ، وتجتمع هذه الأعمال في التّوكّل عليه سبحانه ، ثمّ حكم في نهاية الآيات بقوله : أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ، فدلّ هذا على أنّ الإيمان تجتمع فيه أعمال القلوب واللّسان والجوارح .

ب ـــ وقوله عليه الصّلاة والسّلام : **((الإيمان بضع وستّون أو بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلاّ اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق ، والحياء شعبة من الإيمان))** (1)

قال الإمام الخطّابي (1) " في هذا الحديث بيان أنّ الإيمان الشّرعي اسم لمعنى ذي

---

(1) ـــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الإيمان ، باب : أمور الإيمان ، رقم 09 ، مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ، رقم 58 .

ومن الذّين ذهبوا إلى اعتبار الإيمان وقول وعمل : عبد الله بن المبارك (ت 181 هـــ) و الفضيل بن عيّاض (ت 186 هـــ) وسفيان بن عيينة (ت 198 هـــ) وعبد الرزّاق الصّنعاني (ت 211 هـــ) وأبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت 224 هـــ) و أحمد (ت 241 هـــ) و البخاري (ت 256 هـــ) وأبو زرعة الرّازي (ت 264 هـــ) وإسحاق بن راهويه (ت 283 هـــ) وغيرهم من السّلف . انظر آراءهم عند ابن بطّة : الإبانة 805/2 وما بعدها ، اللاّلكائي : شرح أصول الاعتقاد عند أهل السنّة 955/5 وما بعدها ، أبو بكر الخلاّل : السنّة 566/3 وما بعدها ، أبو عبيد : الإيمان ص 35 عبد الله بن أحمد : السنّة ص 81 وما بعدها ، الآجري : الشّريعة 634/3 وما بعدها ، ابن عبد البرّ الاستذكار 134/26 ، ابن حجر : فتح الباري 66/1 ، النّووي : شرح صحيح مسلم 129/1 وما بعدها ، ابن بطّال : شرح صحيح البخاري 57/1 ، ابن رجب : فتح الباري 5/1 .

(1) ـــ **الإمام أبو سليمان الخطّابي : (319 هـــ ـــ 388 هـــ)**

هو الإمام العلاّمة ، الحافظ اللّغوي أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم بن الخطّاب البستي =

شعب وأجزاء له أدنى وأعلى والاسم يتعلّق ببعضها كما يتعلّق بكلّها ، و الحقيقة تقتضي جميع شعبه وتستوفي جملة أجزائه كالصّلاة لها شعب وأجزاء والاسم يتعلّق ببعضها ، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها " . (1)

أي إنّ الإيمان كما يجوز أن يطلق على كلّ شعبه ، يجوز أن يطلق على بعض أجزائه ، لكن حقيقته تكمن في كافّة أجزائه .

وقال الإمام الطّبري : " الإيمان اسم للتّصديق كما قالته العرب وجاء به كتاب الله تعالى ... غير أنّ المعنى الذي يستحقّ به اسم المؤمن بإطلاق : هو الجامع لمعاني الإيمان وذلك بأداء جميع فرائض الله ، من معرفة وإقرار وعمل " (2)

طبيعة الخلاف بين الفريقين

الخلاف بين المذهبين على العمل ، هل هو جزء من ماهية الإيمان ؟ أم من مستلزماته ؟ فقد بيّنا أنّ الكّل اتّفقوا على أنّ الله تعبّدنا بالاعتقاد والقول والعمل لكنّهم اختلفوا هل العمل جزء من ماهيّة الإيمان ؟ أم من مستلزماته ؟

والظّاهر أنّ الخلاف بين المذهبين لفظيّ ، وليس حقيقيا ، وهذا ما صرّح به ابن تيمية حيث قال : " وممّا ينبغي أن يعرف أنّ أكثر التّنازع بين أهل السنّة في هذه المسألة هو نزاع لفظيّ ، وإلاّ فالقائلون بأنّ الإيمان قول من الفقهاء كحمّاد بن أبي سليمان ومن اتّبعه من أهل الكوفة وغيرهم ، متّفقون مع جميع علماء السنّة على أنّ أصحاب الذّنوب داخلون تحت الذمّ والوعيد " (4)

= من بلاد كابل ، تفقّه على مذهب الشّافعي ، من مصنّفاته : معالم السّنن في شرح سنن أبي داود و بيان إعجاز القرآن ، و تفسير أحاديث الجامع الصّحيح للبخاري . انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 23/17 ــ 28 .

(2) ــ الخطّابي : معالم السّنن 288/4 .

(3) ــ الطّبري : التّبصير في معالم الدّين ص 190 .

(4) ــ ابن تيمية : مجموعة الفتاوى 186/7 ــ 187 .

وقال في موضع آخر : " إذا تبيّن هذا وعلم أنّ الإيمان الذّي في القلب من التّصديق والحبّ وغير ذلك ، يستلزم الأمور الظّاهرة من الأحوال الظّاهرة والأعمال الظّاهرة ، كما أنّ العقد التّام مع القدرة يستلزم وجود المراد ، وأنّه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه **زالت الشّبهة العلميّة في هذه المسألة ، ولم يبق إلاّ نزاع لفظيّ في أنّ موجب الإيمان الباطني ، هل هو جزء منه داخل في مسمّاه ، فيكون لفظ الإيمان دالاّ عليه بالتّضمّن والعموم ؟ أو هو لازم للإيمان ومعلول له ، فتكون دلالة الإيمان عليه بطريق اللّزوم ؟** وحقيقة الأمر أنّ اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا ، فإذا قرن اسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالاّ على الباطن فقط ، وأنّ إفراد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظّاهر " (1)

وقال الإمام الذّهبي (2) ملتمسا العذر لحمّاد بن أبي سليمان في قوله الإيمان هو التّصديق : " و هو أنّ مرجئة الفقهاء (3) لا يعدّون الصّلاة ، والزّكاة من الإيمان

---

(1) ـــ ابن تيمية : مجموعة الفتاوى 351/8 .

(2) ـــ **شمس الدّين الذّهبي : (673 هـــ ـــ 748 هـــ)**

محمّد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله شمس الدّين الذّهبي ، مهر في الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة ، كان علاّمة زمانه في الرّجال وأحوالهم ، دقيق الفهم ثاقب الذّهن ، كفّ بصره في أواخر حياته ، من آثاره : تاريخ الإسلام الكبير ، وطبقات القرّاء ، وميزان الاعتدال في نقد الرّجال . انظر : ابن السّبكي : طبقات الشّافعيّة الكبرى 100/9 وما بعدها ، ابن حجر : الدّرر الكامنة 336/3 ـــ 338 السيّوطي : طبقات الحفّاظ 521 ـــ 523 .

(3) ـــ **المرجئة :** فرقة ظهرت بعد الفتنة التي وقعت بين علي بن أبي طالب ومعاوية عندما كفّر الخوارج أصحاب المعاصي أمّا هم فقد قالوا إنّ أهل القبلة كلّهم مؤمنون لمجرّد إقرارهم الظّاهر بالإيمان ولو تأخّر العمل ، ورجوا لهم المغفرة ، وأخّروا حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فقد سمّوا مرجئة لأمرين ، الأوّل لأنّهم أخّروا الأعمال عن مسمّى الإيمان والثّاني : إعطاء الرّجاء حيث قالوا لا تضرّ مع الإيمان معصية ، وهم أصناف منهم الذين قالوا بالإرجاء في الإيمان =

ويقولون الإيمان إقرار باللّسان ويقين في القلب والنّزاع على هذا لفظيّ إن شاء الله ، وإنّما غلو الإرجاء من قال لا يضرّ مع التّوحيد ترك الفرائض نسأل الله العافية . " (1) فسبب خلافهم اختلافهم في النّظر إلى الإيمان ، فمنهم من نظر إلى أصله الذّي يخرج صاحبه من الكفر وينجيه من الخلود في النّار ، ويكون هذا بالاعتقاد والاعتراف ، بينما نظر غيرهم إلى كمال الإيمان الذّي يكون بالقيام بالواجبات واجتناب المحرّمات ، فأدخلوا فيه العمل ، وقد قرّر **البدر العيني** (2) هذا المعنى بقوله الإيمان نوعان :**الأوّل :** أصل الإيمان وهو غير المقرون بالعمل وفيه جاء قول النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام : ((**الإيمان أن تؤمن باللّه وملائكته ...**)) **الثّاني :** الإيمان الكامل وهو المقرون بالعمل ، كما في حديث وفد عبد القيس

= وبالقدر على مذهب القدريّة ، وهم معدودون في مرجئة القدريّة ، ومنهم الذين مالوا إلى قول الجهم في الأعمال حيث قالوا بالجبر والتّسيير وهم ، مرجئة الجبريّة ، ومنهم من قالوا بالإرجاء مطلقا من غير قدر وهم المرجئة الخالصة . انظر لأبي الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين 131/1 وما بعدها ، الشّهرستاني : الملل والنّحل 161/1 وما بعدها ، البغدادي الفرق بين الفرق 187 وما بعدها .

أمّا مرجئة الفقهاء : فهم الذين أخّروا العمل على مسمّى الإيمان ، لكنّهم لم يسقطوه من حقيقة الإيمان كما بيّنا آنفا ، فقد اتّفقوا أنّ الله أوجب الاعتقاد والقول والعمل . انظر : النّووي ، شرح صحيح مسلم 131/1 ، ابن أبي العزّ : شرح العقيدة الطّحاويّة 508/2 .

(1) ــ الذّهبي : سير أعلام النّبلاء 233/5 .

(2) ــ **محمود بن أحمد البدر العيني : (762 هــ ــ 855 هــ)**

محمود بن أحمد بن موسى أبو محمّد بدر الدّين العيني الحنفي ، مؤرّخ علاّمة ، من كبار المحدّثين ، أصله من حلب ، ولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفيّة ونظر السّجون ، كان إماما عارفا باللّغة مشاركا في الفنون ، من آثاره : تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر ، في التّاريخ مباني الأخبار في شرح معاني الآثار ، في الحديث ، البناية في شرح الهداية ، في فقه الحنفيّة طبقات الشّعراء . انظر للسّخاوي : الضّوء اللاّمع 10 / 131 وما بعدها ، شذرات الذّهب 157/6 .

((أتدورن ما الإيمان وحده ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لاّ إله إلاّ اللّه وأنّ محمّدا رسول اللّه ، وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس)) (1) والإيمان بهذا المعنى هو المراد بالإيمان المنفي في قوله صلّى الله عليه وسلّم : **((لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن ...))** (2)

فالخلاف في المسألة لفظي لأنّه راجع إلى تفسير الإيمان ولا خلاف في المعنى فإنّ الإيمان المنجّي من دخول النّار هو الثّاني باتّفاق جميع المسلمين ، والإيمان المنجّي من الخلود في النّار هو الأوّل (3) باتّفاق أهل السنّة . (4)

(1) ــ البخاري عن ابن عبّاس ، كتاب الإيمان ، باب : أداء الخمس من الإيمان رقم 53 و مسلم كتاب الإيمان ، باب : الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدّين ... رقم 23 .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب المظالم والغصب ، باب : النُّهبى بغير إذن صاحبه ، رقم 2475 ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن الملتبس بالمعصية على إرادة نفي كماله ، رقم 100 .

(3) ــ البدر العيني : عمدة القارئ شرح صحيح البخاري 166/1 .

(4) ــ **أهل السنّة :** هم السّواد الأعظم من المسلمين ، وقد ظهرت هذه التّسمية بعد ظهور الفرق ونشوء البدع وتشعّب الأهواء كما ذكر ذلك الشّاطبي ، أمّا التّسمية فقد ظهرت للتّمييز بينهم وبين أصحاب المقالات التي أظهرت البدع في بعض آرائها كالخوارج والشّيعة والمعتزلة والجهميّة والمرجئة ، ولمّا أرادوا تعيينهم اختلفت عباراتهم فذهب البعض إلى القول بأنّهم الصّحابة ، وقيل هم جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر . وقيل هم السّواد الأعظم من المسلمين . وقيل هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير . وقيل أهل العلم والفقه والحديث من الأئمّة المجتهدين لأنّ الله جعلهم حجّة على الخلق والنّاس تبع لهم في أمر الدّين ، وقيل هم أهل الحلّ والعقد من كلّ عصر ، وإذا أطلق هذا المصطلح في سياق ذكر المذاهب و الفرق التي تعرّضت لمناقشة قضايا الاعتقاد ، أريد به : الأشاعرة والماتريديّة . انظر الشاطبي ، الاعتصام 260/2 ــ 265 ، ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص 15 ابن السّبكي : طبقات الشّافعيّة 360/3 ابن خلّكان ، وفيات الأعيان 284/3 .

سبب الخلاف و ثمرته

الذين اعتبروا العمل خارجا عن ماهية الإيمان ، قالوا إذا صدّق الكافر بقلبه وأظهر ذلك حكم له بالإيمان ، وهم بذلك نظروا إلى أوّل مراتب الإيمان التي يفرّ صاحبها من الكفر ، أمّا الذين قالوا العمل جزء من الإيمان فقد نظروا إلى كماله ، و قد كان خطابهم موجّها في عمومه إلى المسلمين الذين حصّلوا أصل الإيمان ، و تجاوزوا مراتبه الأولى ، للوصول بهم إلى أعلى درجاته ، ذلك أنّ الإيمان ذو مراتب " **أوّلها التّصديق القلبي الموافق للّسان ، وأعلاها حصول كيفيّة من ذلك الاعتقاد القلبي تندرج في طاعتها جميع التّصرّفات وهو الإيمان الكامل** " (1) فإنّه من الجائر أن نسمّي الشّيء باسمه كاملا إذا شرعنا في تحقيقه ولو لم نأت به بتمامه ، وهذا جار على لسان العرب والشّريعة ، وقد مرّ بنا قول الإمام أبي سليمان الخطّابي " أنّ الإيمان الشّرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى ، والاسم يتعلّق ببعضها كما يتعلّق بكلّها " (2)

لأنّ الأعمال من آثار الإيمان وهي موجودة بسببه ، فإذا أطلق عليها لفظ الإيمان فمن باب إطلاق اسم السّبب على المسبَّب ، أو إطلاق اللّفظ على أهمّ جزء منه كما قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**الحجّ عرفة**)) (3)

الإيمان الواجب على المكلّفين

الإيمان الذّي يريده الله منّا والذي يحقّق الشّهادة على النّاس مركّب من الاعتقاد والقول والعمل ، فإنّ الله أعطى كلّ جارحة عملا لم يعطه الأخرى ، فعمل

---

(1) ــ ابن خلدون : المقدّمة ص 493 .

(2) ــ الخطّابي : معالم السّنن 288/4

(3) ــ التّرمذي عن عبد الرّحمن بن يعمر ، كتاب الحجّ ، باب : ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحجّ ، رقم 889 وهو صحيح .

القلب الاعتقاد ، وعمل اللّسان القول ، وعمل الجوارح الفعل ، وهكذا ، غير أنّ هذه الأعمال لا ينبغي أن تؤدّى بطريقة آليّة بعيدة عن معاني الصّدق والإخلاص فلا ينبغي أن تكون كالمعارف الفلسفيّة التي لا تتعامل مع الوجدان فضلا عن تحريكه ، بل ينبغي أن تصير في المؤمن سجيّة تتكيّف بها النّفس لتقوّي ملكة الطّاعة والانقياد ، وهذا هو الإيمان الكامل الذي يريده الله من عباده ، والذي أسهب العلماء في تقريره ، وقد نبّه ابن خلدون (1) إلى هذا بقوله : " المعتبر في التّوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكميّ ، فإنّ ذلك من حديث النّفس ، وإنّما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيّف بها النّفس ، كما أنّ المطلوب من الأعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطّاعة والانقياد ، وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتّى ينقلب المؤمن ربّانيّا ، والفرق بين الحال والعلم في العقائد ، فرق ما بين القول والاتّصاف ، والعلم الحاصل عن الاتّصاف هو أوثق من العلم الحاصل قبل الاتّصاف ، ولا يحصل الاتّصاف بمعاني الإيمان بمجرّد العلم ، وإنّما بوقوع العمل وتكراره مرّات غير منحصرة بعدد ، فترسخ ملكة الإيمان ويحصل الاتّصاف والتّحقيق به ، ويجيء العلم الثّاني النّافع في الآخرة " (2) وهذا هو فقه الإيمان ، وهو الفقه الحقيقي الذي كان يعنيه السّلف

(1) ــ عبد الرّحمن بن خلدون : (732 هــ ــ 808 هــ)

هو عبد الرّحمن بن محمّد أبو زيد المعروف بابن خلدون ، المالكي الأديب البحّاثة ، مؤرّخ اجتماعي ، أصله من أشبيلية ومولده ومنشأه بتونس ، ولي قضاء المالكيّة بمصر ، كان رجلا فاضلا ، متقدّم في فنون عقليّة ونقليّة ، توفّي في القاهرة ، من آثاره شرح البردة ، رسالة في الحساب ، تلخيص المحصل في علم الكلام للفخر الرّازي . انظر : ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر 327/5 وما بعدها ، السّخاوي الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع 145/4 وما بعدها ، محمّد مخلوف : شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة 227/1 ــ 228 .

(2) ــ ابن خلدون : المقدّمة ص 492 .

في كلامهم ، فقد كان في صدر الإسلام يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النّفوس ومفسدات الأعمال ، وقوّة الإحاطة بحقارة الدّنيا وشدّة التّطلّع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، كما نبّه إلى ذلك أبو حامد الغزالي واستدلّ بقوله تعالى : ((وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)) [التّوبة 122] وقال : وما يحصل به الإنذار والتّخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطّلاق والسَّلَمِ والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ... (1) وقال مجاهد " إنّما الفقيه من يخاف الله " (2) وقال علي بن أبي طالب (3) رضي الله عنه الفقيه حقّ الفقيه : لا يقنّط النّاس من رحمة الله ، ولا يؤمّنهم من عذاب الله ، ولا يرخّص لهم في محارم الله ، إنّه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبّر فيها . (4)

وسأل أحدهم الحسن البصري عن شيء فأجابه ، فقال السّائل : إنّ الفقهاء

(1) ــ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدّين 45/1 بتصرّف .

(2) ــ سنن الدّارمي ، باب من قال العلم خشية وتقوى الله 101/1 .

(3) ــ **علي بن أبي طالب : (23 ق هـ ــ 40 هـ)**

هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بن عبد المطّلب ، تربّى في حجر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولم يفارقه وشهد معه المشاهد كلّها إلاّ تبوك حيث استخلفه على المدينة وقال له : ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ، اشتهر بالفروسيّة والشّجاعة كان إماما عالما ، بويع بالخلافة بعد موت عثمان سنة 35 هـ ومات مقتولا في 17 رمضان 40 هـ ومدّة خلافته خمس سنين إلاّ ثلاثة أشهر ونصف . انظر ابن سعد : الطّبقات 19/3 وما بعدها ، ابن عبد البرّ : الإستيعاب 197/3 وما بعدها ، ابن حجر : الإصابة 564/4 وما بعدها .

(4) ــ سنن الدّارمي باب من قال العلم خشية وتقوى الله 101/1 ، الذّهبي : تذكرة الحفّاظ 13/1 .

يخالفونك فقال : ثكلتك أمّك ، وهل رأيت فقيها بعينك ، إنّما الفقيه : الزّاهد في الدّنيا ، الرّاغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربّه ، الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، النّاصح لجماعتهم .
قال أبو حامد الغزالي معلّقا على كلام الحسن : ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إنّ اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظّاهرة ، ولكن كان بطريق العموم والشّمول أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم له على علم طريق الآخرة أكثر . (1)
وقال الآلوسي (2) تعليقا على قوله تعالى : ((وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً)) [التّوبة 122] " وكان الظّاهر أن يقال ليعلموا بدل لينذروا ، ويفقهون بدل لعلّهم يحذرون للإشارة إلى أنّه ينبغي أن يكون غرض المعلّم الإرشاد والإنذار وغرض المتعلّم اكتساب الخشية لا التّبسّط والاستكبار " . (3)
إذن فالمطلوب في التّكاليف كلّها حصول ملكة راسخة في النّفس ينشأ عنها الإيمان الذي هو أصل التّكاليف كلّها وينبوعها ، وهو الذي تحصل به الشّهادة على النّاس وسعادة الدّارين ، سواء تعلّق الأمر بأعمال القلوب أو الجوارح .
وهو بهذه المثابة ذو مراتب : أوّلها التّصديق القلبي الموافق للّسان وأعلاها

(1) ــ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدّين 46/1 .
(2) ــ **محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي : (1802 م ــ 1854 م)**
هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، مفسّر ، محدّث ، من أهل بغداد ، مولده ووفاته بها ونسبة الأسرة الآلوسيّة إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات ، كان سلفي الاعتقاد مجتهدا ، من آثاره : حاشية على شرح قطر النّدى ، مقامات في التّصوّف والأخلاق ، الرّسالة اللاّهوتيّة ، نشوة الشّمول في السّفر إلى إسلامبول " انظر : خير الدّين الزّركلي ، الأعلام 176/7 .
(3) ــ الآلوسي : روح المعاني 70/7 .

حصول كيفيةٍ من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل ، مستولية على القلب فيستتبع الجوارح ، و تندرج في طاعتها جميع التّصرّفات ، حتّى تنخرط الأفعال كلّها في طاعة ذلك التّصديق الإيماني ، وهذا أرفع مراتب الإيمان ، وهو الإيمان الكامل العاصم من المنكرات ، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مبادئه ، ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن**)) (1) وفي حديث هرقل لمّا سأل أبا سفيان عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأحواله ، قائلا عن أصحابه : هل يرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . (2)

ومعناه أنّ ملكة الإيمان إذا استقرّت عسر على النّفس مخالفتها ، شأن الملكات إذا استقرّت ، فإنّها تحصل بمثابة الجبلّة والفطرة ، وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان ، وهي في المرتبة الثّانية من العصمة ، لأنّ العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا ، و هذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم ، فبهذه الملكة ورسوخها يقع التّفاوت في الإيمان . (3)

وهذا ما أشار إليه الله في قوله : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ

(1) ــ سبق تخريجه ص 53 .

(2) ــ كلام هرقل وإن كان لا يحتجّ به في مثل هذه المسائل العظيمة من أصول الدّيانات التي وقع فيها الاضطراب ــ كما قال ابن رجب الحنبلي ــ فإنّ ابن عبّاس روى هذا الكلام مقرّرا له مستحسنا وتلقّاه عنه التّابعون وعن التّابعين أتباعهم كالزّهري ، فالاستدلال إنّما هو بتداول الصّحابة ومن بعدهم لهذا الكلام وروايته واستحسانه . انظر : ابن رجب ، فتح الباري 223/1 .

(3) ــ انظر : ابن خلدون ، المقدّمة 493 ــ 494 .

دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ)) [الأنفال 2 ــ 4] وقوله : ((إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)) [الحجرات 15]

فالإيمان تصديقٌ جازم بكلّ ما جاء في القرآن ، وتفاعل للوجدان تفاعلا يوجّه صاحبه إلى التّوكّل على الله والخشية منه ، وهو أيضا انقياد ظاهري لأوامره بتنفيذها واجتناب مخالفتها وبذل الجهد لنصرة الدّين بالنّفس والمال .

وبالمقابل هناك أمور تتعارض مع حقيقة الإيمان الشّرعي ، منها :

1 ــ إذا اعترف المرء بلسانه وأنكر بقلبه فلا يكون محقّقا الإيمان ، قال تعالى : ((وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ)) [البقرة 08]

2 ــ إذا أيقن بعقله حقائق الإيمان ولم يخضع لمقتضياته لا يكون مؤمنا لقوله تعالى : ((فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا)) [النّساء 65]

3 ــ وإذا نفّذ الشّعائر التّعبّدية وأظهر الخضوع ظاهرا دون انقياده الباطني لا يكون مؤمنا عند الله لقوله : ((إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ)) [المنافقون 01]

المطلب الثّاني : علاقة الإيمان بالعقيدة و الشّريعة

بيان علاقة الإيمان بالعقيدة والشّريعة من الأهمّية بمكان في فهم حقيقة الإيمان لأنّ الشّريعة الوجه الظّاهر للإيمان ، لكونه عقيدة وشريعة ، فإذا تمّ الاستشهاد بها في بيان علاقة الإيمان بمجالات الحياة لا يكون ذلك خروجا على المطلوب كما أنّ التّفريق بين العقيدة وعلمها يفيدنا في التّعامل مع المفهومين ، فقد يلتبس

الأمر على البعض أثناء دراسة مسائل الاعتقاد حيث يتعامل مع اجتهادات العلماء لهذه المسائل كأنّها عقائد منزّلة من السّماء ، فيبنون عليها أحكاما خطيرة من خلال الحكم على ما يتوصّل إليه أولئك العلماء ، تعديلا و تجريحا ، أو تزكية وتضليلا ، ومن جانب آخر قد يردّون ما تعبّدنا الله به من عقائد ، لأنّها وجدت في كتب المتكلّمين ظنّا منهم أنّها من آرائهم ، وعليه فإنّ التّمييز بين العقيدة وعلم العقيدة يعيننا على وضع كلّ قضيّة في مكانها ، فلا ننزّل الوحي منزلة كلام الرّجال ، ولا ننزّل كلام الرّجال منزلة الوحي .

أوّلا : الإيمان عقيدة و شريعة و أخلاق

تعاليم الإسلام التي كلّف الله بها المسلم قسمان : قسم كلّفنا بالإيمان به والتّصديق بحقيقته ، مثل وحدانية الله وصدق النّبيّ وثبوت البعث ، ووجوب الصّلاة والصّيام ، وغيرها من العبادات ، وقسم كلّفنا بتطبيقه في سلوكنا ، مثل تنفيذ أوامر الله ، والقيام بالصّلاة والزّكاة والامتناع عن الرّبا والزّنا وسائر الآثام .

فإذا كانت العقيدة ما كلّفنا بتصديقه تصديقا قلبيا والشّريعة ما كلّفنا بتطبيقه تطبيقا عمليا ، فإنّ الصّلة بين العقيدة والشّريعة كصلة الأصل بالفرع ، إذ كلّ حقيقة دينية هي عقيدة من حيث الإيمان بأنّها حق ، وهي شريعة من حيث تطبيقها في الواقع السّلوكي (1) فالعمل بالشّريعة وسائر التّعاليم الشّرعية الأخرى هو الوجه الظّاهر للعقيدة ، وعليه فإنّ التّعامل مع النّصوص التي كلّفنا الله بها تفرض علينا اعتقاد صحّتها ووجوب العمل بها ، ثمّ تنفيذها والعمل على تطبيقها فإذا اتحدت العقيدة والشّريعة في سلوك الفرد على هذا النّحو ، نتج السلوك القويم والخلق الحسن ، وهذا هو الإيمان بعينه **فالإيمان على هذا الأساس : عقيدة وشريعة وأخلاق** ، وهذا ما أشار إليه الله في قوله : ((إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

(1) ــ عبد المجيد النّجّار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص 10 ــ 11 بتصرّف .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)) [الأنفال 2 ـ 4] وقوله : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)) [الحجرات 15] وقوله عليه الصّلاة و السّلام : ((**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا**)) (1)

الفرق بين العقيدة وعلم العقيدة

العقيدة : هي قضايا جاء بها الوحي لا تزيد ولا تنقص ، أي محدودة بمحدودية النّصوص ، وليس لأحد أن يتصرّف فيها بزيادة أو نقصان ، وهي ثابتة لا يطالها التّغيير أو التّحوير بالاجتهاد ، ولا ينالها التّطوّر لملاءمة تغيّرات الأحوال بل تظلّ باقية على حالها كما جاءت بها نصوص الوحي على مرّ الزّمن وفي كلّ الظّروف والأحوال ، وهذا خلافا للأحكام الشّرعية وإن كانت في مبادئها الكلّيّة وفي صياغتها النّظرية ثابتة لا تتغيّر ، إلاّ أنّها في صياغتها التّطبيقية قد تتغيّر الفتوى فيها بتغيّر الأوضاع والأحوال الطّارئة على الحياة ، لكن أحكام العقيدة لا تخضع بحال من الأحوال لتغيّر الفتوى بتغيّر الزّمن .

أمّا علم العقيدة : فإنّه بحث إنسانيّ في قضايا العقيدة فهما وشرحا واستدلالا وردّا للشّبه ، وهو غير محدود في مسائله وقضاياه ، حيث تتزايد فيه الشّروح والأدلّة والرّدود ، بما يتّسع من المعرفة الإنسانية التي تصلح أن تتّخذ مقدّمات

(1) ـ أبو داود عن أبي هريرة ، كتاب : السنّة ، باب : الدّليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم 4668 ، والتّرمذي : كتاب الرّضاع ، باب : ما جاء في حقّ المرأة على زوجها ، رقم 1162 وقال حديث حسن صحيح .

للاستدلال على حقائق العقيدة وبما يتّسع من الجبهات التي ترد منها التّحدّيات المستلزمة للرّدود ، فإذا كانت العقيدة ثابتة لا تتغيّر فإنّ علم العقيدة يتطوّر ويتغيّر ، لأنّ الاستدلالات والرّدود تخضع لما تقتضيه التّحدّيات من الرّدود فربّ شرح أفهم في عصر وربّ دليل أقنع فيه ، ولكن في عصر آخر لا يكون بهما إفهام أو إقناع . (1)

ثمرة التّفريق بين العقيدة وعلم العقيدة

التّمييز بين العقيدة وعلم العقيدة يعيننا على وضع كلّ قضيّة في مكانها الطّبيعي فلا ننزّل الوحي منزلة الرّجال ، ولا ننزّل كلام الرّجال منزلة الوحي ، فإنّ الله تعبّدنا بالعقيدة وليس بعلمها ، أي بنصوص الوحي المقدّسة ، وليس باجتهادات العلماء ، وهذا لا يعني إطلاقا الإعراض عن العلماء ، فإنّهم ورثة الأنبياء ، وبهم يعرف الدّين وتفهم مقاصده ، لكن التّمسّك بأقوالهم وتقديمها على النّصوص لا يصحّ ، ولا يقبل ، قال تعالى : ((ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ)) [التّوبة 31] روى الطّبري بسنده عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنّه دخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقرأ هذه الآية : **((قال : فقلت إنّهم لم يعبدوهم ، فقال بلى إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم))** (2)

---

(1) ــ النّجّار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ، ص 10 وما بعدها بتصرّف .

(2) ــ انظر : تفسير الطبري 354/6 ــ 355 ، وسنن الترمذي ، كتاب التّفسير ، باب : ومن سورة التّوبة ، عن عديّ بن حاتم ، حديث رقم 3095 .

المبحث الثّالث : مصادر المعرفة في العلوم النّظريّة والعقيدة الإسلاميّة

يعتمد الإنسان في الوصول إلى المعرفة على وسائل وهبه الله إيّاها وجعلها عونا له في فهم ما يدور حوله من قضايا ، سواء تعلّق الأمر بعالم العقائد والأفكار أو عالم الأشياء والأشخاص ، فإنّ لكلّ نوع القضايا نوعا من الأدلّة يتناسب معه ولا يستدلّ بغيره عليه ، فالمسائل المتعلّقة بالقضايا المجرّدة لا يقبل معها إلاّ براهينها العقليّة ، والقضايا المتعلّقة بطبيعة الأشياء الماديّة لا تثبت إلاّ بالبراهين التّجريبيّة الحسيّة ، فلابدّ أن ترتبط كلّ قضيّة بالحجج التّي تتعلّق بها .

ولأهمّية وسائل الإدراك في حياتنا منّ الله بها علينا ، وحمّلنا مسؤوليّة توظيفها في ما خلقت له ، فقال : ((وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)) [النّحل 78] وقال أيضا : ((وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا)) [الإسراء 36] لكنّ توظيف هذه الوسائل لا يكفي وحده ما لم نعتمد على المصادر التّي تمدّنا بالمعارف على وجه الصحّة واليقين ، فما هي هذه المصادر ؟ هذا ما نبيّنه في المطالب الآتية :

المطلب الأوّل : مصادر المعرفة اليقينيّة في العلوم النّظريّة

العلم النّظري هو الذّي نحتاج في تحصيله إلى نظر واستدلال ، وقد عبّر عنه الباقلاّني بقوله : " النّظري ما احتيج في حصوله إلى الفكر والرّويّة ، وكان طريقه النّظر والحجّة ، ومن حكمه جواز الرّجوع عنه والشّك في متعلّقه ، ويقابله العلم الضّروري وهو ما لزم أنفس الخلق لزوما لا يمكن دفعه والشّكّ في معلومه " (1)

(1) ــ الباقلاّني : الإنصاف ص 28 .

ويسمّى القسم النّظري بالعلم الاستدلالي . (1)

وهذا النّوع كثيرا ما يندرج في مباحث العقيدة ، ويكون دالاّ على صحّتها كاشفا لآثار الحكمة الإلهيّة ، لذلك دعا الله في آيات عدّة إلى التّدبّر في خلقه للوصول إلى الإيمان به إيمانا مبنيا على العلم ، فقال : ((فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ)) [محمّد 19]

لذا أدرجنا هذه القضايا في هذا المطلب لعلاقتها بالإيمان ، ثمّ إنّ كثيرا من النّاس يضلّون عن الحقّ لأنّ مصادر علومهم لم تكن صحيحة مع وجود القصد في اتّباع طرق الهداية ، فنحتاج إلى الإشارة إلى المصادر اليقينيّة في العلوم عموما ، وفي العقيدة على الأخصّ ، وفق البيان الآتي :

1 ـ المعارف التي تحصل عن طريق الأخبار

المعارف التّي نتلقّاها عن طريق الأخبار متفاوتة في إفادتها للقطع ، والوصول إلى الحقيقة يقتضي الاعتماد على ما تطمئنّ القلوب لصدقه ، وتقطع العقول بصحّته ، فإذا نقلت لنا أخبار عن طريق جماعات من النّاس متطابقة في روايتها آمنّا بها لأنّها نقلت بالتّواتر ، **والمتواترات** (2) قضايا تسكن إليها النّفس سكونا

---

(1) ــ الجرجاني : التّعريفات ص 158 ــ 159 .

(2) ــ انظر : ابن سنا ، النّجاة 61/1 ، الجرجاني : التّعريفات ص 75 ، أضاف محمّد رضا المظفّر قيدا في تعريف التّواتر فقال : " يمنع اتّفاق خطئهم في فهم الحادثة " ، ورأى أنّه انفرد به وأنّ ذكره لازم ، نظرا لكون النّاس المجتمعين كثيرا ما يخطئون في فهم الحادثة على وجهها ، حينما تقتضي الحادثة دقّة الملاحظة وقوانين علم الاجتماع تقضي بأنّ الجمهور ليست لهم الدّقة في الملاحظة إذ سرعان ما تسري فيهم العدوى والمحاكاة ، فإذا تأثّر بعضهم في الحادث المشاهد ، قد يقلّده غيره من الحاضرين بالتّأثّر من حيث لا يشعر ، فيسري إلى الآخرين ، وعليه لا يحصل اليقين من إخبار جماعة يحتمل خطأهم في الملاحظة ، وإن حصل اليقين بعدم تعمّد الكذب . انظر : المنطق 287/3 ويبدو أنّ هذا القيد الذي ذكره المظفّر لم يغيّر من التّعريف المتعارف عليه للتّواتر لأنّ العلماء اشترطوا فيه شروطا تحول دون نزوله عن رتبة اليقين ، منها : أن يخبروا عن علم =

يزول معه الشكّ ويحصل لها الجزم ، بواسطة إخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الخطأ ، كعلمنا بوجود البلدان النّائيّة ولم نشاهدها ، وعلمنا بحدوث الطّوفان ونزول القرآن وغيرها من الأخبار ، ولو نظر كلّ واحد منّا إلى نفسه لرأى ما يوقن بوجوده من الأشياء التي لم يرها أكثر من الأشياء التي رآها ، فكيف آمن بوجودها ؟ إنّه آمن بوجودها حينما نقلتها لنا جماعات ، لا نتصوّر إمكان خطئهم " فإنّ للاجتماع من القوّة ما ليس للافتراق ، ولأجله أفاد التّواتر القطع " (1) ذلك أنّ المخبرين إذا بلغت شهادتهم مبلغ التّواتر الذي يرى العقل فيه استحالة اتّفاقهم على الكذب تغدو المعرفة الخبريّة يقينا مقطوعا بصدقها ، أمّا إذا نزل الخبر عن رتبة اليقين ، فإنّ رتبة المعرفة الحاصلة به ، تنزل أيضا عن مرتبة اليقين إلى مرتبة الظنّ بمختلف درجاته (2) ومثال الخبر المتواتر خبر بعثة النّبيّ صلّى

= لا عن ظن ، وأن يكون علمهم ضروريا مستندا إلى محسوس ، وأن يستوي طرفاه وواسطته في هذه الصّفات ، وأن يكون العدد الذي يستحيل به تواطؤهم على الكذب . انظر : الغزالي المستصفى 134/1 ، كما أنّ التّواتر يتعلّق بنقل الخبر وليس بفهمه . (1) ــ الشّاطبي : الموافقات 24/1 . (2) ــ يرى العلماء أنّ ما يحصل في نفس الإنسان من الأحكام خمسة أقسام :

أ ــ العلم : هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، أو هو إدراك الشيء على ما هو به ، وهذا يعني أنّه حكم جازم مطابق للواقع ، لاستناده إلى دليل يقينيّ ، نسبة الصّواب ثابتة 100% . انظر الجرجاني : التّعريفات ص 157 ، التّهانوي : كشّاف اصطلاحات الفنون 344/3 .

ب ــ الظنّ : هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النّقيض ، أي هو الحكم الرّاجع ، لرجحان الدّليل المعتمد عليه ، نسبة الصّواب تتراوح من 51 % إلى 99 % . انظر : التّعريفات ص 147 ، كشّاف اصطلاحات الفنون 187/3 ــ 188 ، أبو هلال العسكري : الفروق اللّغويّة ص 342 .

جـ ــ الشكّ : هو التّردّد بين النّقيضين بلا ترجيح لأحدهما ، أو ما استوى فيه طرفا النّفي و الإثبات نسبة الصّواب والخطأ ثابتة 50 % . التّعريفات ص 132 ، الفروق اللّغويّة ص 304 .

د ــ الوهم : وهو الحكم المرجوح لمرجوحية الدّليل المعتمد عليه ، نسبة الصّواب تتراوح من 01 % إلى 49 % . الفروق اللّغويّة ص 304 ، كشّاف اصطلاحات الفنون 188/3 . =

الله عليه وسلّم ودعوته إلى الله طيلة ثلاث وعشرين سنة ، فلا يمكن للعقل إنكار البعثة المحمّديّة ، ففي هذا الخبر التقت مجوعة دلائل خبريّة وحسّيّة ، وهي رواية الجماهير من الأجيال من مختلف الحقب الزّمانيّة لحياته وسيرته ، فارتقت هذه الأدلّة بالخبر إلى مرتبة اليقين . (1)

2 ـ المعارف التي تحصل عن طريق الحسّ والتّجربة

المحسوسات : هي القضايا التي يحكم بها العقل بواسطة الحسّ ، كالحكم بأنّ الشّمس مضيئة ، والفحم أسود ، والثّمرة حلوة ، والنّار محرقة ، فإنّ العقل إذا لم يعتمد على الحواس لا يتمكّن من الحكم على تلك الأمور . (2)

وأمّا المجرّبات : فهي القضايا التي يحكم بها العقل بواسطة تكرّر المشاهدة حيث يحصل على إثرها حكم راسخ في النّفس لا يعتريه الشكّ ، كحكمنا الجازم على تبخّر الماء بسبب الحرارة ، وموت النّبات الذي يحرم من الماء (3) وهذا النّوع من المعرفة خاصّ بالمادّيّات ، فلابدّ من الاعتماد على التّجربة والمشاهدة . ومثاله أيضا : الحكم على سيرة الشّخص بناء على سابق عهدنا به وتجاربنا معه كما قال هرقل لأبي سفيان (4) عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

= **هـ ـ الجهل** : هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه ، وهو قسمان ، بسيط : وهو انتفاء العلم بالموضوع ، ومركّب : وهو اعتقاد جازم غير مطابق للواقع ، نسبة الصّواب ثابتة 00 % . انظر : التّعريفات ص 84 ـ 85 ، كشّاف اصطلاحات الفنون 344/1 . الرّازي : معالم أصول الدّين ص 21 ـ 22 ، عمر بن سهلان السّاوي : البصائر النّصيريّة في علم المنطق ص 274 ـ 275 .

(1) ـ حبنّكة الميداني : ضوابط المعرفة ص 134 .

(2) ـ ابن سينا : النّجاة 161/1 ، الغزالي : معيار العلم ص 139 ، المظفّر : المنطق 284/3 .

(3) ـ المظفّر : المنطق 284/3 . محمّد باقر الصّدر : الأسس المنطقيّة للاستقراء ص 376 .

(4) ـ **أبو سفيان بن حرب (57 ق هـ ـ 31 هـ)**

هو الصّحابي صخر بن حرب بن أميّة ، من سادات قريش في الجاهليّة ، قاد قريشا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال المسلمين ، أسلم يوم الفتح ، كان من الشّجعان الأبطال ، توفّي بالمدينة =

" **هل جرّبتم عليه الكذب ؟ فقال لا ، قال : ما كان ليذر الكذب على النّاس ويكذب على اللّه** " (1) وكعلم أمّ المؤمنين خديجة (2) رضي الله عنها برحمة الله وتأييده لعباده المحسنين وهذا قبل أن تعرف الإسلام ، فقد قالت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندما أتاها خائفا من غار حراء : " **كلاّ واللّه لا يخزيك اللّه أبدا إنّـــك لتصـــل الرّحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضّيف وتعين على نوائـــب الحـــقّ** " (3) ويحصل اليقين حين يقدّم العقل شهادته عن طريق الحسّ وتتّفق معها شهادات الحواس الأخرى وشهادات حواس الآخرين ، ولا تتعارض مع المبادئ الأوّليّة للعقول (4) هنا تغدوا المعرفة الحسيّة يقينا مقطوعا بصدقه ، وكلّما نزلت قوّة الإدراك الحسّي عن هذا المستوى ، نزلت المعرفة إلى رتبة الظنّ إلى أن تصل إلى الوهم . (5)

= بالمدينة في خلافة عثمان سنة 31 للهجرة ، ودفن بالبقيع . انظر : ابن عبد البرّ : الإستيعاب 270/2 ابن حجر : الإصابة 412/3 ــ 415 .

(1) ــ البخاري عن ابن عبّاس ، كتاب بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي ، رقم 07 .

(2) ــ **أم المؤمنين خديجة بنت خويلد (68 ق هــ ــ 3 ق هــ)**

هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى القرشيّة ، أوّل من آمن به عليه الصّلاة والسّلام ، نشأت في بيت شرف ويسار ، ذات مال وتجارة ، تزوّجها قبل البعثة فولدت له القاسم وكان يكنّى به ، وعبد الله ، وزينب ، ورقيّة ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، توفّيت بمكّة ودفنت بالحَجون في مدافن أهل مكّة . انظر : الإستيعاب 379/4 وما بعدها ، الإصابة 600/7 وما بعدها .

(3) ــ البخاري عن عائشة ، كتاب : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي ، رقم 03 .

(4) ــ **الأوّليّات :** هي القضايا التي يصدّق العقل بها لذاتها دون سبب خارج عنها ، أو هي القضايا التي لا نحتاج في معرفتها إلى نظر واستدلال ، أي البديهيات ، كقولنا : الإيجاب والسّلب لا يصدقان معا ، وقولنا الثّلاثة أصغر من الأربعة . الغزالي : معيار العلم في فنّ المنطق ص 138 .

(5) ــ حبنّكة الميداني : ضوابط المعرفة ص 134 بتصرّف .

بيد أنّ الحسّ قد يقع في الوهم من جرّاء اللّبس الذي يطرأ عليه ، فقد يرى المرء في الصّحراء سرابا ويظنّه ماء ، ونضع القلم في كأس الماء فنراه منكسرا ، ويرى النّاظر الخطّين المتوازيين يلتقيان كلّما بعدت المسافة ، وهما متوازيان حقيقة فهل يقدح هذا الوهم في صحّة الحسّ كطريق من الطّرق المفضية إلى العلم ؟

لا يقدح في صحّة الحسّ لأنّه يقوم بوظيفته تحت رقابة العقل ، ويستند في قراراته إلى أحكامه ، ثمّ إنّ الحسّ مجهّز للتّعرّف على الأمور الماديّة فلا نتصوّر عجزه عن إدراك الرّوائح والألوان ، أو الحرارة والبرودة والأذواق .

3 ـ المعارف التي تحصل بالنّظر والقياس

يقوم العقل بوظيفته بالتّحليل والتّركيب واستنباط القواعد ، وإصدار الأحكام مستعينا بالمعطيات التي رصدتها الحواس ، وكلّما كانت تلك المعطيات يقينيّة كانت أحكامه يقينيّة ، وكلّما كانت ظنيّة كانت أحكامه ظنيّة ، و طريق العقل إلى المعرفة : النّظر والاستدلال ، بحيث يقوم بترتيب أمور معلومة علمها بالبداهة أو الكسب للوصول إلى أمور مجهولة ، وتتمّ عمليّة الانتقال من المقدّمات إلى النّتائج بواسطة العقل ، وتكون الرّابطة فيها بين الدّال والمدلول عقليّة ، كقولنا مثلا : هذا الخلق الذي نراه دليل على وجود خالقه ، إذا لا يمكن للعدم أن يخلقه ولا يمكنه أن يخلق نفسه إذن هناك من خلقه (1) وعندما نرى دقّة الإحكام في تنظيم المخلوقات وانسجامها مع غيرها من الكائنات ، نتوصّل إلى إدراك بعض صفات الخالق ، كالعلم والقدرة وغيرها .

4 ـ المعارف التي تحصل عن طريق الإلهام

يمكن لبعض النّاس أن يصلوا إلى بعض المعارف عن طريق الإلهام ، حيث يلقي

(1) ـ انظر : حبنّكة الميداني : ضوابط المعرفة ص 132 ـ 135 ، محمّد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونيّة ص 43 ـ 46 .

الله في نفوسهم أثرا يبعثهم على الفعل أو التّرك ، وهو نوع من الوحي يخصّ الله به من يشاء من عباده ، قال تعالى : ((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا)) [الشّمس 7 ــ 8] (1) وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**اللّهمّ ألهمني رشدي وقني شرّ نفسي**)) (2) ومن الإلهام : الفراسة وهي المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها (3) وهي نور يقذفه الله في القلب يميّز به بين الحقّ والباطل ، قال تعالى : ((إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)) [الحجر 75] قال مجاهد : للمتفرّسين ، و في الحديث ((**اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور اللّه عزّ وجل**)) (4) ثمّ قرأ ((إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)) والفراسة أنواع :

أ ــ فراسة إيمانيّة : روحانيّة نفسيّة وهي الفراسة الإلهيّة ، أو نور إلهي في عين بصيرة المؤمن ، يكشف له ما وقع من المتفرِّسِ فيه وما يقع منه ، أو ما يؤول إليه أمره ، وغايتها التّمكين من العلم بالأخلاق المحمودة والمذمومة وهي قائمة على الحقّ يهبها الله للمؤمنين الصّادقين . (5)

ب ــ فراسة رياضيّة : وهي التي تحصل بالجوع والسّهر والخلوة ، فإنّ النّفس إذا تجرّدت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجرّدها ، فإنّ عالم الشّهادة يدرك بالحسّ عادة ، وعالم الغيب يدرك بالخبر الشّرعي أو بالنّظر الفكري فيما لا يظهر للحسّ عادة ، وكما أنّ الإنسان لا يدرك عالم الشّهادة إلاّ

---

(1) ــ لسان العرب 555/12 ، المعجم الوسيط 442/2 .

(2) ــ التّرمذي عن عمران بن حصين ، كتاب : الدّعاء ، باب 70 ، رقم 3483 .

(3) ــ أنور فؤاد أبو خزام : معجم المصطلحات الصّوفيّة ، 135 المعجم الوسيط 681/2 .

(4) ــ التّرمذي عن أبي سعيد الخدري ، كتاب : التّفسير ، باب 16 سورة الحجر ، رقم 3128 .

(5) ــ انظر : ابن عربي ، الفتوحات المكيّة 135/2 والتّدبيرات الإلهيّة من رسائله 354/2 .

إذا ارتفع عن بصره حجاب الظّلام ، أو ما أشبه من الموانع ، كذلك لا يدرك عالم الغيب إلاّ إذا عمد إلى مرآة قلبه وجلاّه بأنواع الرّياضات والمجاهدات لإزالة حجاب الشّهوات وما شاكل ذلك عن عين بصيرته . (1)

هـ ــ فراسة خِلقيّة : فقد جبل الإنسان على المعرفة والوصول إلى كثير من القضايا ، كاستدلالنا بالمخلوقات على الخلق لما فيها من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله ، والنّوعان الآخران مشتركان بين جميع النّاس ، وهما لا يدلاّن على إيمان أو كفر ، لأنّ كلّ منهما فراسة طبيعيّة مزاجيّة تتعلّق بالمعارف الفكريّة والعلوم النّظريّة والأحكام التّجريبيّة ، بيد أنّه ليس كلّ أحد يهبه الله نور اليقين لكنّ الفراسة على العموم : **قطع بالحكم على الغيب من غير شاهد** . (2)

وقد مثّل لها عبد القاهر البغدادي (1) بقوله : " كالعلم بذوق الشّعر وأوزان أبياته فقد يعلم هذا الوزن أعرابيّ ويذهل عن معرفته حكيم يعرف قوانين أكثر العلوم النّظريّة ، وكذلك العلم بصناعة الألحان فإنّه غير مستنبط بالقياس ، ولا مدرك بالضّرورة التي يشترك فيها العقلاء ، ولكنّها من الخصائص التي يعلمها قوم دون قوم ، وكلّ علم نظري يجوز عندنا أن يجعله الله ضروريا فينا ، كما خلق في آدم

(1) ــ ابن عربي : التّدبيرات الإلهيّة من رسائله 354/2 .

(2) ــ انظر : ابن عربي ، الفتوحات المكيّة 135/2 ابن القيّم : مدارج السّالكين 483/2 وما بعدها ابن أبي العزّ : شرح العقيدة الطّحاويّة 759/2 ، توفيق العجم : موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي ص 708 ــ 709 .

(3) ــ **عبد القاهر البغدادي (ت 429 هـ)**

هو الإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمّد البغدادي التّميمي ، من أئمّة الأصول صاحب التّصانيف البديعة وأحد أعلام الشّافعيّة ، من تصانيفه : النّاسخ والمنسوخ ، الملل والنّحل الفرق بين الفرق . انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 377/17 السّبكي : طبقات الشّافعيّة الكبرى 136/5 ابن قاضي شهبة : طبقات الشّافعيّة 211/1 ــ 212 .

عليه السّلام علوما ضروريّة وعرف بها الأسماء من غير استدلال منه عليها ، ولا قراءة منه لها في كتاب . " (1) **وبعد هذا البيان لنا أن نتساءل هل يمكن اعتبار الإلهام مصدرا من مصادر العلم في العقيدة ؟**

الإلهام ليس مصدرا من مصادر المعرفة في العقيدة لأنّ الظنّ كثيرا ما يتطرّق إليه والوهم يختلط به ، والعصمة غير ثابتة لعامّة النّاس ، **قال ابـــن تيميـــة :** " والرّؤيا المحضة التي لا دليل يدلّ على صحّتها لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتّفاق (2) فإنّه قد ثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله : **((والرّؤيا ثلاثة : فرؤيا الصّالحة بشرى من اللّه ورؤيا تحزين من الشّيطان ، ورؤيا ممّا يحدّث المرء نفسه))** (3)

فإذا كان جنس الرّؤيا تحته أنواع ثلاثة فلا بدّ من تمييز كلّ نوع منها عن نوع " (4) هذا عن الرّؤيا ، أمّا عن الكشف والإلهام ، فقد أوجب عرض كلّ هذا على الكتاب والسنّة ، فيصبح النّص حينئذ حاكما على ما يحصل للنّاس من علم بالإلهام أو التّوسّم أو الكشف ، فقال : " إنّ كثيرا ممّن يظنّ به أنّه حصل له هذا الكشف يكون ظانا في ذلك ظنّا لا يغني من الحقّ شيئا ، وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى ، كأهل النّظر والاستدلال في موارد الاجتهاد ، ولهذا وجب عليهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأن يَزِنُوا مواجيدهم ومشاهداتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله

(1) ــ عبد القاهر البغدادي : أصول الدّين ص 15 بتصرّف .

(2) ــ الإلهام والفراسة والكشف يُحكم بها على الأشياء دون الاعتماد على المقدّمات ، أمّا الرّؤيا فمن الوسائل التّي يعتمد عليها مدّعي الإلهام ، فتذكر تارة الوسيلة استغناء عن ذكر لازمها ، لذلك نحسب الحديث عن الإلهام والفراسة والكشف مرتبطا بالرّؤيا .

(3) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : الرّؤيا رقم 06 والتّرمذي ، كتاب : الرّؤيا ، باب : أنّ رؤيا المؤمن جزء من ستّة وأربعين جزءا من النّبوّة ، عن أبي هريرة ، رقم 2270 .

(4) ــ ابن تيميّة : مجموعة الفتاوى 241/27 ــ 242 .

وسنّة رسوله عليه الصّلاة والسّلام ، ولا يكتفوا بمجرّد ذلك ، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنّة لكان مستغنيا عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في بعض دينه . " (1)

وهذا الأمر قرّره **الإمام الشّاطبي** (2) حيث أنكر الرّؤية إذا خالفت حكما شرعيا أمّا إذا شهدت لها النّصوص فإنّها تقبل تبعا للنّصوص ، فيكون الحاكم حينئذ النّص ، قال : " إنّ هذه الأمور لا يصحّ أن تراعى وتعتبر ، إلاّ بشرط ألاّ تخرم حكما شرعيا أو قاعدة دينيّة ، فإنّ ما يخرم حكما شرعيّا أو قاعدة شرعية ليس بحقّ في نفسه ، بل هو إمّا خيال أو وهم ، وإمّا من إلقاء الشّيطان ، وقد يخالطه ما هو حقّ وقد لا يخالطه ، وجميع ذلك لا يصحّ اعتباره من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع " (3) وهذه الحقيقة أقرّبها أئمّة الصّوفيّة المشهود لهم بالإمامة .

قال أبو سليمان الدّاراني (4) : " إنّه ليقع في قلبي النّكتة من نكت القوم فلا أقبلها

---

(1) ــ المرجع نفسه 39/11 بتصرّف .

(2) ــ **أبو إسحاق الشّاطبي : (712 هــ ــ 790 هــ)**

هو إبراهيم بن موسى بن محمّد أبو إسحاق الشّاطبي ، نسبة إلى شاطبيّة من مدن الأندلس ، نشأ على حبّ العلم منذ صغره ، كان على مذهب مالك في الفقه ، كان أصوليّا مفسّرا ، فقيها لغويا من العلماء المحقّقين ، من آثاره : الاعتصام ، الإفادات والإنشادات ، في الأدب . انظر لأحمد بابا التّنبكتي : نيل الابتهاج ص 43 وما بعدها وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج له أيضا 91 ــ 94 محمّد مخلوف : شجرة النّور الزّكيّة 332/1 ــ 333 .

(3) ــ الشّاطبي : الموافقات 202/2 ــ 203 .

(4) ــ **أبو سليمان الدّاراني (140 هــ ــ 215 هــ)**

هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطيّة من أهل داريا قرية من قرى الشّام ، زاهد مشهور رحل إلى بغداد وأقام بها مدّة ثمّ عاد إلى الشّام ، من أقواله : أفضل الأعمال خلاف هوى النّفس . انظر أبو عبد الرّحمن السّلمي : طبقات الصّوفيّة 74 ــ 79 الذّهبي : السّير 182/10 ــ 185 ، ابن خلّكان وفيات الأعيان 131/3 ، أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء 267/9 .

إلاّ بشاهدين : الكتاب والسنّة . " (1)

وقال أبو القاسم الجنيد (2) : " الطّرق كلّها مسدودة على الخلق إلاّ من اقتفى أثر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأنّ علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنّة " (3)

وقرّر سعيد حوى (4) هذه الحقيقة بقوله : " إنّ الكشف ممكن وهو ما يمكن أن يصادفه السّالك إلى الله ، وهو من مظاهر فضل الله وابتلائه ، و لكنّنا جميعا مقيّدون بالنّصوص لا بالكشف ، والكشف لا تثبت به عقيدة جديدة ولا يزاد به على النّصوص ، ولا تتعبّد به الأمّة ولا تكلّف الأمّة بتصديق أصحابه حتّى ولو كانوا صادقين ، لأنّ قلوبهم ليست معصومة في أمر الغيب واحتمال التوهّم قائم ولأنّ الكشف قد يكون امتحانا للإنسان أو للنّاس فيزلّ به صاحبه أو غيره ...

---

(1) ــ طبقات الصّوفيّة ، ص 76 .

(2) ــ **أبو القاسم الجنيد (ت 297 هــ)**

هو الجنيد بن محمّد بن الجنيد البغدادي ، من كبار الصّوفيّة ، كان فقيها ، تفقّه على أبي ثور ، و هو أوّل من تكلّم في علم التّوحيد ببغداد ، عدّه العلماء شيخ مذهب التّصوّف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنّة . انظر طبقات الصوفيّة 129 ــ 135 سير أعلام النّبلاء 66/14 حلية الأولياء 274/10 وما بعدها .

(3) ــ أبو القاسم القشيري : الرّسالة القشيريّة ص 86 .

(4) ــ **سعيد حوى (1935 م ــ 1989 م)**

هو سعيد بن محمّد بن ديب حوى ، من أبرز الدّعاة المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ولد في حماة بسوريا ، تتلمذ على يد عدد كبير من المشايخ منهم : شيخ حماة وعالمها محمّد الحامد والشّيخ محمّد الهاشمي ، ودرس على يد مصطفى السّباعي ، ومصطفى الزّرقاء ، كرّس حياته للدّعوة والتّأليف ، من آثاره : سلسلة الأصول الثّلاثة : الله جلّ جلاله ، الرّسول ، الإسلام والأساس في التّفسير ، تربيتنا الرّوحيّة ، وجند الله ثقافة وأخلاقا ، وغيرها . انظر محمّد خير رمضان يوسف : تتمّة الأعلام للزّركلي 207/1 ــ 209 .

والسّالك ليس همّه الكشف ممّا يمكن أن يصادفه أثناء سيره ، وإنّما همّه الآخرة ومراده وجه الله " (1)

وقال محي الدّين بن عربي (2) " نظرنا إلى الفراسة الحكميّة فرأينا أربابها قسّموا الأشياء إلى محمود ومذموم ... فقلنا لا حسن ولا قبح إلاّ شرعا ، وعلى هذا قام لنا الدّليل ، و الإنسان إذا كان جاريا مع الشّريعة على فهم اللّسان حيث ما مشى الشّارع مشى ، و حيث ما وقف وقف ، وهذا هو الوسط ، وبهذا تصحّ محبّة الله له ، قال الله عزّ وجل : ((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران 31] فباتّباع الشّارع صحّت محبّة الله وغفران الذّنوب ، و حصلت السّعادة الدّائمة . " (3)

وبهذا يمكن القول أنّ الله عزّ وجل ، قد يؤيّد بالإلهام أو الكشف بعض عباده فيوفّقهم لحلّ المعضلات وفهم المشكلات في زمن قياسي ، لكن لا يصلح أن يجعلوا ذلك مصدرا لإثبات العقيدة ، إنّما العمدة في هذا نصوص الوحي عملا بقوله تعالى : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ)) [النّساء 59]

وفائدة هذا البحث أنّه يلفت انتباهنا إلى ملاحظة المصادر التي نعتمد عليها في

(1) ــ سعيد حوّى : تربيتنا الرّوحيّة ص 166 بتصرّف .

(2) ــ محي الدّين بن عربي (560 هــ ــ 638 هــ)

محمّد بن علي بن محمّد ابن عربي ، من أئمّة المتكلّمين في التّوحيد والتّصوّف ، صنّف التّصانيف في تصوّف الفلاسفة وأهل الوحدة ، فقال أشياء منكرة عدّها طائفة من العلماء مروقا وزندقة ، وعدّها آخرون من إشارات العارفين ورموز السّالكين ، كان عالما بالآثار والسّنن قوي المشاركة في العلوم ، من آثاره : فصوص الحكم ، الفتوحات المكيّة في التّصوّف ، انظر الذّهبي : ميزان الاعتدال 269/6 ــ 270 ابن حجر : لسان الميزان 307/5 ــ 310 .

(3) ــ التّدبيرات الإلهيّة من رسائله 357/2 .

معارفنا ، فإنّنا أحيانا نحكم على موضوع ما بالسّلب أو الإيجاب ، بالتّجريح أو التّعديل ونبني عليه مواقف خطيرة والأمر في حقيقته خلاف ذلك ، بسبب اعتمادنا على ما ليس بمصدر للمعرفة مصدرا لها ، وقضّية لها أهمّيتها في حياة الإنسان كقضيّة الإيمان ، لا يمكن الاعتماد في معرفتها على مجرّد الظنّ فضلا عن الوهم ، وإلاّ تعذّر الوصول إلى الأحكام الصّحيحة أثناء دراستها ، فما هي المصادر المعتمدة في العقيدة ؟ هذا ما نبيّنه فيما يلي :

المطلب الثّاني : مصادر المعرفة في العقيدة الإسلاميّة

خلق الله الإنسان وفضّله على كثير من مخلوقاته بالعقل وخصّه بالتّكليف ، ومن رحمته بعباده أن وهبهم وسائل الإدراك التي تيسّر لهم سلامة الفهم وحسن التّطبيق ، وجّههم الوجهة التّي تضمن لهم معرفة خطابه معرفة لا يشوبها دخن متمثّلة في عدّة أمور منها إرشادهم إلى مصادر التّلقيّ في معرفة دينه معرفة لا يشوبها الوهم وفق البيان الآتي :

المصادر اليقينيّة في العقيدة الإسلاميّة

تنحصر مصادر المعرفة في العقيدة الإسلاميّة في أصلين : **الكتاب والسنّة** .

1 : القرآن الكريم : القرآن الكريم هو أساس الدّين ومصدر التّلقّي في العقيدة وحجّة الله على خلقه ، والسّنّة النّبويّة بيان له ، إذ لا خلاف بين المسلمين في أنّ القرآن الكريم أساس الإسلام ، ومصدره الأوّل لشتّى تعاليمه في أحوال المعاش والمعاد ، وأنّه برهان النّبوّة ودليل صدقها ، ومعجزتها الكبرى . (1)

فهو عمدة الملّة ، وهو الطّريق إلى الله ، فمن أراد إدراك مراد خطاب الله لزمه أن يجعله مصدر علمه وعمله ، ويتّخذه جليسه وأنيسه ، فإنّه أصل علوم الشّريعة كلّها ، والمنهل الأعظم الذي تصدر عنه كافّة العلوم المتعلّقة بالإسلام ، من

(1) ـ انظر : محمّد الغزالي ، نظرات في القرآن ص 166 .

توحيد وفقه وأصول وتاريخ وأخلاق ، وغيرها من الفنون ، حتّى إنّ أبا حامد الغزالي عدّه المصدر الوحيد للملّة ، وأنّ الرّسول التزمنا بكلامه لأنّه يخبر عن ربّه ، وليس كلامه من تلقاء نفسه ، فقال " واعلم أنّا إذا حقّقنا النّظر : فإنّ أصل الأحكام واحد وهو قول الله تعالى ، إذ قول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، ليس بحكم ولا ملزم ، بل هو مخبر عن الله ، فالحكم لله تعالى وحده ، والإجماع يدلّ على السنّة ، والسنّة على حكم الله تعالى . " (1) وممّا هو معلوم أنّ كافّة العلماء يجعلون الكتاب العزيز على رأس مصادر التّشريع وفي مقدّمة الأدلّة الكليّة .

العقل قاصر لذلك نحتاج إلى الوحي

فقد اقتضت رحمة الله بعباده أن لا يكلهم إلى عقولهم ، فالعقل مهما كان كاملا فهو قاصر يتعذّر عليه التّمييز الدّائم بين الخير والشرّ ، فإنّ له حدّا يقف عنده ولا يتجاوزه ، كما أنّ الشّهوات تتغلّب فتحول دون الالتزام بما توصّلت إليه العقول في كثير من الأحيان ، وقد عبّر **ابن خلدون** عن هذه الفكرة بقوله : " ولا تثقنّ بما يزعم لك الفكر من أنّه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كلّه ... واعلم أنّ الوجود عند كلّ مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحقّ وراءه " (2) وقصور أحكام العقل في كثير من الأحيان قضيّة مسلّمة عند العلماء ، فالإنسان كما قال الشّيخ **محمّد الخضر حسين** (3) " ربّما ألقى على الحسنة نظرة متسرّعة

(1) ــ أبو حامد الغزالي : المستصفى من علم الأصول 100/1 .

(2) ــ ابن خلدون : المقدّمة 492/1 .

(3) ــ **محمّد الخضِر حسين : (1876 م ــ 1958 م)**

هو محمّد الخضر بن الحسين بن علي أديب وباحث ، ممّن تولّوا مشيخة الأزهر ، ولد في نفطة بتونس ، ثمّ انتقل إلى العاصمة فالتحق بجامع الزّيتونة ، وبعد تخرّجه منه درّس فيه ، ثمّ ولي القضاء ، نال شهادة العالميّة ودرّس في الأزهر ، توفّي بالقاهرة ودفن فيها ، من آثاره حياة اللّغة =

فيحسبها سيّئة وقد يتراءى له الشرّ شبيها بالخير فيتلقّاه بالقبول ، وقد تصدّى رجال للبحث في نشأة الخليقة بعقولهم فكانت عاقبة بحثهم أن خرّوا للأحجار أو للكواكب أو الحيوان سجّدا ، وإذا وقف صاحب القوّة العاقلة على وجه الخير أو الشّر فقد يساوره الغضب أو تسيطر عليه اللّذّة ، فيترك الصّالح أو يأتي المنكر ، ثمّ إنّ المدارك تتفاوت إمّا بحسب فطرتها أو بالنّظر إلى استعدادها المكتسب من التّجارب ، فترى الرّجل يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل النّفس الواحدة قد يبدو لها الأمر حسنا في حال ، فإن لم يوافق غرضها في وقت آخر انقلب في رأيها شيئا نكرا ، وكثيرا ما يشتمل الأمر في الواقع على وجهي المنفعة والمفسدة فيريد بعضهم جلب منفعته فيسعى في تقريرها ويرغب آخر في درء مفسدته فيلوي عنها صفحا ، وربّما يشاهد الإنسان الحادثة تنزل بغيره فيقضي عليها برأي ، ولو عرضت له في نفسه وأدرك مقدار تأثيرها لعاد إلى الحكم عليها بأشدّ ممّا قضى أوّلا أو أدنى ، ولمّا كانت والأهواء تتغلّب والعقول تتفاوت اشتدّت حاجة النّاس إلى هداية السّماء . " (1)

لذلك أمر الله المؤمنين باتّخاذ الوحي مصدرا للتّحاكم فيما يقع بينهم من نزاع في فقال : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)) [النّساء 59] فهذا يوجب التّحاكم إلى نصوص الوحي وتقديمها على ما سواها ، إذ لو ردّوا إلى غير ذلك من عقول النّاس وآرائهم لم يزدهم هذا الرّد إلاّ اختلافا واضطرابا ، وقال سبحانه : ((كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً

= العربيّة ، طائفة القاديانيّة ، الحريّة في الإسلام . انظر : الزّركلي ، الأعلام 113/6 ــ 114 .

(1) ــ محمّد الخضر حسين : الدّعوة إلى الإصلاح ص 8 ــ 9 بتصرّف .

فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ)) [البقرة 213] قال ابن عبّاس (1) : " كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ فاختلفوا فبعث الله النّبييّن مبشّرين و منذرين . " (2)

فالخلاف الذي وقع بينهم لم يحسم ، فاحتاجوا إلى الوحي لوضع حدّ لنزاعهم لأنّ البعض قد يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره ، وقد يعجز عن بيان ذلك له ، لذلك يسّر الله كتابه للفهم ، فليس في تعبيره أو حقائقه أيّ غرابة أو تناقض ، قال تعالى ((وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ)) [القمر 17] وقال : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَـٰفًا كَثِيرًا)) [النّساء 82]

<u>2 : السنّة النّبويّة</u>

السّنّة النّبويّة مرجع كلّ مسلم في معرفة أحكام الإسلام شأنها شأن القرآن ، قال تعالى : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ)) [النّساء 59] " فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاما بأنّ طاعة الرّسول تجب استقلالا من

(1) ــ عبد الله بن عبّاس : (3 ق هـ ــ 68 هـ)

هو الصّحابي عبد الله بن عبّاس ، حبر الأمّة وترجمان القرآن ، ولد بمكّة ، لازم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وروى عنه ، بلغت مروياته 1660 حديثا ، كان يجعل يوما للفقه ويوما للتّأويل ويوما للمغازي ويوما للشّعر ويوما لوقائع العرب ، كفّ بصره في آخر عمره ، سكن الطّائف وتوفّي بها انظر الإستيعاب 68/3 ــ 70 ، الإصابة 141/4 وما بعدها .

(2) ــ ابن جرير الطّبري : جامع البيان في تأويل القرآن 347/2 .

غير عرض ما أمر به على الكتاب بل إذا أمر وجبت طاعته ، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه فإنّه أوتي الكتاب ومثله معه . " (1) كما قال : ((**ألا إنّي أوتيت الكتاب ومثله معه**)) (2)

فقوله ومثله معه : السّنّة ، وقد فسّرت الحكمة في قوله تعالى : ((وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ)) [الجمعة 02] بالسنّة ، قال الإمام الشّافعي : كلّ الحكمة في القرآن السنّة (3) وهي على هذا الأساس هي المنهاج العملي للسّلوك في مقابل الاعتقاد ، وعلى هذا النّحو قال تعالى : ((وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ)) [البقرة 251] " فالحكمة التي أعطاها الله لنبيّه داود عليه السّلام هي الأخلاق والسّلوك المستقيم ، فقد عُرِفَ عنه أنّه كان ذا خلق كريم و شجاعة في سبيل الله ، وهذا ما جعله ينتصر على أعدائه . " (4)

فبالقرآن أصبح عليه الصّلاة والسّلام مبلّغا عن الله ومبيّنا عن مراده ، وقد انتقل هو به انتقالا نفسيّا عاليا ، ومن آثار علمه بالقرآن وتأثّره به ، نطق بالسّنن الرّاشدة والأحاديث الهادية ، فكانت هي الأخرى حِكَمًا تنفع النّاس ، وهدى يشدّهم إلى الطّريق المستقيم . وقد امتنّ الله عليه بهذا الوحي فقال ((وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا

(1) ــ ابن قيّم الجوزيّة : إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين 48/1 .

(2) ــ أبو داود عن المِقدام بن معد يَكْرِبَ ، كتاب : السنّة ، باب في لزوم السنّة ، رقم 4591 . قال المنذري : وأخرجه التّرمذي وابن ماجة ، وقال التّرمذي حسن غريب من هذا الوجه وحديث أبي داود أتمّ من حديثهما .

(3) ــ الشّافعي : الرّسالة ص 103 .

(4) ــ محمّد البهيّ : من مفاهيم القرآن في العقيدة والسّلوك ص 24 ــ 25 .

يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)) [النّساء 113] (1)

بل إنّ المسلم لا يحكم له بصحّة الإيمان إلاّ إذا انقاد للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى : ((فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)) [النّساء 65] وحذّر عليه الصّلاة والسّلام من الإعراض عن السّنّة فقال : ((**لا ألفينّ أحدكم متّكئا على أريكته يأتيه الأمر ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ، ما وجدنا في كتاب اللّه اتّبعناه**)) (2) **قال الإمام الخطّابيّ** : " في الحديث دليل على أنّه لا حاجة للحديث أن يعرض على الكتاب وأنّه مهما ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيء كان حجّة بنفسه فأمّا ما رواه بعضهم أنّه قال إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه ، فإنّه حديث باطل لا أصل له . " (3)

وقال أبو حامد الغزالي : وقول رسول الله حجّة لدلالة المعجزة على صدقه ولأمر الله تعالى إيّانا باتّباعه ، ولأنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ، لكن بعض الوحي يتلى فيسمّى كتابا ، وبعضه لا يتلى وهو السنّة ، وقول رسول الله حجّة على من سمعه شفاها " (4)

وقال الإمام الشّاطبي : " إنّ الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم خارجين

(1) ــ انظر : محمّد الغزالي : نظرات في القرآن ص 166 .

(2) ــ أبو داود ، كتاب السنّة ، باب : في لزوم السنّة ، عن أبي رافع ، رقم 4592 . والتّرمذي في كتاب العلم ، باب : ما نُهِيَ عنه أن يُقَالَ عند حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أبي رافع رقم 2663 . وقال حديث حسن صحيح .

(3) ــ أبو سليمان الخطّابي : معالم السّنن 276/4 .

(4) ــ الغزالي : المستصفى من علم الأصول 129/1 .

عن السنّة ، إذ عوّلوا على كون الكتاب فيه بيان كلّ شيء ، فاطّرحوا أحكام السنّة فأدّاهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله " (1)
إلاّ أنّ المعتبر في السنّة : الصحّة ، فإذا علم المكلّف بصحّة الحديث ، وجب عليه الإيمان به ، والعمل بمقتضاه ، بغضّ النّظر عن كونه متواترا أو دون ذلك أمّا إذا وقعت الرّيبة في نسبة الحديث إلى رسول الله صلّ الله عليه وسلّم ، فيجب حينئذ التّحقّق من صحّته بالطّرق المعروفة في علم الحديث .
وقد نبّه محمّد عبده (4) إلى هذا المعنى قائلا : " بعد أن ثبتت نبوّته عليه الصّلاة والسّلام بالدّليل القاطع ، وأنّه إنّما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنّه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به ، ونعني بما جاء به ما صرّح به في الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه ، ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ، ونعيم الجنّة وعذاب النّار وغير ذلك ممّا هو معروف ، و يجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ، ولا تجوز الزّيادة على ما هو قطعي بظنّي ، أمّا أخبار الآحاد فإنّما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدّق بصحّة روايتها ، وأمّا من لم يبلغه الخبر ، أو بلغه وعرضت له شبهة في صحّته ، وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعن في إيمانه عدم التّصديق به والأصل في جميع ذلك أنّ من أنكر شيئا وهو يعلم أنّ النّبيّ صلّى الله عليه

(2) ـ انظر : الشّاطبي ، الموافقات 13/4 .
(4) ـ محمّد عبده : (1849 م ـ 1905 م)
محمّد عبده بن حسن خير الله مفتي الدّيار المصريّة ، ومن كبار رجال الإصلاح والتّجديد ، دعا إلى تحرير الفكر من قيود التّقليد ، اشتغل بالتّدريس والتّأليف ، وتولّى منصب القضاء ، توفّي بالإسكندريّة ، و دفن في القاهرة ، من آثاره : تفسير القرآن الكريم ، لم يتمّه ، شرح نهج البلاغة الإسلام والنّصرانيّة مع العلم والمدنيّة ، وغيرها . انظر أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث 280 وما بعدها ، الزّركلي : الأعلام 252/6 .

وسلّم حدّث به أو قرّره ، فقد طعن في صدق الرّسالة وكذّب بها ، و يلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنّه من الدّين بالضّرورة . " (1)

فالسنّة وإن كانت في المرتبة الثّانية بعد القرآن الكريم إلاّ أنّها حجّة مثله لأنّها من وجه رسالة الله لعباده عن طريق رسوله عليه الصّلاة والسّلام ، فإذا ركنت النّفس إلى صحّة نسبتها للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وجب العمل بها في ما نصّت عليه .

المطلب الثّالث : دور العقل في العقيدة الإسلاميّة

أوّلا : أهمّية العقل في الإسلام

العقل وسيلة أساسيّة في فهم مراد خطاب الله وتمييزه عن سائر الكلام ، لذلك اعتمد عليه سبحانه في عرض العقيدة وإبطال اعتقادات المشركين حيث طالبهم بالحجّة والبرهان في نطاق المحاكمة العقليّة التي يخضع لها سائر العقلاء ، وفي القرآن الكريم كثير من الحجج العقليّة حيث اعتمد الأقيسة العقليّة في تقرير مسائل الاعتقاد ، قال ابن تيمية : " وكلّ واحد من وحدانيّة الرّبوبيّة والإلهيّة وإن كان معلوما بالفطرة الضّروريّة البديهيّة وبالشّرعية النّبويّة الإلهية ، فهو أيضا معلوم بالأمثال الضّروريّة التي هي المقاييس العقلية ." (2)

وممّا يدلّ على عناية الإسلام بشأن العقل أنّ الله جعله مناط التّكليف ، ووسيلة الإصغاء لخطابه ، والتّفريق بين الهدى والضّلال ، كما قال : ((قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)) [سبأ 46] وبالمقابل فقد ذمّ الله الذين

(1) ـــ محمّد عبده : رسالة التّوحيد ص 246 ـــ 247 .

(2) ـــ ابن تيميّة : مجموعة الفتاوى 29/2 .

يعطّلون عقولهم واعتبرهم أضلّ من الأنعام فقال : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ)) [الأعراف 179] وقال : ((إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)) [الأنفال 22]

وأهمّية العقل قضيّة مسلّمة عند العلماء ، فإنّ المسلم كما قال أبو حامد الغزالي " لا يمكنه الاستفادة بالنّقل دون الاعتماد على العقل ، كما لا يمكنه الاهتداء بالعقل إذا استغنى به عن النّقل وأنّهما ضروريان في تحقيق الهداية للإنسان " (1)
وقال الرّاغب الأصبهاني (1) **:** " واعلم أنّ العقل لا يهتدي إلاّ بالشّرع ، والشّرع لا يتبيّن إلاّ بالعقل ، فالعقل كالأساس والشّرع كالبناء ، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء ، ولم يثبت بناء ما لم يكن أساس . " (3)
وهذا الكلام صحيح في عمومه غير أنّه لا يعني أنّ العقل ندّ للنّصّ فضلا عن تقدّمه عليه ، إنّما غاية هذا الكلام أنّ العقل وسيلة ضروريّة لفهم النّقل ، و أنّ الثّقة به لا تعني أنّه مطلق القدرة على إدراك كلّ شيء ، فإنّ له حدّا يقف عنده

(1) ــ الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص 02 ــ 03 .
(2) ــ الرّاغب الأصبهاني : (ت 502 هــ)
هو الحسين بن محمّد بن المفضّل ، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) أديب من الحكماء من أهل أصبهان ، حتّى كان يقرن بالإمام الغزالي ، كان من أذكياء المتكلّمين من آثاره : الذّريعة إلى مكارم الشّريعة ، المفردات في غريب القرآن ، تفصيل النّشأتين ، محاضرات الأدباء . انظر : سير أعلام النّبلاء 120/18 ــ 121 السيّوطي : بغية الوعّاة 297/2 غير أنّه ترجم له باسم المفضّل بن محمّد .
(3) ــ الرّاغب الأصبهاني : تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين ص 140 ــ 141 .

ولا يتجاوزه وقد عبّر الإمام الشّاطبي عن هذه الفكرة قائلا : " إنّ الله جعل للعقول في إدراكها حدّا تنتهي إليه ولا تتعدّاه ، ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك في كلّ مطلوب ، ولو كانت كذلك ، لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون . " (1)

لكن ينبغي التّنبيه أيضا أنّ هذه الحقيقة لا تطعن في مصداقية العقل وقدرته على المعرفة ، ولا يمكننا اتّهامه بالعجز المطلق الذي قال به الشكّاك وأهل السّفسطة لذلك استدرك ابن خلدون على كلامه الذّي بسطناه سابقا (2) مبيّنا قيمة العقل قائلا : " وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح وأحكامه يقينيّة لا كذب فيها ، غير أنّك لا تطمع أن تزن به أمور التّوحيد والآخرة وحقيقة النبوّة ، وحقائق الصّفات الإلهيّة وكلّ ما وراء طوره ، فإنّ ذلك طمع في محال ومثال ذلك : مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذّهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدلّ على أنّ الميزان في أحكامه غير صادق ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدّى طوره ، حتّى يكون له أن يحيط بالله وصفاته ، فإنّه ذرّة من ذرّات الوجود الحاصل منه . " (3)

وبعد بيان أهمّية العقل في الإسلام نشرع في بيان دوره في العقيدة الإسلاميّة .

<u>ثانيا : وظيفة العقل في العقيدة الإسلاميّة</u>

العقل الذي يخاطبه القرآن : هو الذي يدرك الحقائق ، ويحسن التّدبّر والاعتبار ويعصم الضّمير من الخطأ ، ويقوم بالرّسالة المنوطة به ذات الشّعب الثّلاث :

<u>أ :</u> البحث عن مصادر الهداية وسبل الرّشاد المشار إليها في قول الحقّ عزّ وجل

---

(1) ـــ الشّاطبي : الاعتصام 318/2 .

(2) ـــ انظر : الصّفحة 69 من هذا البحث .

(3) ـــ ابن خلدون : المقدّمة 1 / 492 .

((وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) [الأنعام 135]

بـ : فهم خطاب الله المنزّل للنّاس والموجّه للعقلاء المشار إليه في قوله تعالى : ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ)) [محمّد 24] وقوله : ((كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ)) [ص 29]

جـ : ترجمة هذا الفهم إلى سلوك عملي عن طريق القلب الذي يتأثّر تأثّرا إيجابيّا بخطاب الله ، تجسّده تصرّفات المؤمن ، قال تعالى : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)) [الأنفال 2 ــ 4]

ومعنى هذا أنّ الحقائق العقديّة تتّجه إلى العقل لإقناعه بالمعارف العلمية ، ثمّ تتحوّل القناعة العقلية إلى عمل عن طريق القلب فعندما يمتلئ القلب بمعاني التّعظيم والخوف والرّجاء (الخشية) يحوّل القناعات العقلية إلى عمل وسلوك وتتمّ هذه العمليّات عبر مراحل الآتية :

1 ــ الإدراك : أوّل عمليّة يقوم بها العقل : التّأمّل في الموضوع الذي يريد دراسته و تدبّر معانيه ، فيقلّب النّظر فيه على وجوهه سعيا منه لإدراك أسراره ، وتسمّى هذه العمليّة **الإدراك** (1) الذّي يناط به الفهم والتّصوّر والعقل المدرك هو المعنيّ

---

(1) ــ الإدراك : هو حصول الصّورة عند النّفس النّاطقة ، أو هو تمثيل حقيقة الشّيء من غير حكم عليه بنفي أو إثبات ، ويسمّى تصوّرا . الجرجاني : التّعريفات ص 20 ، والمقصود هنا فهم الموضوع محلّ البحث .

بقوله تعالى : ((لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)) [يوسف 111]

2 ـ الحكم : ثمّ ينتقل من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الحكم باستخلاص النّتائج وإصدار الأحكام ، وهذه المرحلة تبنى على سابقتها وتعتمد عليها وتسمّى مرتبة الحكم التي يناط بها استخلاص النتّائج ، و هي المعنية بقوله تعالى : ((أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ)) [القلم 35 ـ 36] (1)

3 ـ العقل الوازع : عندما تتفاعل ملكة الإدراك مع ملكة الحكم وتقوم بتحويل هذه العمليّات إلى القلب ينتج عنها **الوازع الأخلاقي** (2) حيث تُكسِبُ صاحبها حالة شعوريّة تجعله يشعر بواجب الإذعان لما توصّل إليه من جرّاء العمليّات سالفة الذّكر ، وتسمّى هذه المرحلة مرحلة العقل الوازع ، و قد خاطب القرآن الكريم العقل الوازع في آيات عدّة منها : ((وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)) [الملك 10] وقوله : ((أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)) [البقرة 44]

4 ـ العقل الحكيم : فإذا تمّ التّفاعل بين المراتب السّالفة تفاعلا إيجابيّا ، صدرت تصرّفات من صاحبها بمقادير متوازنة ، وفي أزمنتها وأمكنتها وأحوالها المناسبة وتسمّى هذه المرحلة **بملكة الحكمة** ، وهي التي تجعل صاحبها عالما بما ينفع وما يضرّ ، وما يجب فعله أو تركه .

ومن خطاب القرآن الكريم للعقل الحكيم قوله تعالى : ((ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

---

(1) ـ العقّاد : التّفكير فريضة إسلاميّة ص 06 بتصرّف .

(2) ـ الوازع : من وزع كفّ ومنع ، والوزعة هم الولاّة المانعون من محارم الله . المعجم الوسيط 1028/2 ـ 1029 ، فالوازع الأخلاقي المانع للمنكرات بسبب الأخلاق الحسنة .

بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)) [النّحل 125] وقوله : ((ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ)) [البقرة 267 ــ 268]

5 ــ الرّشد : ومن أعلى مراتب العقل : الرّشد (1) ووظيفته فوق وظيفة العقل المدرك والوازع والحكيم ، لأنّها استيفاء لجميع هذه الوظائف ، حيث لا نقص ولا اختلال ، فقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك ، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرّشيد ينجو به الرّشاد من هذا وذاك . (2) وهذا العقل هو الذي وُصِف به إبراهيم عليه السّلام ، قال تعالى : ((وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ)) [الأنبياء 51] وقال مؤمن آل فرعون : ((وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَاد)) [غافر 38]

ثالثا : عمل القلب (الوجدان) في العقيدة الإسلاميّة

كما خاطب القرآن الكريم العقل ، خاطب في العقلاء عواطفهم ، بالتّرغيب تارة وبالتّرهيب تارة أخرى حسب اقتضاء الحال ، **فالنّفس بطبيعتها جبلت على الخوف والرّجاء وهما عاملان يؤثّران في مشاعر الإنسان وأفكاره ويتدخّلان في توجيه سلوكه ومشاعره ، أمّا إذا أهمل دور الوجدان ، فإنّ البرهان العقلي يفقد**

(1) ــ الرّشد من الهداية والتّوفيق ، والرّاشد المستقيم على طريق الحقّ ، ومنه الخلفاء الرّاشدون انظر : المعجم الوسيط 346/1 .

(2) ــ العقّاد : التّفكير فريضة إسلاميّة ص 06 بتصرّف .

فعاليته أحيانا ، بل يظلّ البرهان الحسي معطّلا أيضا ، قال تعالى : ((وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)) [الأنعام 07] وقال : ((وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ)) [الحجر 14 ــ 15]

" فالعقل وحده لا يكسب ثقة النّفس أحيانا ما لم يدعّمه شاهد من الواقع (أي الحسّ) يصدّقه ، وهو حتّى بعد أن ينال من النّفس هذه الثّقة لا يستحوذ عليها بالقيادة والتّوجيه ما لم يجنّد حشدا من العواطف والأشواق ، وتلك هي الإثارة الوجدانيّة ، و هذا هو عمل القلب ، فإذا تضافرت هذه العوامل في ذات الإنسان (العقل + الحسّ + عمل القلب) واتّجهت إلى هدف معيّن لم يقم أمامها أيّ عائق ، فتترجم القناعات إلى عمل ، وما تخلّف إنسان عن التّمسّك بالحقّ إلاّ لأنّ بعض هذه العوامل لم يعمل عمله المطلوب . " (1)

أمّا إذا مرض القلب ، فإنّ وظيفته في التّفاعل مع العقل تتعطّل ، وقدرته على التّأثّر بالوحي تُشَلُّ ، قال تعالى حكاية عن حاله : ((وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ)) [التّوبة 124 ــ 125] فلا ننتظر من هذا القلب تأثّرا بكلام الله فضلا عن كلام أهل العلم إلاّ ما خالط هواه ، وهذا الصّنف هو المعنيّ

(1) ــ انظر : ابن حزم ، الأخلاق والسّير في مداواة النّفوس ص 13 ــ 15 محمّد قطب : منهج التّربية الإسلاميّة 127/1 وما بعدها ، البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن ص 20 .

بقوله تعالى : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)) [البقرة 06] فالعقل إذن يتلقّى المعارف عن طريق العمليّات سالفة الذّكر ، ثمّ يحوّلها إلى القلب ليتفاعل مع مقرّراته فيتحرّك تحرّكا إيجابيا عن طريق عواطف أساسيّة ، هي :

عاطفة التّعظيم : ويتمّ هذا من خلال معرفة صفاته بتدبّر آياته ، والنّظر في أسرار الخلق وسنن السّابقين ، فتحصل للمؤمن الثّقة بصحّة الطّريق الذي يسلكه ، لأنّه يخضع للإله الذي يجلب الخير ويكشف الضّر ، ولا يردّ له قضاء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء ، فالمؤمن إذ يعتصم بالله يوقن أنّه يأوي إلى ركن شديد ، لا ينتابه خوف من أيّ مخلوق ، فلا يخشى من مشاهد الطّبيعة وأحداثها التي تبهر كثيرا من النّاس ، ولا يأبه للأصنام والأوثان التي يقدّسها الجاهلون وينسبون إليها قوّة التّأثير على حياة النّاس كما لا يخشى من المتألّهين من البشر الذّين تذلّ لهم الأعناق ، لأنّه موقن أنّهم لا يملكون شيئا إلاّ بإذن الله فتقوى عزيمته على الإقدام على العمل الصّالح ، ويصدق توكّله على ربّه ، ولا يحجم إذا واجهته المشكلات ، لأنّه يعلم أنّ مآله التّوفيق لا يستخفّه إغراء ولا إرهاب ، فيستغني عن العباد مهما تهيّأت لهم الأسباب . (1) وهذا الصّنف من المؤمنين هم المعنيون في قوله تعالى : ((ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ

(1) ــ انظر : حسن التّرابي ، الإيمان أثره في الحياة ص 40 وما بعدها .

رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)) [آل عمران 172 ــ 175]

من أجل هذا كان تعظيم الله ركنا جوهريّا في الإيمان ، وعاملا مهمّا في تحقيق آثاره العمليّة ، وبالمقابل كان تعظيم غيره من العباد أشدَّ آفات العقيدة ، لأنّه يعطي لبعض المخلوقين حولا وقوّة من دون الله ، فيجعل لهم سلطانا على العباد يستخدمونه في استعبادهم وتسخيرهم لخدمتهم ، بحقّ الدّين أو الجاه أو المال .

عاطفة الحبّ والرّجاء : إذا علم العبد أنّ له ربّا واهبا للحياة رحيما بالمخلوقات امتلأ قلبه حبّا له وتوقيرا لقدره ، والحبّ يورث شدّة الولاء ، ويبعث على العمل تقرّبا إليه وابتغاء لمرضاته ، وهذا شأن المؤمن المحبّ لربّه ينهض إلى طاعته نافرا ، كما قال موسى عليه السّلام : ((وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ)) [طه 84]

وتتعاظم أقدار الحبّ للرّب عزّ وجل كلّما عرف العبد مزيدا من صفاته الحسنى بعلم يتلقّاه عن رسول أو بنظر في عجائب خلقه وآثار قدرته ، أو بتجربة نفسية في عبادته والتّقرّب إليه . (1)

والإنسان يحبّ نفسه ويشمل بعاطفته كلّ شيء ، ويرى وجوده ممتدّا إليه ، وهذا هو سبب حبّ الإنسان لما ينتسب إليه من أهل وملك وموطن ، وبهذا المعنى أيضا يحبّ الإنسان ربّه متى اهتدى إليه ، فوجوده كلّه لله وقيامه ودوامه به ، و رجوعه إليه ، وهذا ما أمر الله المؤمن به عن طريق أمره لرسوله حيث قال : ((قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)) [الأنعام 162 ــ 163]

(1) ــ انظر : محمّد سعيد رمضان البوطي ، شرح الحكم العطائيّة 25/1 وما بعدها .

وتربط المؤمن بربّه وشائج أوثق من كلّ قرابة لأنّه أثر من آثار خلقه ، صنعه بيده ونفخ فيه من روحه ، ولقّنه من علمه وحاطه برحمته وقدرته ، فما هو إلاّ جزء من هذا الكون المحاط بآثار قدرة الله الحسيّة ، فكلّ شيء في عالم الشّهادة يربطه بربّه ويزيده أنسا به وحبّا له ، فالمؤمن الحق لا يحبّ نفسه إلاّ كان الله أحبّ إليه منها ومن كلّ قريب ، ومن ملأ حبُّ الله قلبَه استرخص في سبيله كلّ نفيس وابتغى إرضاءه ، وهذا الصّنف هو المعنيّ بقوله تعالى : ((وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ)) [البقرة 207] وقوله : ((وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا)) [الإنسان 08 ــ 09] (1) وكلّما تعاظم حبّ الله ازداد زهده في الدّنيا وآثر مرضاته على كلّ مرغوب ، غير أنّه لا يقنع بمرتبة معيّنة ، فكلّما بلغ مقاما من القرب واستبشر به إلاّ تطلّع إلى ما فوقه من مقامات القرب ، فيطيعه في انقياد وينعم بالتّكاليف ولا يستثقلها ، ويراقب حدود الله ولا يضيق بها لأنّها معالم الطّريق إليه ، ومن حبّ الله يحبّ رسوله الذي بلّغ عنه فيوالي الله ورسوله ويفرّ إليه مع إخوانه في سباق ، وأينما لاح له أمر من الله فيه رضاه اندفع إليه مستهينا بحجم التّكاليف ومشقّة الطّريق ، وبالمقابل تجده مبغضا كلّ من حادّ الله وقّافا عند حدوده ، مجتنبا ما يجلب عليه غضبه ومقته .

وإذا كان حبّ المرء لله ورسوله ثمرة تدلّ على إيمانه ، فإنّ العمل كذلك من ثمار الحبّ وشاهد عليه ومعيار لتمكّنه ، قال تعالى : ((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران 31]

(1) ــ انظر : التّرابي ، الإيمان وأثره ص 68 وما بعدها .

ــ وإذا نظر المؤمن إلى نعم الله عليه فلا يكاد يحصيها ، والإنسان مجبول على عرفان الجميل لكلّ من أحسن إليه ويجد نفسه منساقا بذلك الامتنان إلى أن يشكره ويؤدّي إليه ما يفي بإحسانه ، فلا تكاد نفسه تسكن وترتاح حتّى يفعل ذلك ، لكن أين إحسان البشر المحدود من نعم الله التي لا تحصى ؟

بل ما من نعمة تنسب للعباد إلاّ هي فرع من إنعام الله خالق الأشياء ومالكها ومسخّر بعضها لبعض ، وهو منزّه عن الغرض غنيّ عن العوض ، إلاّ ابتلاءهم هل يشكرون أم يكفرون ؟ وهذا المعنى هو الذي نطق به نبيّ الله سليمان عليه السّلام : ((قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)) [النّمل 40] وقال تعالى : ((إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)) [الإنسان 2 ــ 3] فالمؤمن يقدّم العمل الكثير ليشكر الله على إحسانه ، تسكينا لنفسه التوّاقة لردّ الجميل ثمّ يقوّي من عزمه ليقابل الله شكره بمزيد فضله . (1) قال تعالى : ((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ)) [إبراهيم 07] فحبّ الله شعبة من شعب الإيمان إذا وقرت في القلب صدّقها العمل قياما بالخيرات وبعدا عن المنكرات ، وهذا له أثره في دفع الفعل الحضاري .

عاطفة الخوف : الخوف من الله لا حدّ له ، فإنّه يصيب بعذابه من يشاء ، ويبلغ بهول العذاب ما يشاء ، لأنّه يحيط بكلّ فرد ويأخذ بناصية كلّ دابّة ، فلا ينفلت

(1) ــ انظر : الغزالي ، إحياء علوم الدّين ، كتاب الشّكر 334/4 وما بعدها .

عنه عبد بالتّخفّي والمداهنة ، والمؤمن يعلم أنّه محاسب على الكبيرة و الصّغيرة وهو ببشريّته لا ينفكّ أبدا عن مقارفة بعض الخطايا التي لا يدري إن كان الله غافرها ، ومهما تكاثرت حسناته فهو يخشى أن لا تحظى عند الله بالقبول ، لأنّ الله اشترط للعمل المقبول خلوصَ النيّة ، ونيّات البشر تغلب عليها الشّائبات ، و من هنا لا يأمن أبدا من عذاب الله فيدفعه الخوف والاحتياط إلى مضاعفة المجاهدة ، كما قال تعالى : ((وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ)) [المؤمنون 60 ــ 61]

عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت : ((**يا رسول اللّه الذّين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الرّجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ؟ قال لا يا ابنة الصدّيق ، ولكنّه الرّجل يصوم ويصلّي ، ويتصدّق ، ويخاف أنّ لا يقبل منه**)) (1)

ثمّ إنّ المؤمن يعلم أنّه محاسب بخواتم أعماله فيخشى سوء الخاتمة ، فيدفعه ذلك إلى المبالغة في العمل الحسن ليزكّي نفسه ويحصّنها من المعصية ، لأنّه يعلم أنّه مراقب في كلّ لحظة إلى أن يتوفّاه الله ، ثمّ إنّ الذي يهمّ بالسّوء يخاف أن يباغته الله في الدّنيا من حيث لا يحتسب ، فيهلكه بما قدّمت يداه وهذا ما حذّر الله منه في كثير من الآيات ، كما في قوله تعالى : ((وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)) [النّحل 112]

ــ وإذا كان لرجاء الجزاء بالحسنى الأثر البالغ في دفع المؤمن للعمل الصّالح فإنّ الخوف وازع عن قصد الشرّ والإقدام عليه ، لأنّ الذي يهمّ بالعدوان إنّما

(1) ــ الترّمذي عن عائشة ، كتاب التّفسير ، تفسير سورة المؤمنون رقم 3175 قال : و روي نحوه عن أبي هريرة . انظر أيضا : تفسير الطّبري 225/9 .

تدعوه شهوة يريد أن يقضيها ، أو غضب يريد أن يطفئه ، فإذا عُرِضَ له العذاب جزاء على عدوانه أحدث له خوفا يغلب شهوته وغضبه ، فيرجّح سلامته على إرواء غليله ، لذلك بسط الله وعوده لسائر الصّالحين ، كما بسط وعيده المحيط بكلّ مفسد ، ليرتدع طالب الشرّ ويخشى من مغبّة عمله .

فالرّجاء والخوف يؤثّران على المؤمن إن كان تقيا ، فيصرفه الرّجاء عن الشرّ لأنّ الرّجاء في الأجر الموعود يعوّضه عمّا يتحصّل عليه بطريق العدوان ، فهو من رجائه يشتري الآخرة بالدّنيا ، ويصبر على قضاء شهوته العاجلة طمعا في نعيم الآخرة ، وبالمقابل الخوف يردعه لأنّ النّفع المرجو من هضم حقوق الآخرين ، أو من التّعدّي على حدود الله يقابله عذاب شديد ، ولكن رحمة الله سبقت غضبه وأجره أوسع من عذابه ، فهو يجزي المؤمن بالحسنات كلّما كفّ عن السّوء ، ويجزل له العطاء بقدر ما تعظم الفتنة فيغلبها بالصّبر ، فرجاء الرّحمة يؤثّر على المؤمن فيدعوه إلى القيام بفضائل الأعمال والاستغفار ، كما أنّ باب التّوبة لا يُغلق متى شاء أن يتوب إلى ربّه ، ولولا رجاء المؤمن المسرف في سعة حلم الله لأدركه القنوط ، وكلّما تاب المؤمن ممّا بدر منه وندم على ما فرّط في جنب الله وعزم على صدق الاستقامة إلاّ ازداد قوّة في دينه وكمالا في تقواه وقربا إلى ربّه (1) قال تعالى ((وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا)) [النّساء 110] وقال : ((وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [الأعراف 153] وقال ((قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ

(1) ـــ انظر : الغزالي ، إحياء علوم الدّين ، كتاب الرّجاء 411/4 وما بعدها .

ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)) [الزّمر 53]

والحاصل : أنّ الإيمان اعتقاد بالقلب وإقرار باللّسان وعمل بالجوارح ، فلا ينحصر في الجانب العلمي لقضاياه إنّما تتّجه المعارف العلميّة إلى العقل لتقنعه ثمّ تنتقل القناعات العقليّة إلى القلب ليحوّلها إلى عمل ، لذا فالمسلم في حاجة إلى التّعلّم ليتجنّب الضّلال ، وإلى التّزكيّة للاعتناء بطهارة قلبه حتّى يكون علمه نافعا ولا يبقى حبيس عقله ، كما قال تعالى ((هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)) [الجمعة 02]

كما أنّ التّنبيه إلى أنّ الدّين عقيدة (أصل) وشريعة (وفرع) يقتضي إقحام كلّ جزئيّة في دين الله في العقيدة ، لأنّ الإيمان بها عقيدة وتطبيقها شريعة ، لذلك سنضطرّ ــ وفق هذا التّصنيف ــ لإدراج الشّريعة في بيان آثار الإيمان في نواحي الحياة باعتبارها وجها من وجوه هذا الإيمان .

ولا يفوتنا أنّ ننبّه أنّ للعلماء في مسألة الإيمان إطلاقين ، فتارة يطلقون هذا اللّفظ ويريدون به الجانب المتعلّق بما يجب على المسلم اعتقاده فيحصرونه في التّصديق ويركّزون على أصله ، وتارة يريدون كماله فيذكرونه بأصله وفرعه ويقحمون فيه العمل ، والحقيقة أنّ استعمال الفريقين صحيح ، على أن يكون اختيار أحد الإطلاقين حسب السّياق ومقصد الاستعمال .

الفصل الثّاني

الحضارة ودور العقيدة في تحقيقها

المبحث الأوّل : الشّهود الحضّاري في اللّغة والاصطلاح

المبحث الثّاني : أهمّية العقيدة في حياة الإنسان

المبحث الأوّل : الشّهود الحضاري في اللّغة والاصطلاح

المطلب الأوّل : الشّهود لغة وشرعا

الشّهود في اللّغة

الشّهود من شهد ، وهو أصل يدلّ على الحضور والعلم والإعلام (1) والشّهيد الذي لا يغيب عن علمه شيء ، والمشاهدة : المعاينة (2) والشّهيد : الحاضر إذا أضيف إلى الأمور الظّاهرة ، أمّا إذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير والشّاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه (3) قال تعالى : ((شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)) [آل عمران 18] أي " قضى الله أنّه لا إله إلاّ هو ، وحقيقته علم الله وبيّن وشهدت الملائكة لمّا عاينت عظيم قدرته ، وشهد أولوا العلم بما ثبت عندهم ، وتبيّن من خلقه الذي لا يقدر عليه غيره " (4) .

لهذا الشّاهد هو : الحاضر الذي لا يغيب عن علمه شيء ، والمعاين لما حوله والمبلّغ لما علمه ، وهذه المعاني تستلزم التّمكّن إذ الشّاهد على العمل يجب أن يكون خبيرا به ، أمّا إذا شهد على عمل لحكمه عليه ، فينبغي أن يكون متفوّقا على من يقوم به أو في مستواه على الأقل حتّى يتمكّن من الإدلاء بشهادته وتبليغ ما عاينه بحقّ ، ومثاله الأستاذ الذي يشهد على عمل التّلاميذ فإنّه يجب أن يكون متفوّقا عليهم .

---

(1) ـــ انظر : معجم مقاييس اللّغة 221/3 ، مفردات ألفاظ القرآن 465 ـــ 466 ، القاموس المحيط 768/2 .

(2) ـــ انظر : الصّحاح 494/2 ، لسان العرب 485/3 ، المعجم الوسيط 497/1 الغريبين في القرآن و الحديث 1046/3 .

(3) ـــ لسان العرب 485/3 . تاج العروس 46/5 .

(4) ـــ تهذيب اللّغة 73/6 ، معاني القرآن 385/1 ـــ 386 ، لسان العرب 485/3 .

وعليه فإنّ مفهوم الشّهود الحضاري الذّي نعنيه هو التّفوّق الحضاري المبنيّ على العلم المقتضي له لأنّ الشّهادة على النّاس تتطلّب الموقع المتميّز الذّي يخوّل للشّاهد أن يحكم على المشهود عليه .

الشّهود على لسان الشّرع :

قضى الله عزّ وجل أن تكون الأمّة شاهدة على النّاس بمقتضى تحمّلها للإسلام دينا ، إذ هو دين يقوم على قيم العلم والعمل والتّبليغ للنّاس ، لقوله تعالى : ((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) [البقرة 143] وقوله ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ)) [الحجّ 77 ــ 78]

فالشّهادة على النّاس من مقتضيات التّديّن بالإسلام ومن لوازمه المطلوبة والأمّة حين تكون ملتزمة بدينها حقّ الالتزام ومستسلمة لربّها حقّ الاستسلام فإنّها تكون شاهدة على النّاس .

وبيان ذلك أنّ الوسطيّة تعني : " الخير والعدل ، والوسط من كلّ شيء أعدله وأفضله وأحسنه وأقسطه ، وهو من الوساطة التي هي المختار من الجواهر أو من الواسطة بمعنى الاعتدال في الشّأن ، لأنّ وسط الشّيء مصون ، بينما الأطراف يتسارع إليها الخلل ، ولأنّها وسط معنوي بين إفراط وتفريط . " (1)

---

(1) ــ انظر : الصّحاح 1167/3 ، لسان العرب 438/6 ــ 439 ، المعجم الوسيط 1031/2 تفسير الطّبري 141/3 وما بعدها ، تفسير الرّازي 89/4 .

والوسط في الأصل " اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليه كالمركز ، ثمّ استعير للخصال المحمودة لكونها أوساطا للخصال المذمومة المكتنفة بها من طرفي الإفراط والتّفريط . " (1)

والأمّة الوسط : **هي أمّة وسط في عقيدتها** : " فلا تغلو في التّجرّد الرّوحي ولا في التّعلّق المادي ، فلا تمنع من الإقبال على الدّنيا للاستمتاع بطيّباتها والسّعي لعمارتها ، ولا تبيح بالغفلة عن العمل للآخرة والتّزوّد بزادها . " (2)

وهي وسط في تفكيرها : " فلا تجمد على الماضي رافضة كلّ جديد ، ولا تتمرّد عليه قاطعة صلتها بكلّ قديم مقلّدة غيرها تقليدا أعمى ، بل تأخذ من التّجارب السّالفة وتستفيد من الخبرات الحديثة ، شعارها في ذلك : الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها أخذها .

وهي وسط في تنظيمها : فلا تدع الحياة كلّها للمشاعر والضّمائر ، ولا تدعها للتّشريع والتّأديب ، إنّما ترفع ضمائر النّاس بالتّوجيه والتّهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتّشريع والتّأديب .

وهي وسط في علاقاتها : فلا تلغي شخصية الفرد في الجماعة ، ولا تضحّي بالجماعة من أجل الفرد بل تقرّر من التّكاليف ما يجعل الفرد خادما للجماعة والجماعة كافلة للفرد محافظة على مصلحته .

والأمّة الشّاهدة على النّاس : هي الأمّة التّي تقيم بينهم العدل ، وتضع لهم الموازين والقيم فتزن قيمهم وتصوّراتهم وبهذه الطّريقة تكون شهادة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام على هذه الأمّة ، فهو الذي يقرّر لها موازينها وقيمها ، و يحكم على أعمالها وما يصدر عنها ، وبهذا تتعيّن حقيقة هذه الأمّة وتتحدّد وظيفتها لتعرفها .

---

(1) ــ تفسير الكشّاف 197/1 تفسير الآلوسي 06/2 ، محمّد اطفيّش : تيسير التّفسير 289/1 .

(2) ــ انظر القاسمي : محاسن التّأويل 418/1 وما بعدها ، تفسير المنار 4/2 ــ 5 ، في ظلال القرآن 130/1 .

وأمّة تلك هي وظيفتها ، خليقة بأن تتحمّل التّبعة ، وتبذل التّضحية في سبيل تحقيقهما ، فللقيادة تكاليفها وللقوامة تبعاتها ولا بدّ أن تبتلى قبل ذلك ليتأكّد إخلاصها لله واستعدادها للقيادة الرّاشدة . " (1)

وهذا ما أشار الله إليه في قوله : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ)) [الحجّ 77 ــ 78]

ــ علما أنّ للمفسّرين معنى آخر للشّهادة ، أخذوه من قوله تعالى : ((فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا)) [النّساء 41] وقوله : ((وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ)) [النّحل 84] وقوله ((وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ)) [الزّمر 69] مفاده أنّ النّاس يشعرون بأنّهم مطوّقون يوم القيامة بالشّهادة على ما فعلوه في الدّنيا من جميع الجهات ، وذلك من الجهات المألوفة لديهم في الشّهادة فيما يشهد به الأنبياء والمبلّغون ، أو من الجهات غير المألوفة لديهم وهي شهادة الله والملائكة والجوارح ، ليشعروا في الدّنيا بالحاجة إلى الانضباط في كلّ ما يعملونه ، وليتعمّق إحساسهم بالرّقابة الموجّهة إليهم من جميع الجهات .

(1) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 130/1 ــ 131 بتصرّف .

ـ و هكذا نلاحظ أنّ الشّهادة تتّجه إلى يوم القيامة بين يدي الله ، لإشعار الإنسان أنّه محاط إحاطة كاملة من جميع الجهات التي يتصوّر حضورها لديه على أساس : " أنّ الشّهادة في الدّنيا هي قيادة النّاس بالوحي الإلهي ، فإنّ من مكمّلات معنى الشّهادة على النّاس في الدّنيا وجوب دعوة الأمم للإسلام ليقوم ذلك مقام دعوة الرّسل إيّاهم ، حتّى تتمّ الشّهادة للمؤمنين منه على المعرضين ، وفي الآخرة أداؤها لله في يوم الحساب ، فلا تنافي بين مفهوم الشّهادة في الدّنيا بين النّاس ، و مفهوم الشّهادة يوم القيامة بين يدي لله " . (1)

<u>هل تقتضي الشّهادة تزكية جميع أفراد الأمّة</u>

ـ أثار المفسّرون اعتراضا خلاصته : **أنّ الشّهادة تفرض الموقع المتميّز للشّاهد على المشهود عليه ، ونحن نعلم أنّ الأمّة تضمّ في جماعتها المطيع والعاصي والجاهل والعالم ، فكيف يمكن أن يكون الجميع شهودا ؟**

ذهب البعض إلى جعلها خاصّة بالذّين ينعقد بهم الإجماع ، وهم العلماء واستدلّ بقوله تعالى : ((وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ)) [البقرة 143] (2)

لكن يبدو أنّها غير خاصّة بالعلماء ، وبيان ذلك : " أنّ الأسلوب القرآني قد جرى في حديثه عن البعض بصفة الكلّ باعتبار اشتمال الكلّ عليه ، كما حدّثنا عن بني إسرائيل ، مع أنّ الصّفات التي ذكرها كانت صفات البعض ، و على هذا فإنّ كون الأمّة شاهدة على النّاس يعني وجود العناصر الكثيرة منها ممّن يصلحون لهذا الموقع الكبير . " (3)

وهم الطّليعة الواعية المؤمنة التّقيّة المنضبطة التّي تفهم الإسلام حقّ الفهم

---

(1) ـ انظر : تفسير الرّازي 93/4 والتّحرير والتّنوير 21/2 ومن وحي القرآن 78/3 ـ 79 .

(2) ـ تفسير الرّازي 90/4 وتفسير القرطبي 105/2 وتفسير البيضاوي 91/1 ـ 92 .

(3) ـ انظر : محمّد الطّاهر بن عاشور ، التّحرير والتّنوير 19/2 ، محمّد حسين فضل الله ، من وحي القرآن 79/3 ـ 80 .

وتعيه حقّ الوعي ، وتمارسه حقّ الممارسة وتحمله بروح المسؤوليّة ، إنّها النّخبة الواعية الموجودة في كلّ زمان ومكان ، التي يقف في طليعتها الحكّام المنصفون والعلماء الواعون ، والمجاهدون المخلصون والعامّة الطّيّبون من مختلف المهن والصّناعات ، الذين يحملون هذه الشّهادة إلى الله يوم القيامة بعد أن يؤدّونها في الدّنيا ، لأنّهم يعيشون روح الرّسالة بعقائدهم وأقوالهم وأعمالهم وسيرتهم ، كما كان رسول الله في رسالته ومع أمّته . (1) فالشّهادة على النّاس مسؤوليّة الجميع من النّساء والرّجال ، والعلماء والصنّاع والحكّام والمحكومين .

حقيقة الجعل المقصود في الآية

الجعل الذي ورد في الآية للوسطيّة والشّهادة على النّاس ليس جعلا مبرما تتحتّم به الوسطيّة والشّهادة كما يتبادر إلى الأذهان ، فتكون به الأمّة وسطا شاهدة على النّاس في كلّ الأحوال " بل هو جعل تكليفيّ كلّفت الأمّة بتحقيقه ، فإن هي وفّت به تحقّق لها الشّهود فاستحقّت المدح والتّمجيد وإن هي أخلّت به تخلّف ذلك الشّهود ، ويلحقها من المؤاخذة بقدر ما تخلّ بشروطه وتتقاعص في القيام به ، فمن لم يزك نفسه بالعلم والعمل الصّالح لم يكن شاهدا مقبولا ، وإذا وقع الانحراف فُقِدَتْ صفة العدالة . " (2)

لأنّ المسؤوليّة لا تعطى جزافا ولا تمنح إلاّ بعد ابتلاء واختبار ، لاسيما إذا كانت تتعلّق بالأمر الذي يستدعي تغيير عقائد الأمّة ونظام حياتها ، فلا يمكن أن تجعل على أساس المجاملات ، لأنّ الشّهادة على النّاس تقتضي من أصحابها أن يكونوا قدوات لغيرهم في أقوالهم وأفعالهم ، فلا تكون لهم إلاّ بعد أن تثبت كفاءتهم وإخلاصهم ، بالخبرة و الابتلاء والتّفوّق .

(1) ــ انظر : فضل الله ، من وحي القرآن 78/3 وما بعدها .

(2) ــ انظر : جمال الدّين القاسمي ، محاسن التّأويل 416/1 رشيد رضا ، تفسير المنار 05/2 عبد المجيد النّجار فقه التّحضّر الإسلامي 11/1 .

سبب اتّخاذ إبراهيم قدوة لسائر الأمم

ولقد استحقّ إبراهيم عليه السّلام قيادة النّاس ، وتأهّل للشّهادة عليهم بعد تعرّضه لأنواع شتّى من الابتلاءات ونجاحه فيها ، كما أخبر الله عنه في قوله : ((وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ)) [البقرة 124] فإنّ القائمين على شؤون الأمّة لابدّ أن يكونوا في مستوى يرتفعون به عن صفة الظّلم " لأنّ الإنسان الذي يعيش ظالما ، لا يمكن أن ينطلق بعيدا في محاربة الظّلم ورفعه عن حياة النّاس فلا يكون أهلا للإمامة ، لأنّه بظلمه يكون قد أسقط حقّه فيها فلا ينفعه أن يكون من سلالة الأمراء والملوك ، إذ لا تستحقّ القيادة بوراثة الأصلاب والأنساب ، إنّما بالكفاءة والصّلاح .

ـ ويبدو أنّ سبب اختيار إبراهيم عليه السّلام في هذا المقام أنموذجا للنّاس أبوّته النّسبيّة والرّوحيّة للرّسالات السّماوية التي أتت بعده ، حيث ارتبط أتباع هذه الرّسالات به ارتباطا وجدانيا ، ممّا يوفّر جوّا مفعما بالمشاعر الحميميّة من جهة وبالقداسة الإيمانية من جهة أخرى .

ـ كما يمكن أن تكون شخصيته أنموذجا للملكات الرّوحية التي تزخر بها نفسه ، ولمواقفه الإيمانية المتمثّلة في استسلامه المطلق لله في أشدّ المواقف صعوبة ، سواء في ابتلاء الله في ذبح ولده ، أو في موقفه من أبيه ومجابهته لقومه ، أوفي مواجهته لطاغية زمانه ، من دون أن نلمح في أيّ موقف من مواقفه شعورا بالضّعف أو الإحراج ، بل هو الانسجام القويّ مع مهمّته التّي كلّف بإنجازها ، بكلّ ثقة وإخلاص في كلّ كلمة وفي كلّ موقف . " (1)

ـ بهذه الصّفات تكون الأمّة شاهدة على النّاس ، فإذا أحسنت الاقتداء بهذا النّموذج النّبوي مكّنت نفسها من تحقيق الشّهادة على النّاس .

---

(1) ـ فضل الله : من وحي القرآن 7/3 ـ 8 بتصرّف .

وبهذا المعنى أيضا يكون الشّهود الحضاري للأمّة تكليفا جماعيا ، فإذا قامت به حقّ القيام تكون موفّية بركن أساسي من التّكليف بالدّين ، وإذا ما تخلّف شهودها الحضاري تكون مخلّة إخلالا عظيما بذلك التّكليف .
وهذا الشّهود مبنيّ على معنى الاختيار الحر شأن سائر التّكاليف ، ومحكوم بقوانين وسنن في تحقيقه ، فإن اجتمع فيه الاختيار ، واتّباع القوانين والسّنن تحقّق في الواقع ، وإن تخلّف أحدهما تخلّف وقوعه .

المطلب الثّاني : الحضارة في اللّغة والاصطلاح

الحضارة لغة : بكسر الحاء وفتحها تعني الإقامة في الحضر ، خلاف البداوة سمّيت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الدّيار التّي يكون بها قرار والحاضرة خلاف البادية . (1)
والحضور ضدّ المغيب ، وهو ورود الشّيء ومشاهدته (2) والحاضر خلاف البادي ، و هو المقيم في المدن والقرى ، والبادي المقيم بالبادية . (3)
والحاضرة والحضرة والحضر هي المدن والقرى والرّيف ، سمّيت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الدّيار التي يكون لهم بها قرار . (4)
وعليه فإنّ الحضارة لغة ترتبط بالحضر والعمران فهي تحمل معنى اجتماعيا باعتبارها علامة على الحضور والإقامة والاستقرار ، فإذا سكن النّاس في إطار مكاني محدد ، ونشأت بينهم علاقات ، أساسها تبادل المصالح وبناء المدن لتحقيق الرّاحة والاستقرار فهم أهل حضر .

الحضارة في اللّغة اللاّتينية : جاءت من كلمة (civilization) " وهذا اللّفظ مشتقّ من (civitos) في اللاّتينية بمعنى المدينة أو (civis) بمعنى ساكن

---

(1) ــ تهذيب اللّغة 198/4 ــ 199 . الصّحاح 632/2 ــ 633 . أساس البلاغة 30 . القاموس المحيط 659/1 ، المعجم الوسيط 181/1 . معجم مفردات ألفاظ القرآن 121 .
(2) ــ معجم مقاييس اللّغة 75/2 . (3) ــ لسان العرب 103/2 .
(4) ــ تاج العروس 286/6 .

المدينة أو من (civilis) بمعنى مدني ، حيث تقوم الحياة المتحضّرة عادة في المدن ، و بين الحضر" (1) وتقترن أحيانا بمصطلح (culture) التي تدلّ على الإنماء والحرث " واستمرّ مفهومها الدّال على حرث الأرض وتنميتها إلى نهاية القرن الثّامن عشر ، ثمّ اكتسبت معنى يشير إلى المكاسب العقلية والأدبية و الذّوقية ، وتقابل في اللّغة العربية مصطلح الثّقافة " (2)

وميّز بعض الدّارسين بين الحضارة والثّقافة ، فجعلوا الأولى متعلّقة بالجوانب العلميّة والماديّة ، بينما اختصّت الثّقافة بالجوانب الفكريّة ، غير أنّ كتّابا آخرين مثل **تايلور** (3) يستخدم لفظ ثقافة (culture) مرادفا للحضارة (civilization) والثّقافة في اللاّتينيّة يراد بها إصلاح الشّيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال (4) " ومن هنا قالوا (Agriculture) إصلاح الأرض وزراعتها ، أي إنّ الثّقافة فنّ تهذيب العقل ، بعد أن كان اللّفظ يتّصل بفنّ تشذيب الأرض والزّرع ، ومن ثمّ فلفظ (culture) يفيد طريقة شعب ما ، ومجموعة أنظمته و نظرته إلى الحياة والكون . " (5)

ويميّز البعض بين الحضارة والمدنيّة " فيجعل لفظ الحضارة خاصّا بالتّكوين الثّقافي والمعنوي لمجتمع ما ، و لفظ مدنيّة خاصا بالمظاهر الماديّة المتّصلة

---

(1) ــ أحمد محمود صبحي : في فلسفة الحضارة ص 06 .

(2) ــ قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ص 33 .

(3) ــ **ألفرد أدوارد تيلور (1869 ــ 1945 م)**

فيلسوف بريطاني مشهور ، كان أستاذا للفلسفة الأخلاقيّة ، كان يرى أنّ معرفتنا الأخلاقيّة من شأنها أن تتضمّن بالضّرورة وجود إله يدبّر الكون لغرض أخلاقي ، من آثاره : مشكلة السّلوك مبادئ الميتافيزيقا ، أفلاطون الرّجل وعمله . انظر : زكي نجيب محمود وآخرين : الموسوعة الفلسفيّة المختصرة ص 160 .

(4) ــ وكذلك في اللّسان العربي ، ثقّف الشّيء : أقام المعوجّ منه وسوّاه ، وثقّف الإنسان أدّبه وهذّبه وعلّمه . انظر : المجمع اللّغوي ، المعجم الوسيط 98/1 .

(4) ــ سليمان الخطيب : أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ص 24 .

بالحياة العملية . " (1) **فمصطلح الحضارة في اللّغة العربيّة واللاّتينيّة يتضمّن معنى الاستقرار والتّنظيم الذي تقتضيه حياة المدينة ، وكأنّ هناك تشابها في المعنيين اللّغويين في كلّ من العربيّة واللاّتينيّة .**

وإنّما سمّيت الإقامة في المدن والقرى حضارة ، لأنّ الحضور فيها يكون مستمرّا فطبيعة حياتها الاستقرار ، وذلك في مقابل حياة البادية التي طبيعتها التّنقّل والارتحال تتبّعا لمواطن الماء والكلأ ، ومن هذا المعنى اللّغوي نشأ مدلولها الاصطلاحي ، قائما على ما تثمره حياة الاستقرار في الحضور من المكاسب الماديّة والمعنويّة ، من علوم وآداب وفنون ونظم وعمارة .

وتعني في عرف كثير من العلماء " الحالة الرّاقية التي توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والصّنائع ، فاكتسبت هذه الكلمة مدلولا أعمّ من مدلولها اللّغوي واعتبرت غاية تتدرّج الأمم في الوصول إلي أوجّها " (2) فأطلقت الحضارة عندهم على الآثار والنّتائج التّي نشأت من معنى الحضارة اللّغوي المتمثّل في حياة الحضور والاستقرار .

الحضارة اصطلاحا : قدّم العلماء تعريفات متعدّدة للحضارة ، نذكر منها ما يتحقّق به المقصود ، دون الإسهاب في تتبّعها لعدم الحاجة إلى ذلك .

وأوّل ما نستهلّ به : تعريف ابن خلدون ، لكونه في طليعة الذين استخدموا مصطلح الحضارة بالمعنى الذي نسعى لبيان مدلوله .

تعريف ابن خلدون للحضارة : عقد ابن خلدون فصلا في مقدّمة تاريخه بعنوان " في انتقال الدّولة من البداوة إلى الحضارة " عرّف فيه الحضارة بقوله :

" والحضارة إنّما هي تفنّن في التّرف (3) وإحكام الصّنائع المستعملة في

(1) ــ محمود صبحي : في فلسفة الحضارة ص 06 بتصرّف .

(2) ــ فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين 353/8 .

(3) ــ التّرف : هو التّنعّم ، يقال : صبيّ مترف إذا كان منعّم البدن مدلّلا ، والمترف : الذّي أبطرته النّعمة . ابن منظور ، لسان العرب 182/1 .

وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس ، والمباني والفرش ، والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله " (1)

وركّز في موطن آخر على الارتباط بين استقرار الحياة والمنجزات النّاشئة عنها فعرّفها بأنّها : " **التّفنّن في التّرف واستجادة أحواله والكلف بالصّنائع التّي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه ، كالصّنائع المهيّأة أو الملابس أو المباني للمطابخ ، أو الفرش أو الآنية ، ولسائر أحوال المنزل .** " (2)

يبدو من التّعريفين أنّه حصر مفهوم الحضارة في المكاسب الماديّة من أعمال حرفيّة وفنيّة وطرق تنظيم المجتمع تنظيما يحقّق الرّفاه ، وهو بهذا يعطينا المؤشّر الذي يدلّ على تحضّر أمّة ما ، فكلّما تحقّق التّرف ومظاهر الأبّهة في الملبس والمسكن وما يتّصل بحياة النّاس دلّ ذلك على وجود الحضارة .

تعريف ول ديورنت : (3) عرّفها بقوله " **الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزّيادة من إنتاجه الثّقافي ، وإنّما تتألّف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية والنّظم السّياسية والتّقاليد الخلقيّة ومتابعة العلوم والفنون وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحرّرت في نفسه دوافع التّطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء ، و بعدئذ لا تنفكّ الحوافز الطّبيعيّة تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها .**" (4)

---

(1) ــ ابن خلدون : المقدّمة 182/1 .

(2) ــ ابن خلدون : المقدّمة 396/1 .

(3) ــ **ول ديورنت (1885 ــ 1962 م)**

فيلسوف أمريكي ، من أبرز الذّين وقفوا جهودهم على تبسيط التّاريخ والفلسفة ، انتسب إلى كلّيّة القدّيس بطرس اليسوعيّة في مدينة جيرسي ، ثمّ إلى جامعة كولمبيا بنيويورك ، امتهن الصّحافة ، ثمّ تحوّل لتدريس اللّغة اللاّتينيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة ، ثمّ اشتغل بالفلسفة حيث نال درجة الدّكتوراه سنة 1917 ، من آثاره : الفلسفة والمشكلة الاجتماعيّة ، قصّة الفلسفة . انظر : محمّد عبد الرّحيم ، مقدّمة قصّة الحضارة لصاحب التّرجمة ص 21 وما بعدها .

(4) ــ ول ديورنت : قصّة الحضارة 03/1

نظر ول ديورنت إلى الحضارة من جهتين ، **الأولى** : هي نظام اجتماعي يقدّم للإنسان القدرة على تحقيق إنجازات ثقافية ، **والثّانية** : هي مرحلة من مراحل التّقدّم البشري ، تكون فيها الحياة متّجهة نحو الاستقرار والطّمأنينة وهو هنا لا يحصر التّحضّر في الجانب المادّي ، إنّما يضيف إليه القيم الأخلاقية .

تعريف ألبرت اشفيتسر : (1) يرى أنّ الحضارة " هي التّقدّم الرّوحي و المادّي للإفراد والجماهير على السّواء " (2) وأنّ ذلك التّقدّم " لا يكون إلاّ بسيادة العقل على الطّبيعة الكونية والإنسانية ، بحيث يجعل إرادتهم موجّهة للخير المادّي والرّوحي للكلّ ، أي تكون أفعالهم أخلاقيّة ، فالتّقدّم الأخلاقي إذن هو جوهر الحضارة ." (3)

هذا التّعريف لم يحصر الحضارة في الجانب المادّي ، بل كان أشدّ تركيزا من سابقه على اعتبار القيم الأخلاقية والمعاني الرّوحية أركانا للحضارة ، لكونها مفضية إلى تحقيق الأمن والخير والاستقرار للنّاس جميعا .

تعريف تايلور : (4) يرى تايلور أنّ الحضارة درجة من التّقدّم من " ذلك الكلّ

---

(1) ــ **ألبرت أشفيتسر (1875 ــ 1965 م)**

فيلسوف ألماني ومرشد روحي ، عني بفلسفة الأخلاق ، كان يدعو إلى حبّ الإنسانيّة قولا وعملا ، مبدؤه الأساسي هو توقير الحياة ، كانت له عدّة مواهب ، فهو لاهوتيا مؤرّخا للمسيحيّة ، و مفسّرا ناقدا للأناجيل ، و طبيبا ، و باحثا في تاريخ الموسيقى ، قال عنه عبد الرّحمن بدوي : أنبل الشّخصيات العالميّة في القرن العشرين ، كان يستعمل طبّه في مساعدة الفقراء ، حيث بنا مستشفى لهذا الغرض في أفريقيا الاستوائيّة ، في دولة الغابون ، ظلّ يعالج فيها الأهالي إلى آخر حياته ، ونظرا لنزعته الإنسانيّة وخدماته الاجتماعيّة منح جائزة نوبل للسّلام عام 1952 ، توفّي في الغابون بعد حياة حافلة بالأعمال الخيريّة ، من آثاره : تصوّف القدّيس بولس ، الحضارة والأخلاق ، المفكّرون الهنود تصوّف وأخلاق . انظر : عبد الرّحمن بدوي ، تصدير كتاب فلسفة الحضارة ص **أ** وما بعدها .

(2) ــ ألبرت اشفيتسر : فلسفة الحضارة ص 34 .

(3) ــ المرجع نفسه ص 36 .

(4) ــ سبقت ترجمته ، انظر : ص 99 من هذا البحث .

المعقّد الذي يشمل المعارف والعقيدة ، والفنّ والقيم الأخلاقيّة ، والقانون والتّقاليد ، وكلّ القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع . " (1)

وهو بتعريفه هذا يتّجه إلى تعريف الحضارة بالنّظر إلى غايتها التي تحقّقها في المجتمع ، وهو أيضا لا يولي قيمة كبرى للجانب المادّي ، حيث ركّز على الجوانب العلمية والفنية التي تنظّم شؤون الفرد والمجتمع .

تعريف مالك بن نبي (2) : أمّا مالك بن نبي فقد عرّف الحضارة باعتبارات عدّة فمن الوجهة التّحليليّة المبيّنة لكيفية تركيب الحضارة في عناصرها الأوّليّة عرّفها بقوله : " **حضارة = إنسان + تراب + وقت** ، وتحت هذا الشّكل تشير الصّيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تنحلّ إلى ثلاث مشكلات أوّليّة مشكلة الإنسان ، مشكلة التّراب ، مشكلة الوقت ، فلكي نقيم حضارة لا يكون ذلك بأن نكدّس المنتجات وإنّما بأن نحلّ المشكلات الثّلاثة من أساسها " (3)

فهو يجمل الجهد الحضاري في صورة تفاعل أوّلي بين الإنسان صاحب هذا الجهد المنجز ، والتّراب مصدر الإنجاز المادّي ، والزّمن الذي هو شرط أساسي لأيّ عمليّة إنجازية يقوم بها الإنسان ، وتتفاعل هذه العناصر فيما

---

(1) ــ عفّت الشّرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلاميّة ص 11 .

(2) ــ **مالك بن نبي (1905 ــ 1973 م)**

مفكّر جزائري ولد بمدينة قسنطينة ، درس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط ، ثمّ انتقل إلى فرنسا حيث تخرّج عام 1935 مهندسا كهربائيا من معهد الهندسة العالي بباريس ، زار مكّة وأقام بالقاهرة سبع سنوات ، وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلاميّة بها ، رجع إلى الجزائر سنة 1963 فتولى إدارة التّعليم العالي ، وفي سنة 1967 استقال من منصبه وتفرّغ للعمل الفكري ، إلى أن توفّي بالجزائر ، ألّف معظم كتبه باللّغة الفرنسيّة ، وترجمت إلى العربيّة ، من آثاره : الظّاهرة القرآنيّة ، ميلاد مجتمع ، المسلم في عالم الاقتصاد . انظر : الزّركلي : الأعلام 266/5 وله ترجمة على غلاف كتبه المطبوعة .

(3) ــ مالك بن نبي : شروط النّهضة ص 50 .

بينها بفعل الشّرارة التي تحدثها الفكرة الدّينيّة لتحقّق عملا موحّدا عن طريق مجموعة من العلاقات ، سمّاها شبكة العلاقات الاجتماعية . (1)

فإنّ صناعة التّاريخ في تصوّره تتمّ تبعا لتأثير عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء في عمل مشترك ، تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجيّة من عالم الأفكار يتمّ تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحدّدها عالم الأشخاص ، فإذا تمّ التّوافق بين هذه الوحدة مع الغاية منها ، أنتج حضارة أو شبكة العلاقات الاجتماعيّة وهي العنصر التّركيبي الرّابع الذي يتحقّق بوجوده الجهد الإنساني المتمثّل في المنهج الأخلاقي والذّوق الجمالي ، والصّناعة والمنطق العملي ، في صورة إنجاز حضاري . (2)

أمّا التّعريف الوظيفي فإنّ ابن نبي يقول في شأنه : " **إنّ الحضارة يجب أنّ تحدّد من وجهة نظر وظيفيّة ، فهي مجموع الشّروط الأخلاقية والماديّة التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدّم لكلّ فرد من أفراده ، في كلّ طور من أطوار وجوده ، منذ الطّفولة إلى الشّيخوخة المساعدة الضّرورية له في هذا الطّور أو ذاك من أطوار نموّه** " (3) أي هي عمل جماعي يقوم به المجتمع في سبيل توفير الضّمانات التي تؤهّل الفرد لممارسة دوره في التّاريخ ، من مولده إلى مماته ، متمثّلة في الشّروط الأخلاقية والماديّة ، الكفيلة بتحقيق التّوازن في المجتمع ، وحمايته من الانحراف أو الاندثار ، فهو يرى " أنّ غنى المجتمع لا يقاس بكمّية ما يملك من أشياء ، بل بمقدار ما يملك من أفكار ، فقد يحدث أن تمرّ بالمجتمع ظروف أليمة ، كأن يحدث فيضان ، أو تقع حرب فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا ، أو تفقده إلى حين ميزة السّيطرة عليه فإذا فقد في الوقت ذاته السّيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ماحقا ، أمّا

(1) ــ انظر : مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ص 27 .

(2) ــ انظر : مالك بن نبي : فكرة الإفريقية الآسيوية ص 138 ــ 139 .

(3) ــ مالك بن نبي : أفاق جزائرية ص 38 .

إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنّه يكون قد أنقذ كلّ شيء ، وما تجربة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثّانية عنّا ببعيدة فقد استطاعت بناء عالم الأشياء الذي دمّرته الحرب تدميرا شاملا ، بفضل رصيدها من الأفكار " (1)

وهي عمل اجتماعي باعتبارها إنجاز يقوم به المجتمع فهو يرى " أنّنا إذا وجدنا في مكان معيّن وزمان معيّن نشاطا متآلفا من النّاس والأفكار والأشياء دلّنا ذلك على أنّ الحضارة قد بدأت في هذا المجال ، وأنّ تركيبها قد تمّ فعلا في عالم الأشخاص ، وأنّ العمل الأوّل في طريق التّغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغيّر الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا ، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنّوع ، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع " (2)

نلاحظ أنّ مالك بن نبيّ يرى أنّ التّحضّر ليس قدرا محتوما يحصل للنّاس دون عمل ، بل يتحتّم على المجتمع الذي يسعى لتحقيقه بذل الجهد للوصول إلى أهدافه ، انطلاقا من رصيده الرّوحي ومخزونه الفكري .

والحاصل أنّ للحضارة عند العلماء معنيين ، أحدهما موضوعي والثّاني ذاتي أمّا المعنى الموضوعي فالحضارة هي جملة من مظاهر التّقدّم الأدبي والفنّي التي تُنقل من جيل إلى جيل ، فنقول الحضارة العربية والحضارة الأوروبية وهي بهذا المعنى متفاوتة فيما بينها ، ولكلّ حضارة حدودها الجغرافيّة وآثارها في المجتمع ، ولكلّ منها أيضا لغاتها التي تعبّر عن أفكارها .

وأمّا الحضارة بالمعنى الذّاتي المجرّد فهي مرحلة سامية من مراحل التّطوّر الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجيّة والتّوحّش أوهي الصّورة الغائية التي نستند إليها في الحكم على صفات كلّ فرد أو جماعة ، فإذا كان الفرد متّصفا بالخلال الحميدة المطابقة لتلك الصّورة قلنا إنّه متحضّر ، وكذلك الجماعات فإنّ تحضّرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصّورة أو بعدها عنها .

---

(1) ــ ميلاد مجتمع ص 37 .

(2) ــ المرجع ذاته ص 31 .

وعلى أيّ حال فإنّ الحضارة " ظاهرة عامّة رافقت الإنسان في تاريخه الطّويل حيث كان في كلّ مرّة يعيد صياغة ظروفه بما يتلاءم وحاجاته المتطوّرة ، فهي تعبّر عن سعيه الدّؤوب لتجاوز الواقع ، ورفض ما هو كائن بهدف الوصول إلى ما هو أحسن ، من خلال الاكتشاف والاختراع والعمل على استغلال الطّبيعة للوصول إلى مستوى حياة أفضل ، فهي حصيلة جهود الأمم كلّها من مختلف الحقب الزّمانيّة " (1) وقد توفّق هذه الجهود وتهتدي إلى سبل الخير فتحقّقها وقد لا تهتدي إليها ، إذ هي ليست أكثر من ثمرة الجهود المبذولة من قبل الإنسان للاستفادة من الكون المحيط به ، ومن هنا يمكن تعريف الحضارة بأنّها : " **ثمرة التّفاعل بين الإنسان والكون والحياة** " (2) فإن كان تفاعلا إيجابيا أنتج تحضّرا إيجابيا وإن كان سلبيا ، كان التّحضّر سلبيا .

المطلب الثّالث : قيمة التّحضّر

نجد أنفسنا في هذا المقام أمام سؤال يُطرح بإلحاح وهو : **هل التّحضّر خير بذاته ، أم لا ؟ وهل تنحصر الحضارة في التقدّم الماديّ ؟ أم قد نجد تقدّما حضاريا دون تقدّم في المكاسب الماديّة ؟**

ـ يظنّ كثير من النّاس أنّ الحضارة خير بذاته ، وتكون راقية على قدر تقدّمها في المكاسب الماديّة التي ينبسط بها العيش وتتيسّر بها الحياة في المأكل والمشرب ، والملبس والمركب والمسكن (3) وقد يتأتّى هذا الفهم من سطوة الحضارة الرّاهنة على النّفوس ، فهي حضارة بلغت في التّقدّم المادّي شأنا

(1) ـ انظر : علي الشّامي ، الحضارة و النّظام العالمي ص 31 ، شوقي أبو خليل : الحضارة العربيّة الإسلاميّة ص 20 .

(2) ـ هذا التّعريف للدّكتور البوطي في كتابه منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 19 .

(3) ـ وهذا هو ما نستخلصه من التّعاريف السّابقة ، وهي تعريف ابن خلدون ، وول ديورنت واشفيتسر ، وتايلور ، ومالك بن نبيّ التّي اتّفقت على أنّ التّحضّر يحمل معنى قيميا ، وهو إيجابي ، أي هو خير في ذاته . راجع الصّفحات 97 إلى 103 من هذا البحث .

كبيرا ، تيسّرت به كثير من الأمور في الحياة التي كانت بالأمس القريب لا تنال إلاّ بشقّ الأنفس ، فتكوّن من الانبهار بها ما جعل بعض النّاس يحصرون معنى التّحضّر فيها ، ويرون الإنجاز المادّي عنوانا للتّحضّر .

ـ ومن جهة أخرى يرى آخرون أنّ الحضارة كما يسّرت حياة النّاس ، تسبّبت في إلحاق كثير من الآلام والشّقاء لشعوب بكاملها " كالحضارة الغربية اليوم التي بنت نفسها على أشلاء غيرها من الشّعوب كما حصل للهنود الحمر في أمريكا ، وللشّعوب الإفريقية والآسيوية التي عانت كثيرا من ويلاتها تحت غطاء الاستعمار أوالسّعي لتوطيد الأمن في البلاد المغلوبة كما حصل للعراق وبعض البلاد الآسيويّة ، بل إنّ بعض المنجزات الماديّة التي يفخر بها التّاريخ كانت نتيجة صنوف من الآلام وألوان من القهر ، تجرّع مرارتها البؤساء من المقهورين في أنظمة من الظّلم والاستبداد ، وفي هذا الشّأن لنا أن نسأل هل تعتبر الأهرامات وهي الإنجاز المادّي العظيم مقياسا للحضارة الفرعونية ؟ وقد شيّدت على أكتاف العبيد المضطهدين ، الذين سحق منهم الآلاف تحت الأحجار وسياط الجلاّدين لإشباع أبّهة الفراعنة ؟ " (1)

والإجابة على هذا السّؤال تكون بالسّلب حيث لا يمكن اعتبار التّقدّم المادّي في العمران المصاحب لاضطهاد الإنسان عنوانا للتّحضّر ، لأنّ من المعاني المقتضية للحضارة الاستقرار والأمن ، بينما الظّلم والاستبداد يتنافى مع مقاصدها وغاياتها ، فإذا كثر ذلك في الأمّة لم ينفعها تمدّن ولا عمران وتأذّن الله بخرابها كما قال تعالى : ((وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا)) [الإسراء 16] (2)

---

(1) ـ النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 23/1 ـ 24 بتصرّف .

(2) ـ أمرنا مترفيها ، أي : أمرنا أهلها بالطّاعة فعصوا ففسقوا فيها ، أي : خالفوا أمر الله فوجب عليهم بمعصيتهم الهلاك . تفسير الطّبري 53/8 .

فلا يمكن اعتبار التّقدّم الماديّ مقياسا للتّحضّر ، إنّما المقياس في ذلك ما يتحقّق للنّاس التّآخي والتّعاون والاطمئنان ، فأيّما تحضّر تحقّقت فيه تلك المعاني فهو تحضّر حقيقي ، وأيّما تحضّر جلب معه الخوف والعداوة فهو ليس بتحضّر على الحقيقة ، وإنّ مجتمعا قد يكون بسيطا في مستوى معيشته الماديّة ولكن يوفّق في تحقيق مطالب الأمان والمحبّة والتّعاون ، يكون أكثر تحضّرا من مجتمع آخر بلغ مبلغا كبيرا في الأبّهة الماديّة ووسائل التّرف لكنّه يعاني من القهر والاستبداد والظّلم والخوف ، ولنا أن نقارن بين المجتمع العربي عند البعثة المحمّدية كمثال للأوّل ، وبين المجتمع الرّوماني كمثال للثّاني . (1)

وهذا المفهوم بدأ يستقرّ عند بعض العلماء الغربيين ، حيث وجد العنصر الأخلاقي طريقا ليكون المقياس الحقيقي للتّحضّر ، وهو ما قرّره الفيلسوف الألماني اشفيتسر في اعتبار " الحضارة تقدّم روحي ومادي للأفراد والجماهير بسيادة العقل على الطّبيعة الكونية والطّبيعة الإنسانية ، بحيث يوجّهون إرادتهم للخير المادّي والرّوحي للكلّ ، فتكون أفعالهم أخلاقيّة فالتّقدّم الأخلاقي في اعتقاده هو جوهر الحضارة حقّا ، أمّا التّقدّم المّادّي فهو أقلّ جوهريّة ويمكن أن يكون له أثر طيّب أو سيّء في تطوّر الحضارة . " (2)

وعليه فإنّ التّحضّر لا يحمل في ذاته قيمة إيجابية أو سلبيّة ، بل القيمة تستمدّ ممّا يوفّره من الأمن و الطّمأنينة ، فإذا لم يوفّر ذلك فإنّ البداوة إذا ما وفّرته تكون أعلى قيمة من التّحضّر ، وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال آخر لا مفرّ من الإجابة عنه ، وهو **كيف يتحقّق التّفاعل الإيجابي المفضي إلى التّحضّر السّليم ؟** هذا ما سنعرضه في المباحث اللاّحقة .

(1) ـ انظر : أبو الحسن النّدوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، فصل الإنسانيّة في الاحتضار ص 36 وما بعدها .

(2) ـ ألبيرت اشفيتسر : فلسفة الحضارة ص 34 ـ 36 بتصرّف .

المبحث الثّاني : أهمّية العقيدة في حياة الإنسان

المطلب الأوّل : دور العقيدة في صياغة الحضارة :

مرّ بنا أنّ التّحضّر ليس قدرا محتوما يحصل للمجتمع حصولا لازما ، إنّما هو أمر مكتسب ، يتحقّق ببذل الجهد الفردي والجماعي ، للوصول إلى الأهداف المنشودة انطلاقا من السّموّ الرّوحي والرّصيد العلمي اللّذين يملكهما مجتمع ما فهو جهد جماعي للتّرقّي المادّي والمعنوي ، مدفوعا بالتّصوّر لحقيقة الوجود والغاية من الحياة ، ومن ثمّ فإنّ قوما لا يملكون تصوّرا لحقيقة الوجود ، ولا تصوّرا لغاية الحياة لا يقوم فيهم تحضّر ذو شأن ، بل يبقون على حال البداوة أو قريب منها ، ومهما تعدّدت عوامل التّحضّر (1) وتفاوتت في أهمّيتها فإنّ عامل

---

(1) ــ **يرى ول ديورنت** أنّ عوامل التّحضّر أربعة أمور : اثنان يعودان للطّبيعة ، وهما العامل الجيولوجي والعامل الجغرافي ، واثنان يعودان للإنسان، المتمثّل في الأمن والأخلاق ووحدة اللّغة . انظر : قصّة الحضارة 3/1 ــ 7 .

ــ **ويرى توينبي** أنّ التّحضّر يعود إلى عامل واحد ، وهو التّحدّي سواء كان ذلك من قبل الطّبيعة أو من قبل الإنسان ذاته ، فتحصل إزاءه استجابة بقوّة ذلك التّحدّي ، تكون بداية للتّحضّر . انظر مختصر التّاريخ [الفصل الخامس / التّحدّي والاستجابة] 101/1 وما بعدها ، وملخّص آرائه عند عماد الدّين خليل : التّفسير الإسلامي للتّاريخ ص 70 وما بعدها .

ــ **ويرى مالك بن نبي** أنّ عوامل الحضارة تنحصر في الإنسان الذي يمارس الفعل الحضاري والتّراب الذّي يمثّل البيئة الجغرافيّة ، والزّمن المتمثّل في الاستثمار الفعّال للوقت ، والفكرة الدّينيّة وهي العامل الأساسي في التّفعيل الحضاري لهذه العناصر الثّلاثة : انظر شروط النّهضة ص 50 ميلاد مجتمع ص 27 . وقد صاغ الدّكتور النّجار هذه العوامل في ثلاثة عناصر : الأوّل : عامل الفكرة الثّاني : عامل البيئة الطّبيعيّة ، الثّالث : عامل الدّافع الحضاري ، انظر : تفصيل هذه العوامل في كتابه : فقه التّحضّر الإسلامي 26/1 ــ 35 .

عامل الفكرة (الاعتقاد) هو رأس العوامل كلّها ، إذ به تتحدّد قيمة الحضارة في إنجازاتها الماديّة وقيمها الأخلاقية ، فكلّما كان قريبا من الحقّ والخير حقّق تحضّرا عادلا خيّرا ، وكلّما كان بعيدا عن هذه القيم كان تحضّرا سلبيا على قدر بعد منطلقاته الفكرية عنها ، لذلك نلاحظ تأثّر كلّ حضارة في منهجها المعرفي وإنتاجها المادّي بلون الفكرة التي نشأت منها ، حتى إنّه ليتكوّن من ذلك في كلّ حضارة فقه خاص بها يتمايز بين حضارة وأخرى .

وقد أشار شبنغلر (1) إلى هذا المعنى حيث قال : " إنّ اصطلاح عادة يدلّ على الطّريقة الخاصّة بالنّبتة والمميّزة لذاتها ، والتي بواسطتها تعرض نفسها في عالم النّور حيث نستطيع أن نراها ، وهكذا كلّ نوع يتميّز عن غيره بعادته ، وهذا الأمر ينطبق على الحضارة ... إنّ اختيار فروع معيّنة من الفنّ كاختيار اليونان للتّصوير على الحائط ، و اختيار الغرب للموسيقى ، ورفض العرب للفنّ التّشكيلي (2) واتّجاه الهند إلى الأخذ بالفروع الفنيّة الباطنيّة ، أوالفنون الشّعبيّة المألوفة كبلاد اليونان وروما ، أو تفضيل الخطابة أو الكتابة كما فعلت الصّين كشكل للتّواصل الرّوحي ، هي كلّها مظاهر أسلوب تلك الحضارات . " (3)

---

(1) ــ أسوالد شبنغلر : (1880 م ــ 1936 م)

أسوالد أو أوزفالد شبنغلر فيلسوف حضارة ألماني ، مسيحي على مذهب البروتستانت ، تخرّج من جامعة برلين حيث تخصّص في العلوم الطّبيعيّة ، أحدث تأثيرا هائلا بكتابه انحلال الغرب . ترك عدّة مؤلّفات ، منها : هيروقليطس ، الإنسان والصّناعة الفنيّة ، انحلال الغرب الذي ترجم باسم تدهور الحضارة الغربيّة وهو أعظم مؤلّفاته . انظر : عبد الرّحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة 8/2 وما بعدها ، مقدّمة كتابه تدهور الحضارة الغربيّة للمترجم أحمد الشّيباني ص 8 ــ 9 .

(2) ــ العرب لم يرفضوا الفنّ التّشكيلي ، إنّما رفضوا الفن المخلّ بالأخلاق ، وتصوير كلّ ذي روح كنحت التّماثيل ، لارتباط ذلك بالشّرك .

(3) ــ شبنغلر : تدهور الحضارة الغربيّة 220/1 ــ 221 بتصرّف .

وقال في سياق آخر : " ولمّا كانت ذاتيّة النّبتة ترفع للتّعبير عن نفسها شكلا وزيّا وهيئة ، بواسطة الأوراق والزّهور والأغصان والثّمر ، كذلك فإنّ ذاتية الحضارة تتجلّى في صيغ دينيّة وفكريّة وسياسيّة واقتصاديّة . " (1)

ونجد هذه الفكرة أيضا عند مالك بن نبي في سياق حديثه عن الحضارة حيث قال : " **إنّ حضارة ما هي نتيجة فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التّحضّر الدّفعة التي تدخل بها التّاريخ ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنّموذج الأصلي لحضارته ، إنّه يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدّد سائر خصائصه التي تميّزه عن الثّقافات والحضارات الأخرى .** " (2)

وعليه فإنّ فقه التّحضّر في أيّ حضارة يكون متأتّيا من الفكرة التي قامت عليها وعلى هذا الأساس فإنّ الحضارة الإسلامية تختصّ بفقهها الذي تأسّس على عقيدتها وحكم نشأتها وتطوّرها ورسم مساراتها التي جرى عليها بناؤها ، وحرّك المسلمين في مختلف ميادين الحياة للتّعمير كما قال تعالى : ((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)) [آل عمران 110] " والتّعبير بِأُخْرِجَتْ يدلّ دلالة واضحة على حقيقة نشأة هذه الأمّة ، وحقيقة النّظام الذي يقوم عليه وجودها فهيّ أمّة مخرجة من قبل الله ، وفق فكرة معيّنة تحقّق نظاما معيّنا " (3)

لذلك فإنّ كلّ محاولة للنّهوض بهذا التّحضّر يتطلّب الوقوف على تلك الفكرة ممثّلة في عقيدة التّوحيد ، للاعتماد عليها في عمليّة الانطلاق للبناء الحضاري أو لتعديل مساره إن وجد الخلل في كيانه ، وهذا يقتضي بيان أثر العقيدة في نهضة المسلمين وتحضّرهم .

---

(1) ــ المرجع نفسه 224/1 .

(2) ــ مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 41 .

(3) ــ سيّد قطب : نحو مجتمع إسلامي ص 137 بتصرّف .

أوّلا : أثر العقيدة في نهضة العرب :

ـ كانت ظاهرة عجيبة أن يتحوّل عرب الجزيرة من قبائل متناحرة لا قيمة لها بين جيرانها من الأمم إلى أمّة تغيّر وجه التّاريخ ، وتقيم حضارة جديدة وتنشأ من العرب رجال دولة وقادة جيوش ، سرعان ما أخضعوا إمبراطوريات كانت تذلّهم وتمتصّ خيراتهم ، لقد كان هذا الحدث مذهلا ، فقد كان غريبا في سرعته وفي عمقه ، وفي سعته وشموله وآثاره ، لقد كانت فتوحات المسلمين فتوحات أخلاقية ، فلم يكن المجاهدون المسلمون يحملون معهم السّيف فقط بل كانوا يحملون معهم حضارة جديدة ، وتقدّما في العلوم والآداب إلى غير ذلك من وسائل الرّقي ومظاهره ، وقد شهد الغربيون على إنسانيّة المسلمين وتسامحهم في الفتوحات .

قال فشر (1) : " والمعروف أنّ التّوفيق رافقهم في كلّ أعمالهم بفضل سياسة التّسامح التي اتّبعوها مع اليهود والمسيحيّن ، وأنّهم بذلك على أحسن الأمثلة المضادّة لما تدنّس به من جاء بعدهم من صنوف الاضطهاد من أجل الدّين " (2)

وقال جوستاف لوبون (3) : " سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب

(1) ـ **فشر هربرت ألبرت لورنس : (1865 م ـ 1940 م)**

مؤرّخ بريطاني تعلّم بأكسفورد ، عيّن وكيلا لجامعة شفيلد فوزيرا للمعارف في وزارة لويد جورج من 1916 إلى 1923 م ألّف عدّة كتب أشهرها تاريخ أوروبا ، وله أيضا : كتب عن عصر نابليون وتاريخ انجليترا السّياسي . انظر محمّد شفيق غربال : الموسوعة العربيّة الميسّرة 1348/2 .

(2) ـ فشر : تاريخ أوروبّا ص 62 .

(3) ـ **لوبون جوستاف : (1841 م ـ 1931 م)**

عالم نفس واجتماع فرنسي ، من كتّاب الغرب الذّين أنصفوا الحضارة العربيّة وأشادوا بفضلها على الغرب ، ألّف عدّة كتب في علم النّفس الاجتماعي وفلسفة التّاريخ ، منها روح الجماعات ودراسة العقل الجمعي ، وسرّ تطوّر الأمم وغيرها ، انظر : الموسوعة العربيّة الميسّرة 1569/2 .

انتصاراتهم أنّ القوّة لم تكن عاملا في انتشار القرآن ، وأنّ العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم ، فإذا حدث أن انتحل بعض الشّعوب النّصرانية الإسلام واتّخذ العربيّة لغة له ، فذلك لما يتّصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للنّاس عهد بمثله ، ولما كان عليه الإسلام من السّهولة التي لم تعرفها الأديان من قبل ، وقد أثبت التّاريخ أنّ الأديان لا تفرض بالقوّة ، فلمّا قهر النّصارى عرب الأندلس فضّل هؤلاء القتل والطّرد عن آخرهم على ترك الإسلام ، ولم ينتشر القرآن بالسّيف إذن بل انتشر بالدّعوة وحدها ، وبالدّعوة وحدها اعتنقته الشّعوب . " (1) وجاء في كتاب العالم الإسلامي الجديد : " ولم يبتغ العرب من فتوحهم إحراز المغانم ودرس المعالم بل كانوا ضدّ ذلك ، أبناء أمّة كريمة تحبّ العلم والتّعلّم ، وتجلّ ميراث الحضارات السّابقة ، وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين أرحام المصاهرة وعقدت قلوبهما على الأخوّة الدّينيّة ، فلم يلبث الفريقان أن امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للنّاس حضارة جديدة ، هي حضارة الإسلام التّي أحيت آثار اليونان والفرس والرّوم وطبعتها بطابع العزيمة العربيّة والعبقريّة الإسلاميّة . " (2)

لذلك كانت الأرض تطوى تحت أقدامهم ، وكانت الشّعوب تستقبلهم استقبال الأبطال المحرّرِين لا الغزاة الحاقدين ، وتقدّم لهم العون لما لمسته من طيبة أخلاقهم وعدالتهم ، فقد وجدت في دينهم إنقاذا لحرّيتها من الاستعباد وضمانا لسلامتها من كلّ أنواع الظّلم الذي تجرّعته على يد الفرس والرّوم . (3)

---

(1) ــ لوبون : حضارة العرب ص 127 ــ 128 .

(2) ــ ستودارت لوثروب : (1883 ــ 1950 م) Stoddard Lothrop : Le nouveau mande de lislam : p11 نقلا عن كتاب روح الدّين الإسلامي لعفيف عبد الفتّاح طبّارة ص 413 .

(3) ــ انظر : النّدوي ، السّيرة النّبويّة ، فصل إطلالة على البلاد والأمم ص 30 وما بعدها .

قال أحد كبار القساوسة بعد أن سرد اضطهادات هرقل : " وهذا هو السّبب في أنّ إله الانتقام الذي تفرّد بالقوّة والجبروت ، والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لمّا رأى شرور الرّوم الذين لجأوا إلى القوّة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلّصونا على أيديهم من قبضة الرّوم . " (1)
وأمام هذه الظّاهرة العجيبة وقف الغرب يتساءل عن سرّ القوّة الخفيّة التي مكّنت المسلمين من تلك الانتصارات ، مع أنّهم أقلّ عددا وعدّة في مقابل جيوش متفوّقة في العدد والعدّة ، والثّروة والخبرة ، وكلّ أسباب القوّة الماديّة .
وكان أوّل من طرح هذا السّؤال هرقل قيصر الرّوم الذي أذهلته الهزائم المتوالية لجيوشه على يد المسلمين فجمع قوّاده وراح يؤنّبهم ويسألهم " من هؤلاء الذين تقتلون ؟! أليسوا بشرا مثلكم ؟! فوقف قائد الجيوش الرّومانية وقال له : أنا أخبرك يا سيّدي ، إنّهم بشر ولكن ليسوا كالبشر ، إنّهم رهبان باللّيل فرسان بالنّهار ، إنّهم يصلّون ويصومون ، و لا يشربون الخمر ولا يزنون ، ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ، وما منهم من أحد إلاّ ويتمنّى أن يموت قبل أخيه ، قال هرقل : والله إن كانوا كما تقول ليملكنّ موضع قدمي هاتين ، وفعلا حصل ما أخبر به ، وخرج من بلاد العرب وهو يردّد هذه العبارة : **سلام عليك يا سورية سلاما لا لقاء بعده .** " (2)
وتساءل الفرس السّؤال نفسه وأرسلوا من يبحث عن هذا السّرّ ، في وفد يرأسه أحد كهنتهم مع رئيس جيوشهم ، فعندما دخلوا إلى المدينة لم يجدوا أحدا من المسلمين يتحدّثون معه ، و تساءلوا أين ذهب المسلمون ؟! فقيل لهم :

(1) ــ سير توماس . و . أرنولد : الدّعوة إلى الإسلام ص 72 ــ 73 .
(2) ــ البلاذري : فتوح البلدان ص 142 بتصرّف .

إنّ المسلمين في المسجد يصلّون ، ثمّ عاشوا بينهم فترة وشاهدوا أميرهم كواحد منهم نائما بجوار المسجد بلا حرس ولا حاشية ، ورأوا النّاس يتعاملون مع ابنه كما يتعاملون مع عامّة الرّعيّة ، فلم يملك بعضهم إلاّ أن يعلنوا إسلامهم . (1)

يقول فشر : " إنّ الدّين أمدّ حركة العرب بقوّة ذاتية أكسبتها الحياة والدّوام ولولا هذه القوّة التي نشأت عن الرّابطة الدّينية الجامعة لافتقر العرب إلى التّكتّل الذي لا تحدث الانتصارات بدونه ، ولولا ما سرى بينهم من روح متسامية عن مجرّد الشّهوة للحرب والغنيمة ، لما استطاعوا أن يضفروا برضا الشّاميين والمصريين والفرس والبربر عن حكمهم ، ثمّ إنّه لا شكّ أنّ قسطا غير قليل من نجاحهم في فتوحهم وحروبهم إنّما يرجع إلى دين جديد في قلب بلادهم ، لذلك كانوا لهذا الدّين جنودا مبشّرين ومنذرين . " (2)

إنّ هذه الشّهادات تبيّن بجلاء تأثير العقيدة على العرب ، فلم ينحصر دورها في تخليصهم من هوانهم الذّي كانوا عليه قبل إسلامهم ، إنّما بثّت في قلوبهم الشّجاعة والإقدام ، فأصبحوا جنودا فاتحين بعد أن كانوا ضعفاء مغلوبين .

---

(1) ـــ وقد خلّد هذه الحادثة شاعر النّيل حافظ إبراهيم رحمه الله في أبيات له تحت عنوان : عمر و رسول كسرى ، قائلا :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمـــرا ... بين الرّعيّـة عُطْلا و هـو راعـيهـا
وعهـــده بملـوك الفـــرس أنّ لهـا ... سورا من الجند و الأحراس يحميهـا
رآه مستغرقـــا في نـومـه فـرأى ... فيـــه الجلالـــة في أسمى معانيها
فوق الثّرى تحت ظلّ الدّوح مشتملا ... ببـــردة كـــاد طول العهـد يبليهـا
فهـان في عينه مـا كـان يكبـره ... مـن الأكـاسـر والدّنيـا بـأيديـها
وقـال قولـة حـقّ أصبحـت مثـلا ... وأصبـح الجيـل بعـد الجيل يرويها
أمنت لمّـا أقمت العـدل بينهـم ... فنمت نـوم قـرير العيـن هـانيهـا

حافظ إبراهيم : الدّيوان 83/1 .

(2) ـــ فشر : تاريخ أوروبّا ص 62 ـــ 63 .

ثانيا: مبرّرات البدء في الدّعوة إلى الإسلام بالعقيدة

شاءت حكمة الله أن تكون العقيدة القضيّة المركزية التي كلّف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بغرسها في النّفوس طيلة المرحلة المكّية " فلمّا نزل عليه قوله تعالى ((وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ)) [الشّعراء : 214] دعا بني هاشم ومعهم نفر من بني عبد المطّلب فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب بالكلام ، فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك المجلس ولم يتكلّم فنزل جبريل عليه السّلام فأمره بإمضاء ما أمر الله به وشجّعه عليه ، فجمعهم ثانية فقال **((الحمد للّه أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكّل عليه وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له))** ثمّ قال : **((إنّ الرّائد لا يكذب أهله ، واللّه لو كذبت النّاس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت النّاس ما غررتكم ، إنّي لرسول اللّه إليكم خاصّة ، وإلى النّاس كافّة ، واللّه لتموتنّ كما تنامون ، ولتبعثنّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنّ بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسّوء سوءا ، وإنّها للجنّة أبدا أوالنّار أبدا وأنتم لأوّل من أنذر))** فقال له عمّه أبو طالب أمض لما أمرت به فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أنّي لا أجد نفسي تطوّع لي فراق دين عبد المطّلب حتّى أموت على ما مات عليه ، فقال أبو لهب : يا بني عبد المطّلب هذه والله السّوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنّه ما بقينا . " (1)

تضمّن خطابه عليه الصّلاة والسّلام الخطوط العريضة للدّين الذي كلّف بتبليغه والدّعوة إليه وكان في ثلاثة محاور أساسية :

المحور الأوّل : الإيمان بالله الواحد في قوله : الحمد لله أحمده ، و أستعينه وأومن به وأتوكّل عليه ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ... والله

(1) ـــ البلاذري : أنساب الأشراف 1 / 118 ـــ 119 بتصرّف .

الذي لا إله إلاّ هو ... **المحور الثّاني : الإيمان برسول الله** في قوله إنّي لرسول الله إليكم خاصّة ، وإلى النّاس كافّة ... **المحور الثّالث : الإيمان باليوم الآخر** في قوله والله لتموتنّ كما تنامون ، ولتبعثنّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنّ بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسّوء سوءا ، وإنّها للجنّة أبدا أو النّار أبدا .
وهذه المحاور هي التي تمّ التّركيز عليها طيلة هذه المرحلة " وهي منطلقات رئيسيّة للدّعوة التي تأسّست عليها حضارة المسلمين ، وبقيت هذه المحاور هي المحاور الأساسية في كلّ مراحل الدّعوة ، وهي سبب الصّراع بين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمشركين ، فلو قفزنا قرابة عشرين عاما إلى الأمام وانتقالنا إلى صلح الحديبية ، و جدنا طبيعة الصّراع ، ومحور الخلاف لم يتبدّل " (1)
ــ فرسول الله يريد أن يكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم فيعترض عليه سهيل بن عمرو (2) قائلا : لا والله لا نؤمن بالرّحمن ، أكتب باسمك اللّهم ، ورسول الله يريد أن يكتب هذا ما عاهد عليه محمّد رسول الله ، فيعترض سهيل بن عمرو قائلا : لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . (3)
لم تكن هذه الدّعوة في ظاهر الأمر هي أيسر السّبل إلى قلوب العرب ، فقد

(1) ــ منير الغضبان : المنهج الحركي للسّيرة النّبويّة ص 36 .
(2) **ــ سهيل بن عمرو : (ت 18 هـ)**
سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي ، من لؤي ، خطيب قرش وأحد سادتها في الجاهليّة وواحد من أهل الحلّ والعقد الذين لا يقطع دونهم أمر ، أُسِرَ يوم بدر وافتُدي ، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ، قال فيه عليه الصّلاة والسّلام : من لقي منكم سهيلا فلا يسيء لقاءه ، فلعمري إنّ سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام ، ولكنّ قُدِّرَ فكان ، وأعطاه مائة من الإبل تأليفا لقلبه ، شهد اليرموك وأبلى فيها بلاء حسنا ، مات بالشّام بسبب طاعون عَمْوَاس وكلّ من معه من أولاده وذويه . انظر : ابن حجر ، الإصابة 146/3 .
(3) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 291/3 .

استقبلوا دعوته بعنف ولم يدّخروا جهدا في محاربتها ، **فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدّعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكلّ هذا العناء ؟**
هذا ما نجيب عليه في الفقرة الآتية .
ـ بعث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في زمن عرف فيه المجتمع العربي انحطاطا في سائر مناحي الحياة استحقّوا أن يوصفوا بسبب ذلك بالظّلال كما قال تعالى : ((هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)) [الجمعة 02] كما أطلق المؤرّخون على عصرهم تسمية تدلّ على ذلك فسمّيت الفترة التّي سبقت الإسلام بالعصر الجاهلي ، ومن مظاهر هذا الانحطاط " وجود قلّة قليلة تملك المال فتتعامل بالرّبا ، وكثرة لا تملك إلاّ الشّظف والجوع ، وربّما قيل إنّه كان في استطاعته أن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع وردّ أموال الأغنياء على الفقراء فلو دعا هذه الدّعوة لانقسم المجتمع إلى كثرة غالبة مع الدّعوة الجديدة في وجه طغيان المال والجاه ، وقلّة قليلة مع هذه الموروثات ، بدلا من أن تقف الغالبية السّاحقة صفّا في وجه الإسلام ، وربّما كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة وتولّيه قيادها أن يستخدم سلطانه في إقرار عقيدة التّوحيد .
لكنّ الله العليم الحكيم لم يوجّهه هذا التّوجيه لأنّه يعلم أنّ هذا ليس هو الطّريق فالعدالة الاجتماعية لا تتحقّق إلاّ إذا كانت منبثقة من عقيدة تردّ الأمر لله ، ويقبل أصحابها عن طواعية ما يقضي به الله من عدالة التّوزيع وتكافل المجتمع " (1)
وبُعِثَ عليه الصّلاة والسّلام والمستوى الأخلاقي في الدّرك الأسفل على الرّغم من ما كانوا عليه من بعض الفضائل ، فقد كان التّظالم فاشيا في المجتمع وكانت

(1) ـ سيّد قطب : معالم في الطّريق ص 25 ـ 26 بتصرّف .

الخمر والميسر من تقاليده ، وغيرها من المفاسد . (1) " وربّما قيل إنّه كان في استطاعته صلّى الله عليه وسلّم أن يعلنها دعوة إصلاحية تتناول تقويم الأخلاق فيجد نفوسا طيّبة يؤذيها هذا الدّنس وتأخذها النّخوة لتلبية دعوته ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها ، بدلا من معارضتها ، لكنّ الله علم أنّه ليس هذا هو الطّريق ، لأنّ الأخلاق لا تقوم إلاّ على عقيدة تضع الموازين وتقرّر القيم " (2)

بدأ الله بالعقيدة لأنّها هي التّي تحقّق الأهداف التّي يسعى إليها المصلحون ، فإنّ هذه الأهداف لا يكتب لها الدّوام ما لم تنطلق من القناعات الإيمانيّة ، لا سيما إذا كانت قناعات دينيّة ، لذلك نجد أغلب الحضارات متأثّرة بأفكار دينية . (3)

علما أنّ العقيدة كلّما كانت صحيحة كانت أقوى دفعا إلى إنشاء الحضارة وأدوم في الحفاظ عليها ، لكونها قضايا صدرت من مصدر متعال عن الإنسان ، وهو ما أكّده مالك بن نبي في قوله : " الحضارة لا تنبعث إلاّ بالعقيدة الدّينية وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الدّيني الذي بعثها . " (4)

وقد نبّه ول ديورنت إلى هذه الحقيقة بقوله : " وما هذه العوامل إلاّ شروطا لازمة لنشأة المدنيّة ، لكن تلك العوامل (5) لا تكوّن مدنيّة من عدم إذ لا بدّ أن يضاف إليها العوامل النّفسيّة ، فلا بدّ أن يسود النّاس نظام سياسي يشعرون به أنّه لا حاجة بهم إلى توقّع الموت عند كلّ منعطف في حياتهم ، ولا مندوحة عن

(1) ـ انظر : النّدوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 82 وما بعدها .

(2) ـ سيّد قطب : معالم في الطّريق ص 25 بتصرّف .

(3) ـ قال هنري برغسون (1859 ـ 1941 م) : لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانيّة من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنّه لم توجد قط جماعة بغير ديانة . ينبوعا الأخلاق والدّين ص 105 نقلا عن محمّد عبد الله درّاز ، الدّين ص 83 .

(4) ـ مالك بن نبي : شروط النّهضة ص 75 .

(5) ـ الجيولوجيّة الجغرافيّة ، الاقتصاديّة ، الثّقافيّة . انظر : قصّة الحضارة ديورنت 03/1 ـ 05 .

قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة ، حتّى تكون هناك قاعدة في لعبة الحياة يرعاها اللّاعبون ، و يعترف بها حتّى الخارجون عليها وبهذا ينتظم سلوك النّاس بعض الشّيء ويتّخذ له هدفا وحافزا ، ويكون بين النّاس بعض الاتّفاق في العقائد الرّئيسيّة ، لأنّ ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة النّظر إلى نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهذا يجعل حياتنا أشرف وأخصب قبل أن يخطفها الموت ، ولا بدّ أن تورّث النّاشئة تراث القبيلة وروحها ومعارفها وأخلاقها ، لأنّ هذا التّراث أداة أساسيّة تحوّل النّشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان " (1) فالعقيدة الصّحيحة والأخلاق الحسنة شروط أساسية في إنجاح الفعل الحضاري ، وهي في الوقت ذاته أهداف يسعى لتحقيقها بناة الحضارة .

ولا ينحصر دور العقيدة في العمل على الإنشاء الأوّلي للحضارة ، بل يعتبر عاملا لصياغة البناء الحضاري في جميع جوانبه ، حيث تظلّ بعد الإنشاء الموجّهة لكافّة المظاهر الحضارية (الماديّة والمعنوية) كما حصل في الحضارة الإسلامية التي قامت على فكرة تفويض الحياة كلّها للإله الواحد ، فجاءت مطبوعة بطابع التّوحيد ، في علومها وفنونها ، وعمرانها وقيمها . (2)

وإذا كانت العقيدة عاملا ضروريا في نشوء الحضارة فإنّها لا تفضي بالضّرورة إلى إنشاء التّحضّر وتنميته " بل هي مشروطة في ذلك بشروط يرجع بعضها إلى قوّة الفكرة ونسبتها من الحقّ ، وبعضها إلى العوامل التي توقعها في النّفوس موقع الدّفع والفاعلية للإنجاز الحضاري ، فربّ فكرة شاملة عن الكون والحياة

(1) ــ ول ديورنت : قصّة الحضارة 06/1 ــ 07 بتصرّف .

(2) ــ انظر : سيّد قطب ، معالم في الطّريق ص 29 ــ 31 .

اعتنقتها أمّة ما ولكنّها فكرة تكون مبنية على الوهم والخيال ، أو قائمة على اعتزال العالم المادّي للنّجاة بالرّوح من أدرانه فلا تؤدّي إذن إلى التّحضّر . " (1)

أمّا العقيدة الإسلاميّة فإنّها تحمل في طيّاتها هذه العوامل وتدفع إليها ، ومنها الأخلاق باعتبارها وجها من وجوه العقيدة وثمرة من ثمارها ووصفا لازما لرجل الحضارة المؤهّل للشّهادة على النّاس ، وهذا يدفعنا إلى بيان أهمّية الأخلاق وعلاقته بالتّحضّر .

المطلب الثّاني : أهمّية الأخلاق في البناء الحضاري

مرّ بنا أنّ الحضارة هي **ثمرة التّفاعل بين الإنسان والكون والحياة** (2) فإن كان تفاعلا إيجابيا أنتج تحضّرا إيجابيا وإن كان سلبيا كان سلبيا ، فقد تهتدي حضارة ما إلى سبيل هذه المبادئ فتحقّقها وقد لا تهتدي إليها فتضلّ عنها ، إذ الحضارة ليست أكثر من ثمرة الجهود المبذولة من قبل الإنسان للاستفادة من عناصر الكون الذي يحيط به . فهل يوفّق أصحاب هذه الجهود إلى استعمال هذه العناصر على وجه مفيد ؟ وهل يمكن أن يستعملوها على وجه غير مفيد ؟

الاحتمالان واردان ، فربّ أمّة تسبّبت في شقاء أبنائها وهي تسعى لإسعادهم و ربّ أمّة حقّقت أهدافها في إسعادهم مع توفّر القاسم المشترك بينهما ، وهو أنّ كلاًّ منهما كان ثمرةً لتفاعل الإنسان مع الكون والحياة ، ويحصل هذا لأمرين

الأوّل : أهواء النّفس وشهواتها التي تحمل صاحبها على ارتكاب المنكرات ، كما قال تعالى على لسان امرأة العزيز : ((وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ)) [يوسف 53]

---

(1) ـــ النجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 28/1 ـــ 29 بتصرّف .

(2) ـــ انظر : الصّفحة 103 من هذا البحث .

فإنّ النّفس إن لم تتعهّد بالتّربية الرّاشدة ستحمل صاحبها على الظّلم والطّغيان فتصبح الإمكانات العلمية والقدرات البشريّة أسلحة للفتك بالآخرين ، كما يحصل في الحروب التّي تخلّف الملايين من الأموات والمعاقين ، فضلا عن الخسائر الماديّة التي تشمل مدنا بأكملها .

الثّاني : كان النّاس ولا يزالون يبحثون عن حقيقة الخير والشرّ دون أن يعثروا عليهما عثورا كلّيا ، على الرّغم من وجود العقل ورجاحته ، ونظرا لهذه الحاجة بيّن القرآن الكريم طرق الخير ودلّ على أقرب السّبل إلى تسخير الحياة والكون في سبيل تحقيق سعادة الإنسان . (1)

فمعرفة الخير والاتّصاف به ضروريّ لمن يريد أن يشيعه في النّاس ، وهذا الاتّصاف هو المقصود بالخلق (2) أي الخلق الحسن ، والعمليّة التّي تهدف إلى بلوغه تسمّى تزكية (3) ولذلك سنستعمل مصطلح التّزكية قاصدين به الخلق .

ـ ينطلق الإسلام في تعامله مع إنسان الحضارة بتزكية نفسه وتطهيرها من الشّبهات والشّهوات ، وهذا ما أعلن عنه النّبي عليه الصّلاة والسّلام مخبرا عن هدف بعثته في قوله : ((**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**)) (4) ولأهمّية هذا الأمر دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام ربّهما : ((رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

(1) ـ انظر : البوطي : منهج الحضارة الإنسانية ص 22 وما بعدها .

(2) ـ الخلق : الدّين والطّبع والسّجيّة ، واصطلاحا : حال للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة . لسان العرب 304/2 المعجم الفلسفي 539/1 .

(3) ـ التّزكية من الزّكاة ، وهي الطّهارة والصّلاح ومنه قوله تعالى ((يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم)) [الجمعة 02] أي يطهّرهم . لسان العرب 192/3.

(4) ـ وفي رواية " صالح الأخلاق " أحمد رقم 8952 والحاكم برقم 4278 و صحّحه .

ٱلۡحَكِيمُ)) [البقرة 129] و هي المهمّة التي كلّف الله بها موسى عليه السّلام حين أرسله إلى فرعون حيث أمره قائلا : ((فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ)) [النّازعات 18 ــ 19] وهي الوسيلة التي نقل الله بها العرب من الضّلال إلى الهداية كما قال : ((هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)) [الجمعة 02]

والعبادات التي شرّعت واعتبرت أركانا في هذا الدّين ليست طقوسا مبهمة تربط الإنسان بغيب مجهول ، إنّما هي ممارسات متكرّرة لتعويد المتديّن على العيش بأخلاق عالية و الثّبات عليها ، فلقد جعلها الله قاسما مشتركا بين سائر المكلّفين متباينة في جوهرها ومظهرها ولكنّها متّحدة في غايتها ، فهي روافد الطّهارة النّفسية التي تصون الحياة وترقى بها إلى التّحضّر ، لذلك أعطيت لها منزلة كبيرة فإذا لم يستفد بها المرء خسر خسرانا مبينا ، قال تعالى ((كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَـٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ)) [المدثّر 38 ــ 48]

تدلّ هذه النّصوص على علوّ منزلة العبادة عند الله لأنّها تبعث على التّحلّي بالخلق الحسن " فالدّين صلة حسنة بين العبد وربّه ، وبين العبد وسائر خلقه ما داموا مسالمين ، والعقيدة هي روح العمل ومحور الخير ، و النّفس الصّالحة هي

العنصر الفعّال لكلّ إصلاح ، والخلق القوي هو الضّمان الخالد لكلّ حضارة ومن هنا كان الإصلاح النّفسي الدّعامة الأولى لإشاعة الخير تجنّبا لشيوع الفساد والفتن في الحياة " (1) وتزكية النّفس شرط أساسيّ لتحمّل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجدّ " فبمقدار ما تتزكّى النّفس من الأهواء يُخْلِصُ صاحبها في تحمّل ما كلّف بتحمّله من الواجبات ، وبمقدار ما تخضع تلك النّفوس لأهوائها وشهواتها تغدو أداة للإفساد في الأرض لتحقيق مصالحها لذلك يحمّل الله المسلم مهمّة إقامة مجتمع مستقيما في أخلاقه سليما في عقيدته متحضّرا في علومه ومكاسبه ليكون مظهرا لعدالته وحكمه في الأرض وهذه هي عمارة الأرض بمعناها الشّامل " (2) التّي نصّ القرآن عليها في قوله تعالى ((هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)) [هود61] أي كلّفكم بعمارتها ، وهذا يقتضي الاستقامة بالتّوبة إلى الله والاستغفار وقوله : ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً)) [البقرة 30] " أي خليفة يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي ، وهو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه " (3) وقوله أيضا : ((ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ)) [الحج 41] فهذه الآيات فيها تعريف صريح بالمهمّة التي كُلِّفَ بها الإنسان ، وهي " إنشاء واقع في الأرض يقوم على شريعة الله لعمارتها عمارة

(1) ــ محمّد الغزالي : خلق المسلم ص 22 بتصرّف .
(2) ــ انظر : البوطي ، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص 24 .
(3) ــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 218/1 .

كلّيّة لكلّ ما تتّسع له كلمة العمارة ، ومن هنا شرّف الله الإنسان بلقب الخليفة وأعطاه صفة الإمامة وخلع عليه خلعة التّكريم ، ولمّا كان نهوض الإنسان بهذه المهمّة متوقّفا على تزكية نفسه من مساوئ الأخلاق وآفاتها رسم الله له دورات تربوية متمثّلة في عبادات تتكفّل بتطهير نفسه من الشّوائب وتهيئته للنّهوض بواجبه على أحسن وجه . " (1)

ــ فالصّلاة شرّعت لإبعاد المسلم عن الرّذائل ، وتطهيره من سوء القول والعمل قال تعالى : ((إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ)) [العنكبوت 45]

والزّكاة وسيلة لغرس مشاعر الحنان والرّأفة ، وتوطيد لعلاقات التّعارف والألفة بين شتّى الطّبقات ، قال تعالى : ((خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ)) [التّوبة 103] فالمحتاج تتطهّر نفسه من مشاعر الحقد ، والموسر تتطهّر نفسه من مشاعر الكبر والبخل .

وشرّع الصّوم لتنمية ملكة التّقوى ، فقال : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ)) [البقرة 183] وجعله بمثابة دورة تدريبية يساعد على ضبط النّفس من الاندفاع للعدوان ، فمع حصول الدّافع للغضب بسبب الجوع والعطش ، يتوجّب على الصّائم عدم الاستجابة لاستفزازات الذين يجهلون عليه ، حتى يتمكّن من السّيطرة على أعصابه ، وبهذا يحقّق أعظم مظهر من مظاهر القوّة ، كما قال عليه الصّلاة والسّلام : **((ليس الشّديد بالصّرعة ولكنّ الشّديد من يملك نفسه عند الغضب))** (2)

---

(1) ــ انظر : سيدّ قطب ، مقوّمات التّصوّر الإسلامي ص 88 البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 25 وما بعدها .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الأدب ، باب : الحذر من الغضب رقم 6114 .

والحجّ إلى بيت الله الحرام ليس سفرا مجرّدا عن المعاني الخلقية ، إنّما شرع لتنمية ملكة التّقوى والتّزوّد ليوم المعاد (1) قال تعالى : ((ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ)) [البقرة 197]

فالأخلاق هي المادّة الخام التي يتأسّس عليها الإيمان ، وكلّما كان المسلم مستقيما في أخلاقه كان قويّا في إيمانه ، لذلك كانت دعوة النّبيّ إلى محاسن الأخلاق مقرونة بالإيمان ، كما قال : ((**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**)) (2) فهذه النّصوص فيها دلالة واضحة على علو منزلة الخلق الحسن في الإسلام لأنّ حقيقة الدّين وخلاصته صلة حسنة بين العبد وربّه من جهة ، والعبد وعباده من جهة أخرى ، والإيمان به سبحانه هو محور لعمل الخير وأداء الواجب ، وبما أنّ هذا الإيمان يقوم في أساسه على التّصوّر الصّحيح لحقيقة الألوهيّة تصوّرا تصدر عنه التّصرّفات على مستوى الاعتقاد والعمل والأخلاق ، وجبت الإشارة إليه لكون حضارة المسلمين كانت متأتّية منه مؤسّسة عليه ، فهو الذّي حكم تطوّرها ورسم اتّجاهاتها ، ممّا يتطلّب الوقوف على ذلك التّصوّر الذّي تمثّل في عقيدة التّوحيد ، وهذا يدعو لبيان البعد الحضاري لحقيقة الألوهيّة في التّصوّر الإسلامي .

الفصل الثّالث
البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة و الكون في العقيدة الإسلاميّة

المبحث الأوّل : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة في العقيدة الإسلاميّة

المبحث الثّاني : البعد الحضاري لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة

المبحث الأوّل : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة في العقيدة الإسلامية

أهمّ مقياس نعتمد عليه في معرفة سير الحضارة في الطّريق السّليم ، يكمن في المعرفة الدّقيقة للإنسان و الحياة والطّبيعة ، فالإنسان الذي لا يعرف قيمته ورسالته ، قد يدفعه جهله إلى الظّلم والطّغيان أوالذلّ والهوان ، وكذلك الذي لا يعرف شيئا عن أصل الحياة ومصيرها قد يحتار في شأنها فيسيء التّصرّف فيها ، والذي يجهل حقيقة الطّبيعة المحيطة به ، قد يؤلّه بعض مظاهرها أحيانا ، ويراها جملة تحدّيات آنا آخر فيظلّ خائفا منها .

لكن الذي يعرف أصله ومآله ، ويدرك معنى الحياة وعاقبتها ، وأسرار الطّبيعة ونواميسها ، فيتمكّن من تحقيق أهدافه مستثمرا ما يحيط به من خيرات ، وإنّ الذي يستطيع أن يعرّف الإنسان على هذه الأمور ويبصّره بكيفية تسخيرها تسخيرا سليما هو الله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى ، فإذا عرف الإنسان ذلك وجب عليه الالتزام بالمنهج الذي رسمه له ، لأنّه سبحانه هو صاحب التّوجيه السّديد لتحقيق التّحضّر المنشود ، فيحتاج العبد والحالة هذه إلى معرفة المعبود الحق ، الضّامن لتحقيق النّتائج وبلوغ الأهداف ، كما يحتاج إلى معرفة حدود العبوديّة لإدراك الصّورة التّي يجب أن يكون عليها سلوكه والغاية من وجوده ، باعتباره العنصر الفعّال في الفعل الحضاري ، كما يحتاج إلى معرفة حقيقة الكائنات المحيطة به باعتبارها الوسائل التّي يستعين بها لأداء مهمّته ، وهذا ما نقوم ببيانه في المطالب الآتية :

المطلب الأوّل : مظاهر الألوهية في الكون والحياة

أظهر الله عزّ وجلّ مظاهر الألوهية للنّاس وتثبيتها في ضمائرهم ليقيموا على أساسها عبوديتهم له دون سواه ، وهو يعرّفهم بهذه الحقيقة يأتي تعريفهم بالحقائق المتعلّقة بالكون والحياة ، حتّى ينشأ الاعتقاد الصّحيح في كلّ ما

يحيط بالإنسان ، لذلك نجد معظم النّصوص القرآنية المتعلّقة بتعريف النّاس بربّهم خالقا ورازقا وهاديا تتضمّن الكثير عن حقائق الكون والحياة والإنسان وتربطها بمشيئة الله الفاعلة في هذا الوجود ، ليرتبط بناء الإيمان في النّفوس بناء التّحضر في المجتمعات ، منها قوله تعالى : ((الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ)) [الرّعد 01 ــ 04]

لقد اتّجهت هذه الآيات في تعريف النّاس بربّهم " ببيان الآثار الظّاهرة في الكون وسلطانه المتمثّل في الهيمنة على الوجود ، من خلال رفع السّموات بغير عمد ، و تسخير الشّمس والقمر وفق تقدير محكم ، وتمهيد الأرض وتثبيتها ، و إجراء الأنهار وتعاقب اللّيل والنّهار ، وإعدادها بهذا كلّه لاستقبال الحياة ، وهي مشاهد تدلّ على الإرادة والتّدبير " (1) وقد تمّ هذا البيان بشتّى أساليب التّأثير والإبانة والتّقرير ، لتستقرّ حقيقة العبودية لله وحده بلا شريك باعتبارها شاملة للوجود كلّه ، من خلال ألوهيته لسائر الكائنات التي أظهرها لعباده في صور مختلفة من أهمّها :

(1) ــ سيّد قطب ، مقوّمات التّصوّر الإسلامي ص 71 .

أ : الخلق

أخبر الله أنّه أوجد سائر المخلوقات من العدم ، وبثّ فيها الحياة وقدّر لها زمنها الذي تعيشه ومكانها الذي تستقرّ فيه ، فنبّه العقول إلى أنّ كلّ شيء في الوجود من خلقه ، فقال : ((وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)) [الفرقان 02]

وقال : ((تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) [الملك 1 ــ 4]

وبالمقابل فقد نفى القدرة على الخلق عن كلّ موجود وتحدّى المشركين أن يثبتوا لآلهتهم التّأثير في نواميس الكون (1) فقال ((وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا)) [الفرقان 03] وقال ((قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)) [الأحقاف 04]

---

(1) ــ دليل الخلق من الأدلّة التّي يعتمد عليها العلماء في إثبات وجود الله ، وهذا الدّليل لا يدلّ على وجود الله فحسب ، بل على وحدانيته حيث نفى القدرة على الخلق عن سواه ، وهذا الدّليل يعرف عند الغربيّين بالبرهان الكوني ، وهو على حدّ قول العقّاد أقدم البراهين وأبسطها وأقواها على الإقناع . انظر : عبّاس محمود العقّاد ، الله ص 207 .

فالخلق من الصّفات الواجبة للإله الحق ، ولذلك طالب الله عزّ وجل المشركين بإظهار هذه الصّفة لآلهتهم المزعومة ليبيّن لهم أنّ الإله من يملك القدرة على الخلق والإيجاد ، بينما الآلهة الأخرى عاجزة لا قدرة لها " لقد نفى عنها صفة الخلق وصرّح بأنّها مخلوقة ، وأثبت عجزها عن النّفع والضرّ فهي على كونها مخلوقة غير خالقة لا تستطيع نصر أنفسها ولا عابديها ، بل هي التي تحتاج إلى عابديها لضمان بقائها " (1) فإذا انتفى دورها في الخلق والنّفع والضرّ ، فقد تعيّن ضعفها وانتفت ألوهيتها .

ب : الرّزق

عرّف سبحانه وتعالى ذاته لعباده بصفة الرّزق ، وهي مظهر من مظاهر عنايته بمخلوقاته ، إذ أنّ حياتهم متوقّفة على رعايته لها وحفظه إيّاها ، وهذا أمر مركوز في فطرة البشر لا يكاد ينازع فيه أحد حتّى مشركوا العرب كانوا يقرّون أنّ الله هو الرّازق ، قال تعالى : ((قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ)) [يونس 31] .

ولمّا كان الإنسان مجبولا على غريزة حبّ البقاء ، وكان بقاؤه متوقّفا على ضمان رزقه ، فإنّه يهمّه أن يعرف من المتصرّف في رزقه ، كما تهمّه معرفة سبب بسطه له وحرمانه منه ، ليتمكّن من اتّخاذ الموقف الذي يحقّق له حاجته ، لهذا أخبر النّاس أنّه المتحكّم في أرزاقهم إنشاء وتدبيرا فإذا حرمهم شيئا فلا معطي لما منع ، وإذا بسط لهم من رزقه فلا راد لعطائه ، قال تعالى : ((مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ

(1) ـــ رشيد رضا : تفسير المنار 435/9 .

مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)) [فاطر 2 ــ 3]

ثمّ إنّ الله لمّا أخبرهم أنّه وليّ نعمتهم وسبب رزقهم بيّن لهم أنّ ذلك ليس لجلب منفعة له أودفع مضّرة منهم كما هي عادة المخلوق ، فالرّبّ لم يحسن إلى عباده ليكافئوه ولا ليدفعوا عنه ضررا ، فقد ورد في الحديث : ((**يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا ، يا عبادي كلّكم ضالّ إلاّ من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلّكم جائع إلاّ من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلّكم عار إلاّ من كسوته فاستكسوني أَكسُكم ، يا عبادي إنّكم تخطئون باللّيل والنّهار وأنا أغفر الذّنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلاّ كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفّيكم إيّاها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه**)) (1) " فبيّن أنّ ما أمرهم به من الطّاعات وما نهاهم عنه من السيّئات لايتضمّن استجلاب نفعهم ولا استدفاع ضررهم كأمر السيّد عبده والوالد ولده والإمام رعيّته ، بما ينفع الآمر والمأمور ونهيهم عمّا يضرّ النّاهي والمنهي ، ومن كان هذا شأنه فإنّه لا يتزيّن بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم ، فإذا أمرهم بعبادته كان ذلك إحسانا لهم ورحمة بهم " . (2)

وتظهر لنا أهمّية الكشف عن هذه الحقائق والتّذكير بهذه الآيات ، إذا علمنا

(1) ــ مسلم عن أبي ذرّ الغفاري ، كتاب البرّ والصّلة ، باب : تحريم الظّلم رقم 2577 .

(2) ــ ابن القيّم : مفتاح دار السّعادة ص 544 ــ 545 بتصرّف .

الحجّة التي كان العرب يتذرّعون بها تبريرا لكفرهم ، حيث زعموا أنّهم إذا اتّبعوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم اختُطِفوا من أرضهم ، قال تعالى حكاية عنهم : ((وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ)) [القصص 57 – 58]

يقول تعالى مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتّباع الهدى " إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا مَنْ حولنا من العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، و يتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيبا لهم : فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمنًا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق " (1) فبيّن لهم أنّ الهلاك بيده دون سواه ، وأنّ الأمن الذي يتمتّعون به ليس بسبب كفرهم إنّما هو فضل منه ، وأنّه إذا تحقّق لهم الأمن وهم في حالة الضّلال فلا يتخلّف عنهم وهم مؤمنون ، وهذا يُكْسِبُ المؤمن الاطمئنان على رزقه فيكون لجوؤه إلى الله أولى وتركيزه على المهمّة التي كلّف بتنفيذها أحرى .

ج : القهر والسّلطان

عرّف الله ذاته لعباده بهيمنته على سائر الكائنات وسلطانه عليها ، فهي محتاجة إلى ربّها في تدبير أمورها ، مفتقرة إلى قوّة تساعدها في التّغلّب على مصاعب الحياة ، ليكون خضوعها لها دون غيرها ، وقد نقلت لنا الكتابات التي أرّخت للأديان (2) أنّ أقواما اتّجهوا إلى هذه القوّة فعبدوها لينتصروا في

---

(1) – ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 247/6 .

(2) – انظر : عبد الله درّاز ، الدّين ص 150 – 153 ، سامية مصطفى الخشّاب ، دراسات في علم الاجتماع الدّيني ص 54 .

حروبهم ، ويوفّقوا في تسديد سهامهم في صيدهم ، ويتحقّق لهم الشّفاء من أمراضهم فعبدوها ، لذلك أخبر سبحانه وتعالى أنّ كلّ ما يخطر على البال مهما عظمت قوّته هو عبد له خاضعا له طوعا وكرها ، فقال : ((وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ))[الرّعد 15]

قال أبو حيّان التّوحيدي : " والذي يظهر أنّ مساق هذه الآية إنما هو أنّ العالم كله مقهور لله تعالى خاضع لما أراد منه مقصور على مشيئته لا يكون منه إلا ما قدر تعالى " (1)

وأظهر هيمنته في قهره للظّالمين ونصرته للمطيعين بمشيئته وتدبيره ، فقال : ((وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ)) [إبراهيم 13 ــ17]

ــ وأظهر هيمنته على أوليائه وعلّمهم أنّ سننه نافذة لا يكمن التّأثير في سيرها ففي غزوة أحد خالف الصّحابة الكرام أوامر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدفعوا الثّمن غاليا (2) لقد ظنّوا أنّ إيمانهم بالله كفيل بتحقيق النّصر ، وغفل بعضهم عن عاقبة التّقصير في التّطبيق العملي لبعض التّعليمات ، لكنّ الأمر لم يتمّ كما ظنّوا ، وأخذوا يتساءلون ! كيف انهزمنا !؟ فجاء الجواب حاسما

(1) ــ أبو حيّان : تفسير البحر المحيط 369/5 .

(2) ــ انظر : ابن هشام ، السّيرة النّبويّة 60/3 وما بعدها

حيث كشف لهم أنّ سنّة الله ثابتة ، لا يحابي أحدا ولا يظلمه ، فقال : ((أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)) [آل عمران 165 ــ 166]

" لقد قضى الله أن يكون النّصر لأوليائه ، لكنّه علّق هذا النّصر بتحقيق الإيمان في قلوبهم واستيفاء مقتضياته في تنظيمهم وسلوكهم ، وبذل الجهد الذّي في وسعهم فهذه سنّة الله التّي لا تحابي أحدا ، فأمّا حين يقصّرون في أحد هذه الأمور ، فعليهم أن يتقبّلوا نتيجة التّقصير ، فإنّ كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السّنن " (1)

وفي غزوة حنين قال بعض المسلمين لن نهزم اليوم من كثرة (2) فبيّن لهم أنّه صاحب السّلطان في النّصر والهزيمة وأنّ كثرة العدد لا تغني عنه شيئا لترتبط القلوب به في جميع الأحوال ، قال تعالى : ((لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ)) [التّوبة 25]

ــ وأظهر هيمنته على سنن الكون ومظاهر الطّبيعة ، يتصرّف فيها كيف يشاء تسير طوع أمره ، فعندما ألقي إبراهيم عليه السّلام في النّار تنكيلا به أمام قومه على عدم توقير أصنامهم نصره الله عليهم ، حيث عطّل قدرتها على الإحراق وجعلها بردا و سلاما عليه ، قال تعالى : ((قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ

(1) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 513/1 .

(2) ــ انظر : ابن هشام ، السّيرة النّبويّة 74/4 وما بعدها

﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ)) [الأنبياء 68 ــ 70] وعندما بشّر زكريا عليه السّلام بالولد ، بعد تقدّم سنّه وعقم زوجته تعجّب من أمر الله فذكّره بقدرته المطلقة قائلا : ((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا)) [مريم 8 ــ 9] " أي كذلك الحال من كبرك وعقر امرأتك قدّر ربُّك إيجاد الغلام لك وهو عليه هيّن ، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم " (1) فقدرة الله مطلقة لا يعتريها العجز ولا تعيقها السّنن والأسباب لأنّه خالقها ، وهذا يبطل كلّ تعجّب .

ــ وأظهر ألوهيته من خلال هيمنته على أنبيائه حيث أخبر أنّهم تحت قبضته يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ممّا يقطع الأطماع إلى إعلاء شأنهم إلى مقام الألوهية ، فإذا تجلّت فيهم خصائص العبودية فالأمر للذّين من دونهم أولى ، فآدم عليه السّلام لمّا نسي أمر ربّه اتّجه إلى الله متضرّعا راجيا عفوه فقال مع زوجته : ((قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ)) [الأعراف 23] وقال نوح عليه السّلام لقومه : ((وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)) [هود 30] (2) فمعرفة هذه الصّفة من شأنها أن تملأ النّفس الثّقة بالله والخشية منه وتحرّرها من الخوف من غيره وإهدار الجهد في التّقرّب إلى سواه وهو لا يملك شيئا .

د : العلم

علم الله بعباده لا يقلّ شأنا عن هيمنته عليهم ، ذلك أنّه من أسباب الالتزام

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 72/8 بتصرّف .

(2) ــ انظر : سيّد قطب ، مقوّمات التّصوّر الإسلامي ص 225 ــ 226 .

بتعاليم السّماء وصحوة الضّمير وتقلّب العبد بين الخوف والرّجاء : إدراكه أنّ الله مطّلع على سرّه وجهره ، فالإله الذي لا يستطيع الإحاطة بحركة العباد لا يتمكّن من مراقبتهم فضلا عن محاسبتهم (1) وهذا يفقده هيبته في قلوب عابديه فتزول عنه صفة القداسة ، حيث يشعر العبد أنّه قادر على المعصية دون علمه ، أو يظنّ أنّ عمله الذي أخلص في أدائه وأخفاه عن أعين النّاس قد يذهب سدى ، فيؤدّي هذا وهذا إلى الإفراط في المخالفات ، أو التّقصير في الواجبات ، فلا يتمّ الخضوع والانقياد كما يريد الله لعباده . (2)

ـ أظهر الله لعباده صفة العلم التي أحاطت بعالم السّرائر والغيوب ، فقال :

(1) ـ اعتبر الإسلام النّيّة شرطا أساسيا في قبول العمل ، وهي من الأمور التي يتعذّر إدراكها ولا يطّلع عليها إلاّ الله ، لذلك يحرص المسلمون على الصدق في النّوايا أثناء القيام بالأعمال لأنّهم يعلمون أنّ الله مطّلع عليها ، وأنّه لا يقبل العمل إلاّ إذا كان خالصا . انظر : الغزالي إحياء علوم الدّين 264/5 وما بعدها ، وليّ الله الدّهلوي : حجّة الله البالغة 152/2 .

(2) ـ صفة العلم التي ظهرت لعمير بن وهب كانت سببا في إسلامه ، فقد جلس ذات يوم مع صفوان بن أميّة يتذاكران بدرا ومصابها العظيم ، ويتفجّعان على عظماء قريش ممّن قُتِلُوا فقال صفوان ليس في العيش خير بعدهم ، فقال عمير صدقت والله وربّ الكعبة لولا ديون عليّ ليس عندي ما أقضيها به ، وعيال أخشى عليهم الضّياع من بعدي لمضيت إلى محمّد وقتلته ، وإنّ في وجود ابني وهب لديهم أسيرا ما يجعل ذهابي أمرا لا يثير الشّبهات ، فقال صفوان اجعل دينك كلّه عليّ فأنا أقضيه عنك مهما بلغ ، وأمّا عيالك فسأضمّهم إلى عيالي ما امتدّت بي وبهم الحياة ، فقال عمير إذن أكتم حديثنا هذا ولا تطلع عليه أحدا ، فانطلق إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حاملا سيفه عازما على قتله ، فقال له النّبيّ : ما الذّي جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت أرجو فكاك هذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا إليّ فيه ، قال : فما بال السّيف الذي في عنقك ؟ قال : قبّحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنّا شيئا يوم بدر ؟ فقال النّبيّ : أصدقني ما الذّي جئت له يا عمير ؟ قال : ما جئت إلاّ لذاك فقال عليه الصّلاة والسّلام بل قعدت أنت وصفوان وقلت كذا وكذا ... فذكر له حديثهما بحروفه ، فقال عمير أشهد أنّك لرسول الله ، فإنّ خبري معه لم يعلم به أحد سوانا ، فأسلم . انظر : ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصّحابة 421/3 ـ 422 .

((وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ)) [ق 16] وقال : ((وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ)) [البقرة 215] وأخبر أنّه عليم بخبايا الأرحام وباطن النّفس ، فقال : ((ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ)) [الرّعد 8 ـ 11] في هذه الآيات " بيان لعلم الله بما تحمله الأرحام وتكنّه الصّدور وبالحركة الخفيّة في ظلمات اللّيل وبكلّ سارب وكلّ هامس ، فالكلّ مكشوف لعلمه تتعقّبه الحفظة التي تحصي عليه خواطره ونواياه ، وتبدو عظمة هذه الصّفة حين يتخيّل العقل هذه الأعداد الهائلة من الإناث في عالم الأحياء في هذا الكون المترامي الأطراف ، كلّ أنثى في الوبر والمدر في البدو والحضر في البرّ والبحر ، وقد اطّلع الله على كلّ حمل في أرحامها ، و على كلّ قطرة دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام ، وتظهر عظمة هذه الصّفة أيضا ، حين يتصوّر العقل هذه الأعداد الهائلة من البشر في مختلف القارّات وبمختلف اللّغات واللّهجات في هواجسها ونواياها وأقوالها وأفعالها وجهرها وسرّها ، وهي كلّها عند الله مشهودة محفوظة بعلمه لا يعزب عنه شيء " (1)

وبالمقابل نفى الله عزّ وجل صفة العلم المطلق عن كلّ موجود فقال : ((قُل

(1) ـ انظر : في ظلال القرآن 2048/4 ـ 2049 .

لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ)) [النّمل 65] ليتعيّن انفراده سبحانه وتعالى بهذه الصّفة ، حيث انتفت منازعته فيها ، وهذا يدلّ على انتفاء المنازع أو عجزه على أقلّ تقدير وهذا كاف في انتفاء ألوهية غيره من الآلهة المزعومة ، وعدم جدوى الاعتماد عليها للبون الشّاسع بين علم الله المطلق ، وعلم من سواه النّاقص .

معرفة هذه الصّفات سابقة الذّكر على هذا النّحو يملأ النّفس أنسا بالله وقربا منه ، و رجاء فيه وحبّا له ، وخشية منه و إجلالا له ، فيقبل العبد عليه بالتّوبة والإنابة ويتوكّل عليه حقّ التّوكّل ، فتكون هذه المعاني عونا له للقيام بما كلّفه به من عبادته وعمارة الأرض وينشئ في الأذهان فكرة الرّقابة المستمرّة لله ربّ العالمين ، غير أنّ هذا الهدف لا يكتمل تحقيقه إلاّ إذا أفرد العبد خوفه من الله دون سواه ، وحرّر وجدانه من الخضوع لغيره ، لذلك هيّأ الله عباده لتحرير وجدانهم من سائر المخاوف ، لإبعاد الموانع التّي تحول دون إتقان العمل وخدمة المجتمع وتحقيق الفعل الحضاري الذّي يسمو بصاحبه إلى رتبة الشّهادة على النّاس ، وهذا ما نتناوله في المطلب الآتي .

المطلب الثّاني : أهميّة تحرير الوجدان في تحقيق الفعل الحضاري

حرص الإسلام على تحرير وجدان الفرد من كلّ خوف فاسد ومن كلّ رجاء منحرف ليحرّر الإنسان من الخضوع لغير الله فضلا عن عبادته طالما لا يملك حياته أوموته ، كما لا يملك حقّ الوساطة بينه وبين ربّه ، قال تعالى : ((قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ)) [آل عمران 64] ولمّا كان الأنبياء مظنّة أن يتّجه إليهم النّاس بشيء من العبادة ، فقد عني الله بتحرير الوجدان تحريرا كاملا

فبيّن لهم أنّهم عليهم السّلام يجري عليهم الموت بما فيهم خاتمهم ، كي لا تتعلّق القلوب إلاّ به سبحانه ، قال تعالى : ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ)) [آل عمران 144] وبيّن لهم أنّ مغفرة الذّنوب بيده دون سواه ، ليتعلّق خوف العبد ورجاؤه بربّه ، قال تعالى : ((لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران 128 ــ 129] كما بيّن أنّ المعصية تجلب عذابه بصرف النّظر عمّن صدرت منه فقال آمرا نبيّه : ((قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)) [الأنعام 15] وفي سبيل تحرير الوجدان من كلّ شبهة شرك " عرض صورة من تأليه العباد للعباد تمثّلت في تلقّي الشّرائع منهم وجعلهم بذلك أربابا مع أنّهم لم يعتقدوا ألوهيتهم ، ليعلّم النّاس الثّقة بأنفسهم وعدم إلغاء عقولهم ، ويحذّرهم من الخضوع للعباد فترتبط قلوبهم وعقولهم بالخالق الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى " (1) قال تعالى : ((ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [التّوبة 31] ولقد حرص القرآن الكريم على تحرير الوجدان مستقرّ الإيمان في مجالات عدّة تخليصا له من الأوهام وربطه بالله ، باعتباره المؤثّر الفعّال في تحويل القناعات إلى عمل ، وأهمّ هذه المجالات ما يلي :

(1) ــ سيّد قطب : العدالة الاجتماعيّة في الإسلام ص 35 .

أوّلا : تحريره من الخوف على فقدان الحياة

الخوف من الموت شعور مغروس في النّفس لا يمكن التّخلّص منه ، فهي بحكم الغريزة مجبولة على حبّ البقاء ، وهذا الشّعور كما نجده عند عامّة النّاس نجده عند الصّفوة من الأنبياء والمرسلين فإبليس عندما أراد غواية آدم استغلّ هذا الأمر وتسلّل إليه من خلاله ، قال تعالى : ((فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)) [طه 120]

فالخلد هروب من الموت وهو مطلب كثير من النّاس ، وقد كان سبب غوايته عليه السّلام ، وموسى عليه السّلام لم تمنعه قوّته ولا مقام نبوّته من التّصريح لله بالخوف من آل فرعون ، قال تعالى حكاية عنه : ((قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)) [القصــص 33] ومن ثمّ عني القرآن الكريم عناية خاصّة بمقاومة الشّعور بالخوف على فقدان الحياة " لأنّه لا يغيّر من الواقع شيئا ، بل يبدّد الطّاقة ويدمّر الكيان الإنساني ، فبيّن أنّ الموت بإذن الله و ليس لأحد قدرة على تقديمه أو تأخيره " (1) قال تعالى : ((وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا)) [آل عمران 145]

وبيّن أنّ الموت مصير محتوم لكلّ إنسان ، فقال : ((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)) [الأنبياء 34 ــ 35] وقال : ((أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ)) [النّساء 78] وقال ردّا عن القاعدين عن الجهاد : ((ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ

(1) ــ محمّد قطب : منهج التّربيّة الإسلاميّة 128/1 ــ 129 .

قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)) [آل عمران 168]

فقد قال هؤلاء للمؤمنين " لو أطاعونا في البقاء في بيوتهم والقعود عن القتال ما قتلوا أمّا نحن فقد استطعنا أن نحفظ حياتنا بقعودنا ، فقال الله لهم فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم تملكون أسباب الحياة والموت ، فهل يمكنكم الخلود وأنتم باقون في بيوتكم ؟ إنّ الموت ليس خاضعا للمواقف التّي يتّخذها الإنسان في حياته إنّما لإرادة الله ومشيئته " (1) لذلك قال : ((قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ)) [آل عمران 154]

وأخبر أنّ الإنسان إذا أدركه الموت تمنّى التّأخير ليعمل صالحا ، لكنّ الله لن يؤخّر أجله قال تعالى : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ)) [المنافقون 9 ــ 11]

كما أخبر أيضا أنّ الإنسان إذا تعذّر عليه تنفيذ ما قصد من خير بسبب الموت فإنّه سبحانه يشكر له سعيه ويكتب له أجره ، ليكون إيجابيا في حياته ، خيّرا في عمله ، قال تعالى : ((وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا)) [النّساء 100]

وبهذا يتحرّر الوجدان من الخوف على الحياة ، وتتوجّه طاقات الإنسان

(1) ــ محمّد حسين فضل الله : من وحي القرآن 376/6 .

للعمل فيما خلقت لأجله ولما كلّفت به ، بروح قويّة في الآداء نشيطة في التّعمير ، و يصبح الخوف من الموت محفّزا على البذل وليس مانعا منه طالما الأمر كلّه بيد الله .

ثانيا : تحريره من الخوف على ضياع الرّزق

الخوف على الرّزق يعادل أحيانا الخوف من الموت ، فإنّ الرّزق دعامة القوّة وعصب الحياة ، لذلك عني القرآن الكريم بتحرير الوجدان من هذا الشّعور وهو يدعو إلى الإيمان بالله ، فطمأن الإنسان أنّ رزقه بيد ربّه لا يملك أحد التّصرّف فيه ، فقال : ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ)) [هود 06] وقال : ((أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ)) [الملك 21] وقال : ((وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ)) [الذّاريات 22 ـ 23]

وعندما كلّف الإنسان بعبادته طمأنه من هذه النّاحية ، فقال : ((وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ)) [الذّاريات 56 ـ 58] " فالرّزق مكفول فلا ينبغي الانشغال بهمّه ، وإنّما على المؤمن الحرص على عدم تفويت الواجبات لتحقيق العبادة ، وبهذا يعيش مطمئنّا على رزقه ، و يأنف عن اتّخاذ الوسائل الخسيسة لتحقيق غايته الكريمة ، فالوسيلة الخسيسة تحطّم معنى العبادة ، كما أنّه يتحفّز للقيام بواجباته ، فيعيش مرتاحا في ضميره سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها ، طالما أنّه أدىّ ما عليه وحقّق معنى العبادة " (1)

---

(1) ـ سيّد قطب : في ظلال القرآن 3388/6 ـ 3389 بتصرّف .

وأبطل الله حجّة العرب في التّمسّك بشركهم ، ومنّ عليهم بتأمينهم في أرزاقهم ، فقال : ((وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)) [القصص57] فقد جاء بعض المشركين وقالوا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله تعالى عليهم : ألم نعصمهم ونجعل مكانهم ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه تتاجر العرب حوله وهم آمنون فيه يحمل إليه ويجمع فيه من كل جهة ثمرات أشياء كثيرة ، فلا وجه للخوف من التخطف إن آمنوا فإنهم لا يخافون وهم عبدة أصنام ، فكيف يخافون إذا آمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام " (1)

وأخبر أنّه المتكفّل بأرزاق العباد أبناء وآباء ، فقال : ((وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ)) [الأنعام 151] وقال : ((وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)) [العنكبوت 60]

وطمأن عباده أنّ الالتزام بدين الله لا يتعارض إطلاقا مع ميلهم لتلبية حاجات النّفس من التّمتّع بالطيّبات ، فقال : ((قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)) [الأعراف 32]

وضمن لعباده المتّقين البركة في الرّزق لئلاّ يلجئوا للحرام ، لأنّه لا يزيد في أرزاقهم شيئا ، بل يزيدهم وزرا وإثما ، قال تعالى : ((وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ

---

(1) ــ الآلوسي : روح المعاني 144/11 بتصرّف .

مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا)) [الطّلاق 2 ـ 3] وقال ((وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)) [الأعراف 96]

وطمأنَةُ النّاس على أرزاقهم لها أهمّيتها في الحياة ، لأنّ الخوف على الرّزق شعور سيّء ينقص من معرفة الفرد لقيمته الذّي حدّدها الله ، وقد يدعوه إلى قبول الذلّ والتّنازل عن كثير من حقوقه ، كما قد يؤثّر على إيمانه بربّه . (1)

ثالثا : تحرير الوجدان من سائر أنواع المخاوف

وكما عالج القرآن الكريم الخوف من الموت ومن الفقر ، عالج سائر أنواع المخاوف التي تواجه الأفراد ، فقد يخاف الإنسان من أذى النّاس ، وقد يخاف على مكانته في المجتمع ، وقد يخاف من قوى غيبيّة ... وغيرها من المخاوف ، فيحرّره الإيمان من هذا الخوف ، ويعلّمه أنّ الأمر كلّه بيد الله وحده ، فهو المعزّ وهو المذلّ ، قال تعالى : ((قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)) [آل عمران 26] وعلّمه أيضا أنّه هو المنجّي من الكربات والشّدائد ، فقال : ((قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ)) [الأنعام 63 ـ 64]

---

(1) ـ لذلك تعوّذ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الفقر وقرنه بالكفر فقال : اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الكفر والفقر . أبو داود عن أبي بكرة ، كتاب الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، رقم 5090 بإسناد حسن .

وحرّر الإنسان من الخوف من القوى الغيبية في قوله ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس 23] وقوله : ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة 76]

وهكذا يتناول القرآن الكريم كلّ المخاوف البشرية ، فيخلّص النّفس منها ويطلقها لتواجه الحياة ، مطمئنّة إلى قدر الله متطلّعة إلى إحسانه ، ثمّ " عالج الخوف الفطري في الإنسان ، فأثاره للقيام بمهمّته التي خلق لها ، فلا ينبغي أن يخاف من قوى الأرض لأنّها مسخّرة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا ، أمّا القوّة التي ينبغي أن يخاف منها حقّا ، هي القوّة التي بيدها كلّ شيء ، المانحة والمانعة ، وعليه فالخوف يجب أن يكون من الله ، وممّا خوّف الله به " (1) وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران 175]

فإذا تحرّر الوجدان من شعوره بالخضوع لغير الله والخوف منه امتلأ إيمانا بالله فيتحرّر رجاؤه تبعا لذلك " ثمّ إنّ التّغلّب على المخاوف التي تمّ بيانها تماشيا مع التّربية القرآنية ، لا يتعارض أبدا مع وجوب العمل بالأسباب والسّعي لجلب الرّزق وتحصيله ، بل يقوّي القلب ويشجّع الضّمير ، و يجعل الفقير المسترزق يواجه من يظنّ أنّه بيده رزقه بكلّ قوّة وبكلّ شجاعة ، فلا يقعده شعور الخوف على المطالبة بحقّه والاعتزاز بنفسه ، ولا يقعده أيضا على ترك بعض دينه أو شيء من عزّته احتفاظا برزقه " (2) فينطلق للقيام بواجبه في إعمار الأرض ، بنفس قويّة في العمل مخلصة في الأداء .

(1) ــ محمّد قطب ، منهج التّربية الإسلاميّة 131/1 بتصرّف .

(2) ــ سيّد قطب : العدالة الاجتماعيّة ص 37 بتصرّف .

المبحث الثّاني : البعد الحضاري لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة

ذكرنا سابقا أنّ أعمال المجتمعات على اختلاف عقائدها تتعلّق بالطّبيعة والحياة ، وأنّ أهمّ مقياس يمكن الاعتماد عليه لمعرفة سير الحضارة في الطّريق السّليم ، يكمن في المعرفة الدّقيقة لعناصر الكون الثّلاثة وخصائصها (الإنسان – الحياة – الطّبيعة) لأنّ النّجاح في السّعي إلى إنشاء حضارة راقية متوقّف على المعرفة التّامّة لطبيعة عناصرها الأوّليّة ، معرفة لا يشوبها أيّ خطأ أو وهم ، وهذا ما سنقوم ببيانه في المطالب الآتية :

المطلب الأوّل : الآثار الحضاريّة لمعرفة الإنسان في العقيدة الإسلامية

الإنسان أهمّ العناصر الثّلاثة التي تؤثّر في نشأة الحضارات فهو العنصر الفعّال وهو محور العمارة الكونية في هذه الحياة والهدف من ورائها ، أمّا العناصر الأخرى فهي أسباب ميسّرة خلقت من أجله ، يستعين بها لبلوغ آماله وتحقيق رسالته .

من أجل هذا اهتمّ القرآن الكريم بذكر الإنسان اهتماما بالغا ، فقد بدأ بتعريفه على ذاته بعد تعريفه بخالقه ، ويبدو هذا بجلاء في الكتاب العزيز من السّور الأولى سواء من ترتيب النّزول أو ترتيب المصحف ، فأوّل آية من حيث النّزول عرّفته بربّه ثمّ اتّجهت إليه تعرّفه على ذاته وتخبره عن أصله ومصدره وقابليّته للتّعلّم والكتابة ، قال تعالى : ((ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ

(1) – يطلق لفظ الكون ويراد به معنيان : خاصّ ، وعام ، أمّا الخاص : فيقصد به الطّبيعة المتمثّلة في البرّ والبحر والجوّ وما تحتويه من عناصر ، كالكواكب والنّبات والحيوان . وأمّا العام : فالكون كل ما سوى الله ، فيدخل فيه الإنسان والملائكة والجنّة والنّار وسائر المخلوقات ، وهو المعبّر عنه بالوجود المطلق العام . انظر : البوطي ، كبرى اليقينيات الكونيّة ص 243 ، والمعجم الوسيط 806/2 .

ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)) [العلق 01 ــ 05] وإذا نظرنا إلى أوّل سورة من حيث ترتيب المصحف نجدها تتحدّث عن الإنسان فبيّنت أنّه ثلاثة أصناف ، الأوّل الذي أنعم الله عليه ، وقد حثّنا الله أن نستعين به لنكون منهم ، والثّاني الذي غضب الله عليه ، والثّالث الذي ضلّ عن الحق ، وقد أمرنا الله أن نتعوّذ به أن نكون منهم ، قال تعالى : ((ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)) [الفاتحة 02 ــ 07]

وإذا انتقلنا إلى أوائل الآيات من سورة البقرة ، وهي الثّانية في ترتيب المصحف نجدها تفصّل في بيان صفات الأصناف الثّلاثة من النّاس ، حيث قسّمتهم إلى مؤمن ومنافق وكافر ، ثمّ خاطبت هؤلاء الأصناف جميعا فعرّفتهم على ذاتهم وأخبرتهم عن قصّة نشأتهم على هذه الأرض ، من خلال بيان قصّة خلق أبيهم آدم عليه السّلام ومنزلته الرّفيعة عند الله ، و تكريمه بأمر الملائكة للسّجود له ، وقصّته مع عدوّه إبليس وإهباطه إلى الأرض ووعده بهدايته ، حتّى لا يضلّ عن السّبيل في هذه الحياة ، وهكذا بدأ القرآن الكريم قبل كلّ شيء بتعريف الإنسان على ذاته وتبصيره بأصله و خصائصه وأهمّيته في هذا الكون .(1) **فمن هو الإنسان ؟ وما هي مزاياه ؟ وما هي وظيفته في الحياة ؟** هذا ما سنتناوله فيما يأتي .

(1) ــ هذا ما جعل علماء العقيدة يعتبرون مبحث الإنسان من مباحث العقيدة الأساسيّة ، إذ لا يكتمل إيمان المسلم إذا جهل أصله ، ووظيفته ، ومصيره ، حيث ارتبط أصله بالخلق (أي بربوبيّة الله له) ووظيفته بالعبادة (أي بالألوهيّة) ومصيره باليوم الآخر وهذه القضايا تصبّ في الإيمان بالله واليوم الآخر . انظر البوطي : كبرى اليقينيات الكونيّة ص 245 وما بعدها . وقال عبد المجيد النّجّار أدرجنا الإنسان ضمن مباحث علم العقيدة في المنهج الدّراسي بالكليّة الزّيتونيّة بتونس ، وفي جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر وقد أصبح موضوع الإنسان =

أوّلا : حقيقة الإنسان

أخبر الله الإنسان عن أصل تكوينه وبصّره بهويّته من خلال حقيقتين :

الحقيقة الأولى : الإنسان من طين

الإنسان مخلوق من طين ، وسلالته من ماء مهين ، ثمّ يعود إلى أرذل العمر إن أمدّ الله في عمره ، ثمّ يموت ليعود إلى التّراب من جديد ، قال تعالى : ((أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ)) [المرسلات 20 ــ 23] وقال : ((قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ)) [عبس 17 ــ 22] وقال : ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ)) [المؤمنون 12 ــ 16] وقال أيضا : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ)) [الحجّ 05]

فقد بيّنت الآيات أنّ العناصر التي يتكوّن منها الإنسان عناصر بسيطة ، حتّى

= في العقيدة موضوعا أساسيا في المقرّر العقائدي بالمؤسّستين المذكورتين . انظر : مقدّمة كتاب تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين للأصبهاني الذّي قام بتحقيقه ص 15 .

إنّ أحد العلماء ردّ جسم الإنسان إلى عناصره الأساسيّة فخرج بالنّتائج الآتية فقال : " إذا جئنا بإنسان وزنه سبعون كلغ وجدناه يحتوي على المواد الآتية :

ـ قدر من الدّهون يكفي لصنع سبع قطع من الصّابون .

ـ قدر من الكربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص .

ـ قدر من الفسفور يكفي لصنع رؤوس 120 عود ثقاب .

ـ قدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهّلات .

ـ قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسّط الحجم منه .

ـ قدر من الجير يكفي في تبييض بيت الدّجاج .

ـ قدر من الكبريت يطهّر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره .

ـ قدر من الماء يملأ برميلا سعته عشر جالونات ، وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستّين قرشا مصريا " (1)

تلك هي قيمة الإنسان الماديّة ، والأرض التي يعيش عليها الإنسان ما هي إلاّ كوكب صغير ضمن المجموعة الشّمسيّة ، وهي مجموعة من مجموعات كبيرة وكثيرة يضمّها عالم الأفلاك تعدّ بمئات الملايين ، فالإنسان شيء صغير جدا في الكون الكبير من حيث المكان ، أمّا من حيث الزّمان فقد أثبت العلم أنّه شيء تافه فإنّ عمر الأرض يمتدّ إلى مئات الملايين من السّنين ، فما قيمة مائة سنة أو أكثر بكثير التي يعيشها الإنسان ؟ (2) وقد وصف الحسن البصري نقص الإنسان بقوله : " مسكين ابن آدم محتوم الأجل ، أسير جوعه ، صريع شبعه ، تؤذيه البقّة ، وتنتنه العرقة ، وتقتله الشّرقة لا يملك لنفسه ضرّا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا " (3)

---

(1) ـ محمّد الغزالي : نظرات في القرآن ص 58 ـ 59 وهو عندنا اليوم أقل من ألفي دينار جزائري ، لأنّ المبلغ الذي ذكره الغزالي يرجع إلى حوالي خمسين سنة منذ تأليف هذا الكتاب ، أي في أواخر الخمسينات من القرن الماضي .

(2) ـ يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 49 ـ 50 .

(3) ـ علي بن محمّد الماوردي : أدب الدّنيا والدّين ص 89 بتصرّف .

وقال علي بن أبي طالب " ما لابن آدم والكبر أوّله نطفة وآخره جيفة قذرة وهو ما بين ذاك وذاك يحمل العذرة " (1) فهو مخلوق ضعيف تغلبه شهواته ويحكمه هواه ويلازمه جهله ، وأوّل ما ظهر من عجزه وخضوعه للإغراء ما صوّره لنا القرآن من استسلامه لإغواء الشّيطان له بشهوة الخلد والملك ونسيانه أنّه عدوّه الذّي يتربّص به ، وهو تصوير للحقيقة الخالدة في الإنسان ما لم يعتصم بالله ، قال تعالى : ((وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)) [طه 115 ــ 122] لذلك " لا يمكن له أن يضع منهجا في حياته بنفسه يحقّق له الهداية ، على الرّغم من قدرته على استخدام المادّة ومعرفة قوانينها اللّازمة له في الخلافة " (2) قال تعالى : ((وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ)) [المؤمنون 71]

الحقيقة الثّانية : الإنسان مخلوق مكرّم

فضّل الله الإنسان على كثير من مخلوقاته ، حيث أسجد له الملائكة وشرّفه بخلافته على الأرض وجهّزه بالعقل والتّفكير والقدرة على إدارة الأمور ، فهو

(1) ــ طه عبد الله العفيفي : من وصايا الرّسول 137/3 .

(2) ــ سيّد قطب ، الإسلام ومشكلات الحضارة ص 27 ــ 28 .

محور هذا الكون ، وإنّ مجرّد شعوره بضخامة دوره في الخلافة عن الله ليهيّئه لعمليّات التّطوير والتّغيير ، ويمدّه بدوافع الحركة والتّأثير . (1)

والقرآن الكريم عند ذكره للإنسان مع بعض الكائنات يخصّه دوما بالتّمييز والرّفعة ويضعه في المكانة السّامية بين المخلوقات ، قال تعالى : ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)) [الإسراء 70] وهذا التّفضيل أظهرته قصّة خلق آدم وما وقع فيها من أحداث ، قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ

(1) ـــ انظر : الغزالي ، مجموعة رسائله ، رسالة الحكمة في مخلوقات الله ص 27 ، محمّد البهي من مفاهيم القرآن في العقيدة والسّلوك ص 147 ، سيّد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ص 26 ، صبحي الصّالح : الإسلام ومستقبل الحضارة ص 40 .

وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)) [البقرة 30 ــ 39]

فقد بيّنت هذه القصّة " أنّ الكائن الجديد (الإنسان) له قيمته وله وزنه في الوجود ، فسجود الملائكة لآدم وهم من أشرف مخلوقات الله وامتناع إبليس واستحقاقه للّعنة بسبب ذلك ، هو رمز لتحوّل في قطبيّة المخلوقات لتكون في صالح الإنسان " (1) ومن خلال هذه الآيات تظهر لنا جملة من الحقائق منها أنّ الله استخلف الإنسان وأقدره على التّعلّم والاستيعاب وأكرمه بسجود الملائكة له " فلقد أراد الله أن يستخلفه في الأرض فمنحه القدرة على التّعلّم والمقدرة على التّنفيذ والإبداع والإرادة الحرّة ، لاختيار أسلوب الحياة التي يقودها إليها فكره ودوافعه النّفسيّة ، وحتّى لا يشعر بالدّونيّة رفع من مكانته فأمر الملائكة أن يسجدوا له ، وتلك أسس تقود إلى تصوّر دور الإنسان في العالم كقوّة فاعلة مفكّرة ، مريدة مفكّرة مستقلّة مفضَّلة ، وهي أمور لابدّ منها لأيّ إبداع حضاريّ على الأرض . " (2)

وقد خصّه الله أيضا بميزات في تكوينه الذّاتي حيث استجمع في هذا التّكوين العناصر التّي تتأسّس منها سائر المخلوقات الكونيّة ، كما لم يستجمعه أيّ كائن آخر وهي العناصر التّي ترجع إلى قسمين رئيسيين : عنصر ترابي مادّي وعنصر روحي عقلي ، قال تعالى : ((وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ

(1) ــ عبد المجيد النّجّار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل ص 56 ــ 57 .

(2) ــ عماد الدّين خليل : أصول تشكيل العقل المسلم ص 78 ــ 79 .

لَهُۥ سَٰجِدِينَ)) [الحجر28 ـ 29] وهذا ما جعل بعض العلماء يقول " لقد ركّب الله الإنسان تركيبا معقولا محسوسا على هيئة العالم ، وأوجده مشابها لكلّ ما هو موجود فيه ، حتّى قيل : الإنسان عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ، وأنّه صفوة العالم ولبابه وخلاصته " (1)

وخصّ أيضا بقدرته على الاستيعاب المعرفي للكائنات " فهو مهيّأ بوسائله الإدراكيّة لأن ينقل العالم الخارجي في مواصفاته الكميّة إلى عالمه الدّاخلي على سبيل التّصوّر ، فيصبح هذا الكائن الصّغير حاملا في ذاته لذلك العالم الكبير فتحصل له بذلك القيّوميّة والإشراف على سائر الكائنات " (2) وهو ضرب من الرّفعة أكّدها قوله تعالى : ((وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ)) [البقرة 31 ـ 32]

"فقد أعطاه الله علم الأشياء التي تتّصل بمسؤوليّاته وطريقة إدارتها واستعمالها في ما يمكن أن يسهّل أمور عيشه ، وتدفع به إلى تطوير طاقاته إلى المستوى الأفضل ، ممّا يجعله واعيا بكلّ ما يتّصل بوجوده ، ليكون أهلا للقيام بمهمّة الخلافة على أساس النّظام الذي اختاره الله له ، وبهذا يظهر الدّور الكبير الذي أعدّه الله للإنسان بما أودعه فيه من قوّة المعرفة التي يدرك بها الصّلاح والفساد " (3) ولعلّ هذا الدّور هو الذّي عبّر عنه بالأمانة في قوله : ((إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)) [الأحزاب 72] " للقيام بدوره في

(1) ـ انظر : الرّاغب الأصبهاني ، الذّريعة ص 78 ، وتفصيل النّشأتين ص 76 ـ 77 .

(2) ـ عبد المجيد النّجّار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل ص 57 .

(3) ـ محمّد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن 217/1 .

انسجام بين طبيعة الحياة وإرادة الله وتسخير القوى التي بين يديه في سبيل الخير ، وهذا هو الذّي رفعه إلى مستوى يكون فيه أفضل من الملائكة الذّين يمارسون الخير بطبيعة تكوينهم " (1) أمّا إذا ابتعد عن ممارسة دوره فإنّه ينزل إلى أدنى من درجة الحيوان الذي يعيش الشّهوة ونتائجها بشكل غريزي " (2) وهذا الصّنف من البشر هو المعنيّ بقوله تعالى ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ)) [الأعراف 179] وقوله : ((إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)) [الأنفال 22] وقوله : ((إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) [الأنفال 55]

وعليه فإنّ قيمة الإنسان تكمن في عمله وإرادته ، فهو الذّي يميّزه عن سائر الموجودات ، ويؤهّله ليتسلّم زمام الأمور من خلال تسخير قوى الطّبيعة وفق

(1) ــ اختلف العلماء أيّهما أفضل ، الإنسان أم الملائكة ؟ فمنهم من رأى أنّ الملائكة أفضل من الإنسان لقوله عليه الصّلاة والسّلام : ((من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه)) البخاري ، قال القرطبي : و هو نص في أفضليّة الملائكة ، ومذهب جمهور أهل السنّة أنّ خواص البشر من الأنبياء و الصدّقين أفضل من خواص الملائكة وعوام البشر وهم الصّالحون من المسلمين أفضل من عوام الملائكة ، ومن أدلّتهم قوله تعالى : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ)) [البيّنة 07] والبريّة تشمل الملائكة ، وقالوا : إنّ الله ركّب في الإنسان مختلف الشّهوات والأهواء التّي يستأهل بمقارعتها والتّغلّب عليها أجرا لا يستأهله الملائكة ، لعدم وجود شيء من هذه الشّهوات والأهواء في تركيبهم الوجودي ولكن كما قال القرطبي : لا طريق إلى القطع بأنّ الأنبياء أفضل من الملائكة ولا القطع بأنّ الملائكة خير منهم لأنّ طريق ذلك النصّ أو الإجماع وليس هنا شيء منه . انظر : تفسير الرّازي 198/1 وما بعدها ، تفسير القرطبي 198/1 ــ 199 .

(2) ــ محمّد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن 230/1 بتصرّف .

إرادة الله وأوامره ، ويبدو من الآيات سالفة الذّكر أنّ الإنسان له ميزتان ، فهو من جهة من مادّة تافهة من حمإ مسنون ومن ماء مهين ، ومن جهة أخرى هو ذلك الكائن المكرّم الذي أسجد له الملائكة الكرام ، فما هو أثر تنبيه الإنسان إلى اتّصافه بهاتين الميزتين ؟

ثانيا : أثر معرفة حقيقة الإنسان على الفعل الحضاري

معرفة الإنسان لأصله التّرابي وانتقاله إلى ماء مهين ، يحول دون تكبّره على غيره ، كما أنّ إدراكه لمكانته في الوجود وتكريم الله له يجعله مترفّعا عن كثير من الأمور التي يتنزّه عنها العبد المكرّم المكلّف بأداء مهمّة مقدّسة في هذه الحياة " فمن عاش لا يعرف من ذاته إلاّ مظاهر ضعفها وهوانها جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحيّة طغيان المتكبّرين ، أو يجنح إلى سبيل المهانة والخنوع إن خانته الظّروف ، ويقعده عن أيّ مساهمة في سبيل عمارة الأرض وإنشاء الحضارة المطلوبة ، ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلاّ أنّه إنسان مكرّم ، يملك من المزايا والصّفات ما يخوّله أن يتسلّط على من حوله جدير به أن يغترّ بتلك الصّفات لقهر المستضعفين ، إن سنحت له الظّروف وأمكنته الفرصة ، وهذا ما أشار إليه الله في قوله ((كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)) [العلق 06 ــ 07] ومن سبيل المهانة والخنوع وسبيل التّكبّر والطّغيان يتحقّق الإفساد في الأرض ، فما فسدت الأرض يوما ما إلاّ بتألّه الأقوياء وذلّ الضعفاء فتمّت بذلك قصّة الفساد وهي قصّة قديمة تتكرّر بتكرّر أسبابها مهما اختلفت الشّخصيات وتباينت المدنيّات " (1)

ــ وأمّا أثر التّنبيه المستمرّ في اتّصافه بهاتين الحقيقتين " فإنّ الذّي رُبِّيَتْ أحاسيسُه عليهما لا يجنح إلى الذلّ للآخرين مهما كان ضعيفا ، ولا يميل إلى

(1) ــ انظر : البوطي ، منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن ص 52 وما بعدها ، لذلك تألّه فرعون ، وبغى قارون ، وكان الملأ من الأمم في الغالب أعداء للمرسلين لأنّهم علية القوم . انظر : عبد الكريم زيدان ، أصول الدّعوة ص 380 ــ 381 .

البغي مهما كان قويّا ، وما أدركت أمّة هذه التّربية إلاّ وارتفع المستضعفون بها عن الذلّ ، ونزل المستكبرون عن طغيانهم ، ثمّ تلاقوا جميعا في جوّ من التّآخي والتّعاون ، لعمارة الأرض وإنشاء الحضارة ، وهذا الصّنف من النّاس هم رجال الحضارة الشّاهدون على الأمم ، وجنودها المهيَّؤون لإنشائها " (1)

إنّ قيمة الإنسان تتجلّى في معرفته لحقيقته " فإن استشعر افتقاره لخالقه وعبوديته له كان في أرقى مراتب الاستقامة ، وإن اعتقد استغناءه عنه انتهى إلى التّجاوز والطّغيان ثمّ إلى القلق والاضطراب وذلك مآل الحضارات التّي يضعها الإنسان مستغنيا عن الله ، ففيها تتجمّع المآسي والآفات وتنتهي إلى الدّمار والهلاك " (2) وممّا قصّه علينا القرآن في هذا الشّأن الأحداث التي حصلت لبني إسرائيل ، قال تعالى : ((طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ)) [القصص 01 ـ 06] فمصيبتهم تمثّلت في علوّ فرعون وطغيانه مع ذلّ قومه له ، وإنّما الذي يعالج هذه المصيبة أن يعرف كلّ طرف حقيقته ومصيره ، ليتحقّق التّعاون لبناء المجتمع المتحضّر .

---

(1) ـ البوطي : المرجع نفسه ص 47 ـ 48 بتصرّف وهذا ما حصل للمسلمين الأوائل حيث أصبح الكثير من الموالي إخوة للأسياد ، بل ارتفعت مكانهم لصلاحهم وعلمهم ، كما هو شأن بلال بن رباح ، و أويس القرني ، و عطاء بن أبي رباح . انظر ، عبد المنعم قنديل : حياة الصّالحين ص 41 ، ص 258 ، ص 477 .

(2) ـ محمّد المبارك : نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث ص 28 بتصرّف .

وبالمقابل صوّر لنا القرآن ثمرة هذا العلاج وسرعة ظهوره ، وهو يحدّثنا عن التّحوّل السّريع الذي طرأ على حال سحرة فرعون عندما آمنوا بموسى عليه السّلام وعرفوا حقيقة هويّتهم ، وقد كانوا من قبل ذلك مثالا للذلّ والمهانة بين يدي فرعون حيث قالوا وهم يلقون حبالهم بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون ولكن لمّا ظهر لهم الحقّ تحوّلوا تحوّلا عجيبا ، قال تعالى : ((قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِى نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقۡضِى هَـٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ)) [طـه 65 ـ 73]

" فلقد تحوّلوا من الذلّ الذي جعلهم ينكرون وجودهم أمام سلطان فرعون وقوّته الوهمية ، إلى أعلى مرتبة من التّسامي فوق كبريائه ، والانعتاق المطلق من قيود طغيانه ، حتّى لم يعد لتهديده الصّاعق أيّ تأثير على نفوسهم التي اكتشفت حرّيتها منذ اللّحظة التي اكتشفت فيها ذاتها وعبوديتها لله ، فقد قالوا له دون خوف ... **فاقض ما أنت قاض ، إنّما تقضي هذه الحياة الدّنيا** وهم الذين قالوا من قبل في ذلّ ... **بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون .**

وبعد أن كانوا طامعين في الأجر كما صرّحوا بذلك قائلين : **أئنّ لنا لأجرا إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم إذا لمن المقرّبين** ، فلم يرضوا بمغفرة الله ورضوانه بديلا ، فقالوا : **لا ضير إنّا إلى ربّنا لمنقلبون ، إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين** " (1)

وبهذا نتعلّم أنّ معرفة الإنسان لذاته ، هو المنطلق لأيّ إنجاز ناجح " لأنّ الإنسان ليس إلاّ أداة من أدوات المشروع الحضاري ولابدّ لمن يستخدمها أن يعرف كيفية استعمالها ، وكلّما ازداد المشروع ضخامة واتّساعا برزت أهمّية هذا الشّرط بصورة أوضح ، فكيف عندما يكون العمل سعيا إلى إقامة حضارة إنسانية شاهدة على النّاس ، وهو مشروع لا يقدر على إنجازه فرد أو قلّة من النّاس ، بل هو ثمرة جهود متناسقة لأمّة بكاملها " (2)

إلاّ أنّ هذه المعرفة لا يمكن أن تتحقّق إلاّ عن طريق الإيمان بالله ، الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى ، حيث يترتّب على هذا الإيمان تصوّر العلاقة القائمة بين الإنسان وخالقه ، وهي علاقة العبودية من المخلوق لخالقه " وما ألزم الله عباده بالإيمان به إلاّ ليهديهم للتّعرّف على أنفسهم ، وأنّهم وُجِدُوا على هذه الأرض ليعمّروها ، فإن لم تتوجّه جهودهم إلى تحقيق غاياتهم كان مآلهم الصّراع وسعى كلّ طرف إلى قهر غيره ، فيشيع الفساد ويتحوّل الإنسان إلى أداة شقاء ، فإذا تكاملت هذه التّربية في الإنسان خرّجت لنا أمّة الحضارة الشّاهدة على النّاس ، ورجل الحضارة الذي لا يهون ولا يطغى ، وهذا يدفعه إلى التّأمّل في حياته التي يحياها بنظرة سديدة تنطلق من إيمانه بربّه " (3)

لذلك كانت حاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى تحقيق أمنه واستقراره ، **فما حقيقة هذه الحياة ؟ وما مصدرها ومآلها ؟** هذا ما سنقوم ببيانه في المطلب الآتي :

---

(1) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 2342/4 ــ 2343 بتصرّف .

(2) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 51 ــ 52 بتصرّف .

(3) ــ انظر : البوطي ، المرجع نفسه ص 53 وما بعدها .

المطلب الثّاني : الآثار الحضاريّة لمعرفة الحياة في العقيدة الإسلامية

الحياة هي الرّكيزة الثّانية لإنشاء الحضارة الإنسانية ، لذلك كلّما نبّه القرآن الكريم الإنسان وعرّفه على ذاته ، نقله إلى تعريفه بحقيقة الحياة ، ومعلوم أنّ عمره من أغلى ما يملك وأشدّ ما يتعلّق به ، بل إنّ حركته في الدّنيا لم تكن إلاّ بدافع الحفاظ عليه ، فهو مجبول على غريزة حبّ البقاء ، كما قال تعالى : ((وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ)) [ق 19] أي " تفـــرّ وتهرب ، وهو مستعار للكراهيّة أو لتجنّب أسباب الموت " (1) لقد ركّب الله في الإنسان الميل إلى التّعلّق بالحياة ، لأنّها الوعاء الزّمني لنشاطه في عمارة الأرض ، لهذه الأهمّية كانت الحكمة قاضية بأن تنطبع الغريزة الإنسانية على حبّ البقاء والتّعلّق بها ، وما دامت الحياة رأس مال أساسي يملكه الإنسان فلا بدّ أن يتصرّف فيها على هذا الأساس بأن يسخّرها فيما كلّف به من أعمال وواجبات ، وأن يتّخذها أداة لإنجاز المهمّة التّي حمّله الله مسؤولية إنجازها وسعيا منه لامتثال أمر الله في القيام بما أمره به ، سيجد نفسه أحيانا في موطن يفرض عليه المغامرة بحياته ، كما يجد نفسه في حالات أخرى بحاجة إلى أن يزداد تمسّكا بها ، وذلك حسب ما يقتضيه واجبه نحو ربّه ، لكن متى **يجب على الإنسان أن يضحّي بحياته ؟ ومتى يجب عليه أن يكون حريصا عليها ؟ وما العلاقة بين التّضحية بالعمر أو الحرص عليه ، وبين الأهداف التي يعيش الإنسان من أجلها ؟**

تتوقّف الإجابة عن هذا السّؤال على معرفة القيمة الحقيقية لهذه الحياة و الأهداف التي نسعى لتحقيقها ، فإذا عرفنا ذلك أتيح لنا أن نعرف متى يجدر بنا أن نضحّي بحياتنا ، و متى يجدر الحفاظ عليها .

ــ بدأ القرآن بتعريف الإنسان على ذاته ، ثمّ على حقيقة العمر الذي يعيشه والأحداث التي تنتظره بعد هذه الحياة ، وعلاقة تلك الأحداث بحياته التي

(1) ــ الزّمخشري : تفسير الكشّاف 27/6 محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 306/12

يعيشها على الأرض ، ففي الوقت الذي يبصّره بذاته ومزاياه ومهامّه ووظائفه يبصّره في آيات أخرى بحقيقة الحياة التي يعيشها ، **فما هي حقيقة الحياة ؟**

أوّلا : حقيقة الحياة

يلفت القرآن نظر الإنسان إلى جانبين في حقيقة العمر الذي يعيشه ، موضّحا له أنّ التّكامل لجوهر هذه الحياة إنّما يتمّ بتلاقي هاتين الحقيقتين :

الحقيقة الأولى : الحياة تافهة زائلة

الحياة أو الدّنيا أو عمر الإنسان ألفاظ تدلّ على مقصد واحد ، إنّها الفترة الزّمنيّة التّي يعيشها على الأرض ، ذكرها الله في آيات عدّة مبيّنا حقارتها وهوانها لتصحيح نظرة النّاس إليها ، فإذا كانت عظيمة عند بعضهم فهي عند الله شيء زهيد تافه ، إنّها لعب ولهو وزينة وتفاخر ، قال تعالى : ((وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ)) [العنكبوت 64] وقال : ((ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ)) [الحديد 20] " والقرآن إذ يعرض هذه الحقيقة لا يقصد العزلة عن الحياة ولا إهمال عمارتها إنّما يريد تصحيح نظرة النّاس إليها وإبعادهم عن التّنافس على متاعها لذلك دعاهم إلى السّباق في ميدان التّنافس الحقيقي للغاية التّي تستحقّ السّباق "(1) في قوله ((سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)) [الحديد 21] لأنّه سبحانه وتعالى يريد للعباد أن يحصّنهم من

(1) ــ سيد قطب : في ظلال القرآن 3492/6 بتصرّف .

التّرف حتّى يسلم للأمّة كيانها ، فإنّ الأمّة الشّاهدة على النّاس أمّة مجاهدة منزّهة عنه ، لذلك بدأ الإسلام بين قوم فقراء يحجزهم الإقلال عن إدراك كثير من الطيّبات ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((**رأيت سبعين من أهل الصفّة ما منهم رجل عليه رداء ، إمّا إزار وإمّا كساء قد ربطوها في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف السّاقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته**)) (1) " وعلى الرّغم من محاربة الإسلام للفقر إلاّ أنّه يعتبر الافتتان بالدّنيا شرّا منه " (2) وفي الحديث : ((**واللّه ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدّنيا عليكم كما بسطت على الذّين من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم**)) (3)

وقال الله محذّرا من الافتتان بالدّنيا : ((وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا)) [الكهف 45] وقال : ((قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلاً)) [النّساء 77] وقال : ((كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ)) [آل عمران 185]

نستشفّ من هذه الآيات قيمة الحياة وحقيقتها ، إنّها ليست إلاّ معبرا إلى الحياة الآخرة ، ولا يأخذ الإنسان منها إلاّ ما اكتسبه من أعمال لينال عليها الجزاء الأوفى ، وهي حياة قصيرة مهما طالت ثمّ تليها الحياة الدّائمة ، وممّا ينسب لعلي بن أبي طالب في هذا المعنى قوله : " **أيّها النّاس إنّما الدّنيا دار مجاز والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممرّكم إلى مقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم**

(1) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب : الصّلاة ، باب : نوم الرّجال في المسجد ، رقم 442 .
(2) ــ محمّد الغزالي : خلق المسلم ص 157 .
(3) ــ البخاري عن عمرو بن عوف ، كتاب الرّقائق باب ما يحذر من زهرة الدّنيا رقم 6425 .

عند من يعلم أسراركم ، وأخرجوا من الدّنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها أخبرتم ولغيرها خلقتم ، إنّ المرء إذا هلك قال النّاس ما ترك وقالت الملائكة ما قدّم " (1)

ونستشفّ أيضا من تلك الآيات أنّ حياتنا هذه فانية " وأنّ الموت فاصل بين الحياة الفانية الباقية ، التي تكرّر وصفها في القرآن وأكّد وجودها وأهمّيتها كي يشدّ نظر الإنسان وطموحه إليها ، حتّى يقيه من الاستغراق في الحياة الفانية فيقع في الحسرة والنّدامة ، إن لم يعط قيمة لمصيره المحتوم ويستعدّ ليوم الحساب " (2) وهذا ما قرّرته التّربية الإيمانية في قوله تعالى : ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)) [يونس 45] وفي قوله : ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)) [الأحقاف 20] فقد أنكر الله عليهم ولعهم باللّذائذ وافتتانهم بالمرح واللّهو ، وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأنّ ذلك لفقدانهم العفاف قال تعالى : ((بِمَا ذَٰلِكُم كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)) [غافر 75] " لأنّ التّهالك على الشّهوات والتّهاوي في المحرّمات فرار من التّكاليف ونكوص عن الجدّ وتضييع لمعالم الشّرف " (3) وكذلك حذّر النّبيّ من الدّنيا ، فقد روي عنه أنّه مرّ بجدي أسكّ (4) فتناوله فأخذه

(1) ــ علي بن أبي طالب : نهج البلاغة 183/2 .
(2) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 61 بتصرّف .
(3) ــ محمّد الغزالي : خلق المسلم ص 156 .
(4) ــ أسكّ أي صغير الأذنين . انظر : المعجم الوسيط 439/1 .

بيده ثمّ قال : ((**أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحبّ أنّه له لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال : أتحبّون أنّه لكم ؟ قالوا واللّه لو كان حيّا كان عيبا فيه لأنّه أسكّ ، فكيف وهو ميّت ؟ فقال فو اللّه للدّنيا أهون على اللّه من هذا عليكم**)) (1) وقال : ((**لو كانت الدّنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**)) (2) فهذه النّصوص تدلّ على ذمّ الدّنيا والتّحذير منها ، تحذيرا يجعل المؤمن يتّخذها وسيلة لتحقيق أهدافه وليس غاية لحياته ، والوسيلة يمكن التّضحية بها والاستغناء عنها ، أمّا الهدف فلا يجوز إهماله بأيّ حال .

الحقيقة الثّانية : الحياة مهمّة ومقدّسة

كما بيّن الله جانبا من حقيقة الدّنيا وحذّر من الانخداع بها لتفاهتها أخبر عباده عن عظم حرمتها ، فدعا إلى رعايتها وشرّع الأحكام ما يضمن حمايتها ، كما نوّه في مواضع عدّة بقيمتها سواء تعلّق الأمر بزمانها أم بمكانها .

أهمّية الحياة من حيث الزّمان

إنّ ذمّ الدّنيا الذي ورد في الكتاب والسنّة ليس راجعا إلى زمانها ، لأنّ الله أعطى للوقت قيمة كبيرة وجعله من دلائل الإيمان ، قال تعالى : ((إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ)) [يونس 06] ووزّع العبادات على أجزاء اليوم وعلى فصول العام فالصّلوات الخمس موزّعة على اليوم كلّه ، فهي من الفجر إلى اللّيل ، وأقسم بالوقت في آيات عدّة ، منها قوله تعالى : ((وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ)) [الفجر 1 – 4] وقوله ((وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ)) [اللّيل 1 – 2] كما جعله فرصة لفعل الخيرات كلّما توالى

(1) – مسلم عن جابر بن عبد الله ، كتاب الزّهد باب الدّنيا سجن للمؤمن وجنّة للكافر 7418

(2) – التّرمذي كتاب الزّهد ، باب ما جاء في هوان الدّنيا على الله عزّ وجل ، عن سهل بن سعد ، رقم 2320 وهو صحيح .

اللّيل والنّهار ، قال تعالى : ((وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا)) [الفرقان 61 ــ 62] أي " يخلف كلّ منهما صاحبه ، حيث جعل اللّيل لباسا والنّهار معاشا ، ممّا يدعو إلى التّفكير فيهما لتنكشف جوانب العظمة في الخلق ، فيدعوا ذلك إلى تذكّر نعم الله علينا عندما نعيش أجواء الهدوء الذي يأتي به اللّيل ونتمتّع بالنّوم والاطمئنان ، أو عند إشراق النّهار الذّي يوقظ النّاس للسّعي في طلب الرّزق فتتحوّل الحياة إلى مدرسة للعقيدة ، ومنطلقا للّقاء بالله في كلّ نعمة " (1)

وكلّما تجدّد الزّمان ازدادت رغبتنا في التّفكّر في خلق السّموات والأرض وتساءلنا كيف يغشى اللّيل النّهار ، وكيف يُنزل الله من السّماء ماء فيُخرج به من كلّ الثّمرات ، وكيف يسخّر الله الرّياح ، وكيف يجدّد الله للأحياء أسباب الحياة وهو يجدّد أطوار الزّمان ، كما قال تعالى : ((إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ)) [البقرة 164] " وهكذا عن طريق إدراكنا قيمة الزّمن ، ومن طريق تصوّرنا استمرار الزّمن في التّجدّد ، نستمرّ نحن أيضا في تجديد أنفسنا بالتّذكّر والتّفكّر والتّعقّل لنجعل غدنا خيرا من أمسنا في جميع الميادين "(2)

شعارنا في ذلك قول ربّنا : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ)) [الحشر 18]

(1) ــ محمّد حسين فضل الله : من وحي القرآن 71/17 ــ 72 بتصرّف .

(2) ــ صبحي الصّالح : الإسلام ومستقبل الحضارة ص 80 ــ 81 بتصرّف .

وتظهر قيمة الزّمن أيضا إذا علمنا أنّ الله سيسأل عباده يوم القيامة عن الوقت قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه**)) (1) فالإيمان على هذا الأساس يبعث الإحساس الدّائم بالمسؤوليّة ويقظة الضّمير ، ويدفع إلى سباق زمني لاستغلال الفرص التّي أتيحت للمؤمن في هذه الحياة لتحقيق المهمّة التّي كلّف بإنجازها ، ويعرض القرآن هذا السّباق عندما يصف المؤمنين بأنّهم ((**يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ**)) [المؤمنون 61] " وهنا نلمس فكرة الاهتمام بالزّمن ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر من المكتسبات على أيدي أناس يحرصون على فعل الخير ويسابقون الزّمن بعطائهم ، لأنّهم يؤمنون بالله واليوم الآخر " (2)

وكما أنّ الزّمن يستغرق التّكاليف الشّرعيّة ، فهو يستوعب الأقضية التي يرسلها الله على النّاس من خير أو شرّ ، وهي أقضية فيها دروس قيّمة لمن يلقى إليها باله كما قال تعالى : ((يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ)) [النّور 44] " غير أنّ النّاس ينظرون إلى الأحداث ويذهلون عن مرسلها ، ويذوقون السرّاء والضرّاء ويجهلون من يذيقهم طعومها ، فإذا ذاقوا ذرعا بأمر ما لعنوا الأيّام وما جاءت به ، وهذا ضرب من الجهل بالله والغفلة عن أقداره ، قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**قال اللّه عزّ وجل : يؤذيني ابن آدم يسبّ الدّهر وأنا الدّهر بيدي الأمر أقلّب اللّيل والنّهار**)) (3) يعني أنّ الزّمن لا يصنع بالنّاس خيرا ولا شرّا وإنّما يسوق ذلك ربّ الزّمان " (4) وعليه

---

(1) ـ التّرمذي عن أبي برزة الأسلمي ، كتاب صفة القيامة ، باب في القيامة ، رقم 7417 وقال حسن صحيح .

(2) ـ عماد الدّين خليل : أصول تشكيل العقل المسلم ص 94 بتصرّف .

(3) ـ البخاري عن أبي هريرة كتاب التّوحيد باب يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ رقم 7491

(4) ـ محمّد الغزالي : خلق المسلم ص 240 ـ 241 .

فإنّ الزّمن لا يجلب نفعا ولا ضرّا ، إنّما يرجع ذلك إلى كسب الإنسان فإن استغلّه في فعل الخيرات عاد عليه بالبركات ، وإن ضيّعه كان عليه حسرات .

أهمّية الحياة من حيث المكان

كما لم يكن الذمّ الذي ورد في الكتاب والسنّة راجعا إلى زمانها ، فإنّه ليس راجعا إلى مكانها أيضا ، فإنّ الله جعل الأرض للنّاس مهادا ومسكنا ، وأنبت فيها من الزّروع والثّمار ، وبثّ فيها من الدّواب والأنعام وغير ذلك من النّعم لما للنّاس فيها من المنافع والاعتبار على دلائل الوحدانيّة ومظاهر الرّحمة الإلهيّة (1) والقرآن الكريم يأمر المؤمن بكسب الطيّبات وإنفاقها من غير إسراف ، ويشكر الله عليها ، قال تعالى ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)) [البقرة 172]

كما يبيح له أن يتّخذ منها زينته في نصوص عدّة منها : ((وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) [النّحل 05 ــ 08]

" فالزّينة واجبة كوجوبها لمقاصد الدّنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب في هذا موجّه إلى بني آدم الذين كرّمهم الله " (2) وقال تعالى : ((يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ

(1) ــ انظر : ابن رشد ، مناهج الأدلّة في عقائد الملّة ص 151 وما بعدها ، جمال الدّين القاسمي : دلائل التّوحيد ص 208 ــ 209 وما بعدها ، نديم الجسر : قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص 303 وما بعدها .

(2) ــ عبّاس محمود العقّاد : الإنسان في القرآن الكريم ص 26 ــ 27 .

﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (([الأعراف 31 ـ 32] فليس السّعي في سبيل الدّنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس الذمّ راجعا إلى ما بثّ فيها من الخيرات ، وإنّما إلى أفعال بني آدم ، والدّنيا دار تكليف وعمل والآخرة دار جزاء وحساب .

أهمّية الحياة عموما

رغّب الله في الحياة الطيّبة ولفت الأنظار إلى أقصر السّبل إليها فقال : ((مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)) [النّحل 97] وعندما دعا عباده إلى العمل ليوم القيامة ونهاهم عن الفساد لم يغفل متاع الدّنيا والعمل لتوفيره ، وقد جاء في النّصح لقارون ما يؤكّد العمل للحياتين معا ، فإنّ الدّنيا وسيلة للآخرة ، وهذا ما أُرشِد إليه قارون من قبل حكماء قومه عندما قالوا له ((وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ)) [القصص77]

ومن مقاصد الإسلام حفظ حياة الإنسان بتوفير أسباب تقويتها وإبعاد أسباب الضّعف عنها ، لذلك شرّعت عدّة أحكام لحفظ النّفس بلغت من الكثرة والتّنوّع مبلغا يفيد اليقين بأنّ حفظ النّفس هو كلّيّة من كلّيات الشّريعة ومقصد عام من مقاصد الدّين (1) فدعا النّاس إلى الإحسان ونهاهم عن إهلاك أنفسهم ، قال تعالى : ((وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ

(1) ــ انظر : الشّاطبي ، الموافقات 7/2 ــ 10 .

وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ)) [البقرة 195] " فوقوع فعل **وَلَا تُلْقُواْ** في سياق النّهي كما قال محمّد الطّاهر بن عاشور : يقتضي عموم كلّ إلقاء باليد للتّهلكة ، أي كلّ تسبّب في الهلاك عن عمد يكون منهيّا عنه محرّما ما لم يوجد مقتضى لإزالة ذلك التّحريم " (1)

وكما حفظ الدّين الحياة الإنسانيّة بأسباب البقاء والقوّة حفظها أيضا بما يكفل حمايتها من الهلاك ، فشرّعت عدّة أحكام بلغت من الكثرة والتّنوّع ما يفيد على وجه القطع أنّ للنّفس حرمة عظيمة ، حيث اعتبرت السّعي إلى إنقاذ حياة إنسان من الموت بمثابة إحياء النّاس جميعا ، وبالمقابل اعتبرت قتل نفس واحدة رمزا لقتل النّاس جميعا ، لبيان بشاعة هذه الجريمة ، قال تعالى : ((مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)) [المائدة 32] وقد توعّد الله المعتدي بعقاب لم نر مثله في القرآن على أيّ جريمة أخرى ليرسّخ في الأذهان فكرة قداسة النّفس البشرية وعلوّ شأن هذه الحياة عند الله ، فلم ينحصر العذاب في الخلود في النّار أو في غضب الله أو في لعنة الجاني ، إنّما اجتمعت عليه هذه العقوبات الثّلاث ، قال تعالى : ((وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا)) [النّساء 93] (2) " فإذا تبيّن الجانب الثّاني الذي أتمّ به القرآن الكريم حقيقة الحياة وبصّر الإنسان بها

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 215/2 .

(2) ــ انظر : صبحي الصّالح ، الإسلام ومستقبل الحضارة ص 83 ــ 84 البوطي ، منهج الحضارة ص 63 ــ 64 عبد المجيد النّجّار ، مقاصد الشّريعة بأبعاد جديدة ص 118 ــ 119 .

أمكنه ذلك من التّعامل مع الجانبين معا ، فلو لم يدرك ضآلة الحياة التي يمرّ بها لتعلّق بها تعلّقا عظيما ، وأصابته التّعاسة والأحزان كلّما قلّت حظوظه فيها أو تذكّر فراقه لها ، ولو لم يؤمن بما أضفى الله عليها من قداسة وحرمة لأعرض عنها وسعى إلى التّخلّص منها وكسل في تعميرها ، لاسيما إذا تعرّض للمحن والمصائب ، ولما فكّر في إرهاق نفسه للوصول إلى ما وصل إليه من تقدّم عبر مسيرته التّاريخية ، ولقنع بالإقامة في الكهوف عن تعمير البيوت ، ولما اشتغل بتأسيس حضارة على هذه الأرض "(1) فمعرفة الجانبين معا مهمّة في إحداث التّوازن لاستغلال الحياة استغلالا يفضي إلى القيام بالواجبات ، بعيدا عن التّوتر والاضطرابات التّي يتعرّض لها كثير من النّاس .

ثانيا : الآثار الحضارية لمعرفة حقيقة الحياة

الآثار الحضارية التّي تتحقّق لأيّ مجتمع أخذ نفسه بهذا التّوجيه ، هي نفسها التي تحقّقت لرجل الحضارة الذي صاغته التّربية الإيمانية ، كما شهد بذلك فجر تاريخ الإسلام ، فمن أبرزها أنّ الجيل الذي ربّاه القرآن أقبل على الحياة إقبال العارف بها مهما كانت أحواله وظروفه ، فلم يكن يتبرّم بها لضيق ألمّ به أو يلهث وراءها لحظّ ناله منها ، لقد اعتبرها جسرا إلى غاية وفرصة لأداء مهمّة ، فهي ليست هدفا بذاته ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " **ارتحلت الدّنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكلّ واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدّنيا ، فإنّ اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل** " (2) " لقد استطاع أولئك المؤمنون أن يعرفوا متى يكونون محافظين على الحياة ، ومتى يكونون مضحّين بها لأنّهم تعاملوا معها على أساس الوظيفة التي كلّفوا بإنجازها ، فكان طبيعيا أن يتمسّكوا بها بقدر ما تعينهم على أداء مهمّتهم ، أو ينصرفوا عنها بقدر ما

(1) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 65 وما بعدها بتصرّف .
(2) ــ البخاري ، كتاب الرّقائق ، باب في الأمل وطوله ، صدّر الباب بهذا الأثر .

تعيقهم على القيام بواجباتهم ، فبهؤلاء الرّجال نشأت أوّل حضارة في المجتمع الإسلامي الذي تعهّده نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام . لذلك ما سمعنا في جيلهم من فرّ من البؤس إلى الانتحار ، علما أنّ نصيبهم من المصائب والمآسي كان أضعاف ما يصاب به الملايين من المنتحرين في ظلّ الحضارة الحديثة والمدنيّة المعاصرة " (1) ومن هؤلاء **خبّاب بن الأرتّ** ، الذّي عذّب في الله أيّما تعذيب وظلّ صابرا محتسبا أجره على الله ، سأله عمر ذات يوم عن أشدّ ما لقي من الأذى ، فقال : أوقد المشركون لي حطبا حتّى أصبح جمرا ، ثمّ نزعوا عنّي ثيابي وجعلوا يجرّونني عليه حتّى سقط لحمي ، ولم يطفئ النّار إلاّ الماء الذّي نزل من جسدي ، ومع ذلك كان يبكي في مرض موته ويقول : إنّ أصحابي مضوا ولم ينالوا من أجورهم شيئا ، وإنّي بقيت فنلت من هذا المال (2) ما أخاف أن يكون ثوابا لتلك الأعمال . (3)

" وبالمقابل كانوا يتسابقون للموت عندما يجدون مبادئهم مهدّدة ، إذا كان الحفاظ عليها لا يتمّ إلاّ بالتّضحية بالنّفس ، فلقد كانت المحن والكروب تحيط بهم ويظلّون صابرين كأنّ ضيقا لم يتسلّل إلى نفوسهم ، بل يظلّون متشبّثين بالحياة كأنّهم أكثر النّاس خوفا من الموت ، ولكنّهم كلّما دعاهم واجب الدّفاع عن الحقّ اقتحموا أسباب الموت دون خوف " (4) ففي غزوة أحد تجلّت مظاهر رائعة للتّضحية بالنّفس من قبل الصّحابة ، فقد راحوا

(1) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 69 وما بعدها بتصرّف .

(2) ــ كان يخشى أن يكون قد عجّل الله له أجره في الدّنيا ،لأنّ الله أغناه بعد فقر ، وكان يضع أمواله في موضع في بيته يعرفه المحتاجون من الفقراء ، فكانوا يأتون داره ويأخذون ما يشاؤون لأنّه لم يكن يخفيه عنهم ، وكان يخشى أن يحاسب على ذلك الثّراء . انظر : ابن الأثير أسد الغابة 102/2 ــ 105 .

(3) ــ ابن عبد البرّ : الاستيعاب 21/2 ــ 22 ابن حجر : الإصابة 258/2 ــ 259 .

(4) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 70 بتصرّف .

يقدّمون أرواحهم دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى قتل معظمهم وهم يتلقّون السّهام في أجسادهم لحمايته عليه الصّلاة والسّلام . (1) فمعرفة قيمة الحياة وفق التربيّة القرآنيّة تسهم في اتّخاذ الموقف المناسب أثناء الشّدائد ، فيتمّ تجاوزها والتّخفيف من شدائدها والاستفادة منها .

المطلب الثّالث : الآثار الحضاريّة لمعرفة الطّبيعة في العقيدة الإسلامية

الطّبيعة ـ أو الكون بالمعنى الخاص ـ هو الرّكيزة الثّالثة لإنشاء الحضارة والمكان الذي يمارس الإنسان عليه نشاطه ، فهو يعيش على الأرض حياة تحكمها ظروفها ، لكنّه يتجاوز ذلك بالتّحكّم في جوانب منها لصالحه ، وإذا كان التّعامل مع الطّبيعة يبدو تلقائيا ، فإنّ التّأمّل العميق لهذا التّعامل يبيّن أنّ الإنسان يحمل في ذهنه تصورا عقديا يتحرّك من خلاله في كلّ نشاطاته ، لأنّ التّصوّر الذي يحمله عن الكون هو الذّي يحدّد موقفه العملي منها ، لذلك قدّم لنا القرآن حديثا مسهبا عن الطّبيعة من جوانب متعدّدة ، فهو يقدّمها لنا باعتبارها آية من آيات الله الدّالة عليه ، ثمّ يلفت نظرنا إلى أنّها من جملة مخلوقاته المتوقّفة حياتها على رعايته لها ، وأنّه سخّرها لخدمتنا ، فيدعونا إلى الاستفادة منها والتّمتّع بها ، ثمّ ينبّهنا إلى أنّ كثيرا من مظاهرها أخّاذة خادعة ، فيحذّرنا من الرّكون إليها ، وهذا ما سنتناوله بشيء من التّفصيل .

أوّلا: دلالة الطّبيعة على الألوهية

إنّ أهمّ ما يلفت القرآن نظرنا إليه من حقيقة الكون هو أنّه دليل قاطع على وجود الله ووحدانيّة " وقد أثبتت العلوم الحديثة أنّ هذا الكون خلق بحكمة وتدبير ، وفي كلّ وقت تظهر الأدلّة على ما في نظام الكون من تقدير ونظام موزون أمر اعترف بوجوده جمع من العلماء ، على تنوّع تخصّصاتهم في مختلف حقول المعرفة " (2)

(1) ـ انظر : ابن هشام ، السّيرة النّبويّة 67/3 وما بعدها .

(2) ـ انظر : عبد الرزّاق نوفل ، الله والعلم الحديث ص 21 وما بعدها .

قال أ. **كريسي موريسون** (1) : " **في الكون نظام دقيق يجعلنا نستطيع أن نقدّر بالثّانية المكان الذي سيحلّه أي جزء ، وبلغ التّوازن من الكمال إلى حدّ أنّه لم يطرأ عليه أيّ تغيير في مدى بليون سنة وأنّه يدلّ على الدّوام إلى الأبد** (2)

ويقول **كلوتس** (3) في مقال بعنوان : الله والكون المعقّد : " جالت بخاطري حكمتان قديمتان من الحكم المقدّسة ، وهما : **السّموات تشهد بجلال الله وإحكامها يدلّ على بديع صنعته ، إنّ هذا العالم الذّي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ من محض الصّدفة ، إنّه مليء بالرّوائع والأمور المعقّدة التّي تحتاج إلى مدبّر ، والتّي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى** " (4)

إنّ التّأمّل في المخلوقات يدلّ على الحكمة و الإبداع ، وهذا ما جعل هؤلاء العلماء وأمثالهم يصرّحون بوجود الإرادة والقصد في الخلق ، ممّا يدلّ على وجود الخالق الحكيم المريد ، لذلك ذكرها الله في مواطن عدّة وبطرق مختلفة ، لبيان حقيقة الألوهيّة في الكون والحياة ، قال تعالى : ((إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ

(1) ــ أ. **كريسي موريسون** الرّئيس السّابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ورئيس المعهد الأمريكي بها ، وعضو المجلس التّنفيذي لمجلس البحوث القومي ، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني . انظر : أحمد زكي ، مقدّمة كتاب العلم يدعو للإيمان ص 11 .

(2) ــ أ. كريسي موريسون : العلم يدعو للإيمان ص 51 .

(3) ــ **جون وليام كلوتس** : عالم في الوراثة حامل على درجة الدّكتوراه من جامعة بيتسبرج أستاذ علم الأحياء والفيزيولوجيا بكلّية المعلّمين منذ سنة 1945 م ، عضو جمعيّة الدّراسات الوراثيّة متخصّص في الوراثة وعلم البيئة . انظر : الدّمرداش عبد المجيد سرحان ، الله يتجلّى في عصر العلم ص 42 بتصرّف .

(4) ــ جون وليام كلوتس : الله يتجلّى في عصر العلم ص 125 بتصرّف .

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الأعراف 54 ــ 57] " ذكر الله عزّ وجل في هذه الآيات أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف المسخِّر لها ، وأرشد عباده إلى دعائه والتّضرّع إليه ونهى عن الإفساد ، ثمّ نبّه على أنه الرزّاق وأنه يعيد الموتى القيامة ، فكما أحيا الأرض بعد موتها كذلك يحيي الأجساد بعد فنائها وهذا كلّه تذكرة للذّاكرين " (1) فالنّظر إلى الطّبيعة من شأنه أن يبعث في النّفس مشاعر التّعظيم لخلق الله المفضي إلى تعظيم الخالق ، وهذا بدوره يؤثّر في تقوية الإيمان بالله وإجلاله وقال تعالى : ((ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [الرّعد 02 ــ 04] " فقد أخبر عزّ وجلّ في هذه

(1) ــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 426/3 ــ 429 بتصرّف .

الآيات عباده عن عظيم سلطانه ببيان بعض مظاهر قدرته في خلقه تمثّلت في رفع السماوات بغير عمد وتسخير الشّمس والقمر تسخيرا مستمرّا ، وجعل الأرض ممتدة وإرسائها بجبال شامخات ، وإجراء الأنهار والعيون لسقي الثمرات المختلفة في ألوانها وطعومها وأشكالها وروائحها ، على الرّغم من سقيها بماء واحد ، وفي الأرض قطع متجاورات ومع ذلك فمنها الطيّبة التّي تنبت ومنها التّي لا تنبت ، ومنها السّهلة والصّلبة ، إنّ في ذلك لآيات لذوي العقول على قدرة الله و حكمته " (1) وهناك آيات أخرى ذكر فيها سبحانه مظاهر دلائل قدرته ، وحثّ على التّأمّل في خلقه برويّة وتدبّر ، لإدراك أسرار خلقه وما تنطوي عليه من آثار علمه وحكمته ، و وحدانيته ورحمته .

أثر النّظر في مظاهر الكون على الاعتقاد

النّظرة المتدبّرة لملكوت الله تفضي إلى إدراك عظمته ، لذلك دعا القرآن الكريم إليها بإلحاح كما في قوله تعالى : ((ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) [الملك 3 ــ 4]

" وإعادة النّظر المشار إليها في الآية الكريمة من شأنها إثارة الاهتمام بالتّأمّل في خلق الله برؤية فاحصة متدبّرة ، وهي النّظرة التي يريد الله أن يثيرها في النّاس " (2) حيث يصل العقول والقلوب بمظاهر الكون وقوانين الطّبيعة ، ثمّ يحوّلها إلى عوامل مؤثّرة في مشاعر النّاس وحياتهم لا معلومات جافّة في أذهانهم ، وعلى هذا الأساس يصبح العلم ببعض قوانين الطّبيعة مساهما في تصحيح الاعتقاد وتقوية الإيمان ، وفي هذا يقول الله تعالى : ((إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ

(1) ــ تفسير ابن كثير 428/4 ــ 432 بتصرّف .

(2) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 3633/6 بتصرّف .

يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبۡحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَـٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ)) [آل عمران 190 ــ 194]

إنّ التّأمّل في خلق السّموات والأرض كما قرّرت هذه الآيات أدّى إلى النّتيجة التي رسمتها إذ رتّبت النّتائج على المقدّمات ، فتفكير هؤلاء العقلاء دعاهم إلى ذكر ربّهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم فقد علموا أنّ هذه الكائنات لم تخلق عبثا ، فاستشعروا عظم المسؤوليّة على نعم الله عليهم ، لذلك سألوه وقايتهم من عذابه ، وأعلنوا وإيمانهم به ، وخوفهم منه ، ورجاءهم في فضله كما يدلّ هذا التّأمّل على حقيقتين : " **الأولى** : أنّ التّفكير في خلق الله عبادة لله عزّ وجل ، ولو أنّ العلوم الكونيّة اتّصلت بتذكّر الخالق لتحوّلت إلى عبادة ولاستقامت الحياة بهذه العلوم ، واتّجهت المعرفة الإنسانيّة كلّها إلى الله .

الثّانية : أنّ آيات الله في الكون لا تتجلّى على حقيقتها إلاّ للقلوب الذّاكرة وأنّ هؤلاء الذّاكرين هم الذين تتفتّح لبصائرهم الحقائقُ الكبرى المنطوية تحت خلق السّموات والأرض ، فيوجّهون جهودهم إلى بذل الخير والصّلاح في الحياة ، لأنّ إدراك الحقّ الذي بثّه الله في تصميم الكون معناه أن هناك تقديرا وتدبيرا وحكمة وغاية ، وأنّ هناك حقّا وعدلا وراء هذه الحياة ، فلا بدّ إذن من يوم يكون فيه الحساب والجزاء في دار يتحقّق فيها هذا العدل ويظهر فيها ذلك الحقّ " (1) وهذه هي طريقة القرآن في تزكية النّفوس وتربية العقول

(1) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 545/1 ــ 546 بتصرّف .

وتوجيهها للانتقال من مرحلة التّأثّر الوجداني بالتّفكّر والتّدبّر في خلق الله إلى مرحلة العمل الإيجابي بتطبيق أوامر الله .

وعليه فإنّ إبراز الآيات الدّالة على الألوهيّة له أهمّيته في بحثنا هذا ، إذ إنّ هذا الإيمان هو الخطوة الأولى على طريق السّعي لإنشاء المشروع الحضاري فمن دون هذه الخطوة لا تستقيم الخطوات التي تأتي بعدها ، فمن الطّبيعي ألاّ يصغي الإنسان إلى التّعليمات التي يتلقّاها عن حقيقة ذاته و حياته وكيفية استفادته من الكون على الوجه الصّحيح ، إلاّ إذا أيقن أنّ الذي يلقي عليه هذه التّعليمات خالقه العليم الخبير ، لذلك لفت الله النّظر إلى براهين وجوده ووحدانيته ، أثناء الحديث عن الكون .

<u>ثانيا : تسخير الطّبيعة للإنسان</u>

بيّن الله عزّ وجلّ للنّاس أنّ الطّبيعة مسخّرة لخدمتهم يصوغون منها أسباب عيشهم ، ويتّخذون منها مجالا لسعيهم وسكنهم ، ويهتدون بمعالمها لتقدير الزّمان والمكان ، فقال : ((هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ)) [يونس 05] " أي جعل الشمس ضياء القمر نورا لنعلم عدد السّنين والحساب ، فبالشمس نعرف الأيام وبسير القمر نعرف الشهور والأعوام ، لم يخلق ذلك عبثا بل لحكمة عظيمة وحجة بالغة " (1) فقد شاء الله أن يجعل العالم " صالحا لاستقبال الإنسان مناسبا لقدراته ، فقد هيّئت أرضيته له وهي في انتظار العقل الذّي يفكّر واليد التّي تنفّذ ، والإرادة التّي تنسّق بين رؤية العقل وقدرة اليد ، لأنّها سخّرت له تسخيرا " (2) فقال : ((هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولاً فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن مِن رِّزۡقِهِۦۖ

(1) ــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 248/4 بتصرّف .

(2) ــ عماد الدّين خليل : أصول تشكيل العقل المسلم ص 72 بتصرّف .

وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ)) [الملك 15] والذّلول على وزن فعول للمبالغة أي مذلّلة (1) قال ابن كثير : " أي خلقها هيّنة لهم صالحة للسير فيها مخرِجة لأرزاقهم فسخّرها لهم وذلّلها بما أنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، والذَّلول من الدواب المنقادة المطاوعة مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد ، فاستعير الذّلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيهاً بالدابة المسوسة . " (2) وقال تعالى : ((أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ)) [لقمان 20] قال محمّد الطّاهر بن عاشور : " والتّسخير تذليل ذي عمل شاقٍ وتطويعه بدون عوض ، ومنه تسخير العبيد والأسرى وتسخير البقر للحلب ، ويستعمل أيضا في تصريف الشّيء الذّي لا إرادة له من الجمادات في عمل ما ، تصريفاً يصيّره من خصائصه وشؤونه كتسخير الفُلك في البحر ، والسّحاب للأمطار ، والنّهار للعمل ، واللّيل للسّكون " (3) فهذه الكلمة تعبّر عن الإخضاع والتّطويع ، حيث أخضع الله هذه الكائنات لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه .

ومن المعاني التّي لها نفس المدلول التّمكين ، قال تعالى : ((وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ)) [الأعراف 10] ومعنى مكّنّاهم في الأرض " ثبّتناهم وملّكناهم ويكنّى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرّف ، لأنّ صاحب المكان يتصرّف في مكانه وبيته ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر ، والتمكين في الأرض تقوية التصرّف في منافعها

(1) ــ لسان العرب 467/2 ــ 465 المعجم الوسيط 314/1 ــ 315 .

(2) ــ تفسير القرآن العظيم 179/8 .

(3) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 168/5 بتصرّف .

والاستظهار بأسباب الدنيا " (1) والمراد من الآية " أقدَرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرف في مخلوقاتها ، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلّب على مصاعبه .
ومعايش هي ما يعيش به الحيّ من الطّعام والشّراب ، سمي به الشّيء الذي يحصل به العيش ، تسمية للشّيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتّى صار مساوياً للحقيقة " (2)
إنّ العبارات التّي استخدمها القرآن (**التّسخير** ، **التّذليل** ، **التّمكين**) تعبّر عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام (3) فهي تقرّر بأنّ الله تعالى قد أخضع المظاهر الكونية للإنسان أيّما إخضاع ، فقد أذلّ عناصر الكون لمعرفة الإنسان وأمكنه من التّحكّم فيها والتّصرّف في شكلها ، واستخراج كثير من فوائدها ، وكلمة **ذلّلناها** في قوله عزّ وجل : ((أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)) [يس 71 ــ 73] يراد بها خضوعها له فإنّ معنى تذليل الأنعام : " عجزها على مدافعة ما يريد منها من سير أو حمل أو حلب أو أخذ نسل أو ذبح ، فإذا زجرها أو أمرها ذلّت له وأطاعت " (4)
وتبدو دقّة مدلول هذه الكلمة ــ **ذلّلناها** ــ في هذه الآية حين نتصوّر قوّة معظم هذه الحيوانات كالجمال والخيول ، والبغال والأبقار والثّيران ، والفيلة التي أخضعها الله لإنسان ، وجعلها تنقاد حتّى للصّغار منهم . (5)
وبهذا يتيقّن المؤمن أنّ عناصر الطّبيعة سخّرت له فلا يخشى من غضبها لأنّها

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 137/4 ــ 138 بتصرّف .
(2) ــ التّحرير والتّنوير 33/5 ــ 34 بتصرّف . (3) ــ الرّاغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ص 330 و الصّفحة 402 . (4) ــ التّحرير والتّنوير 69/11 بتصرّف .
(5)ــ انظر : الغزالي ، رسالة الحكمة من مخلوقات الله ص 32 وما بعدها ، ابن القيّم ، مفتاح دار السّعادة ص 329 وما بعدها . البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة ص 87 .

لا تصارع ولا تغضب ، إنّما تنتظر منه إعمال عقله لفهم قوانينها وبذل جهده لاستغلال خيرها ، لذلك جعل الله فهم أسرارها في متناول العقلاء ، ورتّب قوانينها بما يتلاءم ومهمّة الإنسان ، ولقد نبّه الله عباده إلى أنّ التّسخير الذي أخضع لهم به الكائنات إنّما رتّبه وفق سنن ثابتة ونظام لا يتبدّل ليكونوا على بيّنة من أمرهم وهم يسعون للاستفادة من خيرات الطّبيعة ، حتّى لا تذهب جهودهم سدى ، " لكنّه لم يمهّد لهم الطّبيعة تمهيدا كاملا ويكشف لهم عن قوانينها بالكليّة ، لأنّ هذا نقيض عمليّة التّحضّر التّي تتطلّب مقاومة وتحدّيا وإبداعا ، ولأنّه يقودهم إلى سلبيّة ويسلمهم إلى كسل لا تقرّه مهمّتهم على الأرض أساسا ، كما أنّه سبحانه لم يشأ من جهة أخرى أن يجعل العالم على درجة من التّعقيد والغموض يعجزون معها عن الاستجابة والإبداع ، الأمر الذّي يتنافى أيضا ومهمّتهم الحضاريّة ، وعليه فإنّ في العالم تحدّيا مناسبا لهم ، ليس معجزا ولا هو دون الحدّ المطلوب لإثارته للعمل والاجتهاد " (1) ويعلّمنا القرآن أيضا أنّ العلاقة بين الطّبيعة والإنسان لم تكن يوما علاقة تحدّ وصراع " بل إنّ المؤمن يشعر بالأمان والوئام معها لأنّه مندرج في سلكها المنظوم فعناصرها كلّها خاضعة لله ، محكومة بأوامره تسجد له طوعا وبحكم الطّبع كرها ، كما قال تعالى : ((ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ)) [فصلت 11] وقال : ((تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)) [الإسراء 44] وهو يدعى إلى السّجود فيسجد لله ، فيجد نفسه في وفاق مع الكون ، ولأنّ عنصره الجسدي من سائر مادّة الطّبيعة خاضع مثلها لأوامر الله بالطّبع " (2)

(1) ــ انظر : عماد الدّين خليل أصول تشكيل العقل المسلم ص 75 .

(2) ــ حسن التّرابي : الإيمان وأثره في حياة الإنسان ص 34 بتصرّف .

ثمّ إنّ الطّبيعة تمدّه دوما بما يحتاجه ، مادام قائما على إعمال فكره وعقله واستخدام جهده ويده " وهذا ليس وقفا على مؤمن دون كافر أو صالح دون فاجر ، بل هو عام شامل للنّاس جميعا ، بقطع النّظر عن أديانهم وعقائدهم فكلّ من تعامل مع الكون بالعلم والمعرفة ، يكون أوفر حضّا من غيره في الاستفادة من خيراته والوقوف على كثير من أسراره ، وبالمقابل من عطّل عقله وقنع بالجهل ، كان أبعد النّاس عن الاستفادة منه وفهمه " (1) وتسخير الطّبيعة للإنسان يُكْسِبُهُ تقديرا لمكانته في الكون فلا تخيفه مظاهرها بل يقتحم مجالاتها من أجل استغلالها ، ليتفرّغ بعد ذلك للقيام بما كلّف به .

ثالثا : التّحذير من الانخداع بمظاهرها والدّعوة إلى استغلالها

حذّر الله عباده من الانخداع بمظاهر الطّبيعة والرّكون إليها ، ونبّههم إلى أنّ كثيرا من مظاهرها خادعة فاتنة ، في نصوص عدّة ، منها قوله تعالى : ((وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا)) [الأنعام 70] وقوله : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)) [لقمان 33] وقوله : ((قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)) [النّساء 77] وقوله : ((كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ)) [آل عمران 185] وقوله ((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ

(1) ـــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانية ص 87 بتصرّف .

ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ)) [آل عمران 14] تبيّن هذه الآيات ومثيلاتها أنّ الحياة الدّنيا ليست أبديّة وأنّ متاعها لا يدوم ، فلا ينبغي الانخداع به والسّعي للحصول عليه كمن يظنّ أنّه يدوم له أو يخلد فيها ، فهي معرّضة للزّوال ، وإنّ الحياة الحقيقيّة هي الحياة الدّائمة ، ومن ثمّ فإنّ كلّ ما يقدّمه الإنسان في دنياه هو وسيلة للفوز في الحياة الباقية .

ولو تأمّلنا هذه الآيات واتّخذنا موقفا من التّعامل مع الدّنيا على أساسها دون الالتفات إلى آيات التّسخير لوجدنا أنفسنا أمام ضرورة نبذها وهجر العمران والفرار من الكدح لأجل الحصول على الرّزق ، ولما جاز لنا أن نأخذ منها إلاّ بقدر ما يحقّق لنا حاجاتنا التي تحفظ أرواحنا ، ولكن هذا الموقف غير صحيح في ميزان الله ، وهو تفسير للزّهد على غير وجهه المطلوب (1) فإنّ تبنّي هذا الفهم يبطل معنى الأمر الإلهي المتعلّق بعمارة الأرض ، ويبطل الحكمة من تسخير كثير من الكائنات للإنسان .

فلكي لا نقع في هذا الفهم لم يقف بنا القرآن الكريم في شرح حقيقة هذه الدّنيا عند حدود تلك الآيات ، بل عاد يحثّنا عن التّعامل معها تعاملا مبنيا على المنفعة ، وحذّرنا من الامتناع عن الإقدام عليها ، ونهانا من الحكم على ذلك بالحرمة ، قال تعالى : ((قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)) [الأعراف 32] " لقد نزلت هذه الآية لإبطال مزاعم أهل الجاهليّة فيما حرّموه من اللّباس والطّعام لتأكيد

(1) ــ الزّهد : هو الإعراض عمّا يشغل عن الواجبات ، وهذا المعنى نجده عند أرباب السّلوك ، قال أبو سليمان الدّاراني : الزّهد ترك ما يشغل عن الله ، الرّسالة القشيريّة ص 191 وقال ابن تيمية : الزّهد ترك ما لا ينفع في الآخرة ، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة . قال ابن القيّم معلّقا على عبارة شيخه : وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزّهد والورع وأجمعها . مدارج السّالكين 10/2 .

إباحة نعم الله ، والفعل **قل** دلالة على أنّه كلام مسوق للردّ ، والاستفهام إنكاري قصد به التّهكّم ، إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان والإفادة ، وقرينة التّهكّم إضافة الزّينة إلى الله وأنّه أخرجها لعباده ، ووَصْفُ الرّزق بالطّيبات يقتضي عدم التّحريم ، فالاستفهام يؤول أيضاً إلى إنكار تحريمها ، ولوضوح انتفاء تحريمها ، أُمر السّائل بأن يجيب بنفسه ، فعُقب بقوله : قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، أي : الزّينةُ والطّيبات من حيث هي حلال للذين آمنوا ، واللاّم في : للذين آمنوا لام الاختصاص وهو يدلّ على الإباحة ، فالمعنى : ما هي بحرام ولكنّها مباحة للذين آمنوا " (1) ففي الآية تأكيد على إباحة نعم الدّنيا وأنّه سبحانه وتعالى لم يمنع عباده من التّمتّع بها ، وقال تعالى : ((هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا)) [البقرة 29] فقد دلّت الآية على أن كلّ ما في الأرض من أسباب العيش ومظاهر المتعة خلق لأجل الإنسان لأنّ اللاّم في لكم للاختصاص ، وبهذه الآية استدلّ الفقهاء في أنّ الأصل في الأشياء الإباحة . (2)

وقال أيضا : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ)) [المائدة 87] " ففي الآية نهي صريح عن أن يترفّع الإنسان عن التّمتّع بالطّيّبات فضلا عن تحريمها ، وإذا كان إعراض العبد عن كرم أخيه استغناء عنه وتعفّفا مقبولا فإنّه لا يجوز عندما يكون المتفضّل الإله الغني والمعرض العبد الفقير " (3)

ولمّا حذّر الله من الرّكون إلى الدّنيا في قوله تعالى : ((مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ

---

(1) ــ الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 96/5 ــ 97 بتصرّف .

(2) ــ انظر : تفسير القرطبي 174/1 ــ 175 ، السيّوطي ، الأشباه والنّظائر في قواعد وفروع فقه الشّافعيّة ص 82 .

(3) ــ البوطي : منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن ص 96 ــ 97 بتصرّف .

عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)) [الإسراء 18 ـ 19] فقد استدرك مباشرة كي لا يفهم هذا الكلام على غير وجهه السّليم فقال بعدها مباشرة : ((كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)) [الإسراء 20] أي : " ولكنّ هوانها على الله تعالى لا يستلزم أن يحرم عباده الصّالحين منها ، أو يأمرهم بالبعد عنها ، بل هي للنّاس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، إنّما تتعلّق الأهمّية بوجه الاستفادة منها وكيفية النّظر إليها ، لأنّ تحقيق عمارة الأرض يتمّ بالإقبال على عناصر الكون المتنوّعة ، بالتّسخير لها والاستفادة منها على أتمّ وجه ، فلا ينبغي أن نفهم أنّه يدعونا للزّهد أو الفرار من الدّنيا ، لأنّ هذا يمثّل تناقضا مع مجمل الأوامر سالفة الذّكر على ضرورة العمل والإبداع وإنّما هو تقرير للحقيقة النّهائيّة وتثبيت للموازين العادلة وعرض مقارن لعالمي الفناء والبقاء ، حتّى لا يقع الإنسان في الطّغيان بسبب تعلّقه المفرط بالحياة الفانية على حساب الحياة الباقية " (1)

يبدو لنا ممّا سبق بيانه أنّ الإيمان بالله منهاج شامل للحياة يحرّك الإنسان على وفق توجيهاته وأهدافه ، لممارسة استخلافه الحضاري للطّبيعة التّي سخّرت له ، ليتمكّن من تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقيّ ، وهكذا تلقى آدم منذ لحظة هبوطه الأولى كلمات من ربّه لتكون بمثابة الهادي والدّليل .

" إنّ الدّين وفق هذه الرّؤية يبدو برنامجا حضاريا ، ينبثق عن تخطيط مرسوم يستلزم عملا متواصلا بعيدا عن الارتجال ، موجّها إلى غاية معلومة وهدف واضح يتمثّل في عبادة الله والتّوجّه إليه ، والتّلقّي عنه دون سواه " (2)

---

(1) ـ البوطي : المرجع نفسه ص 98 بتصرّف .

(2) ـ عماد الدّين خليل : أصول تشكيل العقل المسلم ص 80 ـ 81 بتصرّف .

وهذا هو مقصدّ الشّريعة العام " إنّه يتمثّل في عمارة الأرض وحفظ نظام التّعايش فيها ، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها ، وقيامهم بما كلّفوا به من عدل واستقامة ، ومن صلاح في العلم والعمل ، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها " (1) وهذا يقتضي الإقبال على الأرض ، واستثمار خيراتها ، والتّمتّع بطيّباتها وفق توجيهات الله رب العالمين .

رابعا : الآثار الحضارية لمعرفة حقيقة الطّبيعة

إدراك المؤمن لسيادته على الطّبيعة يورثه تقديرا لقيمته في الوجود ، فمهما هالته مظاهرها لا يمكنه أن ينذلّ لها فضلا عن عبادتها ، بل يقتحم مجالها بعلمه الذي وهبه الله إيّاه ، ويغالبها بجهده من أجل تطويعها لإرادته ، كلّ ذلك في سياق عبادة الله ، وإذا انعدم هذا الإدراك ووقع في النّفس أنّ الإنسان ليس إلاّ شيئا من أشيائها مساويا لها أو هو دونها كان ذلك مثنيا للعزم ، دافعا إلى التّراجع عن اقتحامها فيتمّ إحباط الفعل الحضاري ، وإذا جهل قيمته كان أقرب إلى الوقوع في الوثنيّة ، فمن النّاس من استعبدته مظاهر الطّبيعة فاتّخذها آلهة يصرف إليها كثيرا من الجهد ، ويتقاعس عن كثير من الواجبات الحضاريّة خوفا منها استسلاما للأوهام ، كما حصل لكثير من النّاس . (2)

فمنهم من قدّس الحيوان مع أنّه خُلِقَ لخدمته ، قال تعالى ((وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)) [النّحل 05 ـــ 07]

ومنهم من حرّم على نفسه المنافع والطيّبات التي خلقها الله للإنسان ، قال تعالى : ((وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ

(1) ـــ علاّل الفاسي : مقاصد الشّريعة الإسلاميّة ومكارمها ص 45 ـــ 46 بتصرّف .

(2) ـــ انظر : عبد الله درّاز : الدّين ص 114 وما بعدها .

وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ)) [الأنعام 138 ــ 140]

وقد وقع العرب في كثير من الأوهام والخرافات التي تنسب للطّبيعة قوّة غيبيّة لها تأثير على الإنسان ، فحرّرهم الإيمان من الاعتقادات الباطلة كالخوف من أوضاع الكواكب وخسوفها والاعتقاد في الطّيرة والكهانة وعبادة الأوثان ، وفي هذا يقول عليه الصّلاة والسّلام : ((**الشّمس والقمر لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنّهما آيتان من آيات اللّه فإذا رأيتموهما فصلّوا**)) (1) وسأله أحدهم : ((**قال : قلت يا رسول اللّه أمورا كنّا نصنعها في الجاهليّة كنّا نأتي الكهّان ، قال فلا تأتوا الكهّان ، قال قلت نتطيّر ، قال ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنّه**)) (2)

وإذا لم يعرف الإنسان لنفسه كرامتها وتميّزها الخاص على الطّبيعة فإنّه يضلّ خائفا منها مهما تقدّم علمه بالكائنات ، لذلك بيّن الله عزّ وجل له جانبا كبيرا عن نواميس الكون بيانا شافيا ، يزيل الشّكوك ويورث اليقين ، فإذا تعرّف الإنسان على الطّبيعة وأيقن بأنّ الله أقامها لخدمته وتحقيق مصالحه تعامل معها بدافع الانتفاع ، وهذا يؤدّي إلى استثمارها استثمارا يحقّق له تحضّره المنشود حيث يدفعه إلى تطوير حياته ، خلافا لمن يرى وجوب الزّهد في استغلال خيراتها وعدم تجاوز الحدّ الفطري الذّي يحصّله بطبعه في

(1) ــ البخاري عن أبي مسعود ، كتاب : بدء الوحي ، باب صفة الشّمس والقمر رقم 3204 .
(2) ــ مسلم عن معاوية بن الحكم السّلمي ، كتاب السّلام ، باب تحريم الكهانة رقم 5813 .

الاستفادة منها لتستمرّ حياته ، فإنّ هذا من شأنه أن يبقيه ثابتا على حياة بدائيّة أو أقرب منها ، وعليه فإنّ الإسلام في تصوّره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطّا جديدا يقوم على الوئام والانسجام بين الإنسان والطّبيعة ، فما دامت سخّرت لخدمته فإنّ العلاقة بينهما علاقة انسجام وتواصل " وعندما يدرك الإنسان اتفاقه معها في أصل خلقته يشعر بالتّجانس والالتحام ، وتنتفي عنه مشاعر الخوف والعداء التّي تكون نتيجة للتّباعد والاغتراب ، وهذه المشاعر هي التّي تصنع المناخ النّفسي الذّي يهيّئه للتّعامل مع الكون بتلقائية ويسر ، وتختفي بذلك حالة التوتّر التي تؤدّي إلى تعطيل طاقته " (1)

ومع تأكيد القرآن الكريم على تسخير الكون للإنسان " فإنّه أشعره بأنّ هذا التّسخير ليس بالذّي يتحقّق بالسّهولة واليسر ، بحيث يجلب للإنسان المنافع في حالة القعود والكسل ، وإنّما هو تسخير في حالة الإقبال والعمل ، وهذه المعادلة تدلّ على أنّ الكون خلق في الحدّ الوسط الذّي يتحدّى الإنسان إلى نقطة القدرة على الاستجابة والفعل والإعمار ، ويتجاوز التكشّف الشّامل أو الانغلاق الكامل الذّي يستحيل معهما ردّ الفعل والإبداع " (2) ولعلّ هذا ما أشار إليه الله في قوله : ((وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ)) [الشّورى 27] فلو جعل الرّزق ممتدّا في حياة النّاس تبعا لرغباتهم دون ضابط وميزان لبغوا في الأرض في علاقاتهم فيما بينهم لأنّ الرّزق إذا كان مبسوطا بسطا كبيرا ، قد يدفع إلى العدوان وطلب السّيطرة جريا لإتّباع الهوى وإشباع الشّهوات فيقع الفساد كما قال تعالى : ((كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)) [العلق 06 ـ07] فالتّوازن الذّي خلق عليه الكون يحفّز على بذل الجهد لاستثمار خيراته ، و

(1) ـ عماد الدّين خليل ، أصول تشكيل العقل المسلم ص 104 بتصرّف .

(2) ـ النّجار : فقه التّحضّر الإسلامي ص 135/1 بتصرّف .

يضبط سلوك النّاس لئلاّ يقعوا في العدوان .

ثمّ إنّ الاقتناع بأنّ الكون على ما يبدو عليه من عظمة هو مسخّر للإنسان من شأنه أن يدفعه في ثقة واطمئنان إلى استغلاله ، فقد يهوله ما يبدو عليه من مظاهر القسوة ، وقد يقع في نفسه أنّه مستغلق عن الفهم ، مستعص عن النّفع فيؤدّي ذلك إلى الانهزام واليأس ، وذلك ما يعالجه الإيمان بأنّ الكون خلق لخدمة الإنسان وفي متناول مداركه وهو بهذا يحضّنا على العمل ، وقد بيّن للنّاس أنّهم إذا أرادوا التّعامل مع الدّنيا تعاملا مفضيا إلى الرقيّ بالحضارة عليهم أن يمارسوا أنشطتهم بدافع وظيفي وروح مسؤولة لا بدافع التّعلّق بها ولن يتمّ هذا إلاّ إذا امتلأ القلب بالإيمان بالله واليقين بما أخبر به عن حقيقة الكون والحياة ، فإذا التزم المؤمن بتعاليم القرآن في هذا الشّأن تمكّن من أداء دوره في الحياة على أحسن وجه ، والذّي يهمّنا في بحثنا هذا العوامل النّفسيّة الدّافعة إلى السّموّ بالهمم وتصحيح التّصوّرات ، والوقاية من المعوّقات التّي تقعد عن النّهوض الحضاري ، فما هي هذه العوامل ؟ وكيف تؤثّر تأثيرا إيجابيّا في تحقيق الفعل الحضاري ؟ هذا ما نقوم ببيانه في المباحث الآتية :

الفصل الرّابع
أثر الإيمان في الحياة

المبحث الأوّل : الإيمان وأثره في الأوضاع الاجتماعيّة

المبحث الثّاني : الإيمان وأثره في الأوضاع السّياسيّة

المبحث الثّالث : الإيمان وأثره في الأوضاع الاقتصاديّة

المبحث الأوّل: الإيمان وأثره في الأوضاع الاجتماعيّة

تكمن مقوّمات إعمار الدّنيا وإنشاء الحضارة المثلى في عناصر الكون ثمّ في جهد الإنسان الذي يستثمر خيرها ، ويعدّ هذا الجهد العامل الإيجابي في التّفاعل مع قوى الطّبيعة ، فإذا توفّر منه السّعي وصحّت طرقه نال الثّمار في شتّى جوانب الحياة ، وإذا تقاعس أو أخطأ بخلت عليه الطّبيعة بخيراتها ، غير أنّ هذا الجهد رهن عوامل نفسيّة هي بمثابة الدّافع الذّي يشحذ الهمم ، ويصحّح السّير إلى الأهداف ، ويمنح القوّة لبلوغ الغايات ، والإيمان بالله رأس هذه العوامل فهو باعثها والضّامن لبقائها ، وهو الذّي يقي النّفس من الاضطرابات التي تفضي إلى الضّعف والقلق واليأس وغيرها من الآفات التي تُقعِدُ عن تحصيل المنافع في الحياة ، فَكَيف يؤثّر الإيمان في الفرد والمجتمع ليحدث نهضة خيّرة في أحواله ؟ هذا ما نعرضه في المطالب الآتية :

المطلب الأوّل : أثر الإيمان على الفرد في تحقيق الفعل الحضاري

أثر الإيمان عظيم في دفع الإنسان إلى التّعمير ، لكونه من أعظم الدّوافع التّي تفجّر الطّاقات الخيّرة التي ترتقي بها الحياة ، وذلك من خلال تحقيق جملة من العوامل التي لا يستغني عنها أي مجتمع يريد تحقيق حضارة راقية ، منها :

أوّلا : الطّمأنينة

شعور الإنسان بضعفه وضآلته أمام مظاهر الكون نابع من عجزه حيال كثير من المظّاهر التي لا يملك دفعها ولا حماية نفسه منها ، وجهله لكثير من حقائق هذا الكون غير المتناهي ، وقد دفع هذا الشّعور كثيرا من النّاس إلى عبادة بعض عناصر الطّبيعة ، يسعون إليها بأنواع من القرابين ، توهّما منهم أنّها بذلك ترعاهم بحمايتها ، ولكن سرعان ما ينكشف لهم بطلانه فيزيدهم خوفا وهلعا . (1)

(1) ــ انظر : عبد الله درّاز ، الدّين ص 114 وما بعدها ، عباس محمود العقّاد : الله ص 17 ــ 18 .

لكنّ المؤمن تطمئنّ نفسه بالعلم الذي يلقاه من الدّين في شأن الوجود والحياة وهو يسعى للإجابة عن أصل الخلق ومعنى الحياة وحقيقة المصير ، فيسعفه الإيمان بالإجابات الشّافية ، ويضيء له أبعاد الوجود ، ويشرح له علل الكون فيعرف أنّ هذا الكون يملكه قويّ جبّار ، يدبّر أمره بناموس مستقرّ وفق إرادة خيّرة رحيمة ، وأنّه لا يتحرّك بلا نظام فيخبط الإنسان بالكوارث بعشوائية ، أو يفعل ذلك انتقاما منه وتنكيلا به ، بل كل ما يقع فيه هو بتدبير ربّ حكيم لأنّ الوجود خاضع لمشيئته ، فيكون مطمئنّ النّفس إزاء ما يحدث من اضطرابات .

الحقائق الإيمانية تحقّق الطّمأنينة

يطمئنّ المؤمن إلى حقائق الإيمان لأنّها تمثّل الحقيقة في شأن الوجود إذ هي موحاة من خالقه الذي وسع كلّ شيء علما ، لاسيما أنّ العقل وحده لا يمكنه أن يدرك كلّ أسراره ، لأنّ مبلغ علم البشر ما تدركه حواسهم ، ولكن قبسا من تلك الأسرار يكمن في أعماق النّفس ، فهو بمثابة المبادئ الأوّليّة التي جبل عليها النّاس (1) فإذا تلقّى الإنسان تعاليم الدّين جاوبتها نفسه بتلك المبادئ فيستأنس بما فيها من تذكرة تحيي عهد فطرته ، وهكذا يأمن الإنسان بالدّين ويؤمن به إيمانا ترسو أصوله في النّفس ، وتظهر ثماره في الحياة ظهورا فعّالا على كافّة الأصعدة كما قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)) [إبراهيم 24 – 25]

وكما تقع حقائق الإيمان في نظام الكون ومسار الحياة بردا وسلاما على الإنسان بما تشبع فضوله العلمي وتؤنس نفسه ، يرضيه في الإيمان كذلك أن يدرك لحياته

(1) – المقصود هنا الفطرة ، كما ذهب إلى ذلك جمال الدّين القاسمي في محاسن التّأويل 13/8 وهي على حد تعبير محمّد الطّاهر بن عاشور : هي الانفعالات الحاصلة لنفوس البشر في حالة سلامتها ، وهي أساس التّنظيم التّي أقيمت عليها الحضارة الأولى في البشر من توخّي الصّلاح ودرء الفساد وإصابة الحق . انظر : أصول النّظام الاجتماعي ص 38 .

هدفا ولوجوده معنى كريما ، فهو لم يخلق سدى ، ولا هو كالأنعام شأنه أن يأكل ويتمتّع ثمّ يموت ، وإنّما هو مخلوق فاضل كرّمه الله .

" ويستشعر الإنسان بعبادته لله وئاما مع الكون ، فأشياء الطّبيعة كلّها خاضعة لله محكومة بأوامره وسننه دون تحوّل تسجد له كرها ، أمّا هو فتوحي إليه شريعة من أوامر الله ويدعى إلى السّجود غير مكره ، فيجد نفسه وفاق مع الكون لأنّه يسجد طوعا للّذي يسجد له الكون كرها " (1) وهذا يزيده اطمئنانا وأنسا بالكون لاشتراكهما في الخضوع لإله واحد يمدّهما بعنايته وحفظه .

دور الإيمان في دفع الخوف والقلق السّلبيين

يظنّ البعض أنّ الإنسان دون إيمان يمكنه التّغلّب على الخوف وتجاوز القلق باكتشافه لكثير من أسرار الكون ، واختراعه للوسائل التّي تحميه من تقلّبات الطّبيعة ، فيكون قد اعتمد على نفسه في حمايتها بعيدا عن الإيمان ، وشاهدهم في ذلك ما وصلت إليه الحضارة الغربيّة من تقدّم في وسائل الحماية ومظاهر النّعيم ، ولكن عند التّبيّن يظهر أنّ هذا الظنّ ليس إلاّ وهما " فقد تفشّت في أوساط المجتمعات التّي لا تؤمن بالله الإيمان الحقّ ، أو الملحدة آثار الخواء الرّوحي في صورة الأمراض العصبيّة والنّفسيّة ، والانحراف والجريمة ، وتعاطي المخدّرات ، وإطلاق الشّهوات من كلّ ضابط لعوامل عدّة من أهمّها الخوف والقلق ، وأمّا النّعيم الظّاهر لم يكن إلاّ نعيما ماديّا في كثير من الأحيان " (2)

لذلك ظهرت في أوروبا في منتصف القرن الماضي فلسفة القلق والإحباط التّي نظّر لها **جون بول سارتر** (3) وأصحابه حيث عبّرت عمّا أصاب النّاس من مآسي

(1) ــ انظر : التّرابي ، الإيمان أثره في الحياة ص 34 ، القرضاوي : الإيمان والحياة ص 97 .

(2) ــ انظر : سيّد قطب ، الإسلام ومشكلات الحضارة ص 122 وما بعدها .

(3) ــ **جان بول سارتر (1905 ــ 1980 م)**

فيلسوف وكاتب فرنسي ، تلقّى مبادئ الكاثوليكيّة منذ صغره ، وهو أوّل ممثّل للوجوديّة في فرنسا منح جائزة نوبل عام 1964 فرفضها ، توقّف إنتاجه العلمي بعد 1968 بعدما ساءت صحّته ، من آثاره : الوجود والعدم ، الوجوديّة إنسانيّة ، نقد العقل الجدلي . انظر : روني إيلي ألفا ، موسوعة أعلام الفلسفة 531/1 وما بعدها .

إثر حربين عالميتين مدمّرتين (1) كانتا بوجه من الوجوه ثمارا مرّة لفلسفة الإلحاد التّي أعلنت " موت الله " وأوكلت قيادة الإنسان إلى عقله حينما هتك أسرار الكون وأصبح قادرا على الاحتماء من غوائل الطّبيعة بتلك القوانين ، كما قرّر ذلك **أوغوست كونت** (2) في فلسفته الوضعيّة التّي اعتبرت الإنسان قد تجاوز المرحلة الميتافيزيقيّة وارتقى إلى مرحلة الوضعيّة التّي يقود فيها نفسه بعقله ، فلم يزدهم ذلك الإعلان إلاّ قلقا وإحباطا . (3)

إنّ شعور الإنسان بالأمن والطّمأنينة في الحياة شرط ضروري للإقدام على العمل والتّعمير في الأرض ، ففي مناخ الأمن النّفسي تنمو القدرات الذّهنيّة وتتّجه نحو الإبداع ، وتنشط القدرات العمليّة على كافّة الأصعدة من مختلف الصّناعات والإنجازات الحضاريّة فتتضاعف فعاليتها ويزكو إنتاجها ولا يتمّ ذلك الاطمئنان إلاّ بالإيمان بالله واهب الأمن ، قال تعالى : ((وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)) [الأنعام 80 – 82] وقال : ((أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ

(1) – انظر تفصيلا لفلسفته : عبد الرّحمن بدوي ، الموسوعة الفلسفيّة 565/1 – 569 .

(2) – **أوغوست كونت (1798 – 1857 م)**

فيلسوف فرنسي ، تربّى على الدّين الكاثوليكي ، اشتغل بالتّدريس ، حيث قدّم سلسلة من المحاضرات في علم الفلك ، تأثّر بأستاذه سان سيمون فالتزم الفلسفة الوضعيّة التي ترفض الميتافيزيقا ، ولا تهتمّ بماهيّة الأشياء وأسبابها الأولى . من آثاره محاضرات في الفلسفة الوضعيّة التّعلّم المسيحي الوضعي . انظر : موسوعة أعلام الفلسفة 301/2 وما بعدها .

(3) – انظر : عبد الرّحمن بدوي : المرجع نفسه 311/1 – 314 .

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)) [يونس 62 ــ 64] فأولياء الله هم المؤمنون به حقّ الإيمان المتّقون حقّ التّقوى ، وهؤلاء هم الذّين ينالون الطّمأنينة والأمن ، ويُعْصَمون من الحزن والخوف ، ومن هؤلاء **خبيب بن عدي** (1) رضي الله عنه ، فبعد غزوة بدر أسر وأخذ إلى مكّة ليقتل انتقاما لقتلى بدر ، فخرج العشرات ليشهدوا مصرعه ، و لمّا وصلت الجموع إلى المكان المعدّ لقتله قال لهم بصوت ثابت هادئ إن شئتم أن تدعوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا ، وبعد ما صلّى قال : والله لولا أن تظنّوا أنّي أطلت الصّلاة جزعا من الموت لاستكثرت من الصّلاة ، وبعدها أخذوا يطعنونه برماحهم وسيوفهم وهم يقولون له أتحبّ أن يكون محمّد مكانك وأنت ناج ؟ فيقول والدّماء تنزف منه : والله ما أحبّ أن أكون آمنا في أهلي وولدي وأنّ محمّدا يوخز بشوكة فيلوّح النّاس بأيديهم في الفضاء ويتعالى صياحهم أن اقتلوه اقتلوه ... ثمّ رفع بصره إلى السّماء من فوق خشبة الصّلب وهو يقول : اللّهمّ أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ، ثمّ قال :

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإلـه وإن يشأ يبـارك على أوصـال شلو ممـزّع (2)

عـادت قـريش إلـى شـؤونها ونسيت فـي زحمـة الأحـداث خبيبـا ومصـرعه لكنّـه علّمهم أنّ الحياة الحقّة عقيدة وجهاد ، وأنّ الإيمان الرّاسخ يفعل الأعاجيب .

وبالمقابل إذا أصيبت النّفس بالحزن والفزع " فإنّ كلّ طاقاتها تضعف في الأداء وتتكفئ على ذاتها منشغلة بما أصابها بما لا يدع لها مجالا لأن تمتدّ بآمالها إلى

---

(1) ــ **خبيب بن عدي : (ت حوالي 02 هـ)**

هو الصّحابي خبيب بن عدي بن مالك الأنصاري من الأوس ، شهد بدرا ، وقتل الحارث بن عامر بن نوفل ، وبعد الغزوة بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في عشرة من أصحابه عينا له ، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ، لكنّهم أحيط بهم ، فقتل من قتل ، أمّا هو فقد سيق إلى مكّة وبيع إلى أبناء الحارث ، فأسروه ثمّ قتلوه ليثأروا لأبيهم . انظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب 23/2 ــ 25 .

(2) ــ انظر : الاستيعاب 23/2 ــ 25 ، أسد الغابة 108/2 ــ 110 الإصابة 262/2 ــ 264 .

التّعمير ، ولهذا المعنى تحرص الأمم على توفير الأمن للنّاس لكونه شرطا لازما من شروط النّهوض والعمران " (1) وهذا ما يعالجه الإيمان إنّه إبعاد الخوف من المجهول والحزن على الماضي ببعث الأمل وإعطاء الفرص لتصحيح العمل .

ثانيا : الإخلاص

إخلاص العمل هو روح الإيمان وسرّ العبادة ، لقوله تعالى : ((وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ)) [البيّنة 05] واستقامة الفرد في تطبيق أوامر الله ونواهيه تقتضي إخلاصه في بواعثه ، ففي حياة المؤمن أعمال تعبّديّة محضة لا تقع غالبا إلاّ في سياق العبادة لأنّها أعمال جعلت لتقوية الإيمان وذكر الله ، ولم توضع إلاّ بقصد التّوجّه المباشر إلى الله كالصّلاة والصّيام والحجّ فليس لها أي مقصد دنيوي (2) أمّا سائر الأعمال فهي أعمال اعتيادية تتّجه لأوّل وهلة لتحقيق غرض دنيوي .

ولكنّ المؤمن يخرجها بالنّيّة من عداد الأعمال الاعتيادية ويدخلها في نطاق العبادة ، فبالنّيّة الصّالحة يزكو العمل وتتحوّل العادة إلى عبادة (3) فإذا اتّجه المؤمن بنيّته إلى اختيار العمل الحلال دون الحرام كان ذلك عبادة ، وإذا كان باعثه أعظم كان حظّه من العبادة أوفى ، فالذّي يترك الحرام بنيّة طاعة الله يكن له حظّ ومن يكن قصده طاعة الله ورسوله يكن حظّه أوفر ، ومن يكن قصده طاعة الله ورسوله وترغيما للشّيطان يكن حظّه أكبر ، ويتعاظم قدر العبادة في العمل بقدر ما تتضاعف فيه المقاصد ، ويغلب التّوجّه إلى الله حبّا وشكرا وخوفا ورجاء

(1) ــ حسن التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 173 بتصرّف .

(2) ــ هذا في الغالب وحسب الظّاهر ، لذلك اصطلح على تسميتها بالعبادات ، لكن إذا دقّقنا النّظر في شأنها وجدناها تحقّق أغراضا دنيويّة ، كالتّعوّد على الانضباط ، والمحافظة على الأوقات والنّظافة ، والابتعاد عن المنكرات وظلم النّاس وغيرها من المقاصد التّي تظهر ثمرتها في الحياة .

(3) ــ أشار العزّ بن عبد السّلام إلى هذه القاعدة في فصل فيما يؤجر على قصده دون فعله في قواعد الأحكام في إصلاح الأنام 89/1 ــ 90 وذكرها السيّوطي ضمن قاعدة الأمور بمقاصدها في كتابه : الأشباه والنّظائر ص 16 وما بعدها .

وما يزال العبد يتسامى بعبادته حتّى يبلغ أعلى مقامات الإيمان والإحسان .
وقد يظنّ البعض أنّ العمل تحدث ثمرته في الحياة حتما متى تمّ تنفيذه مهما كان باعثه ، ولكن هذا غير صحيح ، لأنّ الذي لا تحرّكه نيّة خالصة لا يمكن أن يبلغ مبلغ المخلص في إفراغ جهده بوجه فعّال نحو عمل أشدّ تأثيرا في الحياة ، قال تعالى : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ)) [البقرة 264] وبالمقابل فإنّ كلّ عمل يؤتى بإرادة التّعبّد يعود على صاحبه بأثر طيّب ، قال تعالى ((وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [البقرة 265] وقال ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)) [الأعراف 96] وقد تجسّدت هذه المعاني في الصّحابة الكرام لصدق إيمانهم حتّى صار كلّ واحد إيجابيّا ، فما منهم إلاّ وله سمة معيّنة وموقف خاص وإبداع متميّز ، فمنهم من أشار واقترح ومنهم من أوضح وشرح ، فسلمان الفارسي يقترح حفر الخندق (1) والحباب بن المنذر يقترح الوقوف في بدر على الماء . (2) فالمخلص يجعل حياته قربة إلى الله فينطلق للعمل والمجاهدة ، ويرى عناصر الكون نعما أسبغها عليه فيتّخذها وسيلة لعبادته ، تلك هي غاية المؤمن ودوافع سعيه التي تبعثها العقيدة في نفسه فتعمر من جرّائها حياته ويستقيم سيره إلى الله .

(1) ــ انظر : ابن هشام ، السّيرة النّبويّة 238/2 .
(2) ــ ابن هشام 203/3 .

أمّا العمل الذي ينافق فيه صاحبه فإنّه يبعده عن الله ، فإن كان منافقا ازدادت نفسه مرضا كما قال تعالى : ((فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ)) [البقرة 10] وإن كان مؤمنا مرائيا ضعف إيمانه ، وإذا اعتاد العمل لغير وجه الله يوشك أن يموت في نفسه الإيمان ، فلا يقوى بعد ذلك على عمل صالح ، لذلك نرى المنافقين لا يأتون الخيرات إلاّ كارهين ، ولا يقومون بها إلاّ رياء كما قال تعالى في شأنهم ((إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)) [النّساء 142] فإذا غفل النّاس عنهم زاغوا عن الخير وأفسدوا ما وسعهم الإفساد لأنّهم لا يقصدون إلاّ أن يكسبوا منفعة في حياتهم الاجتماعية ، قال تعالى حكاية عنهم : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ)) [البقرة 11 ــ 12]

وهذا لا يعني أن المجتمعات غير المؤمنة بالدّين لا تقوى أبدا على العمل ولا تتأتّى لها أدنى نهضة " فإن الله في سننه لم يجعل سعادة الدّنيا وقفا على المؤمنين بل يمدّ منها لسائر خلقه مدّا ويفتح لهم أبواب كلّ شيء وفق أسباب الكسب فالإحسان يتبعه أثره ويتعدّى خيره إلى الكافر ، فيحيا في كنفها أهدأ نفسا ممّا لو أساء " (1) قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**إنّ اللّه لا يظلم مؤمنا حسنة ، يُعطى بها في الدّنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأمّا الكافر فيُطعمُ بحسنات ما عمل بها للّه في الدّنيا حتّى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**)) (2) فعلى قدر إحسانه يتيسّر له قضاء مصالحه في الدّنيا ، لكن يوم القيامة يتمايز المؤمنون والمجرمون ولا ينفع العبد إلاّ إيمانه وعمله .

---

(1) ــ محمّد الغزالي : من معالم الحقّ في كفاحنا الإسلامي الحديث ص 103 بتصرّف .

(2) ــ مسلم عن أنس بن مالك ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدّنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدّنيا رقم 2808 .

ثالثا : الصّبر

التّصديق بالقضاء من أركان الإيمان المفضية إلى تحقيق الاطمئنان ، فالمؤمن لا يجزع إذا مسّه شرّ ، ولا يصيبه العجب إذا مسّه خير ، فمن الرّضا بالقضاء ينبثق الصّبر " وهو انضباط النّفس من أن تستخفّها المصائب " (1) فمن طبع الإنسان إذا أصابه الشّر أن يغضب فيعتدي على غيره ، لكنّ الصّابر يملك نفسه ولا يطاوعها " وإنّما الذي يهمّه إزاء الأقدار كسبه الخاص ومسؤوليّته أمام الله ، وكلّ الحوادث عنده وجوه لابتلائه في الدّنيا وحيثيات لحسابه يوم القيامة ، من أجل ذلك يشكر ربّه على السرّاء ويصبر على الضرّاء ، فإن كان متسبّبا في بعض الحوادث يحمد الله على توفيقه ، لعلمه أنّ الأمور ما تيسّرت له لولا تهيئة الله لها (2) لكنّه لا يحتجّ بالأقدار إن كان مقصّرا " (3) وعلى هذا الأساس الإيمان بالقدر عامل من عوامل تحقيق الصّبر ، ما دام كلّ شيء يجري بقدر الله .

أثر الصّبر في تجاوز اليأس وتحمّل الشّدائد

يتأثّر بعض النّاس بالمصائب فيشتدّ حزنهم وانكسارهم ، لكنّ الصّابر يصمد ولا يصيبه القنوط ، بل يتحمّل المشقّة التي تفرضها عليه الظّروف ويمضي في طريقه كما فعلت إحدى نساء الأنصار " فقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها في غزوة أحد ، فلمّا نُعُوا لها قالت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا : خيرا يا أمّ فلان هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت أرونيه حتّى أنظر إليه ، فعندما رأته قالت : كلّ مصيبة بعدك جلل " (4)

" فالحياة لا تخلو أبدا من مظاهر الحزن والأذى ، فإذا كانت النّفس ضعيفة

---

(1) ــ التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 48 بتصرّف .

(2) ــ قال ابن عطاء الله السّكندري : ما توقّف مطلب أنت طالبه بربّك ، ولا تيسّر مطلب أنت طالبه بنفسك . الحكمة 25 وقال أيضا : من علامات النّجح في النّهايات ، الرّجوع إلى الله في البدايات . الحكمة 26 . الشّيخ زرّوق ، شرح الحكم العطائيّة ص 95 ــ 96 .

(3) ــ التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 46 بتصرّف .

(4) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 91/3 .

تعرّضت للتّوقّف أو الانحراف على المبدأ لتجنّب الظّروف العسيرة وآثارها السيّئة ، والإنسان معرّض للمصائب فإذا اشتدّ عليه وقعها لا يسلم من أن تنكسر همّته ويقنط من مواصلة الكدح في الحياة ، ويزهد في متاعها الزّائل ، ولا يرى معنى لإجهاد النّفس من أجلها " (1) وهذه النّفوس هي المعنية بقوله تعالى ((وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ)) [الحجّ 11]

أمّا المؤمن فإنّه يصبر على كلّ ذلك ، وقوام ذلك الصّبر يقينه بأنّ الدّنيا دار ابتلاء وهذا اليقين يهيّئه لأن يلاقي الضرّاء كما يلاقي السرّاء ، ولا يرى في الأذى إلاّ امتحانا لصدق إيمانه ، وتحدّيا لثباته وقوّته ، قال تعالى : ((الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ)) [العنكبوت 1 ــ 3]

ولقد ضرب الصّحابة الكرام أروع الأمثلة في هذا الشّأن ، منهم سعد بن الرّبيع رضي الله عنه (2) فقد روى ابن هشام (3) في سيرته أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لأصحابه : " من ينظر لي ما فعل سعد بن الرّبيع ، أفي الأحياء هو أم في

(1) ــ التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 48 بتصرّف .

(2) ــ **سعد بن الرّبيع (ت 03 هــ)**

هو الصّحابي سعد بن الرّبيع بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، أحد نقباء الأنصار كان كاتبا في الجاهليّة ، شهد العقبة الأولى والثّانية وبدرا وسقط شهيدا في أحد ، خلّف بنتين فأعطاهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الثّلثين ، فكان ذلك أوّل بيانه للآية : ((فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ)) [النّساء 11] انظر : الاستيعاب 156/2 ــ 157 ، أسد الغابة 293/2 ــ 294 .

(3) ــ **عبد الملك بن هشام (ت 213 هــ)**

عبد الملك بن هشام بن أيّوب الحميري المعافري أبو محمّد مؤرّخ ، كان عالما بالأنساب واللّغة وأخبار العرب ولد ونشأ بالبصرة ، توفّي بمصر أشهر كتبه السّيرة النّبويّة ، وله القصائد الحميريّة . انظر : ابن خلّكان ، وفيات الأعيان 177/3 .

الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فنظر فإذا هو جريح في القتلى و به رمق ، فقال له إنّ رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ، قال : أنا في الأموات فأبلغ رسول الله عنّي السّلام وقل له إنّ سعد بن الرّبيع يقول لك : جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّا عن أمّته وأبلغ قومك عنّي السّلام ، وقل لهم إنّ سعدا يقول لكم إنّه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيّكم وفيكم عين تطرف ، قال الأنصاري فلم أبرح حتّى مات " (1)
فالمؤمن لا يجزع للمصائب لأنّ غايته الفوز يوم القيامة ، وحرصه ألاّ تكون مصيبته في دينه ، ومتاع الدّنيا عنده وديعة من الله يستخلفه فيها ، فإذا استردّها رضي بقضاء الله وقدره ، فالصّبر مدعاة لمجابهة الحياة بإيجاب وثبات ، والصّابر من تقع له المصائب فلا تقعده عن واجباته .
ومن الذّين جسّدوا هذه المعاني أيضا الخنساء (2) فقد مات أخوها صخر في جاهليّتها فجزعت عليه جزعا عظيما ، واسودّت حياتها حسرة وحزنا على فقدانه وهمّت بقتل نفسها ، حتّى قالت :

يذكّرني طلوع الشّمس صخرا وأذكـــره بـكـلّ غـــروب
ولــولا كثـرة البـاكيــن حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فلمّا أكرمها الله بالإسلام وامتلأ قلبها بالإيمان تغيّر حالها ، فقد كان لها أربعة أبناء ، فلمّا كانت حرب القادسيّة حثّتهم على الجهاد ودفعتهم إلى ساحة المعركة بحماس وأوصتهم قائلة : يا بَنِيَّ إنّكم أسلمتم لله طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذّي لا إله إلاّ هو إنّكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة ، ما خنت

---

(1) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 87/3 .

(2) ــ **الخنساء تُماضر بنت عمرو : (ت 24 هــ)**

هي الشّاعرة العربيّة تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، من بني سليم من مضر ، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي وأدركت الإسلام فأسلمت ، أنشدت بحضرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطلب منه وكان يعجبه شعرها ، لها ديوان شعر مطبوع ، انظر : ابن عبد البرّ الاستيعاب 387/4 ــ 389 ، ابن الأثير ، أسد الغابة 267/5 ــ 268 .

أباكم ، ولا فضحت حالكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمجاهدين ، امضوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، ولمّا جاءها نبأ استشهاد أبنائها الأربعة قالت صابرة شاكرة : الحمد لله الذّي شرّفني بقتلهم جميعا وأرجو أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته . (1)

ولمّا كان الصّبر من أجلّ فروع الإيمان ومن أوضح ما يتميّز به المؤمنون لدى مواجهة المصائب ، فقد تكرّرت الدّعوة إليه في القرآن الكريم لتثبيتهم ، قال تعالى : ((وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ)) [البقرة 155 ــ 157] وقال : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) [آل عمران 200] وقال : ((وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ)) [العصر] ولمّا كان الرّسل رأس قافلة الإيمان يشقّون الطّريق لمن يأتون من بعدهم ، كان حقيقا عليهم أن يكونوا أولي صبر شديد ليكونوا أئمّة لسائر المؤمنين الصّابرين قال تعالى ((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ)) [الأنعام 34] " إنّ صنع القوّة تبدأ بثبات الإنسان أمّام التّحدّيات لأنّ عمليّة البناء والهدم قد تحتاج إلى وقت طويل في مواجهة عاديات الزّمن ، وهو يحمل الكثير من المتاعب والآلام في طريق النّصر " (2)

وعندما يواجه المؤمنون أهل الباطل بالأذى ويتعرّضون للعدوان يدعوهم القرآن

(1) ــ انظر : ابن عبد البرّ ، الاستيعاب 387/4 ــ 389 ، ابن الأثير ، أسد الغابة 267/5 ــ 268 .

(2) ــ انظر : محمّد حسين فضل الله ، من وحي القرآن 84/9 .

إلى الصّبر على الفتن والمحن ، قال تعالى ((وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ)) [آل عمران 139 ــ 140]

وفي المعركة مع الظّالمين حثّ الله الفئة المؤمنة على الصّبر ، وجعله مفتاح النّصر ليعلّم المؤمن أنّ المعركة في الحياة من أجل البناء الحضاري تقتضي التّسلّح به ، بغية تحقيق التّفوّق المنشود والتّميّز المفروض على الأمّة ، بحكم دورها الرّسالي المنوط بها ، قال تعالى : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)) [الأنفال 65 ــ 66]

" وهذا لا يعني إطلاقا اتّخاذ الرّضا بالقضاء ذريعة لقبول المنكر والقعود عن تغييره ، فلا حرج أن يغضب المؤمن لله على المنكر الذي يقترفه بعض النّاس و لا حرج أن يتحرّك لردّه ودفع الظّلم ، لأنّه إذ يهمّ بذلك إنّما يعمل استجابة لأمر الله ، فأحداث الحياة من تدبير الله ، وحركة الإنسان لتغييره من تدبير الله أيضا والمؤمن بسعيه نحو الخير يفرّ من أقدار الله إلى أقدار الله ، فلا يستسلم للجزع والحسرة من سوء الحال يتمنّى على الله الأماني ، بل يجتهد في إحداث التّغيير بالصّبر ويتوجّه إلى الله بطلب النّصر " (1)

وهذا لا يعني أيضا أن يمتنع عن تجاوز المصائب والمنكرات بالصّبر الجميل بحجّة الرّضا بالقضاء ، فقد أنكر الله هذا التّصرّف ورتّب عليه العذاب ، قال

(1) ــ انظر : التّرابي ، الإيمان أثره في حياة الإنسان ص 47 .

تعالى : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا)) [النّساء 97 ــ 99]

وقد اعتبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم المؤمن الحريص على تغيير الحال إلى الأحسن أفضل من الذّي قنع به وظلّ ساكنا ، فقال : ((**المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى اللّه من المؤمن الضّعيف وفي كلّ خير ، احرص على ما ينفعك واستعن باللّه ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدّر اللّه وما شاء فعل ، فإنّ لو تفتح عمل الشّيطان**)) (1)

رابعا : التّوكّل والإقدام

التّوكّل ينشأ من الثّقة بالله والإيمان بوعوده ، فهو الذي يصرف أسباب الحياة وهو الذي يجلب الخير ويكشف الضرّ ، ولا يُردّ له قضاء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء ، فالمؤمن إذ يعتصم بالله يوقن بأنّه يأوي إلى سند قوي فلا ينتابه خوف من العباد لأنّهم لا يملكون شيئا إلاّ بإذن الله .

ولقد ضرب الصّحابة الكرام أروع الأمثلة في هذا الشّأن ، ففي غزوة أحد بعدما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أحد وبلغوا الرّوحاء (2) ندموا على انصرافهم وتلاوموا ، وقالوا : لا محمّدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم ، قتلتموهم حتّى إذا لم يبق منهم إلاّ الشّريد تركتموهم ، فارجعوا فاستأصلوهم ، وبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان ، ونادى

---

(1) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب القدر : باب في الأمر بالقوّة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير له ، رقم 4819 .

(2) ــ الرّوحاء مكان على بعد ستّة وثلاثين ميلا من المدينة في طريق مكّة . انظر : المبارك فوري الرّحيق المختوم ص 335 .

المنادي لا يخرج معنا إلاّ من شهد القتال (1) فلبّى الصّحابة النّداء على ما بهم من جراح وإرهاق حتّى وصلوا إلى حمراء الأسد (2) وعسكروا هناك ، وقد مرّ ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال لهم أبو سفيان : هل أنتم مبلّغون عنّي محمّدا رسالة وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكّة ؟ قالوا : نعم . قال فأبلغوا محمّدا أنّا قد أجمعنا الكرّة لنستأصله ونستأصل أصحابه ، فمرّ الرّكب برسول الله وهم بحمراء الأسد فأخبرهم بالذّي قال أبو سفيان ، وقال لهم إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فازدادوا إيمانا وثباتا ، قال تعالى : ((ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)) [آل عمران 173 ــ 174] يتبيّن لنا من هذا الموقف أنّ التّوكّل على الله يزيح كلّ أساليب التّخويف " فالمؤمنون الذّين استجابوا لله ورسوله شعروا بالقوّة بانتمائهم إلى الله القويّ القادر ، لهذا كان ردّ فعلهم على ذلك التّحدّي بمزيد من الثّبات ، فإنّ ذلك الانتماء أبعد من نفوسهم كلّ مشاعر الضّعف التّي تفضي إلى الهزائم ، لقد وازنوا بين قوّة الأعداء المحدودة وقوّة الله المطلقة ، فاختاروا الارتباط بالمطلق فشعروا بالكفاية بالله الذّي يكفي من كلّ شيء ، واستجاب الله لهذا الإيمان : ((فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)) وردّ الله كيد الأعداء إلى نحورهم ، فتراجعوا أمّام حالة الاستعداد القصوى للمؤمنين " (3)

---

(1) ــ فقال له عبد الله بن أبي بن سلول أخرج معك ، فقال : لا ، واستأذنه جابر بن عبد الله الذّي حبسه العذر في أحد فقبل خروجه معه . انظر : سيرة ابن هشام 93/3 .

(2) ــ حمراء الأسد مكان يبعد عن المدينة حوالي ثمانية أميال . انظر : ابن هشام 93/3 .

(3) ــ انظر : محمّد حسين فضل الله ، من وحي القرآن 389/6 ــ 391 . كان المشركون يفكّرون في الرّجوع إلى المدينة لاستئصال ما بقي من المسلمين ، وقد خالفهم صفوان بن أميّة ، وكان من زعمائهم ، لكنّهم غلبوه في الرّأي وقبل أن يتحرّك أبو سفيان بجيشه لحقه معبد بن أبي معبد =

وهكذا يتمّ للمؤمن اليقين بأنّه يأوي إلى الرّكن الشّديد فتقوى عزيمته على الإقدام على العمل الصّالح ولا يتراجع إذا تعسّرت عليه الأسباب وغالبته العوائق لعلمه بأنّ مآله التّوفيق إلى الخير ، وهذه المعاني نجدها بكثرة في الكتاب العزيز لترسّخ في المؤمنين الثّقة بحقائق الاعتقاد ، وتلهمهم حسن الاعتماد على الله و الاكتفاء به دون سواه ، وتدفعهم للإقدام والمجاهدة .

" فالتّوكّل شعبة من شعاب الإيمان تهيئ المؤمن في الدّنيا لحياة عامرة بضروب العمل الصّالح ، مفعمة بوجوه الخير وفقا لتوجيهات الشّريعة وحدودها ، وهو لذلك إيجاب لا سلب ، يدفع للإقدام لا للقعود " (1)

وعلى هذا الأساس ينبغي أن ننفي عن التّوكّل بعض التّصوّرات التي نجدها عند بعض النّاس ، فقد أخذ بعضهم من التوكّل معنى التعطّل ، ومن القضاء والقدر معنى الجبر المحتوم ، فانتهوا إلى القعود عن محاولة التّأثير الفعّال في الحياة بحجّة أنّ القدر جار على وجهه المكتوب مهما فعلوا ، واتّكالا على أنّ الله سيدبّر لهم الخير مهما تركوا ، والحقّ أنّ أقدار الله هي أسباب الطّبيعة وقواها وقوانينها ، وما الإنسان بقوّته إلاّ بعض منها ، وهو مدعو من الله ومدعوم منه إلى تفهّم تلك الأسباب ، وإقحام جهده فيها وتسخيرها لصالحه .

فالتّوكّل ثقة الإنسان بالله والاستعانة به من خلال قناعاته بحقائق الإيمان ، وعلمه بأحكام الشّريعة ، وبهذا يفتح الله للنّاس بصيرتهم إلى وجوه الصّلاح وسبله وتتهيّأ لهم توفيقات إلى الخير بأقدار الله الخفيّة ، وحسبنا دليلا على هذه الحقيقة هجرة النبيّ عليه الصّلاة والسّلام من مكّة إلى المدينة " فلقد كانت بحسب الظّاهر تركا للوطن وتضيعا له ، ولكنّها كانت في الواقع حفاظا عليه وضمانة له

= الخزاعي ، وأخبره قائلا : إنّ محمّدا قد خرج يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرّقون عليكم تحرّقا ، وقد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيّعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، فأخذ أبا سفيان وجنده الفزع ، ولم ير العافية إلاّ في الانسحاب والرّجوع إلى مكّة . انظر : ابن هشام 94/3 ــ 95 .

(1) ــ التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 43 بتصرّف .

فقد عاد بعد بضع سنوات من هجرته إلى وطنه عزيز الجانب منيع القوّة " (1)
لذلك إذا انتصر المؤمن لله أتمّ الله له النّصر حيث لا يجد ناصرا كما حصل للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في هجرته ، قال تعالى ملخّصا أحداثها : ((إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التّوبة 40] وإذا اتّقى الله جعل له مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب كما قال تعالى : ((وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ)) [الطّلاق 2 – 3] تلك هي أهمّ العوامل النّفسيّة التّي يحتاجها الأفراد في تحقيق الفعل الحضاري تحقيقا فعّالا التّي يحدثها الإيمان ، و فيما يلي بيان آثاره على المجتمع في تحقيق تحضّره .

المطلب الثّاني : أثر الإيمان على المجتمع في تحقيق الفعل الحضاري

للإيمان تأثير بالغ في تأسيس المجتمع على الوحدة المفضية إلى تحقيق الانسجام بين أفراده وتحصين جهود هم من التّعارض حيث يقيم علاقاتهم على جملة من القيم ، أهمّها :

أوّلا : الأخوّة الإيمانية :

أوّل مشاعر القربى التي ينمّيها الإيمان بوحدانية الله بين أفراد المجتمع : الأخوّة الإيمانيّة ، قال تعالى : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...)) [الحجرات 10] فعقيدة التّوحيد ذات أثر كبير في توحيد المؤمنين ، فحين يتّخذ النّاس أربابا متفرّقين يورثهم ذلك إحساسا بأنّهم طوائف متباينة في ظروفهم وأهدافهم ، وذلك يؤدّي بهم إلى الشّقاق ، وليس إله واحد كأرباب متفرّقين ، قال تعالى على لسان يوسف عليه

(1) – البوطي : فقه السّيرة النّبويّة ص 136 .

السّلام : ((يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) [يوسف 39 ــ 40] وحتّى لو أنّ النّاس أعرضوا عن الآلهة لاتّخذوا من أهوائهم آلهة ووقعوا في أسرها ، فيفضي ذلك إلى الشّقاق ، وهذا ما حذّر الله منه في قوله : ((وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) [الرّوم 31 ــ 32]

فعقيدة التّوحيد هي القاعدة التّي يبنى عليها الإخاء ، لذلك كان أوّل ما قام به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حيث قال لهم : تآخوا في الله أخوين أخوين (1) " ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيّات الجاهليّة فلا حميّة إلاّ للإسلام ، وأن تسقط فوارق النّسب واللّون والوطن فلا يتأخّر أحد أو يتقدّم إلاّ بمروءته وتقواه ، وقد جعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هذه الأخوّة عقدا نافذا لا لفظا فارغا ، وعملا يرتبط بالدّماء والأموال لا تحيّة تقولها الألسنة ولا يكون لها أثر ، ولم يكن الأمر وعضا عامّا إنّما كانت خطوة عمليّة حيّة " (2) وقد قامت هذه الأخوّة على أسس ماديّة أيضا ، وكان حكم التّوارث فيما بينهم إلى موقعة بدر الكبرى حيث نزل في أعقابها قوله تعالى : ((وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ)) [الأنفال 75] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من التّوارث وبقيت الأخوّة الإيمانيّة . (3)

---

(1) ــ انظر : سيرة ابن هشام 129/2 ــ 131 . (2) ــ محمّد الغزالي : فقه السّيرة ص 179 .

(3) ــ عن عبد الله بن عبّاس قال ((وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ)) ورثةً ((وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ)) كان المهاجر يرث الأنصاريّ دون ذوي رحمه ، لأخوّة الدّين التّي كانت بينهم ، فلمّا نزلت =

ويشعر المؤمن بالأخوّة تجاه إخوانه ، فقد جمعتهم كلمة التّوحيد في أمّة واحدة لا يتخلّف عنها مؤمن مهما بعد وطنه ولايلحق بها كافر مهما اقتربت رحمه ، قال تعالى : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَـٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)) [التّوبة 23]

" لقد أصبحت الأخوّة أوثق الرّوابط بين المؤمنين أينما كانوا ، وبطلت بها العصبيّات التّي كانت من أسباب الجمع والتّفريق في العرب وغيرهم ، وهي النّسب والحلف والوطن ، إذ كانوا في الجاهليّة لا يجدون سبيلا إلى التّعاضد والتّناصر إلاّ بإحداها ، بهذه القاعدة تسنّى للمسلمين التّعارف والاتّحاد على اختلاف الأمم الدّاخلة في الإسلام " (1)

ثمّ إنّ عنصر الاختيار الحر الذّي يتميّز به الإيمان يزيد من متانة العلاقة بين المؤمنين ، لأنّ غالب العصبيّات جامدة بحكم الحدود والأوضاع الطّبيعيّة التّي لا مجال فيها للاختيار ، بينما تستوعب رابطة الإيمان كلّ مستجيب مهما كان أصله أو ماضيه ، ولا تجعل دخوله مشروطا بإذن غيره بل الأمر بيده متى شاء قال تعالى : ((فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَـٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ)) [التّوبة 11] " وبناء أخوّة الإيمان على الاختيار يكسبها أيضا مزيدا من الاتّفاق ، لأنّ طيّبات الدّنيا لا تتّسع لمطامع البشر ، فإذا لم يروّض الدّين شهواتهم بعدله في الدّنيا وتوجيههم إلى نعيم الآخرة حصل النّزاع " (2) قال تعالى : ((وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ

= ((وَلِكُلٍّ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ)) نُسِخَتْ ، ثمّ قال : ((وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ)) من النّصر والرّفادة ذهب الميراث ، ويوصي له . رواه البخاري عن عبد الله بن عبّاس ، كتاب التّفسير ، باب ((وَلِكُلٍّ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ)) [النّساء 33] رقم 4580 .

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 194 ــ 195 بتصرّف .

(2) ــ حسن التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 114 .

أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [الأنفال 63]

ولقد سجّل التّاريخ للمهاجرين والأنصار مواقف مشرّفة ، فقد هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة وتركوا أموالهم وأهليهم ، فوردوا المدينة مضطرّين كما أخبر الله عنهم في قوله : ((لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)) [الحشر 08] فانتدب لهم الأنصار فكانوا يواسونهم بكلّ ما يملكون كما حكى الله عنهم ((وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)) [الحشر 09] كانوا يواسونهم بدورهم وعرضوا عليهم ثمار نخيلهم ، حتّى قال لهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا ولكن يكفونكم العمل ويأخذون نصف التّمر ، عندما قالوا له : ((**أقسم بيننا وبينهم النّخل ، قال لا تكفوننا المؤنة وتشركوننا في التّمر ، قالوا سمعنا وأطعنا**)) (1)

وبلغ السّخاء ببعضهم أن عرض على بعض المهاجرين إحدى زوجتيه ، ففي صحيح البخاري : ((**لمّا قدموا المدينة آخى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين عبد الرّحمن بن عوف وسعد بن الرّبيع ، قال لعبد الرّحمن إنّي أكثر الأنصار مالا فأقسمُ مالي نصفين ، ولي امرأتا فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلّقها ، فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها ، قال بارك اللّه لك في أهلك ومالك أين سوقكم ؟ فدلّوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلاّ ومعه فضل من أقط وسمن ....**)) (2)

فكان من الأنصاريّ الإيثار ومن المهاجر التّعفّف وعزّة النّفس ، لقد كان في مجتمعهم الفقير والغنيّ لكن لم تكن فيه المهانة والاستغلال ، فلم يكن الأغنياء

---

(1) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : إخاء النبيّ بين المهاجرين والأنصار رقم 3782 .

(2) ــ البخاري عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه ، كتاب : مناقب الأنصار ، باب : إخاء النبيّ بين المهاجرين والأنصار ، رقم 3780 ، ورواه عن أنس رقم 3781 .

يخافون حقد الفقراء لأنّهم أحسنوا إليهم ، ولا الفقراء يخشون شحّ الأغنياء لأنّهم عوّدوهم على السّخاء ، لكن كانوا يتنافسون على فعل الخيرات .

روى مسلم في صحيحه أنّ فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : ((**ذهب أهل الدّثور بالدّرجات العلى والنّعيم المقيم ، فقال : وما ذاك ؟ قالوا : يصلّون كما نصلّي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون ولا نتصدّق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أفلا أعلّمكم شيئا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلاّ من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه ، قال : تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دبر كلّ صلاة ثلاثا وثلاثين مرّة ، فرجع فقراء المهاجرين فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال عليه الصّلاة والسّلام ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء**)) (1) إنّ المظاهرة التّي قام بها الفقراء من أغرب ما رواه التّاريخ " لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الأغنياء وظلمهم لهم فذلك ما لم يقع في مجتمعهم ، ولم يحتشدوا للمطالبة بحقّ مأخوذ أو كرامة مسلوبة ، لكنّهم احتشدوا ليعربوا عن آلامهم في تخلّفهم عن الأغنياء في ميادين الخير ، إنّهم يريدون أن يكونوا مثلهم في الإحسان وقد ظنّوا أنّ سبيله الوحيد المال فحسب ، فوجّههم الحديث أحسن التّوجيه " (2) وبيّن لهم أنّ سبل الخيرات لا تنحصر في المال وإنّما في كلّ معروف كما نصّت على ذلك رواية أخرى (3) ليكونوا في المجتمع إيجابيّين لا سلبيين ، عاملين لا عاطلين " لقد كان إخاء أولئك الرّجال أساسا لإخاء عالمي ومقدّمة لنهضة أمّة ذات رسالة تنطلق لصياغة عالم جديد ، قائم على الإيمان والعمل المشترك " (4) كما كان ولا يزال الإخاء شرطا لدرء الفساد وجلب

---

(1) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : المساجد ومواضع الصّلاة ، باب : استحباب الذّكر بعد الصّلاة وبيان صفته ، رقم 936 .

(2) ــ مصطفى السّباعي ، التّكافل الاجتماعي في الإسلام ص 324 ــ 325 بتصرّف .

(3) ــ رواه مسلم أيضا عن أبي ذرّ الغفاري ، كتاب : الزّكاة ، باب : بيان أنّ اسم الصّدقة يقع على كلّ نوع من المعروف ، رقم 1674 .

(4) ــ أبو الحسن النّدوي : السّيرة النّبويّة ص 201 .

الصّلاح لذلك خاطب الله المؤمنين بقوله : ((وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)) [الأنفال 73] ولمّا كان هذا الإخاء مبنيا على الإيمان اتّسم بالثّبات ، قال تعالى ((وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)) [الحشر 10]

والإيمان بالشّريعة يعزّز وحدة المؤمنين ، فبأحكامها تدعو المؤمنين إلى الحبّ وتضع بينهم الآداب التي تحفظ ودّهم وتنفي عنهم أسباب القطيعة ، قال تعالى : ((إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)) [الحجرات 10 ــ 12] وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**)) (1) وقال : ((**إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد اللّه إخوانا**)) (2) " فاتّفاق المؤمنين على شريعة واحدة يورثهم وحدة متينة يتعذّر نقضها ، حيث تتّحد بها أفكارهم وتحشد جهودهم في سياق واحد ، ولمّا كانت الشّريعة خالدة فإنّ آثار الإخاء التي تحدثها تظلّ باقية عبر الأجيال ، لذلك أمرهم

(2) ــ البخاري عن أنس ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه رقم 13

(3) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الأدب ، باب : ما ينهى عن التّحاسد والتّدابر ، رقم 6064 .

الله قائلا : ((وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ)) [آل عمران 103] (1)

ثانيا : الموالاة

الموالاة من الولاية وهي النّصرة (2) وقد فرضها الله عزّ وجل على المؤمنين بقوله ((وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التّوبة 71]

ومن أبرز مظاهر الموالاة الاتّحاد ، حيث يوصل المؤمن إلى الشّعور بآلام إخوانه كإحساس الجسد بالألم الذّي يصيب بعض أعضائه ، كما صوّر ذلك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قوله ((**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى**)) (3) وقوله ((**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا**)) (4) " ففي هذا الحديث دعوة إلى الوحدة وفيه بيان الفائدة التّي تجنيها الجماعة من تماسكها ، فالصّورة التّي شُبِّهَ بها المؤمنون صورة بنيان يشدّ بعضه بعضا ، وفي الحديثين تبدو لنا الوحدة التّي دعا إليها الإسلام في صورة بناء قابل للارتقاء ، ذي أحاسيس ومشاعر مشتركة " (5)

ولمّا كانت تلك الخصال معرّضة للآفات كالخلافات والضّغائن ، حثّ الله على الاتّحاد ونبذ الخلاف حثّا مكرّرا ، من ذلك قوله تعالى : ((وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

---

(1) ــ حسن التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 117 بتصرّف .

(2) ــ الرّاغب الأصفهاني : المفردات ص 885 ، ابن منظور : لسان العرب 491/6 .

(3) ــ مسلم عن النّعمان بن بشير ، كتاب البرّ والصّلة والآداب ، باب : تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم 4685 .

(4) ــ البخاري عن أبي موسى ، كتاب الأدب ، باب : تعاون المؤمنين بعضهم بعضا رقم 6026 .

(5) ــ عبد الرّحمن حبنّكة الميداني : الأخلاق الإسلاميّة وأسسها بتصرّف 174/2 ــ 175 .

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [آل عمران 103]

وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا ، وشبّك بين أصابعه**)) (1) " وهذا الخبر مستعمل في الأمر لتقوية الرّغبة في حصول المأمور به حتّى كأنّه حصل فصار بحيث يخبر عن وقوعه ، ثمّ عضّد ذلك وأيّده بشرع التّجمّع للمسلمين في أفضل المناسبات والأحوال " (2)

ومن مظاهر الموالاة نصرة المؤمنين لإقامة الدّين في المجتمع (3) والتّجرّد عن كلّ ولاء آخر ، لأنّ صدق الإيمان يجعل ولاء الدّين فوق كلّ عصبية قال تعالى : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)) [التّوبة 23] فالمؤمن بحبّه لربّه ورجاء مرضاته لا يوالي من يكفره ، قال تعالى ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ)) [الممتحنة 13] وقال : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)) [المائدة 51] " لقد أراد الله من المؤمنين أن يتحفّظوا من ولاية أعدائهم لتبقى الحواجز النّفسيّة مانعة من الذّوبان في صفوفهم ولتبقى التّحفظات العمليّة من أدوات الحماية من مكائد خططهم الخفيّة ، إنّه يحرص على إيجاد الفواصل الفكريّة والرّوحيّة التي تساعد على تماسك الصّف ، والمنع من الوقوع

(1) ــ البخاري عن البراء بن عازب ، كتاب المظالم والغصب ، باب نصر المظلوم ، رقم 2445 .

(2) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 219 .

(3) ــ وهذا ما قام به أصحاب العقبة الأولى والثّانية ، حيث بايعوا على الالتزام بالإسلام ونصرته انظر : ابن هشام ، السّيرة النّبويّة 68/2 وما بعدها .

في الوهن فليست القضيّة متعلّقة بحقد يريد الإسلام تأجيجه في الصّدور ، وإنّما هناك وعي بمكائد الغير يريد ترسيخه في العقول ، ولذلك شدّد على الذّين يتولّونهم بقوله : ((وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ)) لأنّ ذلك يوحي باللّامبالاة في ما يفكّر به الأعداء ممّا قد يؤدّي إلى الانجذاب إلى صفّهم طمعا في تحقيق بعض المصالح الشّخصيّة ، فيصبح المسلم سلاحا بيد أعدائه ضدّ إخوانه فيظلم نفسه بالانحراف عن الحق ، ويظلم إخوانه بالسّير في خطّ أعدائهم " (1)

ومن مظاهر الموالاة التّعاون للنّهوض بحياة المجتمع إلى المستوى الذّي يؤدّي إلى رفاهيته والتّخفيف من آلامه ، ولقد تمكّن المؤمنون من تحقيق هذا الخلق بحيث أصبحوا يقومون برعاية مصالح بعضهم البعض وقضاء حاجاتهم ، حتّى أصبح سمة من سماتهم ، ويكون التّكافل ماديّا ومعنويا ، أمّا الماديّ فيتمثّل في الإيفاء بحاجات الفقراء من لوازم العيش الكريم ، وأمّا المعنوي فيكون بالمواساة والتّسرية عن المهمومين ، وجماع هذا قوله عليه الصّلاة والسّلام **((مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى))** (2) " والتّداعي بالسّهر والحمّى ليس في حقيقته العلميّة سوى تجنّد جهاز المناعة في سائر الأعضاء لنجدة العضو المصاب وكشف العطب عنه " (3) وإذا تدبّرنا في هذا الخلق وجدناه من مقتضيات الفطرة ، وبيان ذلك أنّ المواساة أو التّكافل هي كفاية المحتاج عند شعوره بالحاجة ، ومن الفطرة انفعال النّفس برقّة ورحمة عند مشاهدة الضّعف لاستشعار تألّم المحتاج ثمّ يحصل اندفاعٌ بذلك الانفعال إلى السّعي في تخليصه من تلك الحاجة ، ولا يختلف هذا الإحساس إلاّ نادرا " (4) ولقد تمكّن الإسلام أن يغرس معنى التّكافل في نفوس المؤمنين ، وقد عُرِفَ عليه الصّلاة والسّلام قبل نبوّته بأمانته

(1) ـــ محمّد حسين فضل الله : من وحي القرآن 217/8 ـــ 218 بتصرّف .

(2) ـــ سبق تخريجه ، انظر ص 211 .

(3) ـــ عبد المجيد النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 60/1 .

(4) ـــ محمّد الطّاهر بن عاشور ، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 221 بتصرّف .

وكرمه ، فقد لخّصت أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها حياته بكلمات تدلّ على تجذّر خلق التّكافل والمواساة في نفسه ، فعندما رجع إليها من غار حراء بعد لقائه الأوّل بجبريل ، قال لها : ((**لقد خشيت على نفسي ، فقالت : كلاّ واللّه لا يخزيك اللّه أبدا ، إنّك لتصل الرّحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضّيف وتعين على نوائب الحق**)) (1) وكان التّكافل من أوّل ما دعا إليه الإسلام ونزل به القرآن قال تعالى في أوائل ما نزل : ((وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)) [البلد 12 ــ 16] وقال : ((أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ)) [الماعون 01 ــ 07] " غير أنّه قبل الهجرة كان مطلوبا من المسلمين بوجه إجماليّ غير مفصّل بين وجوب واستحباب ، ولا مبيّن المقدار لقلّة عدد المسلمين بمكّة وقلّة عدد المحتاجين للمواساة ، إذ كان غالبهم في كفاية بأعمالهم وأموالهم ، وكان الضّعفاء منهم قد كفاهم إخوانهم وقرابتهم ومواليهم مؤنتَهم ، إلاّ من ندر ممّن اشتدّ عليه قومه مثل خبّاب بن الأرث (2) وبلال بن رباح (3) فواسى أبو بكر بلالا

(1) ــ البخاري عن عائشة ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، رقم 03 .

(2) ــ **خبّاب بن الأرتّ : (40 ق هــ ــ 37 هــ)**

هو الصّحابي خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد التّميمي ، من السّابقين للإسلام ، كان في الجاهليّة قينا يعمل السّيوف بمكّة ولمّا أسلم عذّبه المشركون فصبر ، شهد المشاهد كلّها ، نزل الكوفة فمات بها وهو ابن 73 سنة ، قال فيه علي : رحم الله خبّابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا . انظر : الاستيعاب 21/2 ــ 22 أسد الغابة 102/2 ــ 105 .

(3) ــ **بلال بن رباح : (ت 20 هــ)**

بلال بن رباح الحبشي أبو عبد الله مؤذّن الرّسول وخازنه على بيت ماله ومن السّابقين للإسلام شهد المشاهد كلّها ، خرج مع بعوث الشّام وتوفّي بدمشق . انظر : الاستيعاب 258/1 ــ 261 =

بشرائه وعتقه ، فكان تعيين الصّدقة موكولا إلى نوايا المسلمين " (1) ولمّا أسلم أهل المدينة وهاجر المسلمون من مكّة إليها كثر المحتاجون لا سيما أولئك الذّين تركوا أموالهم وأهليهم ، حينئذ شرّع الإسلام أنواع المساعدات بتفصيل وبينّ سبل الخيرات فتقدّم الأنصار لمواساة إخوانهم حتّى قال الله فيهم ((وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)) [الحشر 09] جاء في سبب نزول هذه الآية أنّ رجلا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ((**يا رسول اللّه أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه ، فلم يجد عندهنّ شيئا ، فقال : ألا رجل يضيّفه اللّيلة ، يرحمه اللّه فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول اللّه ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لا تدّخريه شيئا فقال : واللّه ما عندي إلاّ قوت الصّبية ، قال : فإذا أراد الصّبية العشاء فنوّميهم وتعالي فأطفئي السّراج ونطوي بطوننا اللّيلة ففعلت ، ثمّ غدا الرّجل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : لقد عجب اللّه عزّ وجل ، أو ضحك من فلان وفلانة فأنزل اللّه عزّ وجل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**)) (2)

وكانت لقبيلة أبي موسى الأشعري (3) في العمل الخيري سنّة حميدة استحقّت

= أسد الغابة 237/1 ــ 239 .

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور ، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 222 بتصرّف .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب التّفسير ، باب : ويؤثرون على أنفسهم ، رقم 4889 .

(3) ــ **أبو موسى الأشعري : (21 ق هــ ــ 44 هــ)**

هو عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسى من بني الأشعر ، ولد في زبيد باليمن ، وقدم مكّة عند ظهور الإسلام ، فأسلم وهاجر إلى الحبشة ، استعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على زبيد وعدن وولاّه عمر بن الخطّاب البصرة ، ثمّ انتقل إلى الكوفة فتوفّي بها ، كان من أحسن الصّحابة صوتا في التّلاوة . انظر : ابن عبد البرّ ، الاستيعاب 326/4 ــ 328 ابن الأثير ، أسد الغابة 3/ 62 ــ 63 .

إعجاب النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بها حيث قال : ((**إنّ الأشعريّين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثمّ اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسّويّة فهم منّي وأنا منهم**)) (1)

وقد ظهرت الأعمال الخيريّة الموجّهة لذوي الحاجات في مجالات عدّة ولفئات شتّى كالفقراء والمساكين ، والمرضى والمقعدين ، والغارمين واليتامى والأرامل والأسرى ، وأبناء السّبيل وأمثال هؤلاء . (2)

وجعل الإسلام المواساة قسمين : واجبة مفروضة واختياريّة مندوب إليها ، لأنّ النّاس صنفان : صنف يندفع إلى الإحسان من تلقاء نفسه لما به من السّخاء ومحبّة الخير ، وصنف لا يندفع إليه من تلقاء نفسه ولكن بدافع الإلزام وخوف العقوبة ، فلم يجعل الإسلام المواساة كلّها اختياريّة لئلاّ يحرم المحتاجون مواساة فريق كثير من النّاس ، ولم يجعلها واجبة لئلاّ يحرم المؤمنون فضيلة السّخاء بالوقوف عند حدّ الواجب ، فتنسى النّفوس طلب زيادة الثّواب ، ولم يحصر الإسلام هذه المواساة في فئة من النّاس فكلّهم يُعين وكلّهم يستفيد ، قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**كلّ سلامى من النّاس عليه صدقة كلّ يوم تطلع فيه الشّمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرّجل في دابّته فتحمله عليها وترفع عليها متاعه صدقة ، قال : والكلمة الطيّبة صدقة ، وكلّ خطوة تمشيها إلى الصّلاة صدقة وتميط الأذى عن الطّريق صدقة**)) (3)

فهذا الحديث يعلّم المسلم كيف يكون إيجابيّا " فالنّفس التي تتعوّد العطاء نفس إيجابيّة ، أمّا النّفس التّي تتعوّد الأخذ فهي نفس سلبيّة ، إنّه يشجّع النّاس على الإحساس بإيجابيتهم ، حتّى في الأعمال التّي تبدو صغيرة في ظاهرها ، فيزيدهم إقبالا على العمل في ميدان الخير ، وفي تسمية هذه الأعمال بالصّدقات يخرج

---

(1) ــ مسلم عن أبي موسى الأشعري ، كتاب فضائل الصّحابة ، باب : من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم ، رقم 4556 .

(2) ــ انظر : مصطفى السّباعي ، التّكافل الاجتماعي في الإسلام ص 189 وما بعدها .

(3) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب الزّكاة ، باب : بيان أنّ اسم الصّدقة يقع على كلّ نوع من المعروف ، رقم 1677 .

الصّدقة من معناها الضيّق ويخرج تقسيم المجتمع من آخذين قد ينتابهم الشّعور بالضّعف ومتصدّقين قد يصابون بالغرور ، وتوسيع نطاق الصّدقات على هذا النّحو يتيح الفرصة لكلّ مسلم أن يكون واهبا ، ويضمن أن تقوم بين النّاس روابط خيّرة لا يأكلها الظّلم أو الحقد . " (1)

ولجعل التّكافل خلقا نابعا من الإيمان جاءت الأوامر والنّواهي بتخليصه من حظوظ النّفس من كلّ ما فيه إضرار بالمحتاج ، فحرّم على المتصدّق المنّ بقوله تعالى : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ)) [البقرة 264] " فالمنّ تطاول على المحتاج وكسر لخاطره والأذى إسماعه ما يكره ، وهذا لا يصدر إلاّ عن احتقار المبذول إليه ، وذلك محرّم شرعا لأنّ غرض البذل امتثال أمر الله بالإحسان إلى عباده ، بينما بالأذى لا يحصل المقصود الشّرعي " (2)

ومن جهة أخرى حذّر من استغلال طيبة النّاس من التّعرّض للتّسول دون الحاجة لئلاّ يتواكل المسلم ويركن إلى البطالة ، ولا يرتاب المتصدّق فينقطع عن الخير لشعوره باستغلاله ممّن لا يستحقّون العون ، ففي الحديث الصّحيح قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**ما يزال الرّجل يسأل النّاس حتّى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم**)) (3) وقال أيضا : ((**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها ، فيكفّ الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل النّاس ، أعطوه أو منعوه**)) (4) وأثنى الله على الفقراء الذّين يتعفّفون ، فقال : ((لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ

(1) ــ محمّد قطب ، قبسات من الرّسول ص 114 ــ 116 بتصرّف .

(2) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور ، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 224 ــ 225 بتصرّف .

(3) ــ البخاري عن عبد الله بن عمر ، كتاب الزّكاة ، باب : من سأل النّاس تكثّرا ، رقم 1474 .

(4) ــ البخاري عن الزّبير بن العوّام ، كتاب الزّكاة ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، رقم 1471 .

أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ)) [البقرة 273]

والذّي نخلص إليه أنّ الإسلام اهتمّ بتربية خلق حبّ العطاء في نفوس المسلمين تقديرا منه لأهمّيته في تزكية النّفوس وتوثيق روابط الأخوّة بين المؤمنين " فحينما يفشو في المجتمع التّكافل تكون جهود المجتمع متنامية فيقلّ الفقراء والمساكين إلى حدّ كبير ، ويحصّنون من المصائب التّي تكون سببا في تعميق معاناتهم فتتسارع وتيرة التّقدّم في الإنجاز الحضاري ، وهذا ضرب من الرّقي والتّقدّم لأنّه يفضي إلى التخلّص من المآسي الحاصلة بسبب الفقر والحاجة ، فينطلقون لمهمّة الإنجاز والتّعمير لا تعيقهم الحواجز " (1)

لهذه الأهميّة تكرّرت الدّعوة إلى الصّدقات قبل البعثة وبعدها " ولقد أبدع القرآن في التّنويه بشأن هذه المواساة إذ جعلها في صفّ قواعد الإسلام ، وجعلها أختا للصّلاة وكان بالإمكان أن تكون في عداد النّظم الرّاجعة إلى تدبير الحكومة كالخراج والجزية لكنّها لعظم أمرها أراد الإسلام تشريفها وإقبال المسلمين على أدائها من تلقاء نفوسهم " (2) وهذه الخصال لم توجد في أهل النّفاق ، فليس لهم أصل يجتمعون عليه أو هدف شريف يصبون إليه ، إنّما المصالح الضيّقة تحكم سلوكهم ، قال تعالى في حكاية عن حالهم : ((ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ)) [التّوبة 67] لأنّ الولاية تحتاج إلى تكاليف وبذل دون انتظار لعوض من النّاس ، وطبيعة النّفاق تتنافى مع هذه المعاني .

---

(1) ــ عبد المجيد النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 47/1 بتصرّف .

(2) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : المرجع السّابق 228 .

المطلب الثّالث : أثر الإيمان في تحقيق التّقدّم العلمي

من مزايا الإسلام الكثيرة مزيّة واضحة لا يختلف المسلمون في شأنها لأنّها تثبت بتلاوة الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة ثبوتا تؤيّده أرقام الحساب ودلالات الألفاظ ، تلك المزيّة التّنويه بالعلم والدّعوة إليه ، والحثّ على طلبه وتعظيم أهله والتّرهيب من القعود عنه ، ففي القرآن الكريم كلمات تدلّ على العلم ، منها العقل الفكر النّظر البرهان العلم الحكمة ، أو ما تفرّع عنها من معاني (1) فإذا رجعنا إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم نجد كلمة علم نكرة ومعرفة ذكرت ثمانين مرّة ، وأمّا مشتقّاتها يعلم ويعلمون وعليم وعلاّم فقد ذكرت مئات المرّات (2) ومشتقّات عقل تكرّرت تسعا وأربعين مرّة ، وفكر ثماني عشرة مرّة وفقه إحدى وعشرين مرّة وكلمة حكمة عشرين مرّة ، وكلمة برهان مضافة وغير مضافة سبع مرّات ، وغيرها من الكلمات المتعلّقة بالعلم مثل انظروا يبصرون ونحوها . (3)

وفي كتب السنّة مئات الأحاديث تدعو إلى العلم ، وفي القرآن الكريم نجد الله عزّ وجل قد أقسم بإحدى إلى وسائل العلم بينا لشأنه ، فقال : ((نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)) [القلم 01] وأشاد بالعقل الذّي جعله آلة للعلم ، حيث نوّه به وعوّل عليه فلم يذكره إلاّ في مقام التّعظيم والتّنبيه ووجوب الرّجوع إليه فقال ((وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ)) [العنكبوت 43] و قال ((وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)) [الملك 10] وقال في تأثير العلم على أهله : ((إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟)) [فاطر 28] فهذه النّصوص تدلّ دلالة واضحة على أهمّية العلم في الإسلام ، ولنا أن نسأل ، كيف يكون الإيمان

---

(1) ــ انظر : عبّاس محمود العقّاد ، التّفكير فريضة إسلاميّة ص 05 ، يوسف القرضاوي : الرّسول والعلم ص 03 ــ 05 . (2) ــ فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس ص 496 وما بعدها .

(3) ــ المعجم المفهرس ص 212 وما بعدها .

خادما للعلم ؟ هذا ما سنقوم ببيانه فيما يأتي :

أهمّية العلم في الحياة

لا يحقّق الإنسان تقدّما في حياته إذا لم يكن له هدف معلوم ، يحرّكه الشّوق إلى بلوغه والطّموح إلى إدراكه ، ولا يفلح في سعيه إلاّ إذا كان إيمانه بهدفه قاطعا لا ريب فيه ، ثمّ إنّه لا يتقدّم إلاّ بقدر ما تتّضح رؤيته نحو غايته (1) فإذا اتّخذ المرء هدفا لحياته وآمن أنّ الفوز كلّه في التّوجّه نحوه ، وجب عليه معرفة معالم الطّريق التي تؤدّي إليه ، لئلاّ يضلّ سعيه .

ولا يجدي في معرفة الطّريق إلى الله مجرّد علم البشر لأنّه محدود الوسائل لا يحيط بأبعاد الواقع في الدّنيا ، ولا يعرف وجوه المصالح بيقين لتحقيق المقاصد ولأنّه مهما بلغ علمه في عالم الشّهادة فإنّه محاط بالغيب .

من أجل ذلك تعهّد الله البشريّة برسالاته ، فنزلت شريعة الإسلام لإخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور كما قال تعالى ((الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ)) [إبراهيم 01] وانطلقت هذه الشّريعة بقوله تعالى: ((ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ)) [العلق 01 ــ 05] فهذه هي بداية الإسلام ، فيها الأمر بقراءة ما يُوحَى باسم الله الذّي له الخلق والفضل في تعليم الإنسان ما لم يكن يعلم " ولا يخفى ما لهذه الدّعوة من أثر عظيم في نشأة الحضارة وتقدّمها ، فالقراءة هي السّبيل إلى المعرفة ، لكونها من الوسائل التّي تمكّن الإنسان من اكتشاف نواميس الكون وسنن الحياة ، والكتابة سرّ خلود المعرفة وهي من أهمّ وسائل التّواصل بين النّاس ، إذ بواسطتها تنشط قدرات الأفراد على الكسب الحضاري بحفظ الأفكار

(1) ــ انظر : طارق السّويدان : منهجيّة التّغيير في المنظّمات ص 43 ، أكرم رضا : إدارة الذّات ص 26 وما بعدها ، محمّد فتحي : مهارات لا بدّ منها للصّعود ص 22 .

والمعارف للأجيال ، فالقراءة والكتابة من أهمّ شروط الحضارة وأكثرها فاعليّة " (1) لذلك افتتح الله كتابه بالدّعوة إليهما حتّى تكون فاتحة هذا الكتاب هديا للإنسان إلى امتلاك أولى خطوات البناء الحضاري " والقراءة باسم الله تقتضي أن تكون أساسا للوصول إلى المعرفة الخيّرة التي تبني الحياة ولا تهدمها ، وتقترب من الله ولا تبتعد عنه ، لتكون المعرفة منسجمة مع الغاية التّي خلق من أجلها الإنسان " (2)

وإذا كان وضوح المنهج يدعو المرء للانطلاق ، فإنّ المؤمن مدعو إليه دعوة حثيثة لأنّ في الدّين بيانا لكلّ شيء ، وما من شأن يعرض له فيما يختلف فيه النّاس إلاّ للدّين فيه حكم ، فيتّضح له فيه الحقّ ، قال تعالى : ((وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)) [النّحل 89]

ولمّا كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السّنن الكونيّة فإنّهم ملزمون بمعرفة الشّريعة لتحقيق التّناسق بين حياة الإنسان ونواميس الكون " فيحصل الوفاق بين المرء وفطرته والإنسان وأخيه ، ويتحقّق الخير للمجتمع والصّلاح في الدّنيا ، فلا يؤجّلها ليوم القيامة ، بل يجعلها متحقّقة في هذه الحياة " (3)

والمؤمن يسعى للاستزادة من علم الكون واكتشاف قواه ، ليوسّع إمكاناته ويزيد فاعليّته ، ففي ذلك أداء لرسالته في الحياة وعبادة الله بأوفى وجه ، إذ كلّما تزداد قدراته في تسخير الطّبيعة تتوافر له النّعم ، ويصبح شكره أشمل وأوفى بحقّ الله مصـداقا لقولـه تعـالى : ((وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ)) [الأنبياء 80]

" لذلك ينبعث إلى العلم بمقتضى عبادته لله وتوجّهه إليه ، لأنّه يلتمس القربى إلى ربّه بمعرفة آياته الهادية ، ذلك أنّ الله لا تدركه الأبصار لكنّه يتجلّى لعباده

---

(1) ـ قاسم حبيب جابر : الإسلام بين البداوة والحضارة ص 394 بتصرّف .

(2) ـ محمّد حسين فضل الله : من وحي القرآن 334/24 ـ 335 بتصرّف .

(3) ـ سيّد قطب ، معالم في الطّريق ص 102 ـ 103 بتصرّف .

في الآيات الكونية التي يتطلّع إليها العابد بفكره ليعرف أسرار حكمته في الطّبيعة ويتجلّى كذلك في الآيات الشّرعية التي ينزّلها على عباده بالوحي والرّسالات ليقفوا على لطائف المعاني والأوامر التي قدّرها الله للإنسان على سبيل الاختيار " ولهذا الغرض عظّم الله أجر طالب العلم كما قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل اللّه له به طريقا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلاّ حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرّحمة وذكرهم اللّه فيمن عنده**)) (1)

دور الإيمان في تحقيق الانجازات العلميّة

العلم في نظر المؤمن كلّه واحد ، سواء كان علوما شرعيّة أم طبيعيّة ، عقليّة أم نقليّة ، لأنّ موضوعه معرفة الله عن طريق أفعاله وسننه ، والحياة ما هي إلاّ تفاعل بين الإنسان والطّبيعة ، والعلم الذي يثمره الإيمان نور يكشف للمؤمن الصّراط المؤدّي إلى الله ، ويرفع عنه حجب الجهل ، فلا تلتبس عليه السّبل فيغدو وقّافا عند حدود الله فيزداد إيمانه ، وهذا ما يشير إليه الله في قوله : ((وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [الحجّ 54] " فالعلم يتبعه الإيمان تبعيّة ترتيب بلا تعقيب ليعلموا فيؤمنوا ، والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشوع وهكذا يثمر العلم الإيمان الذّي يثمر الإخبات والتّواضع لله ربّ العالمين " (2)

غير أنّ العلم لا يكون نافعا إذا اقتصر على خصائص الأشياء واستغلالها للمصلحة الدّنيويّة فقط كما قال تعالى : ((وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ)) [الرّوم 06 ـــ 07] " وإنّما العلم ما بصّر صاحبه بدلالة الأشياء على

(1) ـــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : الذّكر والدّعاء ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذّكر ، رقم 6853 .

(2) ـــ يوسف القرضاوي : الرّسول والعلم ص 14 ـــ 15 .

الله حتّى تغمره فيوض الإيمان وتبعث فيه روحا توّاقة إلى الله فعّالة في سبيله تحثّه على تكثيف العبادة لله " كما قال تعالى : ((وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا)) [الفرقان 62] (1)

وقد ضرب الله لنا مثلا بسليمان عليه السّلام ، الذّي أتاه ملكا لم يؤته أحدا بعده فقد أحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مقرّه بالشّام ، قبل أن يرتدّ إليه طرفه ، هنا تجلّى الإيمان حين ردّ الفضل إلى الله وحده ، حيث تعامل مع هذا الحدث العجيب في خشوع وخضوع ، وأعلن أمّام الملأ أنّ ذلك من فضل الله ممّا يتفضّل به على عباده ، ليختبرهم هل يشكرونه بالطّاعة والاعتراف بفضله أم يكفرون ، وقد أثّر هذا الموقف الإيماني على الملكة فأعلنت إيمانها لله ربّ العالمين ، قال تعالى حكاية عن حالها : ((قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)) [النّمل 44] " لأنّه عليه السّلام ليس ملكا يريد أن يضمّ النّاس إلى سلطته من ذاته ، بل هو رسول يريد أن يجمع النّاس حول رسالته ويدلّهم على ربّ العالمين ، ممّا يجعل القلوب مفتوحة عليه والعقول منقادة إليه ، وهو ما يجعل النّاس تسير معه ولا تسير وراءه " (2)

من هذا المنطلق وجّه المسلمون نشاطاتهم إلى ميادين العلوم مستجيبين لدعوة القرآن في الحثّ على النّظر في الكون ، وكان وراء اهتمامهم بالعلوم حرصهم على تحديد المواقيت ، فباستخدام الهندسة استطاعوا تحديد القبلة ، وباستخدام الفلك استطاعوا تحديد بداية الشّهور ، وباستخدام الجبر استطاعوا معرفة علم الفرائض ، ولم يقتصروا في تطبيق العلوم التّي طوّروها على احتياجات العبادة بل استخدموها في ما ينفع كافّة النّاس في شؤون الحياة العامّة .

ففي الرّياضيات

أسهم المسلمون في إثراء المعارف الإنسانيّة ، حيث عكفوا على دراسة **علم**

---

(1) ــ حسن التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 38 ــ 39 بتصرّف .

(2) ــ محمّد حسين فضل الله ، من وحي القرآن 208/17 ــ 212 بتصرّف .

الحساب ، وتقدّموا به أشواطا لأنّهم كانوا بحاجة إليه في تنفيذ بعض الأحكام كالزّكاة والجزية والخراج والإرث وغيرها من الأحكام الماليّة ، كما كانوا بحاجة إلى معرفة المسافات والاتّجاهات لضبط الأهلّة واتّجاه القبلة ، وحساب مسافة القصر في الصّلاة ومعرفة أحسن الطّرق إلى بيت الله الحرام ، فكان ذلك دافعا لهم على بذل الجهد للإلمام بما يحتاجون إليه من العلوم الرّياضيّة التّي أوجبها التّحضّر الذّي بعد اتّساع مملكتهم ، فاتّصلوا بغيرهم من الأمم واقتبسوا ما لديهم من العلوم الرّياضيّة ، فجمعوها وترجموها ، وشرحوها وأضافوا إليها إضافات هامّة ، وظهر من بينهم نفر من ألمع الرّياضيين في مقدّمتهم : **محمّد بن موسى الخوارزمي** (1) الذّي يعتبر أوّل ريّاضي مسلم ظهر في خلافة المأمون (2) وقد تمكّن من وضع تنظيم منهجي لكلّ المعارف المتعلّقة بالتّرقيم ، كما وضع القواعد اللّازمة لاستعمال الأرقام الهنديّة التّي أصبحت تعرف باسم الأعداد العربيّة ، وباستعمال الصّفر تيسّرت الأعمال الحسابيّة وحل المعادلات الطّويلة .

إلاّ أنّ الميدان الذّي ذاعت فيه شهرته : الجبر ، فقد قدّم كتابه المشهور " **الجبر والمقابلة** " ويعدّ من أفضل الكتب في مادّته ، وقد اعتمد عليه العلماء واستلهموا

---

(1) ــ محمّد بن موسى الخوارزمي (ت بعد 232 هــ)

هو محمّد بن موسى الخوارزمي أبو عبد الله رياضي فلكي مؤرّخ من أهل خوارزم ، ينعت بالأستاذ أقامه المأمون العبّاسي قيّما على خزانة كتبه ، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانيّة وترجمتها ، وأمره باختصار المجسطي لبطليموس فاختصره وسمّاه السند هند أي الدّهر الدّاهر ، فكان هذا الكتاب أساسا لعلم الفلك بعد الإسلام ، وله كتاب الجبر والمقابلة ، ترجمة إلى اللّاتينيّة ثمّ إلى الإنكليزيّة انظر : حاجي خليفة ، كشف الظّنون 579/1 الموسوعة العربيّة الميسّرة 1058/2 .

(2) ــ المأمون العبّاسي (170 هــ / 218 هــ)

هو عبد الله بن هارون الرّشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور سابع خلفاء بني العبّاس في العراق ، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة 198 هــ فتمّم ما بدأ جدّه المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، وأتحف ملوك الرّوم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا له عددا كبيرا منها فاختار لها مهرة المترجمين ، قرّب إليه العلماء والفقهاء من كلّ فنّ ، كان فصيحا مفوّها واسع العلم ، في آخر سنة من ولايته وقعت محنة الإمام أحمد . انظر : السيّوطي ، تاريخ الخلفاء 364 وما بعدها .

نظريّاته في حلّ معادلاتهم . (1)

أمّا الهندسة فقد كانت متقدّمة عند المسلمين ، وهم الذّين استخدموها في مجالات علميّة كالمساحة وإنشاء طواحين الماء وفي أغراض أخرى .

وقد قسّموا علم الهندسة إلى قسمين : هندسة عقليّة وهي التّي تعرف بالهندسة النّظريّة ، والهندسة الحسيّة : أي التّطبيقيّة التّي تميّز بها **الحسن بن الهيثم** (2) وقد تجلّى ذلك في مؤلّفاته ، كمقالته في استخراج سمت القبلة (3) ومقالته الأخرى فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشّرعيّة من الأمور الهندسيّة ، ومقالته الثّالثة في استخراج ما بين البلديّن في البعد بجهة الأمور الهندسيّة ، كما استعمل هذا العلم في علم البصريّات ، وفي مجالات العمران والفنون والبناء . (4)

وفي علم الفلك

اتّجه المسلمون إلى دراسة علم الفلك حرصا منهم على فهم الآيات القرآنيّة التّي تدعو إلى التّأمّل في حركة النّجوم والشّمس والقمر ، فأقاموا المراصد الفلكيّة التّي انتشرت في البلاد الإسلاميّة ، وذلك ناتج عن تشجيع حكّامهم وعنايتهم بالعلوم ، وقد بنى الخليفة المأمون مرصدا كبيرا في حيّ الشّمّاسة من بغداد وآخر على قمّة جبل قاسيون بدمشق ، وهناك مرصد على جبل المقطم قرب

(1) ــ انظر : عمر فرّوخ : الحضارة الإنسانيّة وقسط العرب فيها ص 30 ــ 31 ، مفتاح محمّد دياب : مقدّمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلاميّة ص 210 ــ 214 .

(2) ــ **الحسن بن الهيثم (حوالي 354 هــ ــ 430 هــ)**

وقيل هو محمّد بن الحسن بن الهيثم أبو علي : مهندس من أهل البصرة يلقّب ببطليموس الثّاني استوطن قبّة على باب جامع الأزهر فانقطع للتّأليف والإفادة إلى أن توفّي ، وكتبه كثيرة تزيد على السّبعين ، منها : المناظر ، ترجمت إلى اللاّتينيّة ، والشّكوك على بطليموس ، وتهذيب المجسطي ومساحة الجسم المتكافئ ، قال فيه الغربيون : إنّ علم البصريّات وصل إلى أعلى ذروته من التّقدّم بفضل ابن الهيثم ، وهو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطّبيعة في القرون الوسطى . انظر : مجموعة من الباحثين : دائرة المعارف الإسلاميّة 298/1 ــ 299 .

(3) ــ السّمت : الطّريق الواضح . انظر : المعجم الوسيط 447/1 .

(4) ــ انظر : مجموعة من الباحثين : تاريخ العلوم الأساسيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة ص 469 ــ 471 أحمد مدحت إسلام : علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلميّة ص 105 ــ 108

القـاهرة وآخـر بأصـفهان ، ومرصـديّ أنطاكيـا والرقّـة بدمشـق ، ومرصـد مراغـة ومرصد أولـوغ بـك بسـمرقند وغيرهـا (1) وقـد اسـتفادوا مـن مراصـدهم المتعـدّدة حيث أثبتوا دوران الأرض حول نفسـها ، كما عرفـوا أصـول الرّسـم على سـطح الأرض ، وتمكّنوا من نقل العلوم الفلكيّة من الحضارات السّابقة وأضافوا عليها إضافات جوهريّة تدلّ على طول باعهم في هذا الميدان ، كما استطاعوا تحويل علم الفلك من الحيّز النّظري إلى الحيّز التّطبيقي وتطهيره من الخرافة . (2)

ولقد اعتمدوا على الأسطرلاب (3) وهو عبارة عن جهاز يستطيع الفلكي أن يعيّن بـه زوايـا ارتفـاع الأجـرام السّـماويّة عـن الأفـق فـي أيّ مكـان ، ويعتبر **محمّد بن إبراهيم الفزاري** (4) أوّل من ألّف كتابا وصف به صنع وطريقة استعماله ، وقد أنشأ إسطرلابا رسم عليه قبّة السّماء وقسّم عليها النّجوم إلى مجموعات مختلفة كما وضّـح عليها حركة الشّـمس والقمر والكواكـب الأخرى ، وقـد اسـتعمله في بداية الأمر لتحديد مواعيد الصّلاة واتّجاه القبلة ، ودخول شـهر رمضـان ومعرفة صلاتيّ الكسـوف والخسـوف ، و النّجوم وحركتها للتّمكّن مـن معرفـة المسـالك والطّرق في وسط الصّحراء ، ودراسة الرّياح لمعرفة أوقات نزول المطر ، ولقد أصبح علـم الفلك بفضـل علماء العرب والمسـلمين علما اسـتقرائيا يعتمـد على الملاحظة الحسيّة ، مبنيا على الأرصاد والحسابات الفلكيّة . (5)

---

(1) ــ علي حسن موسى : علم الفلك في التّراث العربي ص 235 وما بعدها بتصرّف .

(2) ــ عمر فرّوخ : الحضارة الإنسانيّة وقسط العرب فيها ص 31 ــ 32 بتصرّف .

(3) ــ الأسطرلاب جهاز استعمله المتقدّمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السّماويّة ومعرفة الوقت والجهات الأصليّة . المعجم الوسيط 17/1 .

(4) ــ **محمّد بن إبراهيم الفزاري (ت نحو 180 هـ)**

هو محمّد بن إبراهيم بن محمّد الفزاري أوّل من عمل في الإسلام أسطرلابا كان عالما بالفلك ترجم كتابا في الفلك أتى به أحد الهنود فأمره المنصور أن يؤلّف مثله تتّخذه العرب أصلا في حركـات الكواكـب ، مـن آثاره : كتـاب الفلكـي ، المقيـاس للـزّوال وغيرهـا . انظر : ابـن النّـديم الفهرست ص 395 .

(5) ــ علي بن عبد الله الدّفاع : روائع الحضارة العربيّة الإسلاميّة ص 152 ــ 153 بتصرّف .

ومن الذّين برزوا في هذا العلم : **محمّد بن جابر البتّانيّ** (1) الملقّب ببطليموس العرب والمسلمين ، لكونه من أعظم علماء العرب والمسلمين في علم الفلك والرّياضيات ، لقد تمكّن من وضع جداول فلكيّة على مستوى كبير من الأهميّة والإتقان والدقّة ، حتّى انتشرت في جميع البلدان المعنية بهذه العلوم ، وأصبحت مصدرا من أهمّ المصادر للباحثين الفلكيين ، فهو أوّل من سخّر علم المثلّثات لخدمة علم الفلك ، وأوّل من أدخل علم الجبر على حساب المثلّثات بدلا من الهندسة كما كان الحال في القديم . (2)

وقد شرح كتب بطليموس في كتاب أسماه : الشّرح المختصر لكتب بطليموس الفلكيّة الأربعة ، غير أنّه خالفه في كثير من آرائه وصحّحها ، كما اكتشف له أخطاء كثيرة في حساباته الخاصّة بالأجرام السّماويّة ، ووضع الجداول الخاصّة لحركة الشّمس والقمر والكواكب الأخرى ، وقد خدمت هذه الجداول المعرفة الإنسانيّة من بعده . (3)

ومن البارزين أيضا : **علاء الدّين علي بن إبراهيم المعروف بابن الشّاطر** (5) الذّي قام بأعمال جليلة تدلّ على ذكائه الحاد ومهارته في الفلك ، حيث ابتكر كثيرا من الآلات التّي وصفها أتمّ وصف في رسائل بقيت تُتداول لعدّة قرون ، وكانت

---

(1) ــ محمّد بن جابر البتّاني (ت نحو 317 هــ)

هو محمّد بن جابر بن سنان الحرّاني أبو عبد الله ، المعروف بالبتّاني ، فلكي مهندس ، ولد قبل سنة 244 هــ سكن الرقّة واشتغل برصد الكواكب ، من كتبه معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك ، شرح أربع مقالات لبطليموس وغيرها ، يعدّه الغربيون من كبار علماء الفلك في العالم في زمانه . انظر : الفهرست ص 403 ــ 404 .

(2) ــ سمير عرابي : علوم الفلك والرّياضيات والجغرافيا عند علماء العرب والمسلمين 19 ــ 23

(3) ــ علي بن عبد الله الدفاع : روائع الحضارة العربيّة والإسلاميّة ص 173 ــ 177 .

(4) ــ علي بن إبراهيم بن الشّاطر (704 هــ ــ 777 هــ)

هو علي بن إبراهيم بن محمّد الأنصاري عالم بالفلك والهندسة والحساب من أهل دمشق مولدا ووفاة ، كان رئيس المؤذّنين فيها ، من كتبه : أرجوزة في الكواكب ، مختصر في العمل بالإسطرلاب ، وغيرها . انظر : ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذّهب 252/6 .

مرجعا لضبط الوقت في العالم الإسلامي ، وقد تمكّن من صناعة آلة لضبط وقت الصّلاة سمّاها البسيط ووضعها في المسجد الأموي في دمشق ، ووجّه ابن شاطر اهتمامه الشّديد إلى قياس زاوية انحراف دائرة البروج ، فانتهى إلى نتيجة مفرطة في الدقّة ، وهي 23 درجة و 31 دقيقة ، علما أنّ القيمة المضبوطة التّي توصّل إليها علماء العصر باستخدام الأقمار الاصطناعيّة التّي تعمل بالأشعّة تحت الحمراء هي : 23 درجة و 31 دقيقة و 19.8 ثانية ، أي أنّ الخطأ في حسابه هو : 19.8 ثانية . (1)

وفي الطبّ

اهتمّ المسلمون بالطبّ للاستشفاء ، ولمعرفة دلائل القدرة في خلق الإنسان من ناحية أخرى ، وقد برز ثلّة من العلماء ، منهم **أبو بكر الرّازي** (2) الذّي وضع كتبا ورسائل عدّة ، أبرزها كتاب المنصوري في الطبّ من عشر مقالات ، وكتاب الحاوي ويسمّى الجامع الحاصر لصناعة الطبّ ، وقد تميّز بملاحات هامّة لم تكن معروفة من قبل ، ويتضمّن اثني عشر قسما ، وله مقالتان الأولى في الأسماء الطبيّة ، والثّانية في أوائل الطبّ ، له أيضا كتاب الجدري والحصبة الذّي اعتبره الغربيون من روائع الطبّ الإسلامي ، وله أيضا جهود قيّمة في كثير من الأمراض التّناسليّة والتّوليد وجراحة العيون ، وقد توصّل في تشخيصها ووصف أعراضها إلى نتائج هامّة تعتبر من ركائز علم الطبّ الحديث وقد وصفه ابن النّديم بأنّه أوحد دهره وفريد عصره ، حيث جمع المعرفة بعلوم القدماء وسيّما الطبّ . (3)

---

(1) ــ سمير عرابي : مرجع سابق ص 12 ــ 14 . علي الدفاع : مرجع سابق ص 236 ــ 237 .

(2) ــ **أبو بكر الرّازي (251 هـ ــ 313 هـ)**

هو محمّد بن زكريا الرّازي فيلسوف ، من الأئمّة في صناعة الطبّ ، من أهل الريّ ولد وتعلّم بها اشتغل بالكيمياء ، وعكف على الطبّ والفلسفة ، تولّى تدبير مارستان أي مستشفى الريّ ثمّ رئاسة أطبّائه ، من آثاره الحاوي في صناعة الطبّ ، الفصول في الطبّ وغيرها . انظر : دائرة المعارف الإسلاميّة 451/9 وما بعدها .

(3) ــ انظر : ابن النّديم الفرست ص 429 أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبيّة ص 138 ــ 139 .

ومن النّابغين في الطبّ أيضا : **ابن سنا** (1) الذّي ترك موسوعة في الطبّ اسماها القانون وهو أشهر كتاب في الطبّ ظهر في عصره ، وطبع إلى اللّاتينيّة والعبريّة وظلّ معتمدا في جامعات أوروبا إلى أواسط القرن السّابع عشر ، وفيه تعرّض لكثير من الأمراض الجسميّة والعصبيّة والنّفسيّة ، كما كان ماهرا في الجراحة والتّشريح وبعض عمليّات التّحليل النّفسي .

ومنهم الفيلسوف **أبو الوليد بن رشد** (2) الذّي وضع كتابا بعنوان : الكليّات في الطبّ بمساعدة زميله **ابن طفيل** (3) وتضمّن موسوعة طبيّة نقلت إلى اللّاتينيّة وظلّت تدرّس في جامعات أوروبا عدّة عصور . (4)

والتّقدّم في الطبّ أدّى إلى التّقدّم في الجراحة واستعمال الأدوية والعقاقير خاصّة في أيّام **ابن سنا** الذّي تميّز بمكانة علميّة أثارت إعجاب كثير العلماء .

---

(2) ــ **الحسين بن عبد الله بن سينا (370 هــ ــ 428 هــ)**

هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي الفيلسوف الرّئيس صاحب التّصانيف في الطبّ و المنطق والطّبيعيات والإلهيات ، أشهر كتبه : القانون في الطبّ وله الإشارات والتّنبيهات ، أسرار الصّلاة والدّستور الطبيّ وغيرها . انظر : جورج طرابيشي ، معجم الفلاسفة ص 23 ــ 27 . روني إيلي ألفا : موسوعة أعلام الفلسفة 29 ــ 32 .

(3) ــ **أبو الوليد بن رشد (520 هــ ــ 595 هــ)**

هو محمّد بن أحمد بن محمّد بن رشد ، أبو الوليد فقيه مالكي ، فيلسوف طبيب من أهل الأندلس عني بفلسفة أرسطو وترجمها ، وزاد عليها ، مات بمرّاكش ودفن بقرطبة ، من مصنّفاته : تهافت التّهافت في الفلسفة ، الكليّات في الطّب ، مناهج الأدلّة في عقائد الملّة . انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 307/21 ــ 309 ابن فرحون : الدّيباج المذهّب 378 ــ 379 .

(4) ــ **محمّد بن عبد الملك بن الطّفيل (494 هــ ــ 581 هــ)**

هو محمّد بن عبد الملك بن محمّد الأندلسي أبو بكر فيلسوف تعلّم الطبّ في غرناطة وخدم حاكمها إلى أن توفّي حيث أصبح كاتب سرّه ، ثمّ كاتب سرّ حاكم سبتة وطنجة ليصبح طبيبه ، و هو صاحب القصّة الفلسفيّة حيّ بن يقضان . وكانت لابن طفيل مع ابن رشد مراجعات في مسائل الطبّ و الفلسفة . انظر : معجم الفلاسفة ص 27 ــ 28 موسوعة أعلام الفلسفة 33 ــ 34 .

(5) ــ انظر : أحمد مدحت إسلام : علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلميّة ص 141 ــ 143 أنخِلْ جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص 469 ــ 471 .

إلاّ أنّ **ابن طفيل** يعدّ أوّل من قدّم وصفا وافيا للتّشريح على لسان حيّ بن يقضان الذّي أكثر من التّجارب فيه ، حتّى قال عن حي فتتبّع ذلك كلّه بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات . (1) ومن الذّين نبغوا في الجراحة **أبو القاسم الزّهراوي** (2) الذّي وضع كتاب التّصريف لمن عجز عن التّأليف ، وقد تضمّن بحوثا في الطبّ الدّاخلي والكيمياء والجراحة ، وبقي هذا الكتاب هو الكتاب المعتمد عند جرّاحي أوروبا ودليلهم والمقرّر في جامعاتهم حتّى نهاية القرن السّابع عشر . (3) كما اهتمّ **ابن النّفيس** (4) بدراسة الأوردة والشّرايين وكيفيّة تنقية الدّم لدى مروره بالرّئتين مكتشفا بذلك الدّورة الدّمويّة الصّغرى ، وله مؤلّفات عدّة أبرزها : الموجز وهو ملحق لقانون ابن سنا ، وله أيضا شرح تشريح القانون . (5) وقد أدّى تقدّم الجراحة عند العرب إلى استعمال المخدّر والأفيون واستخدام الخيوط الجلديّة في خياطة الجروح ، كما كان هذا سببا هامّا في نشوء المستشفيات المزوّدة بخزائن الأدوية ، والمستوصفات النّقالة على الجمال لمعالجة مرضى

---

(1) ــ انظر : ابن طفيل ، حي بن يقضان ص 135 وما بعدها ص 116 سمير عرابي : علم الأدوية والصّيدلة عند علماء العرب والمسلمين ص 53 ــ 57 .

(2) ــ **أبو القاسم الزّهراوي (ت 428 هـ)**

هو خلف بن عبّاس الزّهراوي الأندلسي ، طبيب من العلماء ، يعدّه الغربيون أشهر من ألّف في الجراحة ، وأوّل من استعمل ربط الشّرايين لمنع النّزيف ، من آثاره : تفسير الأكيال والأوزان . انظر : إسماعيل باشا ، هديّة العارفين 438/1 ، الموسوعة العربيّة الميسّرة 1269/2 .

(3) ــ انظر : سمير عرابي ، علم الطبّ والجراحة عند العرب والمسلمين ص 44 وما بعدها . أنخِلْ جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص 465 ــ 466 .

(4) ــ **علي بن أبي الحزم ابن النّفيس (ت 687 هـ)**

هو علي بن أبي الحزم علاء الدّين الملقب بابن النّفيس ، أعلم أهل عصره بالطبّ قال عنه ابن العماد : شيخ الطّب بالدّيار المصريّة ، مولده في دمشق ووفاته بمصر ، من آثاره : الموجز في الطّب اختصر به قانون ابن سينا ، فاضل بن ناطق على نمط حيّ بن يقظان لابن طفيل ، شرح الهداية لابن سينا في المنطق وغيرها . انظر : شذرات الذّهب 401/5 ــ 402 .

(5) ــ انظر : علي بن عبد الله الدّفاع ، روّاد علم الطبّ في الحضارة الإسلاميّة ص 119 ــ 454 . أحمد مدحت إسلام : علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلميّة ص 156 ــ 159 .

السّجون والمجاهدين في ساحات المعارك ، والأماكن الموبوءة وقد شيّدت كثير من المستشفيات في العصر العبّاسي ، كما في بغداد ودمشق والقاهرة ، وغيرها من الحواضر ، وكانت مهمّتها معالجة كافّة النّاس على اختلاف أمراضهم . (1)

وللمسلمين في الصّيدلة وصناعة الأدوية جهد لا يستهان به ، فقد صنعوا الأدوية من الحشائش والنّباتات ، وأشهر من كتب في علم النّبات والعقاقير : **ابن البيطار الأندلسي**(2) الذّي كان من أكبر علماء النّبات في العصور الوسطى ، ويعتبر كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية من أنفس الكتب النّباتية الذّي كان له الأثر في تقدّم هذا العلم ، وقد اشتمل على 1400 مادّة منها 300 لم يسبقه إليها غيره من العاملين في هذا الميدان ، ويلي هذا الكتاب في الأهميّة كتابه الآخر : المغني في الأدوية المفردة ، تناول فيه كلّ عضو على حدة تعميما للفائدة من سائر الأدوية التّي ذكرها ، ويعتبر العرب من أوائل الذّين أنشأوا الحوانيت لصنع الأدوية وبيعها وأوّل من أهتمّ بالرّقابة على الصّيدليات وفرض التّخصّص فيها . (3)

وفي الكيمياء

وما كان للمسلمين أن يتقدّموا في صناعة الطبّ لو لم يتقدّموا **في صناعة الكيمياء** وقد كانت في مقدّمة العلوم التّي بدأوا فيها نهضتهم ، ومن أوائل المشتغلين فيها **خالد بن يزيد بن معاوية** (4) حيث استقدم جماعة من مصر

(1) ــ انظر : قاسم حبيب جابر ، الإسلام بين البداوة والحضارة 416 .

(2) ــ **عبد الله بن أحمد بن البيطار (ت 646 هــ)**

هو عبد الله بن أحمد المالقي أبو محمّد ضياء الدّين المعروف بابن البيطار إمام النّباتين وعلماء الأعشاب ولد في مالقة وتعلّم الطبّ ، رحل إلى بلاد الإغريق والرّوم باحثا عن الأعشاب والعارفين بها ، حتّى كان الحجّة في معرفة أنواع النّباتات وصفاتها وأسمائها ، وأماكن تواجدها عيّن رئيس العشّابين في مصر ، من آثاره الأدوية المفردة ، والمغني في الأدوية المفردة ، وميزان الطّبيب . انظر : المقرّي ، نفح الطّيب 691/2 ــ 692 .

(3) ــ انظر : زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص 329 وما بعدها ، سمير عرابي علم النّبات والحيوان عند علماء العرب والمسلمين ص 37 ــ 38 .

(4) ــ **خالد بن يزيد (ت 90 هــ)**

هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الأموي القرشي ، حكيم قريش وعالمها في عصره =

وأمرهم بنقل كتب الصّنعة ، وكانت تقوم في بداية الأمر على محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة كتحويل النّحاس إلى ذهب ، ووضعوا في ذلك مصنّفات ، وقد انتقلت الكثير منها إلى الأوروبيين . (1)

ولقد اعتمد المسلمون على التّجربة والملاحظة في تعليل مظاهر الكون وما تتضمّنه من تفاعلات كيميائيّة ، فتمكّنوا من اكتشاف أساليب متطوّرة في التّبخّر والتّقطير وصهر المعادن وغيرها من العمليّات ، كما كشفوا عن كثير من الحوامض كحامض النّيتريك والكحول ، وكربونات البوتاسيوم والصّوديوم وماء الذّهب ، وغيرها من الحوامض التّي قامت عليها الصّناعات الحديثة ، كالورق والصّابون ، والأصبغة والسّماد ، والزّجاج والعقاقير ، والعطور وغيرها ، ولا يخفى ما لهذه المكتشفات من أثر بالغ في تقدّم الحضارة . (2)

وأوّل من لمع في هذا العلم من الكيميائيين المسلمين : **جابر بن حيّان** (3) الملقّب بأبي الكيمياء ، فهو الذّي أنزلها إلى عالم الاختبار والتّجربة ، وترك في ذلك كثيرا من المصنّفات ، ولقد كان أحد روّاد النّهضة الذّين مهّدوا السّبل لفهم الطّبيعة واكتشاف أسرار الكون ، حتّى قيل فيه : لجابر بن حيّان في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق ، و إليه يعود الفضل في حمل مجموعة من المجتهدين على

= اشتغل بالكيمياء والطبّ ، والنّجوم فأتقنها وألّف فيها رسائل كان موصوفا بالعلم والدّين والعقل وله همّة في العلم ، وكان خطيبا شاعرا فصيحا ، هو أوّل من ترجم بعض العلوم إلى اللّغة العربيّة انظر : الذّهبي ، سير أعلام النّبلاء 382/4 ــ 383 ، ابن النّديم : الفهرست 511 .

(1) ــ سمير عرابي : علم الكيمياء والطّبيعيات عند علماء العرب والمسلمين ص 17 ــ 19 مفتاح محمّد دياب : مقدّمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلاميّة ص 237 ــ 240 بتصرّف .

(2) ــ قاسم حبيب جابر ، الإسلام بين البداوة والحضارة 419 بتصرّف .

(3) ــ **جابر بن حيّان (ت 200 هــ)**

هو جابر بن حيّان بن عبد الله الكوفي أبو موسى ، فيلسوف كيميائي ، كان يعرف بالصّوفي من أهل الكوفة ، أصله من خرسان ، اشتغل بالكيمياء وبرع فيها حتّى قال فيه بعض علماء الغرب لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق ، وهو أوّل من اكتشف الصّودا الكاوية ، وأوّل من استحضر ماء الذّهب ، تحتوي كتبه على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في ، من آثاره أسرار الكيمياء ، وعلم الهيئة وغيرها . انظر : ابن النّديم ، الفهرست 512 ــ 514 .

متابعة البحوث عدّة قرون ، فمهّدوا بذلك لعصر العلم الحديث . (1) وقد ترك في الكيمياء سبعين رسالة عدا الجوانب الأخرى في الفلسفة والطبّ والفلك والرّياضيات ، لكن لم يبق منها إلاّ آثاره في الكيمياء . (2)

ومن النّابغين في هذا الميدان : **أبو بكر محمّد بن زكريّا الرّازي** ، وتتجلّى عبقريّته في تقسيم المواد الكيماويّة المعروفة في عصره إلى أربعة أقسام أساسيّة ، وهي : معدنيّة ، ونباتيّة ، وحيوانيّة ، ومشتقّة ، ثمّ تقسيم المعادن لكثرتها واختلاف خواصها إلى ستّ طوائف ، وهذا يدلّ على إلمامه التّام بهذه المواد ، كما أنّه هو أوّل من طبّق الكيمياء على الطبّ ونسب الشّفاء إلى تفاعل كيميائي في جسم المريض ، وقام باستحضار كثير من الحوامض بطرق لا تزال متّبعة حتّى اليوم وقد تتلمذ على كتبه كثير من علماء أوروبا ، وظلّت مراجع يعتمد عليها في جامعاتهم حتّى منتصف القرن الرّابع عشر الميلادي لما تضمّنته من إضافات جليلة ساهمت في دفع العلوم الطبيّة والكيميائيّة إلى الأمام . (3)

وإلى جانب تلك العلوم كان للمسلمين إسهامات عظيمة في مختلف حقول المعرفة كالتّاريخ ، والجغرافيا ، والاقتصاد ، والقانون ، والسّياسة ، والتّربية ومناهج البحث ، والنّظم الإداريّة ، والآداب والفنون التّي أثّرت في مجرى الحضارات السّائدة اليوم .

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الحضارة التّي دعا إليها الإسلام وكان سببا في بروزها تمثّلت في انجازات علميّة متطوّرة ، اضطلع بها أبناؤها من المسلمين ومن عاش في كنفهم من أهل الدّيانات الأخرى ، حيث حوّلوا الدّعوات المتكرّرة التي جاء بها القرآن الكريم من بذل للجهد وامتلاك لناصية العلم والتّخلّق بمكارم الأخلاق

---

(1) ــ أحمد مدحت : علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلميّة في بناء الحضارة ص 33 وما بعدها . مجموعة من الباحثين : تاريخ العلوم الأساسيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة 79 ــ 81 .

(2) ــ ابن النّديم : الفهرست ص 514 ــ 517 .

(3) ــ أحمد مدحت : المرجع نفسه ص 73 وما بعدها ، مجموعة من الباحثين : المرجع نفسه ص 710 ــ 713 .

ومحاسن الآداب إلى مشاريع عمل للبناء والتّعمير ، في ظلّ حريّة الاطّلاع على مختلف الثّقافات والاستفادة منها وتوجيهها لخدمة الإسلام .

ولأجل الإنجاز الحضاري لم يضع الدّين قيودا على العقل مثلما فعلت الكنيسة مع أتباعها ، فقامت حركة التّرجمة والتّأليف لاستيعاب التّراث القديم وتنقيحه وإضافة ما توصّلوا إليه ممّا لم يُسبقوا إليه ، ولقد استطاعوا أن يحقّقوا أهدافهم بإحكام فكانوا فعلا نورا ورحمة للعالمين ، وقد شهد التّاريخ لهذه الحقائق التّي صدع بها بعض المنصفين المستشرقين ، أمثال الألمانيّة زيغريد هونكة التّي قالت عن المسلمين تحت عنوان ، كتب تصنع التّاريخ : " كتبهم التّي كتبت في البداية للأطبّاء الجدد من بغداد وقرطبة قد صنعت التّاريخ وعاشت على الزّمن وأمدّت أجيالا من الأطبّاء الأوروبيين بالمعارف المبتكرة بشكل لم يكن يحلم به أكبر مؤلّفيها طموحا وأكثرهم إلى العلا تطلّعا " (1)

وقالت مبيّنة سبب تفوّق المسلمين " كان محمّد صلّى الله عليه وسلّم يرى أنّ المعرفة طريق الإيمان ، ويلفت أنظار المسلمين إلى علوم كلّ الشّعوب فالعلم يخدم الدّين ، وعلى النّقيض تماما يتساءل بولس ألم يصف الربّ المعرفة الدّنيويّة بالغباوة ؟ " (2)

وبهذا يتبيّن لنا أنّ الإيمان بالله كان دافعا قويا في دفع المسلمين إلى الإقدام على العلم بهمّة ونشاط ، باعتباره عبادة يثاب عليها المرء ثوابا يبقى ساريا حتّى بعد موته ، وقد أفضى ذلك النّشاط إلى التّفوّق والإبداع في كثير من حقول المعرفة عاد بالنّفع للنّاس جميعا .

وهكذا يتبيّن لنا مرّة أخرى أنّ الإيمان بالله أثّر تأثيرا إيجابيّا في إحداث الرّقي الحضاري للعرب والمسلمين عموما الذّي لم يكن ليحصل لهم ، لولا صدق امتثالهم لأوامر الله القاضية بتتبّع كل علم نافع وعمل صالح ، بهمّة عالية وإرادة قويّة ، وصبر على تحمّل المشاق .

---

(1) ـ زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب 283 بتصرّف

(2) ـ المرجع نفسه 396 .

المبحث الثّاني : الإيمان وأثره في الأوضاع السّياسيّة

نشأة الحياة السيّاسيّة تتمّ بقيام جماعة توحّدها أواصر الموالاة ، تقوم عليها سلطة مركزية ترعى شؤونها وترتّب علاقاتها العامّة ، وقد تتوافر هذه الشّروط من خلال التّجارب التّاريخية المشتركة التي تخوضها الجماعة حتّى ترسو فيها وشائج الولاء وتستقرّ أعراف الحكم ، ولكن نماء العاطفة الموحّدة واستتباب النّظام يكلّف كثيرا من الإرهاق في مرحلة البناء ، إذ تكون الجماعات التي اشتركت في تكوين الأمّة لا تزال مدفوعة في تصرّفاتها بروح العصبية ، ومقيمة على حال من الحريّة المطلقة التي تستعصي على الانضباط فتطرأ عليها نزعات التّجزئة التي تهدّد وحدتها .

وهنا نتساءل ، هل يمكن تحقيق الوحدة في المجتمع والاستقرار السّياسي عن طريق الإيمان ؟ هذا ما نتناوله في المطالب الآتيّة .

المطلب الأوّل : أثر الإيمان في توحيد الأمّة

الإيمان يبني الأمّة بأيسر وأثبت ما يكون لأنّه اختيار حر ، فإذا اختارته جماعة ما أصبحوا أمّة واحدة تظلّهم جامعة الدّين ، ثمّ تقوى جامعتهم بفعل عوامل الوحدة التي تنشأ على التّراخي في تطوّر الأمم ، كاختلاط الدّم وانتشار اللّغة الواحدة ، ونشوء المصلحة والتّاريخ المشترك .

ويزيد من وحدة المؤمنين أنّهم بعد العقيدة يعتصمون بشريعة واحدة في الحياة تحكمهم في مواطن النّزاع ، فإذا ثارت بينهم دواعي الخلاف رجعوا إلى مرجع يحتكمون إليه ، فلا تحصل بينهم الفرقة البائنة ، وهذا ما حصل للصّحابة الكرام في سقيفة بني ساعدة (1) أثناء نزاعهم حول الذّي يخلف

(1)ــ سقيفة بني ساعدة : ظلّة تقع على بعد 206 متر غربي ساحة المسجد النّبوي بالمدينة كان الصّحابة يجلسون تحتها لمناقشة قضاياهم ، وساعدة بن كعب بن الخزرج جدّ جاهلي وإلى بنيه تنسب السّقيفة ، وهي حيّ من الأنصار يقع شمال المسجد النّبوي ، من ذرّيته =

النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاته ، ولقد انحسم خلافهم عندما حكّمت سنّته ، فقد قال أبو بكر حينها للأنصار : لقد علمتم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لو سلك النّاس واديا وسلكت الأنصار واديا لسلكت وادي الأنصار ، ولقد علمت يا سعد (1) أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال وأنت قاعد : قريش ولاّة هذا الأمر ، حتى قال سعد : صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء . (2)

لقد فصّلت الشّريعة تنظيم علاقات الأمّة ودعّمت رابطتها بإحكام الموالاة بين المؤمنين وبالدّعوة إلى الإخلاص والطّاعة ، ثمّ أقامت دستورا للأمّة ونظّمت الحياة السّياسية بوجه يضمن تجاوب كافّة الأفراد في الشّؤون العامّة لتحقيق الوحدة والتّكامل بينهم " ولقد أدّت العقبة الثّانية وما تلاها من الهجرة إلى المدينة إلى ظهور الممارسة السّياسيّة في الإسلام ، وتوافر بعدهما عنصران رئيسيان في نشأة المجتمعات ، الأوّل الإقليم حيث أصبح للمسلمين أرض يأمنون فيها ويسيطرون على بعض مواردها الاقتصاديّة ، فمنحهم ذلك نوعا من الشّعور بالتّضامن في تحقيق الخير العام ، والثّاني : الضّمير الجمعي الذّي يعني الالتقاء الوجداني والفكري على غاية مشتركة ، أدخل المجتمع مرحلة التّأسيس والوجود التّميّز " (3) وبقي العنصر الثّالث الذّي يفضي إلى تحقيق مجتمع محكوم بسلطة سياسيّة ، وقد تمّ ذلك إثر هجرة النّبيّ الذّي

= الصّحابيّ الجليل سعد بن عبادة . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان 228/3 ــ 229 .

(1) ــ **سعد بن عبادة (ت 17 هـ)**

هو الصّحابيّ أبو قيس سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري سيّد الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهليّة و الإسلام ، كان معروفا بالجود والكرم ، وكان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم رايتان ، عليّ حامل راية المهاجرين ، و سعد حامل راية الأنصار . انظر : ابن سعد ، الطّبقات الكبرى 613/3 ابن عبد البر : الاستيعاب 161/2 ــ 164 .

(2) ــ انظر : ابن جرير الطّبري : تاريخ الأمم والملوك 234/2 .

(3) ــ محمّد سليم العوّا ، في النّظام السّياسي للدّولة الإسلاميّة ص 49 بتصرّف .

وضع دستورا (1) لتنظيم الحياة السّياسيّة في المدينة فكتب كتابا بين المسلمين ووادع اليهود وأقرّهم على دينهم وشرط لهم واشترط عليهم ، تحقيقا لأمن المجتمع ووحدته ، وسنكتفي بذكر البنود التّي تندرج ضمن مقاصد بحثنا .

1 ـ هذا كتاب من محمّد النّبي رسول الله وبين المؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنّهم أمّة واحدة من دون النّاس .

2 ـ المسلمون على اختلاف قبائلهم يتعاقلون (2) بينهم ويفْدون عانيهم (3) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

3 ـ إنّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا (4) بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل .

4 ـ إنّ المؤمنين المتّقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (5) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأنّ أيديهم عليه جميعا ولو ولد أحدهم .

5 ـ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، والمؤمنون بعضهم موالي بعض .

6 ـ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، إلاّ من ظلم وأثم ... وأنّ ليهود القبائل الأخرى ما ليهود بني عوف .

7 ـ وأنّه من تبعنا من يهود فإنّ له النّصرة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

8 ـ وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النّصر على من حارب أهل هذه الصّحيفة ، وبينهم النّصح والبرّ دون الإثم . (6)

---

(1) ـ الدّستور لغة : كلمة معرّبة ، تعني القاعدة يعمل بمقتضاها ، والدّفتر تكتب فيه أسماء الجند ومرتّباتهم ، أمّا اصطلاحا فهو مجموعة القواعد الأساسيّة التّي تبيّن شكل الدّولة ونظام الحكم فيها ، ومدى سلطتها إزاء الأفراد . المعجم الوسيط 283/1 .

(2) ـ التّعاقل هو إعطاء المعاقل وهي الديّات ، أي يدفعون الديّات . المعجم الوسيط 617/2

(3) ـ عانيهم : من العاني وهو الأسير . المعجم الوسيط 633/2 .

(4) ـ مُفْرَحًا ، أي من أثقله الدّين ولا يجد قضاءه . المعجم الوسيط 679/2 .

(5) ـ دسيعة من الدّسع وهو الدّفع ، أي طلب دفعا على سبيل الظّلم . لسان العرب 384/2 .

(6) ـ انظر سيرة ابن هشام 2 ـ 129/126 ابن سيّد النّاس : عيون الأثر 260/1 ـ 262 محمّد حميد الله : مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة ص 59 وما بعدها =

لقد نصّت هذه الوثيقة على اعتبار الإسلام أساسا للمواطنة (1) في الدّولة وأحلّت الرّابطة الدّينيّة محلّ الرّابطة القبليّة ، فعبّرت عن المؤمنين بأنّهم أمّة من دون النّاس دون نظر إلى أصولهم القبليّة أو النّسبيّة " وهذه ظاهرة جديدة على المجتمع العربي فلم يجتمعوا من قبل إلاّ على صلات القرابة والنّسب وهذه المواطنة مقتصرة على المؤمنين المقيمين بالمدينة وممّن هاجر إليها فلا تشمل غير المهاجرين "(2) لقوله تعالى : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [الأنفال 72]

ولقد دلّنا البند الأوّل على أنّ جميع الفوارق والمميّزات تضمحلّ ضمن نطاق هذه الوحدة ، أمّا البند الثّاني والثّالث : فقد دلّ أنّ الإسلام يحرص أيضا على توحيد أفراد المجتمع أيضا عن طريق التّكافل " فالمسلمون كما نصّت الوثيقة مسؤولون عن بعضهم في شؤونهم الحياتيّة ، وقد حدّدت أحكام الشّريعة الطّرق التّنفيذيّة لمبدأ التّضامن فيما بينهم " (3) ولم تحصر الوثيقة المواطنة

= بعدها ، أكرم ضياء العمري : السّيرة النّبويّة الصّحيحة 282/1 ــ 286 . ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب دون إسناد ، وذكره ابن خثيمة فأسنده كما أشار إلى ذلك ابن سيّد النّاس عيون الأثر 262/1 وأخذه كلّ من محمّد حميد الله و أكرم ضياء العمري من مصادر عدّة ، وقد درسا مختلف الرّوايات التّي وردت بها هذه الوثيقة ، وحقّقا نصوصها وحكما بصحّتها في مجموعة الوثائق السّياسيّة ص 59 وما بعدها ، السّيرة النّبويّة الصّحيحة 272/1 ــ 281 .

(1) ــ المواطنة من الوطن وهو : مكان إقامة الإنسان ومقرّه ، وإليه انتماؤه ، ولد به أم لم يولد المعجم الوسيط 1042/2 .

(2) ــ محمّد سليم العوّا : في النّظام السّياسي للدّولة الإسلاميّة ص 55 .

(3) ــ البوطي : فقه السّيرة النّبويّة ص 153 .

في المسلمين بل نصّت على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدّولة ، وحدّدت مالهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، كما جاء في البند السّادس الذّي ينصّ على أنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلاّ من ظلم وأثم ، ولا يقف الأمر عند يهود بني عوف وحدهم " إنّما تمضي النّصوص تقرّر لباقي قبائل اليهود ما ليهود بني عوف وهكذا يتبيّن أنّ التّنظيم السّياسي للدّولة الإسلاميّة أعطى لهؤلاء اليهود حقّ المواطنة ، وضمن لهم حقوقا كما للمسلمين حقوق " (1) وهكذا جمع الإسلام في هذه الدّولة قبائل العرب تحت لوائه وألّف بين قلوبهم وقضى على العصبيّة التّي كانوا عليها في الجاهليّة ، حيث زالت الأحقاد القديمة فخضعوا جميعا لحكم النّبيّ بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرّقين .

وإذا نظرنا إلى ثبات معاني الدّين وخلود أحكامه ، فإنّ المجتمع إذا تمكّن من التّحلّي بالإيمان أسلم من غيره ممّا يطرأ عليهم من تقلّب الأهواء التّي تفرّق النّاس وتشتّت ولاءهم ، وهذا ما أشار الله إليه في قوله : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ)) [الحجرات 13] " فالتّعارف رجوع الكثرة من إلى وحدة متعاونة لطاعة الله وتلك هي التّقوى التّي ذُيِّلَتْ بها الآية ، وإنّما عبّر عن التّعاون بالتّعارف لأنّ هذا أصل لذلك وهو شرط من شروطه " (2) فهذا التّشعّب يدعو إلى التّعارف والتّعاون لا إلى التّنافر والتّخاصم " لأنّ الاتّحاد هو المبدأ الأوّل الذّي كانت عليه الشّعوب والأمم ، أمّا الاختلاف فهو عارض حصل من الكثرة والتّفرّق حصولا ضروريا وهو سنّة كونيّة " (3)

(1) ــ محمّد سليم العوّا : في النّظام السّياسي للدّولة الإسلاميّة ص 56 بتصرّف .

(2) ــ عبد المجيد النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 59/1 بتصرّف .

(3) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 179 بتصرّف .

قال تعالى : ((كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ)) [البقرة 213] وأكّد النّبيّ هذا المعنى في قوله : ((**يا أيّها النّاس ألا إنّ ربّكم واحد ، وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتّقوى**)) (1)

وهذا يدلّ على حرصه على وحدة الأمّة لإنماء الرّوح الجماعيّة المبنية على الإيمان ، لذلك أمر بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة في نصوص عدّة منها قوله : ((**عليكم بالجماعة وإيّاكم والفرقة فإنّ الشّيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، ومن أراد بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة**)) (2) وقوله : ((**إنّ اللّه يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرّقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السّؤال وإضاعة المال**)) (3) إذن بالإيمان تتحقق الوحدة بأسرع ما يكون وأثبت لأنّها منضبطة بأوامر الله ورسوله كما يعطيها صفة القوّة والصّلاح والهيبة في أعين الأعداء ، وهذا ما أشار الله إليه في قوله : ((وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ

(1) ــ أحمد عن أبي نضرة عن رجل من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، رقم 23489 وإسناده صحيح .

(2) ــ التّرمذي عن ابن عمر ، أبواب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة رقم 2165 قال التّرمذي هذا حديث حسن صحيح غريب ، وقد روي من غير وجه عن عمر بإسناد حسن .

(3) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب الأقضية ، باب النّهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ... رقم 4481 ، وأحمد بلفظ إنّ الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السّؤال وإضاعة المال ، رقم 8799 وهو صحيح .

فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ)) [الأنفال 46]

المطلب الثّاني : أثر الإيمان في تحقيق العدل

مقام الحكم في الإسلام كمقام النبوّة في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا كما قال الماوردي (1) بصدد تعريفه للحكم " الإمامة موضوعة لخلافة النبوّة في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا " (2) وإلى هذا ذهب ابن خلدون حيث قال عنها " فهي خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا " (3) وعليه فإنّ الحكم في الإسلام أمر مقدّس ، ويجب على من يتولّاه أن يكون عادلا لقوله تعالى : ((إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ)) النّحل 90]

" فقد أكّد هذا الأمر بحرف إنَّ ، وافتتحه باسم الجلالة الذي يلقي الحرمة على هذا الخبر التّشريعي ويقوّي دواعي الأمّة لتلقّيه والعمل به ، و أخبر عن الاسم بالجملة الفعليّة المفيدة تجدّد الأمر وتكرّره " (4) وجعل العدل من مهامّ النبيّ بنصّ القرآن الكريم ، قال تعالى : ((وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ)) [الشّورى 15] وأمر المؤمنين بإقامة العدل أمرا جازما في كتابه العزيز ، فقال : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ

---

(1) ــ **علي بن محمّد الماوردي (364 هــ ــ 450 هــ)**

علي بن محمّد بن حبيب أبو الحسن الماوردي ، كان من كبار الشّافعيّة وأقضى قضاة عصره ومن أصحاب التّصانيف النّافعة ، ولد في البصرة ثمّ انتقل إلى بغداد ، من آثاره : أدب الدّنيا والدّين ، تفسير القرآن ، أعلام النبوّة ، وغيرها . انظر : ابن خلّكان ، وفيات الأعيان 282/3 .

(2) ــ الأحكام السّلطانيّة ص 13 .

(3) ــ ابن خلدون : المقدّمة 1 / 200 ــ 201 .

(4) ــ الطّاهر بن عاشور : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 292 ــ 293 بتصرّف .

أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ)) [المائدة 08] وقال ((إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ)) [النّساء 58] " فهذه الآية تلزم من يتولّى حكما أن يكون عادلا ، وتفرض عليه تأدية الأمانات إلى أهلها ، ومنها أمانة ولاية أمور المسلمين التّي يجب أن تمنح للأكفاء القادرين على حسن إدارتها " (1) وقد أشار النّبي عليه الصّلاة والسّلام إلى هذا المعنى عندما سئل عن السّاعة بقوله **((إذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة ، قال السّائل كيف إضاعتها قال إذا وسّد الأمر لغير أهله فانتظر السّاعة))** (2) " والسرّ في تسمية الولاية على النّاس أمانة أنّ الولاية تحتاج إلى الأمانة ، فإذا كانت الوديعة تسمّى أمانة وإذا كانت الشّركة تحتاج إلى أمانة ، فكيف بمن توضع تحت سلطته أموال النّاس وأرواحهم " (3) لذلك كان ثواب الإمام العادل عظيما حيث جعله النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أوّل الذّين يُظِلّهم الله في ظلّه ، فقال **((سبعة يُظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه الإمام العادل ، وشابّ نشأ بعبادة اللّه ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، ورجلان تحابّا في اللّه اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنّي أخاف اللّه ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه))** (4)

وإذا كان العدل مطلوبا لذاته استجابة لأمر الله ولصلاح أمر الدّولة والمجتمع فإنّه يطلب أيضا تجنّبا لنقيضه الذّي يؤذن بخراب العمران كما قال ابن خلدون : " ولا تحسبنّ الظّلم إنّما هو أخذ المال من يد مالكه من

(1) ــ عبد الرّحمن حبنّكة الميداني : الأخلاق الإسلاميّة وأسسها ص 637/1 بتصرّف .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب : العلم ، باب : من سئل علم وهو مشتغل في حديثه فأتمّ الحديث ثمّ أجاب السّائل ، رقم 59 .

(3) ــ حبنّكة الميداني : الأخلاق الإسلاميّة ص 638/1 .

(4) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : الزّكاة ، باب : فضل إخفاء الصّدقة ، رقم 1712 .

غير عوض ولا سبب كما هو المشهور ، بل الظّلم أعمّ من ذلك ، وكلّ من أخذ ملك أحد أو طالبه بغير الحقّ أو فرض عليه ما لم يفرضه الشّرع فقد ظلمه ، والمانعون لحقوق النّاس ظلمة ، ووبال ذلك عائد على الدّولة بخراب العمران الذي هو مادّتها " (1) وبالمقابل فإنّ العدل يقوّي أركان الدّولة ويصلح البلاد " لشعور الرّعيّة بالاطمئنان فيتحفّزون للإقبال على العمل والاجتهاد ، فينتج عن ذلك نماء العمران واتّساعه ، وتوجد الأموال وتكثر الخيرات " (2)

ومهما يكن من عدل الحكّام أو جورهم فإنّ الرّعيّة لا يرجى منها أن تتقبّل حكما لا تشارك فيه عن طيب خاطر ، ولو رضيت طائفة منها لأنكرت أخرى وقد يشعر البعض بالظّلم فإذا حرم سخط وإذا أعطي طمع في المزيد ، ومهما تعامل النّاس معه بالعدل راوده سوء الظنّ ما دام الذي يفصل في الأمر إنسان آخر ذا مصلحة وهوى .

أمّا حين يتأسّس المجتمع على الإيمان فإنّ العباد حكّاما ومحكومين يخضعون لأحكامه لأنّ الصّبغة الدّينية كما قال ابن خلدون " تذهب بالتّنافس والتّحاسد وتُفرد الوجهة إلى الحقّ " (3) فهم يعلمون أنّهم مهما استخفوا من النّاس بالظّلم لا يمكن أن يفلتوا من رقابة الله ، ومهما ملكوا من أسباب القوّة والمكر لا يأمنوا من مكر الله وهذا ما حمل كثيرا من الحكّام الصّالحين على الإشفاق على أنفسهم لخوفهم من الله كما حصل لعمر بن عبد العزيز (4)

---

(1) ــ ابن خلدون : المقدّمة 304/1 بتصرّف .

(2) ــ انظر : محمّد ضياء الدّين الريس ، النّظريات السّياسيّة الإسلاميّة ص 329 عبد الرّحمن خليفة : في علم السّياسة الإسلامي ص 174 .

(3) ــ ابن خلدون : المقدّمة 167/1 .

(4) ــ **عمر بن عبد العزيز (61 هــ / 101 هــ)**

هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص ، من نسل عمر بن الخطّاب ، الحافظ المجتهد الزّاهد ، ولد ونشأ بالمدينة ، وولي إمارتها ، ولي =

الذّي مثّل النّموذج للحاكم التّقي فذات يوم " جلس في مصلاّه ودموعه تسيل على لحيته فدخلت عليه زوجته وقالت : يا أمير المؤمنين ألشيء حدث ؟! فقال : يا فاطمة إنّي تقلّدت من أمر هذه الأمّة ما تقلّدت ، فتفكّرت في الفقير الجائع والمريض الضّائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشّيخ الكبير وذي العيال الكثير والمال القليل ، في أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أنّ ربيّ سيسألني عنهم يوم القيامة وأنّ خصمي دونهم محمّد عليه الصّلاة والسّلام فخشيت أن لا تثبت لي حجّة عند خصومته فبكيت " (1) فبالإيمان يقوم طراز من الولاّة كالخلفاء الرّاشدين ، يضربون أروع الأمثلة في العدالة بين الرّعيّة ، والعفّة عن المال العام ، والنّصح للأمّة ويبلغون قدرا من الصّلاح لا يتيسّر لحاكم لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

المطلب الثّالث : أثر الإيمان في إرساء سيادة القانون والحريّات الفرديّة

المعهود في التّجارب السّياسية أحيانا المشقّة في فرض سيادة القانون وتنفيذ سياساتها ، إذ لا سبيل لأن يحيط جهاز الرّقابة بسلوك الأفراد على نحو كامل أو أن يلتزم كلّ فرد بالطّاعة لولاّة الأمور ، ثمّ إذا اشتدّت إجراءات الرّقابة وتضاعفت مقادير العقوبات لحمل الأفراد على الاستقامة ، انقلب ذلك أحيانا شرّا على المجتمع في طمأنينته ، وإذا خفّفت الدّولة في تلك المراقبة تعرّض أمن المجتمع للاختلال من تثاقله في القيام بالواجبات وتفشّي التّظالم والإجرام " فالقانون أمر لا بدّ منه لتنظيم المجتمع وضبط السّلوك ، لكنّه لا يكفي لأنّ سلطانه على الظّاهر لا على الباطن ، ومهمّته معاقبة المسيء لا مكافأة المحسن ، والتّحايل عليه ميسور ، وإذا كان عاجزا عن أن يكون زاجرا

= الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك ، مات مسموما بعد سنتين ونصف من خلافته وأخباره في عدله وحسن سيرته كثيرة . انظر : طبقات ابن سعد 330/5 وما بعدها ، الذّهبي : سير أعلام النّبلاء 114/5 وما بعدها ، والسّيوطي : تاريخ الخلفاء 273 وما بعدها .

(1) ــ الذّهبي : السّير 131/5 ــ 132 وما بعدها ، والسّيوطي : تاريخ الخلفاء 281 .

عن الفساد ، فإنّه يعجز عن أن يكون دافعا إلى خير أو باعثا على حقّ . " (1)
وقد قرّر هذا المعنى جمال الدّين الأفغاني بقوله (2) " ليس بخاف أنّ قوّة الحكومة إنّما تأتي على أنّ الحاكم وأعوانه قد يكونون بل كثيرا ما كانوا ويكونون ممّن تملكهم الشّهوات فأيّ وازع يأخذ على أيدي أصحاب السّلطة ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم ؟ (3) وأيّ غوث ينقذ ضعفاء الرّعايا وذوي المسكنة منهم من شرّ أولئك المتسلّطين وحرصهم ... وبالجملة يكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد ؟ " (4) فما هو السّبيل لعلاج هذه المعضلة ؟ وهل للإيمان دور في حلّ هذه المشكلة ؟ وكيف نتمكّن من فرض سيادة القانون لضبط سلوك الأفراد واستتباب الأمن ؟ هذا ما نسعى لبيانه .

أوّلا : سيادة القانون

المجتمع المؤسّس على الإيمان تستند قوانينه إلى أصل دينيّ سواء منها ما يمثّل نصوص الشّريعة ومبادئها أو ما يستنبط باقتراح الفقهاء ، فكلّ ما تنظّمه السّياسة الشّرعية للدّولة يجد القبول لدى غالب الأفراد ، لأنّه مقتضى الحقّ ومظنّة الخير في تقديرهم ، ويتأكّد سلطانه في نفوسهم لأنّه موضع حساب

---

(1) ــ يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص 170 ــ 171 بتصرّف .

(2) ــ **جمال الدّين الأفغاني (1838 م ــ 1897 م)**

محمّد بن صفدر الحسيني جمال الدّين أحد الرّجال الأفذاذ الذّين قامت على سواعدهم نهضة الشّرق ، ولد في أسعد آباد بأفغانستان ، ونشأ بكابل وتلقّى فيها العلوم العقليّة والنّقليّة ، وكان واسع الاطّلاع على العلوم متقنا للغات عدّة ، تنقّل بين الهند ومصر وإيران وبعض الدّول الأوروبيّة ، تتلمذ على يده الشّيخ محمّد عبده وأنشأ معه في باريس جريدة العروة الوثقى ، من آثاره : تاريخ الأفغان ، رسالة الرّد على الدّهريين . انظر : أحمد أمين زعماء الإصلاح ص 59 وما بعدها ، الزّركلي : الأعلام 168/6 ــ 169 عمر كحّالة معجم المؤلّفين 92/10 .

(3) ــ لذلك من المشكلات التّي تعاني منها الكثير من الدّول اليوم : تفشّي مظاهر الفساد في كثير من مؤسّساتها ، بل تضطرّ بعضها لمحاكمة رؤسائها بعد انتهاء ولايتهم بتهمة استغلال النّفوذ و العبث بأموال الأمّة ، أو الفساد الأخلاقي ، وغيرها من المخالفات .

(4) ــ جمال الدّين الأفغاني : الردّ على الدّهريين ص 77 ــ 78 بتصرّف .

الله وجزائه . (1) لقوله عليه الصّلاة والسّلام : **((من أطاعني فقد أطاع اللّه ومن عصاني فقد عصى اللّه ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعــص الأميــر فقــد عصاني))** (2) وفي بداية الإسلام وقبل تشريع أحكام المعاملات ، لم يكن للمسلمين قوّة يستطيعون بها تنفيذ تعاليم دينهم لو انفلت بعضهم عن أوامره فكان الوازع النّفسي المنبعث من الإيمان مغنيا غناء القوانين والسّلطان ، لأنّ ما يبنى على القانون قد يوجد في النّفس ما يبرّر مخالفته ، أمّا ما يعتمد على الضّمير ينفّذه المؤمن على أنّه أمر من الله الذّي يعلم السرّ وأخفى ، وفي المدينة بدأت التّشريعات تنزل لتنظيم الحياة الاجتماعيّة ولم يتراجع دور الوازع الإيماني عن كبح جماح أهله ، وحسبنا دليلا على هذه الحقيقة أنّ الجاني كان يجيئ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدافع الإيمان ، فيعترف له بجنايته ، و يصرّ على إقامة الحدّ عليه ، تطهيرا لنفسه من الإثم (3) كما وقع لماعز و الغامديّة (4) اللذّين أقرّا على نفسيهما بالزّنا .

---

(1) ــ انظر : أبو زهرة ، التّكافل الاجتماعي في الإسلام ص 13 .

(2) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الجهاد والسّير ، باب السّمع والطّاعة للإمام رقم 2957 مسلم ، كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية 4747

(3) ــ انظر : محمّد أبو زهرة ، التّكافل الاجتماعي في الإسلام ص 13 ، محمّد الطّاهر بن عاشور : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ص 147 ــ 148 .

(4) ــ **ماعز بن مالك الأسلمي** : معدود في المدنيين ، كتب له رسول الله كتابا بإسلام قومه وهو الذّي اعترف على نفسه بالزّنا تائبا منيبا وكان مُحْصَناً فرجم . انظر : الاستيعاب 401/3 أسد الغابة 08/4 . فقد جاء إلى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فقال يا رسول الله طهّرني ، فقال ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، فرجع غير بعيد ، ثمّ جاء فقال : يا رسول الله طهّرني حتّى إذا كانت الرّابعة قال له رسول الله فيما أطهّرك ؟ فقال : من الزّنا ... فأمر به فرجم ، ثمّ جاء بعد أيّام فقال : استغفروا لماعز بن مالك ، فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك ! فقال لقد تاب توبة لو قسمت بين أمّة لوسعتهم . مسلم عن بُريدة كتاب الحدود ، رقم 4431 .

ــ **الغامديّة** : صحابيّة من غامد باليمن ذكرها ابن الأثير في آخر ترجمة من تراجم الصّحابة في كتابه أسد الغابة 527/5 تحت عنوان : ذكر من لم يسمّ من الصّحابيات ، قال : الغامديّة =

وقد ترسخ قيم الجماعة وأخلاقها في نفوس أفرادها حتى يصبح الالتزام بها عادة ينبعث إليها الفرد طوعا من تلقاء نفسه ومن وراء وعيه ، ولكن ظواهر شذوذ الأفراد عن عرف الجماعة لا تنقطع ، ولذلك يلزم الجماعة أن تقيم علاوة على أخلاقها نظاما أدقّ في أحكامه وأشدّ في جزاءاته .

وإذا رجعنا إلى الدّين الحق فإنّه لا يقتصر على تزكية النّفس بالإيمان الوازع من الشرّ ، بل يتعهّدها بضوابط خارجية تترتّب على ما يقع على الفرد من تكليف ورقابة ومسؤولية في حياته ، على نحو ما يجري في كلّ مجتمع بشري ، غير أنّ المصدر الذي تستنبط منه تلك الضّوابط هو نصوص الشّريعة التي تقرّر جملة من الأحكام والقواعد لتنظيم حياة الجماعة ، يستنبطها علماء الأمّة وفقهاؤها ، منها ما يعتمده ولاّة الأمر فيصبح قانونا لازما ، ومنها ما يتلقّاه النّاس بالقبول العام فيصبح عرفا (1) سائدا يضبط قواعد الأخلاق .

= المرجومة في الزّنا ، وذكرت قصّتها في كتب السنّة ، في حدّ الزّنا في روايات عدّة ، منها رواية مسلم ، فقد أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا رسول الله طهّرني ، فقال لها : ارجعي ، ثمّ أتته من الغد فاعترفت بالزّنا ، وقالت والله إنّي لحبلى ، فقال لها : ارجعي حتّى تلدي ، فلمّا ولدت جاءت بالصّبيّ تحمله فقالت : يا نبيّ الله هذا قد ولدته ، قال : اذهبي فارضعيه حتّى تُفطميه ، فلمّا فطمته جاءت بالصّبيّ وفي يده كِسرة خبز ، فقالت : يا نبيّ الله هذا قد فطمته ، فأمر النّبيّ بالصّبي فدُفِعَ إلى رجل من المسلمين ، وأمر بها فرجمت ... ثمّ قال : والذّي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . مسلم عن بُريدة كتاب الحدود ، باب : من اعترف على نفسه بالزّنا رقم 4432 وفي رواية عمران بن حصين أنّه عليه الصّلاة والسّلام قال لعمر : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ، حديث رقم 4433 .

(1) ــ العرف في اللّغة : المعرفة ، ثمّ استعمل بمعنى الشّيء المألوف المستحسن الذّي تتلقّاه العقول السّليمة بالقبول ، أمّا اصطلاحا : فهو ما استقرّ في النّفوس من جهة العقول وتلقّته الطّباع السّليمة بالقبول . أو هو : ما ألفه المجتمع واعتاده ، وسار عليه في حياته من قول أو فعل وهو والعادة بمعنى واحد عند الفقهاء . انظر : المعجم الوسيط 595/2 الجرجاني : التّعريفات ص 152 ، عبد الكريم زيدان : الوجيز في أصول الفقه ص 252 .

وتسنّ الشّريعة للنّاس مناهج لحراسة المجتمع من الوقوع في الظّلم كالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وإصلاح ذات البين ونصرة المظلومين ، كما رتّبت الشّريعة أوضاع السّياسة والاقتصاد والاجتماع بما يكفل للفرد ضروراته ويحقّق له العدل في علاقاته لئلاّ تدعّه الحاجة إلى الشرّ ، أو يستفزّه الظّلم إلى أن يذهب لينتقم لنفسه فيتجاوز ويطغى . (1)

وتتولّى المؤسّسات الاجتماعية وظيفة إشاعة الأخلاق بتربية الأفراد على الفضيلة ، ويظلّ الفرد مطوّقا بشتّى وسائل التّوجيه ليستقيم مع أمر الجماعة التّي تقيم عليه رقابة وثيقة كي يلتزم بالأخلاق الحسنة ، وذلك بتعريض المتمرّد للإنكار واللّوم ، وتشجيع المتأدّبين بحسن الاعتبار والذّكر الجميل " فالرّأي العام له رقابة نفسيّة تجعل كلّ متمرّد ينطوي على نفسه ، وكلّ خيّر يجد الشّجاعة في إعلان خيره ، وإنّه لا يهذّب الآحاد إلاّ الرّأي العام الفاضل ولا يفسده إلاّ الرّأي العام الفاسد الذّي يتقاعس عن نصرة الفضيلة ويترك الرّذائل رافعة رأسها ، لذلك كان الإرشاد العام من تعاليم الإسلام " (2)

فإذا عرفنا للإيمان هذه الخاصيّة ، تسنّى لنا تصوّر درجة تطويق الدّين لدواعي الشرّ ، وفاعليته في تهذيب الإنسان وتأديبه ، وإنّما يعود تأثير الإيمان في تهذيب الإنسان إلى تفعيل قوّة الوازع الدّيني الذي يدفعه إلى الفضيلة وحسن المعاملة ويبعده عن الرّذيلة والبغي ، فإذا اجتمعت الطّاعة لأمر الله ، والهيبة للسلطة الحاكم ، والاحترام للجماعة ، كان ذلك أدعى إلى الابتعاد عن الجرائم ، والانطلاق بهمّة لتحقيق مصلحة المجتمع ، وبهذا تتبيّن لنا أهمّية الإيمان في تحقيق الاحترام للقانون وهذا بدوره يؤدّي على تحقيق انضباط

(1) ــ التّرابي : الإيمان وأثره في الحياة ص 142 بتصرّف ، انظر أيضا تفصيل هذه المناهج عند أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدّين أثناء حديثه عن الحسبة 11/1 وما بعدها ، وعبد الكريم زيدان : أصول الدّعوة ص 173 وما بعدها .

(2) ــ انظر : أبو زهرة ، التّكافل الاجتماعي في الإسلام ص 08 .

المجتمع وطمأنينته وتوفير الأجواء المناسبة لتفجير الطّاقات للبناء والتّعمير .

ثانيا : الحريّات الفرديّة

جاءت تعاليم الإسلام تشرّع لحرّيّة الرّأي ، لا على أساس أنّها حقّ من حقوق الأفراد فحسب بل واجب عليهم أيضا ، وإذا كان أوّل ما نزل من القرآن متعلّقا بالمبادئ الكبرى للعقيدة الإسلاميّة مثل وجود الله وحقيقة الإنسان ووظيفته ، فإنّنا نجد من بين ذلك أيضا تشريعا لحريّة الرّأي في قوله تعالى : ((أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ)) [العلق 09 ــ 12] " ففي هذا القول تعجّب إنكاري يتضمّن التّوبيخ والنّهي لذلك الذّي نهى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الصّلاة فيعطّل حرّيته في الاعتقاد والعبادة ، إذ ينهاه عن هداية النّاس بالمعتقد الجديد فيحول دون حريّة تبليغ الرّأي والإقناع به ، ويكفي إدراج مبدأ حرّيّة الرّأي ضمن أوّل القرآن نزولا ، دلالة على مكانته في سلّم التّشريع " (1)

لأنّ الموضوعيّة في عرض الحقائق تتوفّر إذا توفّرت الحريّة وانعدمت وسائل الضّغط ، ليتمكّن الإنسان من الحكم بإنصاف ، فإذا لم تتوفّر له الحريّة تكون أحكامه قاصرة ، لذلك عندما دعا الله عباده إلى الإيمان لم يحملهم عليه بالإكراه ، وهذا ما صرّح به في قوله : ((قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ)) [هود 28] " وهذا أوّل نصّ في دين الله يدلّ على أنّه لا يصحّ أن يكون الدّين بالإكراه ، والمعنى الظّاهري للآية أنّه ليس من أسلوبنا ولا من منهجنا أن نكرهكم على قبول الدّعوة وأنتم عنها معرضون " (2)

(1) ــ عبد المجيد النّجّار : الإيمان وأثره في الحياة ص 45 ــ 46 بتصرّف . انظر أيضا : عبد الوهّاب خلاّف : السّياسة الشّرعية ص 38 وما بعدها .

(2) ــ عفيف عبد الفتّاح طبّارة : مع الأنبياء في القرآن الكريم ص 46 بتصرّف .

وهذا يدلّ على أنّ الدّين لا يفرض على النّاس فرضا وأنّ الله خاطب الإنسان دون إكراه ، وهذا تكريم له واحترام لفكره ومشاعره ، ممّا يدعو إلى احترامه وتحريره من كلّ قيد ، قال سيّد قطب (1) " إنّ العقيدة قضيّة إقناع دون إجبار فقد جاء هذا الدّين يخاطب الإنسان ويوقظ الوجدان في غير قهر ، حتّى بالخارقة الماديّة التّي تلجئ من يشاهدها إلى الإذعان ، وإذا كان الإسلام لا يواجه الحسّ البشري بالخارقة الماديّة القاهرة ، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوّة والإكراه ليعتنقه تحت تأثير التّهديد " (2) والسرّ في ذلك " أنّ الدّعوة للمبادئ إذا قامت على التّجرّد في الموضوع والبعد عن الإكراه ، فإنّه لا يضمن لها خلودا بل يجعلها مساوقة تماما لكرامة الإنسان فتحضى باحترام النّاس وإن كانوا أحيانا خصوما " (3)

والإسلام في إقراره لحرّية التّديّن لم يجعل الأمر لمجرّد المجاملة والمسالمة " إنّما يفرضه على المؤمنين فرضا ، ويلزمهم به اتّجاه غيرهم عقيدة وسلوكا لأنّ الإيمان لا يكون إيمانا حتّى ينبع من القلب عن رضا وطمأنينة ، فلا خير في كلمة ينطق بها اللّسان زورا ويكفر بها القلب ، فذلك هو النّفاق الذّي يعدّه القرآن شرّا من الكفر الصّريح " (4)

ومن مقتضيات الإيمان أن تكون للفرد حرّيته فهو الذّي يختار دينه ، فيقوم

---

(1) ــ **سيّد قطب (1906 م / 1966 م)**

سيّد قطب بن إبراهيم ، مفكّر إسلامي مصري من مواليد قرية موشا بأسيوط تخرّج من كليّة دار العلوم بالقاهرة سنة 1934 عمل في جريدة الأهرام ، وعيّن مدرّسا للعربيّة ، ثمّ موظّفا في ديوان وزارة المعارف ، انظمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين فسجن ، ثمّ أعدم . من آثاره : نحو مجتمع إسلامي ، خصائص التّصوّر الإسلامي ومقوّماته ، معالم في الطّريق . انظر الزّركلي : الأعلام 147/3 ــ 148 فتحي يكن : الموسوعة الحركيّة 110/1 وما بعدها .

(2) ــ سيّد قطب : في ظلال القرآن 291/3 بتصرّف .

(3) ــ محمّد البهي : تفسير سورة هود ص 38 .

(4) ــ عائشة بنت الشّاطئ : القرآن وقضايا الإنسان ص 95 ــ 96 .

المجتمع على الرّضا لا على القهر ومصادرة الحقوق ، فتحفظ حرمة النّفس ويتمّ القضاء على كلّ صور العبوديّة لغير الله المتمثّلة في الخوف من السّلطان والاستسلام للظّلم ، والبعد عن نصرة الحقّ ، ونحوها من المظاهر . (1)

والمؤمن باعتباره فردا من الجماعة يحرص على حفظ كرامته ، ويعرف واجباته التّي حمّله الله إيّاها " فلا يتحرّج في إبداء رأيه والتّناصح مع الآخرين للمصلحة العامّة ، إقامة للحجّة وإبراء للذّمّة يوم الحساب ، دون أن يتمرّد على أنظمة المجتمع أو يعصي حكّامه ، فلا يرضى لنفسه أن يكون إمّعة لأنّ كسب الآخرين لا يجديه ولا ينفعه يوم الحساب " (2)

وعلى صعيد الممارسة العمليّة جاءت السّيرة النّبويّة حافلة بالتّطبيقات المثلى لمبدأ حرّيّة الرّأي تحريرا للعقول والضّمير من العوائق ، وإتاحة لسبل التّعبير والإقناع ، وكتب السّيرة طافحة بالنّماذج ، ومن المواقف موقف عمر من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أثناء قيامه للصّلاة على عبد الله بن أبي بن سلول فقد أخذ بردائه وقال له : إنّ الله نهاك عن أن تستغفر للمنافقين ، فقال له : خيّرني ربّي فقال : ((ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)) [التّوبة 80] وذلك قبل نزول آية (3) : ((وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ)) [التّوبة 84] غير أنّ الإسلام في تشريعه لمبدأ حرّية الرّأي لم

(1) ـ انظر : عبد الرّحمن خليفة ، في علم السّياسة الإسلامي ص 300 .

(2) ـ التّرابي : الإيمان وأثره في الحياة ص 222 بتصرّف .

(3) ـ البخاري عن عبد الله بن عمر ، كتاب التّفسير ، باب : ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، رقم 4670 .

يغفل الضّمانات التّي تحول دون انحرافها ، بل أحاط هذا المبدأ بجملة من القيود ، منها ما هو منهجي مثل التّحرّي في تقصّي الحقائق وفهمها قبل إعلانها ، كما قال تعالى : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ)) [الحجرات 06] ومنها ما هو أخلاقي مثل الامتناع عن الإيذاء والتّجريح ، قال تعالى : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)) [النّور 23] ومثل تحاشي المبالغة في المديح التّي قد تنقلب نفاقا ، ففي الصّحيح أنّ رجلا أثنى على رجل عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : ((**ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك مرارا ثمّ قال : من كان منكم مادحا أخاه لا محالة ، فليقل أحسب فلانا ، واللّه حسيبه ، ولا أزكّي على اللّه أحدا ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه**)) (1) " ولا يصحّ أن تستخدم هذه الحريّة للاستخفاف بالقيم أو بالنّاس ، لأنّ حريّة الرّأي تعني التّعبير الحرّ عن الآراء بقصد بناء الأمّة وتوجيهها ، أو النّصح للحاكم وإرشاده . " (2)

وليس من الميسور أن تتوافر للفرد حرّيات مكفولة في وجه الولاّة ، إلاّ إذا ساد الإيمان بشريعة عالية تكون دستورا ضابطا لسلطان الدّولة ، ثمّ من الصّعب إذا تقرّرت تلك الحرّيّات أن ينهض الأفراد لممارستها بإيجاب ، إلاّ بالإيمان الذي يقرن الحريّة بالمسؤولية ويجعلها أمانة واجبة الأداء ، كما قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم اللّه بعقاب منه**)) (3) وقال : ((**إنّ من أعظم الجهاد كلمة عدل عند**

---

(1) ــ البخاري عن أبي بكرة ، كتاب الشّهادات ، باب : إذا زكّى رجل رجلا كفاه رقم 2662 .

(2) ــ محمّد يوسف موسى : نظام الحكم في الإسلام ص 50 بتصرّف .

(3) ــ التّرمذي عن أبي بكر الصدّيق ، كتاب : الفتن ، باب : ما جاء في نزول العذاب إذا لم يُغَيَّر المنكر ، 2168 . قال التّرمذي وهذا حديث صحيح .

سلطان جائر)) (1) فهذه النّصوص وغيرها تدلّ على مشروعيّة حرّيّة التّعبير بالحقّ عن الرّأي السّياسي ، كما تدلّ على وجوب الإنكار على الحكّام إذا تعسّفوا ، وجوبا يثاب على فعله ويؤثم على تركه . (2)

وقد أعطى الإسلام حقّ الحريّة في اختيار من يمثّله ، ففي بيعة العقبة الثّانية طلب عليه الصّلاة والسّلام من الأنصار أن يختاروا اثني عشر نقيبا (3) وبهذا يكون قد أقرّ قاعدة الانتخاب ، ومنح الحقّ للنّاس في اختيار من يمثّلهم بكلّ حريّة ، كما منحهم الحقّ في بيان رأيهم في الحكّام ومحاسبتهم ، كما حصل له عليه الصّلاة والسّلام ، فبعد غزوة حنين خصّ المؤلّفة قلوبهم ــ وهم من أهل مكّة ــ بمزيد من الغنائم يتألّف بها قلوبهم على الإسلام ، فوجد الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا : ((يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم)) فبلغ ذلك رسول الله ، فأرسل إلى الأنصار دون غيرهم فاجتمعوا في مكان أُعِدَّ لهم ، ثمّ قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمّ قال : ((يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ؟ ألم آتكم ضلاّلا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي قالوا : بلى الله ورسوله أمنّ وأفضل)) ثمّ قال : ((ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا بما نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنّ والفضل)) فقال : ((أمّا والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُم أتيتنا مُكَذَّبا فصدّقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك فصاحوا بل المنّ علينا لله ورسوله)) ثمّ تابع قائلا : أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لَعاعة من

(1) ــ التّرمذي عن أبي سعيد الخدري ، كتاب : الفتن ، باب : ما جاء في كلمة عدل عند سلطان جائر ، رقم 2174 . قال التّرمذي وهذا حديث حسن غريب .

(2) ــ محمّد يوسف موسى : نظام الحكم في الإسلام ص 60 بتصرّف .

(3) ــ انظر : ابن هشام : السّيرة النّبويّة 74/2 وما بعدها ، أكرم ضياء العمري : السّيرة النّبويّة الصّحيحة 198/1 ــ 201 .

الدّنيا تألّفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الله لما تنقلبون به خير ممّا ينقلبون به ، والذّي نفس محمّد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك النّاس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، وإنّكم ستلقون أثرة من بعدي ، فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتّى اخضلّت لحاهم وقالوا رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا (1)

تدلّ هذه الحادثة على سماحة الإسلام في تقريره لمبدأ من مبادئ الحريّة الفكريّة متمثّلا في مشروعية محاسبة الحاكم على تصرّفاته إن بدا في ظاهرها إخلال بالعدل ، كما تبيّن في الوقت ذاته واجب الحاكم في تنوير الرّأي العام وتبرير تصرّفاته للرّعيّة حسما للشّبهة " فلقد ظنّوا أنّ النّبي عليه الصّلاة والسّلام نسيهم وآثر عليهم قومه وبني وطنه ، لكنّه أزال ظنّهم بخطاب فاض بمشاعر المحبّة لهم ، فقد تضمّن خطابه أدقّ خفقات قلبه ، وألطف أحاسيسه ولقد لامست هذه الرقّة مشاعر الأنصار فهزّتها هزّا وأزالت منها كلّ الظّنون فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحا بنبيّهم ، وابتهاجا بقسمتهم ونصيبهم . " (2)

وحاسب النّاس عمر يوم وزّع أثوابا فرآه النّاس في المسجد لابسا ثوبا واسعا فخطبهم وقال : أيّها النّاس اسمعوا وأطيعوا ، فقال أعرابيّ لا نسمع ولا نطيع حتّى تخبرنا من أين أتيت بإكمال هذا الثّوب ، فقال عمر لابنه عبد الله : قم فأخبرهم ، فأخبرهم بأنّه منحه نصيبه فخاط منهما ثوبا واحدا ، فقال الأعرابي الآن نسمع ونطيع . (3)

(1) ــ البخاري ، كتاب : المغازي ، باب : غزوة الطّائف عن زيد بن عاصم رقم 4330 وعن أنس بن مالك رقم 4331 وغيرهما بألفاظ متقاربة ، ابن هشام : السّيرة النّبويّة 121/4 ــ 122 .

(2) ــ البوطي : فقه السّيرة ص 294 .

(3) ــ خالد محمّد خالد : خلفاء الرّسول ص 190 .

وحدث أنّ عمر بن عبد العزيز ردّ الخلافة إلى الانتخاب ، فبعد مبايعته قال أيّها النّاس إنّي قد ابتليت بهذا الأمر من غير مشورة من المسلمين ، وإنّي قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فقالوا قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك باليُمن والبركة ، فقام رجل فبايعه وبايعه النّاس . (1)

" إنّ إشراك الأفراد على هذا النّحو في إبداء أرائهم من شأنه أن يشعر الجميع بأنّهم من ذوي الشّأن في تصريف شؤون الحياة ، وأنّ القرارات التّي يتّخذها الحكّام قد شاركوا في صناعتها ، فتنشأ في نفوسهم الهمّة في التّنفيذ ، أمّا حين تحكم السّلطة بالاستبداد فإنّ المشاريع الصّادرة منها تؤول إلى الفشل بسبب اللّامبالاة وإن كانت حقا ، لذلك أوجبت الشّريعة على الأمّة رقابة الحاكم ، فإذا حاد عن الحقّ ولم يرع الأمانة فلها الحقّ في تقويمه . " (2)

والحاصل أنّ حريّة الرّأي من الحقوق التّي تكفّل الإسلام بحفظها ودعا إلى إشاعتها ، واعتبرها واجبا شرعيا لكونها مظهرا من مظاهر النّصح ووسيلة من وسائل الإصلاح ، وعاملا من عوامل تنشئة الفرد على الصّدق والإخلاص .

ثالثا : الشّورى

الشورى ضرب من المشاركة السّياسيّة التّي ينهض بها القادرون على تحمّل أعباء الحكم ومسؤولياته ، من خلال تكافل سياسي يجعل من السّيادة وظيفة مشتركة بين الحاكم والمحكوم لتبادل الآراء والخبرات من أجل اختيار أفضل المواقف خدمة للصّالح العام ، والشّورى كمبدأ من المبادئ الحكم عرفت في الفكر السّياسي منذ عصور سابقة لظهور الإسلام ، فلم تكن ابتكارا إسلاميا ، غير أنّ الإسلام طوّرها حيث منحها الصّبغة الدّينيّة ، فقد جمع النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بين الزّعامة الدّينيّة والدّنيويّة ، فلم ينحصر دوره

(1) ــ عفّت وصال حمزة : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 76 ــ 77 .

(2) ــ انظر : محمّد ضياء الدّين الريس ، النّظريات السّياسيّة الإسلاميّة ص 339 ، حمد محمّد الصّمد : نظام الحكم في عهد الخلفاء الرّاشدين ص 200 .

في تنظيم علاقة الإنسان بربّه ، بل تعدّى إلى تنظيم علاقته بأخيه الإنسان . (1) ولم يضع الإسلام تنظيما مفصّلا لها ، إنّما كانت تجري وفق أحكام استمدّت من سيرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، ولقد عرضها القرآن الكريم محبّذا أسلوبها ومزكّيا الملتزم بها أثناء إخباره عن السّياسة وشؤون الحكم ، حيث أُمِرَ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بمشاورة المسلمين في قوله تعالى ((فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ)) [آل عمران 159] ليقتدوا به عند النّوازل فإنّه على جلالة قدره وعظيم منزلته كان كثير المشاورة لأصحابه (2) وجعل الشّورى إحدى الصّفات التّي تميّز المؤمنين فقال : ((وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ)) [الشّورى 38]

" ففي الجانب الدّيني استجابوا لله فآمنوا به ، ثمّ أقاموا الصّلاة دلالة على هذا الإيمان ، وفي أمورهم العامّة وسياستهم التزموا الشّورى كفكر وسلوك ، وفي الأموال سلكوا طريق الإنفاق بعد أن اقتصروا في الكسب على الحلال . " (3) لأنّ الشّورى تؤدّي إلى التّفكير في المسائل العامّة بجدّ ، والاشتراك في الحكم بشكل غير مباشر وتوجيه الرّعيّة إلى مراقبة الحكّام ، فتقلّ الهفوات ويحصل السّداد في السّياسات المنتهجة .

وقد حدث هذا في غزوة بدر مع الحباب بن المنذر حيث قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّم ولا أن نتأخّر عنه ، أم هو الرّأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرّأي والحرب والمكيدة ، فقال : فإنّ هذا ليس بمنزل فانهض بالنّاس حتّى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثمّ نغوّر ما وراءه من الآبار ، ثمّ نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثمّ نقاتل القوم

(1) ــ انظر : قاسم حبيب جابر : الإسلام بين البداوة والحضارة ص 376 ــ 377 .
(2) ــ الطّبري : جامع البيان في تأويل القرآن : 496/3 .
(3) ــ محمّد عمارة : الإسلام وقضايا العصر ص 99 ــ 100 بتصرّف .

فنشرب ولا يشربون ، فنهض رسول الله وتحوّل إلى المكان والرّأي اللّذين أشار بهما الحباب (1) " والشّورى على هذا النّحو تجنّد الطّاقات في المعرفة النّظريّة والخبرة العمليّة في حوار نقديّ يظهر فيه الحقّ ، فتحرز الجماعة تقدّما في إبعاد الاستبداد بالرّأي ، وفي إعداد الرّعيّة لتفكّر مع حكّامها في خططهم ومشاريعهم لتتمكّن من معرفة أين يكون التّحرّك فتتابع القرارات من بداياتها بوعي وتأمّل ، وتتدرّب على ممارسة الدّور القيادي من أجل إعداد نفسها لاستلام القيادة في حالات الفراغ بكفاءة وقدرة ، وتتعلّم كيف تراقب خطوات القيادة لئلاّ تنحرف ، فتكون لها بالمرصاد من بداية الطّريق ، قبل أن تتعقّد المشكلات ، وبذلك يصعب على الولاّة المنحرفين أن يتلاعبوا بمصير أمّتهم بالوعود الكاذبة ، لأنّ الأمّة قد أُعِدَّت لترصد الحكم في عمليّة محاكمة ومناقشة من بداية الأمر ، انطلاقا من الحريّات الفرديّة التّي تكفلها العقيدة ومن واجب الصّدع بالحقّ الذّي يفرضه التّشريع " (2) وباجتماع المعاني سالفة الذّكر يتحقّق للأمّة شهودها الحضاري ، فالتّكافل يحشد القوى ويكتّلها ، والتّشاور يرشّد الرّأي فيسدّده ، والنّصيحة تعصم من الزّيغ وتحفظ المسيرة ، فتحصل الخيرات في المجتمع وتقّل الهفوات .

---

(1) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 238/2 .

(2) ــ أنظر : محمّد حسين فضل الله : تفسير من وحي القرآن 343/6 ــ 344 .

المبحث الثّالث : الإيمان وأثره في الأوضاع الاقتصاديّة

يُعنى النّاس في حياتهم الاقتصادية بأمرين : تحسين أحوال معاشهم وتوفير العدالة في معاملاتهم ، أمّا الارتقاء بمستوى المعيشة فإنّها رهينة بتوفر الموارد التّي يحتاجون إليها في عمليّة الإنتاج ، لكن العامل الفعّال في إعمار الحياة إنّما هو الإنسان الذي يسخّر الطّبيعة لصالحه ، فبالعمل يستخرج منها الطيّبات ، وبالعلم يكتشف مواردها ووسائل استثمارها ، غير أنّه لا يبلغ من تسخيرها لصالحه مبلغا كبيرا إلاّ إذا اهتدى إلى منهج يجنّد قدرته وينظّم سعيه ، وهذا ما نسعى لبيانه في المطالب الآتية :

المطلب الأوّل : أثر الإيمان في دفع النّهضة الاقتصادية

للدّين دور عظيم في دفع النّهضة الاقتصادية والارتقاء بمستوى الإنسان في معاشه ، وبيان ذلك أنّ المؤمن يرى دنياه مرحلة لامتحان فحواه أنّ الله سخّر له الطّبيعة ليبتليه أيغشاها شاكرا أم كفورا ، قال تعالى : ((وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلاً مَّا تَشۡكُرُونَ)) [الأعراف 10] " أي لقد أقدرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرّف في خيراتها ، بما أودعنا فيكم من قوّة الفعل والتّفكير التّي أهّلتكم لسيادة العالم والتّغلّب على مصاعبه " (1) فعلى الإنسان أن يحيى حياته ويلتمس من الطّبيعة منافعه ، ويتّخذ من ذلك وسيلة لعبادة الله لترقية حياته الماديّة انطلاقا من واجب يفرضه الله عليه فرضا في قوله : ((هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولاً فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ ۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ)) [الملك 15] لكن ما علاقة الإيمان بهذه المعاني ؟ هذا ما نسعى للكشف عنه في العناصر الآتية :

(1) ــ محمّد الطّاهر بن عاشور : التّحرير والتّنوير 33/5 ــ 34 بتصرّف .

أوّلا : العلاقة بين الإنسان والكون وأثرها على النّهضة الاقتصاديّة

وحدة الخلقة بين الإنسان والكون تشعره بالقربى والوئام ، وتنفي عنه مشاعر الخوف النّاتجة عن التّباعد والاغتراب ، وهذا الشّعور يهيّئ النّفوس للإقبال عليه والتّعامل معه بتلقائية ويسر ، ويخفي حالة التّوتّر التّي تؤدّي إلى تعطيل طاقاتها وتصدّها عن العمل الفعّال . (1)

ومع كون هذا الشّعور شرطا ضروريّا للفعل الحضاري ، إلاّ أنّه غير كافي إذ لا بدّ من الشّعور بالرّفعة لإثارة قوى الإنسان ودفعها إلى منطقة الفعاليّة والتّأثير ، أما إذا انعدم هذا الشّعور وقع في نفسه أنّه ليس إلاّ شيئا من أشيائه مساويا لها أو هو دونها ، فيدفع ذلك إلى التّراجع عن اقتحامه ، ويتمّ إحباط الفعل الحضاري ، غير أنّ تحقّق هذا الشّعور غير كاف ، فعند الشّروع في استثماره قد يهوله ما يبدو فيه من ظواهر السّطوة والقسوة ، وقد يقع في نفسه أنّه مستغلق عن الفهم فيؤدّي ذلك إلى اليأس ، وهذا ما يعالجه الإيمان ، فقد بيّن الله أنّ الكون مسخّر للإنسان وأنّ قوانينه مذلّلة لاستقباله لتحقيق غايته (2) وهذا المعنى نستنبطه من قوله تعالى : ((وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)) [الجاثية 13]

فالاقتناع بأنّ الكون على ما يبدو عليه من عظمة هو ممهّد بحيث يقبل على الإنسان إذا ما أقبل عليه من شأنه أن يدفعه بعزم إلى استغلاله في ثقة واطمئنان (3) غير أنّ الله عزّ وجل لم يشأ أن يمهّده له تمهيدا كاملا ويكشف

(1) ــ انظر : سيّد قطب ، مقوّمات التّصوّر الإسلامي ص 355 محمّد قطب ، منهج التّربية الإسلاميّة 67/1 ــ 68 و 144/1 ــ 145 عبد المجيد النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 134/1 .

(2) ــ انظر كريسي موريسون العلم يدعو للإيمان ص 44 وما بعدها ، الدّمرداش عبد المجيد سرحان : الله يتجلّى في عصر العلم ص 42 .

(3) ــ انظر : حسن التّرابي ، الإيمان أثره في حياة الإنسان ص 51 ــ 52 عماد الدّين خليل أصول تشكيل العقل المسلم ص 72 النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي 136/1 ــ 137 .

له عن أسراره بالكليّة " لأنّ هذا نقيض عمليّة الاستخلاف التّي تتطلّب تحدّيا واستجابة وعملا دائبا ، ولأنّه يقوده إلى سلبيّة ويدفعه إلى كسل لا تقرّه مهمّته كما أنّ الله لم يشأ أن يجعله على درجة من الانغلاق والتّعقيد والصّعوبة يعجز معها عن الاستجابة والإبداع الأمر الذّي يتنافى ومهمّته الحضاريّة التّي أنيطت به بوصفه خليفة على الأرض " (1)

وهذا ما أشار الله إليه بقوله : ((وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ)) [الشّورى 27 ــ 29] وقوله : ((ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)) [الزّخرف 10 ــ 13]

إنّ هذا التّصوّر هو الذّي أحدث في نفوس المسلمين الأوائل ثورة في علاقاتهم بالكون ، فإذا بأولئك البدو يقتحمون مناكبه برّا وبحرا ، ويستثمرون مرافقه في زمن قصير إلى حركة تعمير نامية ، وذلك بفضل التّصوّر الذّي منحهم إيّاه الإيمان بتعاليم القرآن .

(1) ــ عماد الدّين خليل : أصول تشكيل العقل المسلم ص 75 .

ويبدو ممّا سبق أنّ الانتفاع بالكون المفضي إلى النّهوض في المعاش يبدأ بالدّافع النّفسي الذّي يتكوّن بالتّصوّر الصّحيح للكون وعلاقة الإنسان به وهو ما ثبت بالتّحليل النّظري لعقيدة الإسلام ، وصدّقته تجربة تحضّر المسلمين الواقعيّة لمّا كانت هذه المعاني مستقرّة في العقول والقلوب ، كما أنّ ذلك التّصوّر ينقذ الإنسان من وضعين يعوقان وظيفة الاستخلاف .

أوّلهما : استعظام مادّة الكون بما يؤدّي إلى الشّعور بالمغلوبيّة إزاءها ، وهو ما يدفع الإنسان إلى الخضوع والاستسلام لها معتبرا نفسه موضعا لسطوتها وتصرّفها المطلق ، كما حصل في الأديان التّي تؤلّه الطّبيعة . (1)

أو معتبرا نفسه مجرّد جزء من الكون ، يخضع لمقتضيات مسيرته التّي هي أكبر حجما من إرادته وأوسع من قدراته ومطامحه ، فهو كالقطعة الصّغيرة في الآلة الكبيرة تدور بدورانها وتخضع لسلطانها ، وهو ما يؤدّي إليه مذهب الحتميّة الماديّة . (2)

---

(1) ــ يرى بعض علماء الاجتماع المهتمّين بتاريخ الأديان ــ لا سيما الغربيون ــ أنّ العقيدة الإلهيّة نشأت لعوامل أحاطت بها ، وتجتمع آراؤهم في أربع نظريّات ، منها : النّظريّة الطّبيعيّة التّي يرى أصحابها أنّ العامل الأساسي في إثارة الفكرة الدّينيّة هو التّأمّل في مشاهد الطّبيعة حيث جعل الإنسان يشعر بمزيد من الدّهشة والإعجاب ممّا دفعه إلى التّفكير في أنّه محاط بقوى مستقلّة عن إرادته ، يخضع النّاس لتأثيرها ولا قدرة لهم على تعديل نظامها ، وتضيف النّظريّة تفصيلا آخر ، حيث ترى أنّ مشاهد الطّبيعة المفاجئة والعنيفة التّي يضطرب بها النّظام كالزّلازل والبراكين والعواصف والفيضانات هي العامل الأساسي في إثارة الفكرة الدّينيّة لأنّه تزعج من يشاهدها وتدعو إلى السّؤال عن مصدرها ، وبما أنّه لا يرى لها سببا ظاهرا ، فإنّه ينسبها إلى سبب خفي ذي قوّة هائلة ، فيسعى لإرضائها بالقرابين ليأمن شرّها ، فيعبدها . انظر محمّد عبد الله درّاز ، الدّين ص 125 ــ 126 عبّاس محمود العقّاد ، الله ص 17 ــ 18 وهنا نلاحظ أنّ التّصوّر السيّئ للكون حوّل الطّبيعة المسخّرة للإنسان إلى إله يعبد .

(2) ــ يرى هيغل : (1770 م ــ 1831 م) أنّ كلّ قضيّة في الحياة لها نقيض يعارضها ، وأنّ الحقيقة الكاملة ليست في القضيّة ولا في نقيضها ، وإنّما في التّأليف بينهما ، وهذا التّأليف =

والثّاني : استسهال البيئة الكونيّة واعتبارها منكشفة الأسرار ، سهلة الاستثمار لا تحتاج إلى عناء فيؤدّي إلى السّلبيّة والتّكاسل عن السّعي ، وهو ما وقع فيه أصحاب المذاهب المتواكلة (1) أمّا المؤمن فلا يبيح له الشّرع أن ينصرف عن نعم الله المتاحة له فإنّ ذلك وجه من وجوه الرّفض لحكمة الله من تسخير الكون له ، وتفلّت من الواجبات التّي كلّف بها في هذه الحياة .

ثانيا : أثر العبادة في تحقيق التّنمية الاقتصاديّة

عبادة الله ليست قاصرة على الذّكر والصّلاة ، فهذه عبادات واجبة على كلّ مؤمن ، تصله بربّه وتزوّده بالتّقى ، وتعصمه من الافتتان بالدّنيا .

وحياة المؤمن المستقيم كلّها عبادة لله ، فكلّ عمل قصد به وجه الله ، وراعى في تنفيذه شرعه كان عملا من جوهر العبادة لا يحبطه أن يكون فيه تحصيل معاش أو قضاء حاجة شخصيّة ، فيكون عمله صالحا يكسبه الأجر ويبعده عن العذاب " فالعمل الجاد الذّي يقوم به المرء من أجل تحسين وضعه أو وضع مجتمعه المادّي يتساوى مع العبادات شريطة أن يقوم على القيم

= يمثّل قضيّة جديدة ثمّ يظهر له نقيض ، ثمّ تأليف بينهما وهكذا إلى صيرورة دائمة .

أخذ ماركس (1818 ــ 1883) هذا المنهج وملأه بمضامين ماديّة ، وذهب إلى أنّ التّطوّر التّاريخي للمجتمعات كان تطوّرا ماديّا متمثّلا في العامل الاقتصادي ، فكلّما تطوّرت وسائل الإنتاج من مرحلة إلى أخرى تطوّرت المجتمعات بدورها وأخذت أشكالا جديدة ، فقد انتقلت من مرحلة المشاع إلى العبوديّة إلى الإقطاع ثمّ الرّأسماليّة ثمّ تتحوّل إلى الإشتراكيّة وهذه حتميّة تاريخيّة بسبب القوانين الموضوعة للعالم المادي ، وهي تتّصف بالثّبات والحتميّة وليس للأفراد أيّ دور في ذلك سوى الوعي بهذه القوانين والمساعدة في التّطوير والتّعجيل بقيام الثّورات . انظر تحليلا لفكرته : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص 402 ــ 404 . عبد الرّحمن بدوي : موسوعة الفلسفة 418/2 وما بعدها ، باقر الصّدر ، اقتصادنا ص 51 وما بعدها ، محمّد سعيد رمضان البوطي : العقيدة الإسلاميّة والفكر المعاصر ص 143 وما بعدها محمّد عبد الرّحيم الزّيني قاسم : وقفة مع الفلسفة الغربيّة ص 180 .

(1) ــ عبد المجيد النّجّار : مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي ص 29 بتصرّف .

الإيمانيّة ولا يصرفه عن القيام بواجباته " (1) لذلك يعتبر كسب المال من هذا الوجه سببا في السّبق في العبادة حيث ييسّر للمؤمن فعل الخيرات من خلال سائر النّفقات والصّدقات ، فقد أتى الفقراء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : ((**ذهب أهل الدّثور بالدّرجات العلى والنّعيم المقيم فقال وما ذاك ؟ قالوا يصلّون كما نصلّي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون ولا نتصدّق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أفلا أعلّمكم شيئا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلاّ من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه ، قال : تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دبر كلّ صلاة ثلاثا وثلاثين مرّة ، فرجع فقراء المهاجرين ، فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء**)) (2)

وإذا كانت العبادة مستغرقة لأعمال المعاش ، فإنّ المؤمن مكلّف بأن يعبد الله بحسب ما أوتي من قوّة واستعداد وأن يتّقيه حيثما كان ، فقد لا يتعيّن عليه وجوب ممارسة الأعمال الاقتصادية إن توجّه للعلم أو لميدان آخر من الميادين المشروعة ، لكن إذا توفّرت له الأسباب للممارسة الاقتصادية ورزق المواهب للقيام بها ، يجب عليه أن يقتحمها في حركة دائبة ضربا في الأرض وابتغاء لفضل الله ، متوخّيا في ذلك عبادة الله أنّى تيسّر له ذلك ، قال ابن تيمية : " أصول الصّناعات فرض عند الحاجة ، والأصل أنّ إعانة النّاس على الطّعام واللّباس والسّكنى أمر واجب وللإمام أن يلزم بذلك ويجبر عليه ، ولا يكون ذلك ظلما " (3)

---

(1) ــ انظر علي أحمد السّالوس : الاقتصاد الإسلامي والقضايا الفقهيّة المعاصرة 29/1 ــ 30 محمّد عمر شابرا : ما هو الاقتصاد الإسلامي ص 31 .

(2) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : المساجد ومواضع الصّلاة ، باب : استحباب الذّكر بعد الصّلاة وبيان صفته ، رقم 936 .

(3) ــ ابن تيميّة : مجموع الفتاوى 106/29 ــ 107 بتصرّف .

وقال تعالى : ((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) [الجمعة 09 ــ 10] " فهذه الآية تخلع على السّعي في طلب الرّزق تسمية موحية برضا الله ، فتسمّي ذلك الابتغاء من فضل الله ، وتُظْهِرُ تعاقب النّشاط الدّنيوي والنّشاط الرّوحي تعاقبا يرينا تداخل هذه الأنشطة في توازن بديع ، فتبدأ بالنّداء للصّلاة ثمّ يعقبها البيع والدّعوة إلى تركه لذكر الله فإذا أدّيت الصّلاة فلا تقنع الآية بالعودة إلى التّجارة والبيع ، بل تستعمل لفظا هو غاية في الإبانة والدّلالة على ما يطلبه القرآن من المسلمين من بذل أقصى الجهد في تحصيل المنافع الدّنيويّة ، والنّزول على مقتضى الحياة البشريّة فقالت الآية **فانتشروا** ثمّ أردفت **في الأرض** وثلّثته بقولها **وابتغوا من فضل الله** ولكلّ عبارة من هذه العبارات وقع في السّمع غاية في القوّة والوضوح . " (1)

والمؤمن الصّادق يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه ، فإذا كان متصرّفا في المال العام أو مديرا لمؤسّسات الدّولة أو قيّما على حقوق الآخرين ، يقوم بواجباته متحلّيا بحسن التّدبير والأمانة ، فيردّ كلّ حقّ إلى صاحبه " وأهمّ ما تحتاج إليه الأمانة حالة الشّركة والمضاربة والوكالة ونحوها من العقود التّي يدع أحد الطّرفين فيها الأمر للطّرف الآخر ، مؤتمنا إيّاه على التّصرّف لصالحهما " (2) فمن المعلوم الجليّ كما قال جمال الدّين الأفغاني : " أنّ بقاء النّوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال وروح المعاملة والمعاوضة إنّما هي الأمانة ، فإن فسدت بطلت صلات المعاملة وانبرت حبال المعاوضة

(1) ــ محمّد السيّد يوسف : منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع ص 245 بتصرّف .
(2) ــ يوسف القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص 290 .

فاختلّ نظام المعيشة وأفض بالإنسان إلى الفناء العاجل . " (1)
وإذا كان المجتمع في حاجة إلى التّخلّق بالأمانة ، فإنّ أحوج النّاس إليها القائمون على شؤونهم ، لأنّ للفساد الإداري أثرا كبيرا في إضعاف الاقتصاد بسبب الظّلم والمحاباة والتّبذير والاختلاسات وتعذّر المراقبة المطلقة للمال العام ، كما أنّ للمفسدين من الحيل ما يفلتون به من القانون ، فإذا لم يكونوا مؤمنين إيمانا يدعوهم إلى الالتزام الطّوعي يفشو الفساد .
ومن الأمور التي ترهق الأمم حال شروعها في التّنمية الاقتصادية حاجتها للمال للوفاء بمتطلّبات الاستثمار ، ولا يجود النّاس من تلقاء أنفسهم إلاّ أن يؤخذ منهم ، فتوضع عليهم الضّرائب ، أو تُغلى لهم الأسعار ، أو يغبنون في الأجور ، وتتشدّد عليهم الوطأة كلّما صعّدت الدّولة في نسبة الادّخار المطلوبة للمسارعة في التّنمية ، ولا يكاد يتأتّى ذلك عادة إلاّ بقهر سياسي تشهره على النّاس ، ولكن الإيمان يغني الأمّة عن هذا القهر ، لأنّه يعد الفرد بأجر الآخرة ليتعوّد التّريّث في ابتغاء ثمرة أعماله ، ويؤثر الكثير المؤجّل على القليل المعجّل ، ويستشعر المؤمن معاني الوحدة مع أمّته ، فلا ينزعج بالبذل ليتحقّق الحصاد الطيّب للجيل اللاّحق . (2) كما أنّ المؤمن لن يتمكّن من رعاية مصلحته في الآخرة ، إلاّ إذا قام بواجباته الاجتماعيّة في الدّنيا ، وفي هذا يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ((**بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ثمّ خرج ، فإذا كلب يلهث ، يأكل الثّرى من العطش فقال الرّجل : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذّي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفّه ثمّ أمسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر اللّه له فغفر له ، قالوا يا رسول اللّه وإنّ لنا في البهائم أجرا ؟ فقال : في كلّ ذات كبد رطبة أجر**)) (3)

(1) ــ جمال الدّين الأفغاني : الردّ على الدّهريين ص 43 بتصرّف .
(2) ــ انظر : التّرابي الإيمان أثره في الحياة ص 241 ــ 242 .
(3) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الأدب ، باب : رحمة النّاس بالبهائم رقم 6009 .

فإذا كان الأجر والثّواب موهوبين بسبب الإحسان للحيوان فكيف إذا اتّجه للإنسان ؟ " وإذا أضفنا إلى هذا التّصوّر مسؤوليّة الفرد يوم القيامة ، وما في الآخرة من ثواب وعقاب ، فإنّه من شأنه أن يحفّز الأفراد للقيام بواجباتهم طواعية حيث يجعلون مطالبهم الماديّة منسجمة مع المصلحة العامّة " (1)

ثمّ إنّه من حقّ العامل أن يكون له الجزاء المناسب والأجر العادل عن عمله ليتحفّز إلى المزيد من الإنتاج ، إلاّ أنّ الجماعة مهما أوتيت من ثروة فإنّ خزائنها محدودة ، لا تتّسع لتقديم الأجور الوافية لتنهض بالجهود بأقصى ما يمكن ، فتضطرّ إلى مناشدة أعضائها للتّنازل عن بعض حقوقهم ، غير أنّ المرء لا يتغاضى عن أجره إلاّ مؤقّتا .

لكنّ للإيمان أثرا جليلا في تكملة الجزاء ، وبيان ذلك أنّ المؤمن قد يعمل كثيرا بغير عوض واف يشترطه ، لأنّه يحتسب أجره على الله ، إذ العبرة عنده في التّكاثر بالأعمال والثّمرات الآجلة ، لذلك تسابق الصّحابة الكرام في خدمة الدّين والإنفاق في سبيل الله بنفوس سخيّة ، ففي الهجرة النّبويّة خرج أبو بكر رضي الله عنه مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بماله كلّه وقد بلغ خمسة آلاف أو ستّة آلاف درهم ، فقال أبوه ، وقد ذهب بصره : والله إنّي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، فقالت أسماء كلاّ إنّه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت : فأخذت أحجارا فوضعتها في كوّة في البيت ثمّ وضعت عليها ثوبا ، ثمّ أخذت بيده فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئا ولكنّي أردت أن أسكت الشّيخ بذلك . (2) وكان رضي الله عنه يشتري العبيد بماله ثمّ يحرّرهم في سبيل الله ، كما فعل مع بلال وغيره ، دون

(1) ــ محمّد عمر شابرا : ما هو الاقتصاد الإسلامي ص 34 بتصرّف .

(2) ــ ابن هشام : السّيرة النّبويّة 114/2 بتصرّف .

انتظار لتعويض في دنياه ، إنّما كان يحتسب الأجر على الله عزّ وجل " فلولا الإيمان بجزاء الآخرة لانشغل النّاس بالنّتائج العاجلة ، فإذا طولبوا بالزّهد فيها لم يستجيبوا فيضيّعوا أصلا عظيما من أصول التّنمية والتّرقي في الحياة وإذا طولبوا بالتّنافس على الأعمال تهافتوا على ثمراتها العاجلة فتحاسدوا وتنازعوا وذلك أصل لفساد كبير " (1)
فبالإيمان يجود النّاس بجهودهم وأموالهم فيحصل الرّقي ، ويتعفّفوا عمّا ليس لهم فيدرأوا الفساد .

<u>ثالثا : الإيمان بثواب اللّه ودوره في تكثيف العمل</u>

تكفّل الله بالرّزق لكلّ كائن كما قال : ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)) [هود 06] غير أنّ هذا الرّزق مرهون بالسّعي والعمل كما قال : ((هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ)) [الملك 15] فمن مشى في مناكب الأرض ، وابتغى من فضل الله كان جديرا أن يأكل من رزقه ومن قعد عن العمل والسّعي كان حريّا أن يصيبه الحرمان ، وليس في سنّة الله أن يستوي القاعد والعامل ، وعليه فإنّ العمل في الإسلام واجب على كلّ قادر ، فلا يحلّ لمسلم أن يقعد عن الكسب ، لأنّه ضرب من العبادة ، وجهاد في سبيل الله إذا اقترنت به النّيّة الصّالحة ، وصحبه الإتقان والإخلاص . (2)
و ما دامت الدّنيا هي ميدان السّباق الذي تتفاضل فيه الأجور فإنّ وعد الآخرة يحكمه ما سلف من الأعمال ، ورجاء الآخرة سرّ امتياز المؤمنين بالاستعداد للبذل والعطاء ، وهو سرّ فعالية الإيمان في تجنيد الطّاقات وتعبئتها بصورة

---

(1) ــ التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 239 بتصرّف .
(2) ــ انظر : القرضاوي ، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص 142 ــ 143 عبد الله عبد الغني غانم : المشكلة الاقتصاديّة ونظريّة الأجور والأسعار في الإسلام ص 30 ــ 31

هائلة ، وبيان ذلك أنّ لحظات التّأسيس تستلزم الجود بالنّفس والمال لأقصى الدّرجات ، لأنّ الانطلاقة الأولى لقطع مراحل التّقدّم التي تقتضي حمل أوزار التّخلّف هي أثقل المراحل ، فتستلزم التّغاضي عن استيفاء الأجر كلّه فظروف المجتمع النّاهض غير قادرة على تيسير الجزاء الكافي على أعباء النّهوض ، ولا مناص إذن من أن يقع العبء الثّقيل على جيل يستعدّ للعطاء أكثر من الأخذ ، ويجدّ في عمليّة التّأسيس دون أن ينال كلّ ثمار جهوده . (1)
وقد يقدم النّاس على التّضحية لاستشعارهم بالاتّحاد مع جماعتهم ، لذلك يجتهد القادة في التّشجيع على الفداء ، لكن مهما قويت عوامل بثّ معاني الاتّحاد وحبّ الوطن فإنّ الدّين يبلغ بالنّاس مبلغا يفوق ذلك كلّه ، لأنّ الجزاء كلّما كان أكيدا كان وقعه على النّفوس أقوى ، فإنّ أشدّ المؤثّرات الدّافعة للعمل الإيمان بأجر يصيب صاحبه فلا يضيع ولا يأخذه غيره ، ولبذل أقصى جهد في الأداء قال عليه الصّلاة والسّلام : ((**ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة**)) (2)
ولبيان قدسيّة الوفاء بأجرة العامل قال : ((**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثمّ غدر ، ورجل باع حرّا ثمّ أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**)) (3)
وما دام حجم الرّجاء هو الذي يحدو بالإنسان للإقدام ، فإنّ العمل ابتغاء الآخرة يتعاظم بنسبة تعاظم السّخاء في الجزاء ، فلا يكاد الإنسان يعطّل شيئا

(1) ــ وهذا ما حدث للمسلمين في فجر الإسلام ، فقد ضحّوا بكلّ شيء لنصرة الدّين وهاجروا تاركين أموالهم وراءهم ، فاستُقبِلوا في المدينة بسخاء كبير ، حيث شرع أهلها في مقاسمتهم ما يملكون . كما تمّ بيانه في ص 206 ــ 207 من هذا البحث . انظر : البخاري كتاب مناقب الأنصار ، باب : إخاء النبيّ بين المهاجرين والأنصار ، حديث رقم 3782 .
(2) ــ البخاري عن أنس بن مالك ، كتاب الحرث والمزارعة ، باب : فضل الزّرع والغرس إذا أكل منه ، رقم 2320 .
(3) ــ البخاري عن أبي هريرة ، كتاب الإجارة ، باب : منع أجر الأجير ، رقم 2270 .

ممّا يملك من جهد أو مال أو وقت ما دام استثماره في الخير مضمون الرّبح بمئات الأضعاف ، وذلك قدر لا توفره أيّ تجارة في الدّنيا ، قال تعالى : ((مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ)) [البقرة 245] وقال : ((مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ)) [البقرة 261] وقال : ((مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ)) [غافر 40] لذلك عمد المؤمنون إلى جباية الأموال لإنفاقها في طرق الخير ومصارفه الشّرعيّة لضمان نفقات ذوي الحاجات ، عن طريق تكافل اجتماعي مرتبط بمعاني الإيمان ، يوجب على الجماعة سدّ الحاجات الأساسية لمن لا يجد ولاية أو كفاية ، والقيام على شؤون النّاس حتّى لا يظلم ضعيف أو يُضيّع حقّ لطالب وتقرّر الشّريعة أحكام المعاملات بما يوزّع الثّروة ولا يركّزها ، فالأنفال والمواريث يقسم ، والرّبا و التّكنيز محرّم ، والظّلم والغشّ وكلّ أنواع الغرر مُنهى عنه ، أمّا التّعامل فيقوم على التّراضي . (1)

وتتأكّد فعالية الاقتصاد بما يتوارد على المؤمن من دواعي الالتزام الطّوعي يمليها عليه اعتقاده وتقديره للمساءلة والجزاء يوم القيامة فيجعل لهذا النّشاط طابعا تعبّديّا وهدفا ساميا (2) ويدلّ على هذا قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الأشعريين : ((**إنّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة**

(1) ــ انظر : صبحيّ الصّالح : الإسلام ومستقبل الحضارة ص 91 . حسن التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 245 ــ 246 .

(2) ــ انظر أحمد العسّال و فتحي عبد الكريم : النّظام الاقتصادي في الإسلام ص 20 .

جمعوا ما كان عندهم بينهم في إناء واحد بالسّويّة ، فهم منّي وأنا منهم)) (1)

فكلّما ارتفع المؤمنون في مقامات الإيمان وصدق ولاؤهم لدينهم ودعتهم الحاجة ، أصبح الإنفاق الطّوعي سمة غالبة لمجتمعهم ، يكفي في الوفاء بالمطالب الأساسية لكلّ عاجز أو محروم ، ثمّ تتواكب على المؤمنين بواعث الإخاء لإخوانهم فتحملهم إلى مقام رفيع من العدالة ، يكاد فيه أن يتحقّق التّساوي في أنصبة النّاس من الرّزق ، يقتضيه الحبّ الصّادق والاشتراك بالرّضا على حظوظ الدّنيا ، وقد تقرّر هذا المعنى في صدر الإسلام في سابقة تاريخيّة على يد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأيّدها القرآن الكريم ، فقد هاجر المؤمنون من مكّة إلى المدينة وكانوا أغلبهم فقراء ، حتّى الأغنياء منهم تركوا أموالهم خلفهم ، وعلى الرّغم من سخاء الأنصار وكرمهم على المهاجرين فقد ضلّت الفجوة واسعة بين أثرياء المدينة وفقراء المهاجرين إلى أن كانت موقعة بني النّضير . (2)

فقرّر عليه الصّلاة والسّلام أن يكون فيئها كلّه لله والرّسول خلافا لما يقع في الغزوات ، إذ تكون أربعة الأخماس للمقاتلين ، والخمس وحده لله والرّسول وقد رأى عليه الصّلاة والسّلام أن يعيد لجماعة المسلمين شيئا من التّوازن في الملكيّة ، فمنح فيء بني النّضير كلّه للمهاجرين ، عدا فقيرين من الأنصار قال الله عزّ وجل في هذه الواقعة : ((مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَىۡ لَا يَكُونَ

---

(1) ــ البخاري عن أبي موسى الأشعري ، كتاب الشّركة ، باب : الشّركة في الطّعام والنّهد والعروض ، رقم 2486 .

(2) ــ إجلاء بني النّضير عن المدينة كان في السّنة الرّابعة للهجرة ، حينما حاولوا أن يغدروا بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث همّوا بقتله ، لكنّ الله أخبره بمكيدتهم فأجلاهم وصادر ما بقي من أموالهم ، وقسّمها على المهاجرين دون الأنصار إلاّ سهلا بن حنيف ، وأبا دجانة سمّاك بن خرشة الأنصاريين لفقرهما . انظر : البوطي : فقه السّيرة النّبويّة ص 190 ــ 191 .

دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)) [الحشر 07 ــ 08]

وواضح أنّ سبب هذا الإجراء هو افتقاد المجتمع وقتئذ للتّوازن في الثّروة والدّخل بسبب الهجرة ، مع عظم الخطر الذّي كان يتهدّد المجتمع ، فجاء هذا الإجراء علاجا أملته أحوال المسلمين وظروفهم في بداية عهدهم ، بما أعطاهم قوّة لمواجهة الأزمات التّي كانت تهدّد كيانه ومصالح أفراده و بالفعل تدعّم المجتمع بذلك فتخطّى العقبات ، وتمكّن من البقاء ومغالبة الأعداء ، ونشر الرّسالة وبناء الحضارة ، وما كان يتمّ ذلك لو كان اختلال التّوزيع هو طابع المجتمع حيث يكون الفقر للمهاجرين والغنى للأنصار . (1)

وإذا رجعنا إلى سياسة الجزاء وعلاقتها بالتّنمية الاقتصاديّة فإنّنا نلاحظ تأثيرا واضحا على بعث الهمم في إنجاز الأعمال ، فالعامل يضاعف جهده إذا ضمن مضاعفة الجزاء ، لكن ليس للبشر إلاّ علم محدود بتقدير الجهد ، وما أكثر من بذل جهدا كبيرا طمعا في أجر يناله ثمّ خاب رجاؤه ولم يلق إلاّ النّكران والحرمان ، وهذا ما زهّدهم في اقتحام كثير من مجالات الخير وحصر جهدهم في مجالات الأجر أو الرّبح المضمون ، بل وحمل بعضهم على شنّ إضرابات طمعا في افتكاك بعض حقوقهم . (2)

---

(1) ــ انظر : علي عبد الرّسول : المبادئ الاقتصاديّة في الإسلام ص 105 ــ 106 .

(2) ــ لذلك دعا الإسلام إلى إعطاء أجرا للعامل يكفل معيشته بحيث يغنيه عن الخيانة ويضمن مراعاة حاجاته دون إرهاقه ، بل يذهب إلى إمكانيّة إشراكه في الأرباح أحيانا لئلاّ يتعرّض للاستغلال من قبل أرباب العمل . انظر : عبد الله عبد الغنّي غانم : المشكلة الاقتصاديّة ونظريّة الأجور والأسعار في الإسلام ص 26 .

ومن وجوه القصور في الجزاء عند النّاس أنّها لا ترتّب على النّيات ما ترتّب على الظّاهر من الأعمال ، على الرّغم من أنّ أعمال النّفس جديرة بالمكافأة وإنّما لا يعطى البشر على النيّة الصّالحة لأنّهم لا يملكون تقدير النيّات ، ولو أعطي النّاس بدعواهم لانفتح باب عريض للغشّ والرّياء ، فإذا همّ الفرد بالخير ثمّ كفّ عنه لا يكاد يُجزى في الدّنيا بشيء ، وإذا أفرغ جهده ولم يوفّق لتمام العمل أو لم يبد ذلك للنّاس لا يصيب من الأجر في المعتاد إلاّ شيئا قليلا من كلمة طيّبة أو ذكر بخير .

كما أنّ الأجر قد يقع لغير الذي صدر منه العمل ، ذلك أنّ البشر لا يحيطون بعلم ما يقع كلّه ، وقد يخطئون في نسبة الأعمال لأصحابها ، فكثيرا ما يظفر أناس بالشّكر والسّمعة الطيّبة أو المكافئة الماديّة من أعمال لم يكن لهم فيها نصيب ، ولو كان أمر الجزاء لأهل الدّنيا لتمكّن الذين تعوّدوا سرقة ثمرات جهد غيرهم بالتّحلّل من القيام بكثير من الواجبات والتّحايل في سلب حقوق الآخرين ، ولتثبّطت همّة العاملين المغمورين لأنّهم سيعملون بلا مقابل ، ثمّ إنّ اعتبارات عمليّة كثيرة تقتضي أن تشترك الجماعة أحيانا في ثمرة جهد الواحد ، وتقسم الثّمرة دون النّظر إلى نسبة الإسهام في اكتسابها . (1)

أمّا عند الله فإنّه يعطي كلّ ذي حقّ حقّه دون ظلم ، قال تعالى : ((وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ)) [الأنبياء 47]

ثمّ إنّ الله لا يغفل ولا يعجز عن حسن التّقدير ، فلا يقيس العمل بالمقاييس الظّاهريّة ، وإنّما يأخذ في الحسبان قدرة العامل وإمكاناته ، ودرجة اليسر أو العسر في أدائه ، وفي الحديث : **((العمل في الهرج كهجرة إليّ))** (2)

(1) ــ انظر : التّرابي : الإيمان أثره في الحياة ص 88 وما بعدها .

(2) ــ أحمد : عن معقل بن يسار ، رقم 20298 إسناده صحيح .

وبهذا لا يشعر الذين يبلغون المستوى الأوسط لعجز لا قبل لهم به ، أنّهم مظلومون بعد ما أخلصوا في بذل طاقتهم ، قال عليه الصّلاة والسّلام ((**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا**)) (1) وقال عندما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة : ((**إنّ بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلاّ كانوا معكم** ـ أي في الأجر ـ **قالوا يا رسول اللّه وهم بالمدينة ؟! قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر**)) (2)

كما أنّه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ، فهو يجزي على الموقف النّفسي وعلى الصّورة العمليّة لذلك الموقف ، ويجزي على الهمّ بالعمل الخيّر بعض ما يجزي عنه إذا عزم صاحبه على إنجازه ، ويجزي على العمل الذي يتّجه إليه بكلّ طاقته إذا أخفق في إتمامه بعارض خارجي ، قال تعالى ((وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)) [النّساء 100] وقال عليه الصّلاة والسّلام : ((**إنّ اللّه تعالى كتب الحسنات والسيّئات ثمّ بيّن ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه له حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها اللّه له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيّئة فلم يعملها كتبها اللّه له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها اللّه عليه سيّئة واحدة**)) (3)

فاللّه يحاسب انطلاقا من مسؤوليّة العباد الفرديّة ، ويجازي كلّ فرد على ما كسب ، فلا يأخذ أحد حقّ أحد لأنّه أحاط بكلّ أسباب العمل وآثاره ، وهذا

(1) ـ أحمد : عن أبي موسى الأشعري 19679 إسناده صحيح على شرط البخاري ، وأبو داود كتاب الجنائز ، باب إذا كان الرّجل يعمل عملا صالحا فشغله عنه مرض أو سفر 3091

(2) ـ البخاري عن أنس بن مالك ، كتاب المغازي ، باب : نزول النّبيّ الحجر رقم 4423 .

(3) ـ البخاري عن عبد الله بن عبّاس ، كتاب الرّقائق ، باب من همّ بحسنة أو بسيّئة 6491 .

المبدأ فيه بشارة للعاملين بعدم ضياع جهودهم وتحفيز لهممهم للمزيد ، قال تعالى : ((وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ)) [النّجم 39 ــ 41]

المطلب الثّاني : دور القيم الإيمانيّة في بعث التّنمية الاقتصاديّة

يقوم الاقتصاد في الإسلام على جملة من المفاهيم تهدف إلى تفعيل نشاط الأفراد تفعيلا إيجابيّا ، للوصول بالمجتمعات إلى الرّفاه ، وحمايتها من الفقر والظّلم ، انطلاقا من إيمانهم بأنّ الله استخلفهم في الأرض وخوّلهم حقّ الانتفاع بخيراتها ، ويمكن إجمال هذه المفاهيم فيما يأتي :

أوّلا : تصحيح النّظرة للمال

المال في الإسلام زينة الحياة وعصب العمران ، وطلبه بالحلال فريضة ، وهو يعين على تقوى الله ، أمّا الفقر فقد استعاذ منه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقرنه بالكفر فقال : ((**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفقر والكفر**)) (1) ولقد مدح الله المال في قوله : ((ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)) [الكهف 46] فبه تعمر الحياة الماديّة ، وبالبنين تعمر الحياة الإنسانيّة ، قال ابن الجوزي (2) وقد شرّف الله المال وعظّم قدره وأمر بحفظه ، إذ جعله قواما للآدمي الشّريف فقال : ((وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا)) [النّساء 05]

(1) ــ أحمد : عن أبي بكرة عن أبيه ، رقم 20381 ، إسناده قويّ على شرط مسلم .

(2) ــ **عبد الرّحمن بن الجوزي أبو الفرج (508 هــ / 597 هــ)**

هو عبد الرّحمن بن علي بن محمّد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج قال فيه ابن رجب شيخ وقته وإمام عصره ، علاّمة عصره في التّاريخ والحديث ، كثير التّصانيف ، مولده ووفاته ببغداد ،كان يحضر مجالسه العلماء والسّلاطين ، وكان كثير التّأليف ، من آثاره : مناقب عمر بن عبد العزيز ، صيد الخاطر ، دفع شبه التّشبيه بأكفّ التّنزيه ، الأذكياء وأخبارهم وغيرها .
انظر ابن رجب : الذّيل على طبقات الحنابلة 399/3 وما بعدها ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذّهب في أخبار من ذهب 329/2 ــ 331 .

ونهى أن يُسَلَّم إلى غير رشيد ، فقال ((وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ)) [النّســاء 06] ونهى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن إضاعة المال وقال لسعد بن أبي وقّاص : ((**إنّــك إن تــذر ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون النّاس**)) (1) وقال : ((**ما نفعنــي مال كمال أبي بكر**)) (2) وقال لعمرو بن العاص : ((**نعمّا بالمال الصّالح للرّجــل الصّالح**)) (3) ودعا لأنس بن مالك ((**اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه**)) (4) وقال كعب بن مالك : يا رسول الله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال : ((**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**)) (5) ثمّ قال تعليقا على قول من قال ترك المال الحلال أفضل من جمعه ، ليس كذلك ومتى صحّ القصد فجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء . (6)

والفقر ليس شعارا للصّالحين كما يظنّ البعض ، بل إنّ القرآن الكريم قد سمّى المال خيرا في مواضع عدّة ، كما في قوله تعالى : ((وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ)) [العاديات 08] وقوله : ((يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ)) [البقرة 215] وقوله تعالى : ((كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ

(1) ــ مسلم عن سعد بن أبي وقّاص ، كتاب الوصيّة ، باب : الوصيّة بالثّلث ، رقم 4209 .

(2) ــ أحمد عن أبي هريرة ، رقم 8790 بإسناد صحيح .

(3) ــ أحمد عن عمرو بن العاص ، رقم 17763 بإسناد صحيح على شرط مسلم .

(4) ــ البخاري عن أنس بن مالك ، كتاب الدّعوات ، باب : دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله ، رقم 6344 .

(5) ــ البخاري عن كعب بن مالك ، كتاب : المغازي ، باب : حديث توبة عن كعب بن مالك في حديث طويل ، رقم 4418 .

(6) ــ ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص 172 ــ 173 بتصرّف .

لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ)) [البقرة 180] قال الطّبري : " والخير في قوله تعالى : مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ هو المال " (1) ونقل ذلك عن ابن عبّاس ، وقال مجاهد : الخير في القرآن كلّه المال . " (2)

ولم يعتبر الإسلام الغنى حائلا بين المؤمن والرّقي إلى أعلى مقامات العبادة للتّقرّب إلى الله ، خلافا لما ينسب للمسيح عليه السّلام في الإنجيل من قوله للشّاب الذّي أراد اتّباعه : ((**لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد بالزّور ، أكرم أباك وأمّك وأحبّ قريبك كنفسك ، قال له الشّاب : هذه كلّها حفظتها منذ حداثتي فماذا يعوزني بعد ، قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السّماء وتعالى واتبعني ، فلمّا سمع الشّاب الكلمة مضى حزينا ، لأنّه كان ذا أموال كثيرة . فقال يسوع لتلاميذه الحقّ أقول لكم : إنّه يعسر أن يدخل غنيّ إلى ملكوت السّموات ، وأقول لكم أيضا إنّ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ ملكوت اللّه ، فلمّا سمع تلاميذه بهتوا جدّا قائلين : إذن من يستطيع أن يخلص ، فنظر إليهم يسوع وقال لهم : هذا عند النّاس غير مستطاع ولكن عند اللّه كلّ شيء مستطاع**)) (3) بل امتنّ الله على رسوله بالغنى فقال : ((وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ)) [الضّحى 08] وكان من دعائه عليه السّلام : ((**اللّهمّ إنّي أسألك الهدى والتّقى والعفاف والغنى**)) (4) وفي حديث : ((**ذهب أهل الدّثور بالأجور**)) (5) ما يدلّ على أنّ المال ممّا يفضّل الله

---

(1) ــ الطّبري : جامع البيان في تأويل القرآن 355/2 .

(2) ــ الطّبري : المرجع ذاته 125/2 ــ 126 .

(3) ــ إنجيل متّى : الإصحاح التّاسع عشر : فقرة 19 ــ 27 .

(4) ــ أحمد : عن عبد الله بن مسعود رقم 3692 صحيح على شرط مسلم ، والتّرمذي ، كتاب الدّعوات ، باب : دعاء اللّهمّ إنّي أسألك الهدى والتّقى ... رقم 3489 وقال : حسن صحيح .

(5) ــ مسلم عن أبي هريرة ، كتاب : المساجد ومواضع الصّلاة ، باب : استحباب الذّكر بعد الصّلاة وبيان صفته ، رقم 936 .

به المؤمن ، ومثله حديث : ((**لا حسد إلاّ في اثنين رجل أتاه اللّه القرآن فهو يتلوه آناء اللّيل وآناء النّهار ، ورجل آتاه اللّه مالا فهو ينفقه آناء اللّيل وآناء النّهار**)) (1) وقد أكّد القرآن الكريم أنّ الغنى ورغد العيش كثيرا ما يكون مثوبة عاجلة من الله للمؤمنين المتّقين على ما قدّموا من عمل صالح ، كما أنّ الفقر والجوع وضنك العيش كثيرا ما تكون عقوبات يسلّطها الله في الدّنيا على من انحرف عن هديه الكريم ، قال تعالى : ((فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ)) [طه 123 ـ 124] وقال : ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)) [الأعراف 96]

إنّ الذّي ينظر إلى المال نظرة ازدراء ينطلق من نظرته إلى الدّنيّة إلى الكون فالمسيحيّة وبعض ديانات فارس والهند يرون أنّ هذا الكون وضيعا لا يخدم السّمو الرّوحي الذّي يسعى الإنسان لتحقيقه ، فاتّخذت مجتمعاتها موقفا سلبيا منه فقلّ استثمارها له ، بل إنّ المسيحيّة تعتبر الصّلة بالعالم عداوة لله حسب ما جاء في العهد الجديد : ((**أما تعلمون أنّ محبّة العالم عداوة للّه ؟ فمن أراد أن يكون محبّا للعالم فقد صار عدوّا للّه**)) (2) لذلك بقي المسيحيّون قرونا طويلة في حال من التّخلّف إلى أن خفّت سيطرة الكنيسة .

لكن على الرّغم من النّهضة التّي حقّقتها الدّول الغربيّة إلاّ أنّها أخفقت في تحقيق الرّفاه والاطمئنان لغالب الأفراد والمجتمعات التّي تحكمها ، لأسباب عدّة منها : إبعاد القيم الأخلاقيّة عن الاقتصاد " حيث اعتبرت جميع الحقائق

---

(1) ــ البخاري عن سالم ، كتاب : التّوحيد ، باب : رجل آتاه الله القرآن ... رقم 7529 .

(2) ــ رسالة يعقوب : الإصحاح الرّابع : فقرة 04 .

التّي جاء بها الدّين تلفيق من صنع الخيال ، اختلقه الكهّان لتكريس جهل النّاس بالطّبيعة والحياة ، وهم محقّون في ذلك إلى حدّ معيّن ، لأنّ نظرة الكهّان إلى المال مخالفة للفطرة ، وأفعالهم تخالف نظرتهم ، حيث كانوا من أشدّ النّاس تعلّقا به ، وقد أضعفت هذه النّظرة أثر الدّين وما يحقّقه من إقرار جماعي بقيمه ، وبذلك حرم المجتمع من آثاره الإيجابيّة " (1)

" وقد بدأ تحضّر المسلمين يؤول إلى الضّعف لأسباب عدّة ، منها ضعف دافعيّتهم لاستثمار خيرات الكون ، وذلك لمّا دبّ فيهم تصوّر يقوم على الاعتقاد بأنّ الطّبيعة مسخّرة للإنسان بالقدر الإلهي تسخيرا مجّانيا ، فتسعى منافعها إليه دون أن يكون منه سعي إليها " (2)

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ للمال في الإسلام أهمّية كبرى ، فبه نواجه حوادث الزّمان ونعصم أنفسنا من ذلّ الحاجة والحرمان ، وبه نقضي مصالحنا ، وإذا كان المال خيرا في ذاته فلا يكون مقياسا لقيمة مالكه ، أو عنوانا لفضله وصلاحه " فالتّفاضل في الدّين إنّما يكون بالجهد والتّقوى ، فقد يعمل الفرد بجدّ ويكون فقره عن تقدير لا عن تقصير ، فإن صبر أدرك ما يدركه الغنيّ بالشّكر ، وقد يُغني الله القاعد يمدّه بالخيرات أيشكر أم يكفر ، وما دام الفضل مرهونا بالإيمان والعمل الصّالح فإنّه لا فضل لغني على فقير ، ولا لفقير على غني ، ومن ثمّ لا يتمايز المؤمنون لتفاوت حظوظهم الماديّة " (3)

وهذا ما علّمه النّبي صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه ، فقد مرّ رجل عليه فقال لرجل عنده جالس : **((ما رأيك في هذا ؟ فقال رجل من أشراف النّاس هذا والله حريّ إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يُشفّع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، فسكت**

(1) ــ انظر : محمّد عمر شابرا ، ما هو الاقتصاد الإسلامي ص 13 . جمال الدّين محمود : الدّولة الإسلاميّة المعاصرة ص 309 .

(2) ــ عبد المجيد النّجّار : فقه التّحضّر الإسلامي ص 136/1 بتصرّف .

(3) ــ انظر : محمّد الغزالي ، الإسلام والأوضاع الاقتصاديّة ص 148 وما بعدها .

النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثمّ مرّ رجل آخر ، فقال : ما رأيك في هذا ؟ قال : يا رسول اللّه هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حريّ إن خطب أن لا يُنكح ، وإن شفع أن لا يُشفّع ، وإن قال أن ألاّ يسمع لقوله ، فقال عليه الصّلاة والسّلام : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)) (1) وقال : ((**ألا أخبركم بأهل الجنّة ؟ كلّ ضعيف مستضعف لو أقسم على اللّه لأبرّه))** (2) " والمراد بالضّعيف ضعف الحال والمال ولهذا يستضعفه النّاس ويحتقرونه مع أنّ له عند الله شأنا حتّى لو حلف طمعا في كرم الله لأبرّ قسمه وحقّق سؤله . " (3)

وعلى الرّغم من تقدير الإسلام للإنسان وعدم اعتماده على المال كمقياس للتّفاضل بين النّاس فإنّه لم ينف مظاهر التّفاوت بين النّاس في ما يملكون قال تعالى : ((وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡ)) [الأنعام 165] وقال : ((وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِى ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ)) [النّحل 71] " لكن لا ينبغي أن يفهم من هذه الآيات أن الله قسّم المجتمع إلى طبقات على أساس ما يملكون من خيرات ، كما هو شأن كثير من الشّعوب التّي قسّمت مجتمعاتها إلى نظام طبقي عُرِف بمظالمه ، فالآية الأولى دلّت على أنّ الله استخلف النّاس في الأرض ليعمروها وفاوت بينهم بالمواهب الأدبيّة والجهود العمليّة ، ومن ثمّ فيجب أن يتفاوتوا في الأجر المادّي والأدبي الذي ينالونه من جهودهم " (4) لأنّ إنكار التّفاوت بين النّاس مع تباين الأعمال ظلم ، لذلك أنكر الله التّسوية

(1) ــ البخاري عن سهل بن سعد ، كتاب : الرّقائق ، باب : فضل الفقر ، رقم 6447 .
(2) ــ البخاري عن ابن وهب الخزاعي ، كتاب : الأدب ، باب : الكبر ، رقم 6071 .
(3) ــ يوسف القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص 108 .
(4) ــ أبو الأعلى المودودي : نظام الحياة في الإسلام ص 60 ــ 61 بتصرّف .

بين أعمال البر المختلفة فقال : ((أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)) [التّوبة 19]

إنّ إدراك هذه الحقائق تمنع المؤمن من تمنّي زوال نعمة غيره أو الحقد عليه فبالتّفاوت يعمر الكون وتستمرّ الحياة ، ولو كان النّاس متساوين في القدرات والطّاقات لاستحال العمل والسّعي ، واستحال خضوع أيّ واحد منهم للآخر فالتّفاوت مدعاة للتّعاون على الخير ، إذ كلّ صاحب مهنة يصبح مسخّرا لأخيه فيما يفيده ، وبذلك تستقيم الحياة وتزدهر ، ويترتّب على ما تقدّم أيضا أن المؤمن الغني لا يفتخر بما لديه ، والفقير لا يجد ما يدعوه للحسد ما دام الله هو مقسّم الأرزاق ، فتتخلّص النّفوس من دواعي الصّراع .

ثانيا : المال للّه وللبشر حقّ الانتفاع

يرى المؤمن أنّ النّعم والأموال كلّها ملك لله ، ولئن ظنّوا أنّها حصلت لهم بسبب التّحصيل المعتاد أو مصادفات الحظّ ، فإنّ الأمر في حقيقته لله جميعا يصرفه وفق سنن ، فما سعى المرء في الأسباب المعلومة إلاّ بحوله ، وما توفيقه لتحصيل ما يبتغي إلاّ به " فكلّ ما يملكه الإنسان وديعة أودعها الله بين يديه ، وسخّر له ما في السّموات والأرض وهيّأ له استغلالها ، فالمال مال الله والبشر فيه خلفاء " (1) قال تعالى : ((وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ)) [الأنعام 165] وقال : ((ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ

(1) ــ عبد القادر عودة : المال والحكم في الإسلام ص 30 ــ 32 بتصرّف .

كَبِيرٌ)) [الحديد 07] قال الزّمخشري : " يعني أنّ الأموال التّي في أيديكم إنّما هي أموال الله بخلقه لها ، وإنّما موّلكم إيّاها وخوّلكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاءه في التّصرّف فيها ، فليس هي بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم فيها إلاّ بمنزلة الوكلاء والنوّاب . " (1)

فملكية البشر للأموال إنما هي ملكيّة مشتقّة من الملكيّة الأصليّة لله تعالى فليس في تصوّر المؤمن ما يدعوه للفخر والتّطاول على النّاس لأنّه يردّ الأمر كلّه لله ، ولا يرى الفضل فيه لكسبه الخالص فهو مستخلف " والمستخلف عندما يمارس مهمّة الانتفاع بوسائل الثّروة والإنتاج يكون ذلك بتفويض من المالك الأصلي لها ، على أن تكون تصرّفاته مرتبطة بتوجيهات الله المالك الأصيل ، فإذا خالف قد يجرّده ممّا هو مستخلف عليه لأنّه لا يملك الحريّة المطلقة في الملك المستخلف عليه " (2) فالمال مال الله والإنسان مستخلف يكتسبه من الأوجه التّي حدّدها الشّارع وينفقه حيث أمره .

غير أنّ نسبة المال لله واستخلاف البشر فيه لا تنفي ملكيّتهم له ، فإنّه يعترف بملكية النّاس لما رزقهم من أموال ويحميها من كلّ اعتداء ، كما صرّح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قوله : ((**من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حقّ لقي اللّه عزّ وجلّ وهو غضبان**)) (3) وقوله : ((**كلّ المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه**)) (4) ويلاحظ في الحديث الأخير أنّه جعل حقّ الحفاظ على الملكيّة مساويا لحقّ الحفاظ على الحياة .

---

(1) ــ الزّمخشري : الكّشاف 82/6 .

(2) ــ انظر : حمدان عبد الحميد الكبيسي : الخراج وأحكامه ص 17 ــ 18 محمّد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ص 35 ــ 36 .

(3) ــ أحمد عن عبد الله بن مسعود رقم 21848 بإسناد حسن .

(4) ــ البخاري عن عبد الله بن عمر ، كتاب : المظالم ، باب : لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه ، رقم 2442 .

" والإسلام دين المسؤوليّة فلا يقبل أن تكون مسؤوليّة البشر عن المال الذّي أودعه في أيديهم شائعة غير محدّدة ، فعمد إلى إقرار الملكيّة الفرديّة ليسأل كلّ فرد عن الحصّة التّي بين يديه " (1) كما قال عليه الصّلاة والسّلام : **((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيمـــا أبـــلاه))** (2) " ولمّا كانت فطرة الإنسان تتوق إلى تملّك المال وتحبّه حبّا جمّا كان لا بدّ للشّريعة أن تربط بعض المال على آحاد النّاس تماشيا مع الفطرة حتّى يندفع نشاطهم إلى استثماره وتنميته ، وفي هذا نفع مشترك للمجتمع " (3)

ولكنّها نهت المالك عن استخدام المِلك في الإفساد ، فحرّمت التّجارة في الممنوعات وكلّ ما يضرّ بالإنسان ، كما حرّمت الأجر في العمل المنهى عنه كأجرة الكاهن ، منعا لانتشار الكهانة وما يتبع ذلك من باطل المعتقدات . (4)

كما نهت عن أكل أموال النّاس بأيّة وسيلة حتّى ولو حكم القاضي للشّخص بالحقّ ، وهو يعلم أنّه لا حقّ له فيه ، فلا يحلّ له أخذه ، لأنّ القاضي يحكم بالظّاهر والله يتولّى السّرائر (5) قال عليه الصّلاة والسّلام : **((إنّكم تختصمون لدّي ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فإنّما هي قطعة من النّار فليأخذ أو ليدع))** (6)

---

(1) ــ أحمد العسّال و فتحي عبد الكريم : النّظام الاقتصادي في الإسلام ص 45 ــ 48 .

(2) ــ التّرمذي عن أبي برزة الأسلمي ، أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع ، رقم 2417 .

(3) ــ عوف الكفراوي : السّياسة الماليّة والنّقديّة في ظلّ الاقتصاد الإسلامي ص 26 .

(4) ــ انظر ، عبد الله غانم : المشكلة الاقتصاديّة ونظريّة الأجور والأسعار في الإسلام ص 31 ــ 32 أحمد النّجّار : المدخل إلى النّظريّة الاقتصاديّة في المنهج الإسلامي ص 41 ــ 42 والصّفحة 70 وما بعدها .

(5) ــ انظر : ابن تيميّة ، مجموع الفتاوى 28 /45 ــ 46 القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص 115 ــ 116 .

(6) ــ البخاري عن أمّ سلمة ، كتاب : الحيل ، الباب 10 رقم 6967 .

وهناك أموال أبيح للنّاس أن ينتفعوا بها جميعا ، وعدم ربطها على آحادهم كما جاء في الحديث : ((**المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنّار**)) (1)
" وهذا من قبيل التّمثيل للأمور التّي كانت غير جائزة للاحتكار من قبل الأفراد إذ إنّ حاجة النّاس إليها سواء ، فلا يصحّ تمكين يد واحدة من الاستيلاء عليها ، فإذا اتّسعت حاجات النّاس باتّساع الحضارة وتغيّر الزّمن فعلى الحكومة أن تضع يدها على مصادر الثّروة العامّة ، وأن تقصي المحتكرين من محاولة استغلالها وتسخيرها لمطامعهم " (2) وقد اقتصرت الإباحة على هذه الأشياء بصفتها ضروريّة للحياة الاجتماعيّة وللبيئة العربيّة وقت ظهور الإسلام ، والضّرورات تختلف من جماعة إلى أخرى ، ومن عصر إلى آخر .
ولا شكّ أنّ دلالتها في مجتمعاتنا المعاصرة بدأت تنبسط حيث باتت تشمل كلّ الموارد والطّاقات الأساسيّة لحياة الجماعة ونمائها " ففي اللّفظ الأوّل تدخل كلّ الموارد المائيّة ، سواء أكانت للشّرب أم للاستعمال أم للسّقي أم لتوليد الطّاقة الكهربائيّة ، وفي اللّفظ الثّاني تدخل كلّ المواد الغذائيّة الأساسيّة التّي تؤمّن العيش للحيوان فضلا عن الإنسان ، وفي اللّفظ الثّالث تدخل كلّ وسائل الإنارة والتّدفئة ، والوقود والموارد الكهربائيّة ، ولن نعدم من ضروب القياس لاستنباط دلالة تلك الموارد المشتركة بين النّاس . " (3)
والذّي نستخلصه من هذا البيان أنّ الملكيّة الفرديّة على الرّغم من صيانتها

(1) ـ أحمد عن رجل من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رقم 23082 وأبو داود ، كتاب البيوع ، باب : في منع الماء ، رقم 3477 بإسناد صحيح .
(2) ـ انظر : إبراهيم العسل : التّنمية في الإسلام ص 75 ـ 76 علي عبد الرّسول : المبادئ الاقتصاديّة في الإسلام والبناء الاقتصادي للدّولة الإسلاميّة ص 102 ـ 103 ، محمّد الغزالي الإسلام والأوضاع الاقتصاديّة ص 147 ـ 148 .
(3) ـ صبحي الصّالح : الإسلام و مستقبل الحضارة ص 95 بتصرّف .

وعـدم التّعـرّض للمسـاس بهـا ، فإنّهـا خاليـة خلـوّا تامّـا مـن نزعـات التّفـرّد والأنانيّة " فليس من الإيمان أن يمتنع صاحب الماء من إرواء العطشى من المسـافرين ، ولـيس مـن الإيمـان أن يـرفض صـاحب الكـلأ أن ترعـى ماشـية جيرانـه في أرضـه ، ولـيس مـن الإيمـان أن يـأبى مالـك الغابـة على النّاس أن يأخذوا من حطبها شيئا للوقود .

وبالمقابل ليس من الإيمان أن يغالي عموم النّاس ويتعسّفوا في استعمال الحقّ العام لدى التّصرّف بإحدى هذه الأشياء فيتعدّوا على المّلاك لها ، فإذا لم يوافق صاحب الأرض لا يمكنهم أن يتصرّفوا بأرضه أو بأشجاره لأخذ الحطب أو بعين جارية داخلة في ملكه لريّ أراضيهم وسقي زروعهم " (1) والأصل في ذلك أنّ هذه التّصرّفات محكومة بصدق التّديّن وحرارة العاطفة الإنسانيّة ، امتثالا لقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ((**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**)) (2) وقوله : ((**لا يحلّ لامرئ مسلم أن يأخذ مال أخيه بغير حقّه**)) (3) " لذلك تعتبر إضافة ملكيّة المال إلى الله ضمان وجداني لتوجيهه إلى نفع العباد ، و إضافة ملكيّته إلى البشر ضمان يماثله في توجيه المالك إلى الانتفاع بما يملكه من مال في الحدود التّي رسمها الله . " (4)

والمراد بهذا كلّه أنّ الملكيّة الخاصّة مصونة ، ولكنّ المالك الحقيقي هو الله وللغنيّ أن يتصّرف في ماله كما يشاء في حدود الشّرع وهكذا تتحوّل الملكيّة الفرديّة إلى ما يشبه الملكيّة المشتركة ، وهي ما تسمّى بالملكيّة المزدوجة (5)

---

(1) ــ انظر : الخطّابي معالم السّنن 110/3 ــ 111 صبحي الصّالح : الإسلام و مستقبل الحضارة ص 96 القرضاوي دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص 124 وما بعدها

(2) ــ البخاري عن أنس ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه 13

(3) ــ أحمد عن أبي حميد السّاعدي ، رقم 23605 وإسناده صحيح .

(4) ــ علي عبد الرّسول : مرجع سابق ص 102 . (5) ــ انظر : محمّد باقر الصّدر ، اقتصادنا ص 279 ــ 282 محمّد شوقي الفنجري : المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ص 168 ــ 169 .

والحاصل : المال في الإسلام وسيلة انتفاع البشر في حياتهم ، وهبهم الله إيّاه وحمّلهم مسؤوليّة التّصرّف فيه ، وإنّ التّنويه بشأنه يفضي إلى السّعي في تحصيله للوفاء بحاجات النّاس في معاشهم ، وهذا يحرّرهم من هموم الدّنيا فيستغنون عن التّسوّل من غيرهم أو الاعتداء عليهم ، وينعم المجتمع بالأمن والاستقامة من جرّاء السّعة الماديّة التي توفّرها موارده المالية ، حيث يتمكّن بالثّروة المتوفّرة من إصلاح سائر شؤونه ، فتتحقّق كثير من المقاصد النّبيلة كنشر العلم ، والإعداد للجهاد ، والاعتناء بصحّة الأفراد ، وغير ذلك من وجوه المصالح التي تستدعي النّفقات .

والمؤمن مهيّأ بتصوّراته الإيمانية لمتاع الدّنيا ، وبتعاليم شريعته لاجتناب التّرف والإسراف وحبس المال عن الإنفاق ، فلا يبخل على نفسه بالطيّبات فإذا اتّسعت الغلاّت ودعت دواعي الإقبال على الاستهلاك ، لم يتأخّر لينشط الاقتصاد ولا يتقهقر الإنتاج .

ومن ثمرات معرفة نظرة الإسلام للمال التّخفيف من التّكالب عليه وتحصين النّفس من آفات الكبر والحسد ، وترسيخ الاطمئنان في النّفوس أنّ العبد محاط بعناية الله ، وأنّ أقوات الأرض ومواردها لا تنضب .

ونظرة الأمل هي النّظرة التّي يدعو إليها الإيمان للابتعاد عن النّظرة التّشاؤميّة التّي توهم أنّ الموارد الموجودة في الطّبيعة لا تكفي لإشباع حاجات النّاس .

ومن الثّمرات أيضا أنّ التّفاضل بين النّاس يكون بالعمل والصّلاح ، وليس بالأحساب والحظوظ الموروثة ، فأيّ فرد وفّى شروط الكفاءة كان متاحا له أن يمارس من الأعمال ما يحسنه ، و هذا يفسح المجال للّذين يكدحون في سبيل الكسب ، ويتكفّلون بأعباء التّنمية الاقتصاديّة إذا خُلّي بينهم وبين الصّدارة والإدارة ، وما دامت عبادة الله هي القيمة العليا للحياة ، فلا يستهين المؤمن برجال المهن والصّناعات ، فالتّقديم بالتّقوى والإتقان ، فالتّاجر التّقي كالعالم التّقي وكغيره من المتّقين ، وكلّ ميسّر لما خلق له ومسؤول عنه .

الخاتمة

أوّلا : النّتائج

وعلى ضوء ما مرّ بنا من فصول خرجت بجملة من النّتائج أهمّها :

01 : الإيمان بالله وما يتفرّع عنه من عقائد أمر على غاية الأهمّيّة ، لأنّه يحدث آثارا إيجابيّة في حياة النّاس ، حيث يضفي عليها من خيريّته ما لا تناله أبدا بدونه ، وعليه فإنّ بسط المنافع التّي يحدثها من شأنه أن يهيّئ النّفوس للإقبال على الله ، لأنّها إذا لاحت للنّاس فإنّها تدفعهم إلى التّمسّك بأسبابها . غير أنّ الإيمان لا ينحصر في الجانب النّظري لقضايا الدّين ، إنّما هو اعتقاد وقول وعمل ، حيث يصبح سجيّة في المؤمن تتكيّف بها النّفس فتقوّي ملكة الطّاعة والانقياد حتّى ينقلب المؤمن ربّانيّا ، كما أنّ حقيقة الإيمان تشمل مختلف نشاطات الحياة حيث تتجلّى العقيدة في المجال السّياسي في إفراد الله بالحاكميّة ، وفي المجال الاقتصادي في الاعتراف لله بمالكيّة المال وخلافة البشر له ، وفي المجال العلمي بتوحيد معقول العلم ومنقوله لمعرفة الله وتسخيره للعبادة .

02 : الشّهادة على النّاس من مقتضيات التّديّن بالإسلام ومن لوازمه المطلوبة لأنّها تتّجه يوم القيامة إلى الله ، على أساس أنّ الشّهادة في الدّنيا هي قيادة النّاس بالوحي ، وفي الآخرة أداؤها له سبحانه يوم الحساب ، والأمّة حين تكون ملتزمة بدينها حقّ الالتزام ، فإنّها تكون شاهدة على النّاس فتقيم بينهم العدل وتضع لهم الموازين والقيم ، وهذا يعني وجود العناصر الكثيرة في داخلها ممّن يصلحون لهذا المقام ، وهم الطّليعة الواعية المؤمنة التّقيّة المنضبطة التّي تفهم الإسلام حقّ الفهم ، وتمارسه حقّ الممارسة ، وهي النّخبة الواعية الموجودة في كلّ زمان التي يقف في طليعتها الحكّام المتّقون والعلماء العاملون ، والعامّة الطيّبون من مختلف المهن والصّناعات الذين يحملون هذه الشّهادة إلى الله لأنّهم يعيشون الإسلام بقلوبهم وسيرتهم .

وإنّ الجعل الذي ورد في قوله تعالى ((وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا)) ليس جعلا مبرما فتكون به الأمّة وسطا شاهدة على النّاس في كلّ الأحوال ، بل هو جعل كلّفت بتحقيقه ، فإن هي وفّت به تحقّق لها الشّهود الحضاري فاستحقّت المدح ، وإن هي أخلّت به تخلّف ذلك الشّهود فلا تستحقّه ويلحقها من المؤاخذة بقدر ما تخلّ به .

03 : الحضارة ظاهرة عامّة رافقت الإنسان في تاريخه الطّويل ، حيث كان في كلّ مرّة يعيد صياغة ظروفه بما يتلاءم وحاجاته المتطوّرة فهي تعبّر عن سعيه الدّؤوبِ لتجاوز الواقعِ ورفض ما هو كائن بهدف الوصول إلى ما هو أحسن من خلال الاكتشاف والاختراع والعمل على استغلال الطّبيعة للوصول إلى مستوى حياةٍ أفضل ، فهي حصيلة جهود الأمم كلِّها من مختلف الحقب الزّمانيّة ، وقد توفّق هذه الجهود وتهتدي إلى سبلِ الخيرِ فتحقّقها ، وقد لا تهتدي إليها ، إذ هي ليست أكثرَ من ثمرة الجهود المبذولة من قبل الإنسان للاستفادة من الكون المحيط به ، ومن هنا يمكن تعريف الحضارةِ بأنّها **ثمرة التّفاعل بين الإنسان والكون والحياة** فإن كان تفاعلا إيجابيا أنتج تحضّرا إيجابيا ، وإن كان سلبيا كان التّحضّر سلبيا .

04 : يظنّ كثير من النّاس أنّ الحضارة خير بذاته ، وتكون راقيةً على قدر تقدّمها في المكاسب الماديّة التي ينبسط بها العيش ، وتتيسّر بها الحياة في المأكل والمشرب والملبس والمركب والمسكن ، وقد يتأتّى هذا الفهم من سطوة الحضارة الرّاهنة على النّفوس ، فهي حضارة بلغت في التّقدّم المادّيِ شأنا كبيرا ، تيسّرت به كثير من الأمور في الحياة ، كانت بالأمس القريب لا تُنال إلاّ بِشِقِّ الأنفس ، فتكوّن من الانبهار بها ما جعل بعضَ النّاس يحصرون معنى التّحضّر فيها ، ويرون الإنجازات المادّيةِ عنوانا للتّحضّر .

ومن جهة أخرى يرى آخرون أنّ الحضارة كما يسّرت حياة النّاس ، تسبّبت في إلحاق كثير من الآلام والشّقاء لشعوب بكاملها ، كالحضارة الغربية اليوم

التي بنت نفسها على أشلاء غيرها من الشّعوب ، كما حصل للهنود الحمر في أمريكا ، وللشّعوب الإفريقية والآسيوية التي عانت كثيرا من ويلاتِها تحت غطاء الاستعمار ، أوالسّعي لتوطيد الأمن في البلاد المغلوبة ، كما حصل للعراق وبعض البلاد الآسيويّة ، بل إنّ بعض المنجزات الماديّة التي يفخر بها التّاريخ كانت نتيجةَ صنوفٍ من الآلام وألوانٍ من القهر تجرّع مرارتَها البؤساء من المقهورين ، في أنظمة من الظّلم والاستبداد ، وفي هذا الشّأن لنا أن نسأل هل تعتبر الأهرامات وهي الإنجازُ الماديُ العظيمُ مقياسا لتقدّم الحضارة الفرعونية وقد شُيِّدت على أكتاف العبيد المضطهدين ، الذين سُحق منهم الآلاف تحت الأحجار وسياط الجلاّدين لإشباع أبّهة الفراعنة ؟

إنّنا لا نقبل إطلاقا أنّ نعتبر التّقدّمَ الماديَ في العمران المصاحب لاضطهاد الإنسان عنوانا للتّحضّر ، لأنّ من المعاني المقتضية للحضارة الاستقرارَ والأمنَ ، بينما الظّلم والاستبداد يتنافى مع مقاصدِها وغاياتها ، فإذا كثر ذلك في الأمّة لم ينفعها تمدّن ولا عمران ، وتأذن الله بخرابها كما قال : ((وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا)) وعليه فإنّ المقياس الحقيقي للتّحضّر يكمن فيما يحقّق للنّاس من التّآخي والتّعاون والاطمئنان ، فأيّما تحضّر تحقّقت فيه تلك المعاني فهو تحضّر حقيقي ، وأيّما تحضّر جلب معه الخوف والعداوة فهو ليس بتحضّر على الحقيقة ، وإنّ مجتمعا قد يكون بسيطا في مستوى معيشته الماديّة ولكن يوفّق في تحقيق مطالب الأمان والمحبّة والتّعاون يكون أكثرَ تحضّرا من مجتمع آخر بلغ مبلغا كبيرا في الأبّهة الماديّة ووسائل التّرف ، لكنّه يعاني من القهر والاستبداد ، والظّلم والخوف ، ولنا أن نقارن بين المجتمعِ العربي عند البعثة المحمّدية في المدينة كمثال للأوّل ، وبين المجتمع الرّوماني كمثال للثّاني ، وعليه فإنّ التّحضّر وصف موضوعي لحالة من الاجتماع البشري فقد

يكون محقّقا للسّعادة فيكون خيرا وقد لا يكون محقّقا لها فلا يكون كذلك .

05 : التّحضّر الإسلامي مبني على العقيدة الإسلامية لأنّها هي التي حرّكت المسلمين للتّفوّق في مختلف الميادين ، بل إنّ المجتمع الإسلامي برز إلى الوجود نتيجة نظام ربّاني قائم على العقيدة ، وعلى هذا الأساس فإنّ الحضارة الإسلامية تختصّ بفقهها الذي تأسّس على عقيدتها وحكم نشأتها وتطوّرها ورسم مساراتها التي جرى عليها بناؤها وحرّك المسلمين في مختلف ميادين للتّعمير كما قال تعالى : ((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)) والتّعبير بِأُخْرِجَتْ يدلّ دلالة واضحة على حقيقة نشأة هذه الأمّة ، فهيّ أمّة مخرجة من قبل الله ، وفق فكرة معيّنة تحقّق نظاما معيّنا ، لذلك فإنّ كلّ محاولة للنّهوض بهذا التّحضّر يتطلّب الوقوف على تلك الفكرة ممثّلةً في عقيدة التّوحيد ، للاعتماد عليها في عمليّة الانطلاق للبناء الحضاري أو لتعديل مساره إن وجد الخلل في كيانه ، وهذا يقتضي بيان أثر العقيدة في نهضة المسلمين وتحضّرهم ، التّي لم ينحصر دورها في العمل على الإنشاء الأوّلي للحضارة ، بل كان عاملا أساسيا في صياغة البناء الحضاري في جميع جوانبه ، حيث تظلّ بعد الإنشاء الموجّهةَ لكافّة المظاهر الحضارية الماديّة والمعنوية كما حصل لحضارة المسلمين التي قامت على فكرة تفويض الحياة كلّها للإله الواحد ، فجاءت مطبوعة بطابع التّوحيد في علومها وفنونها وعمرانها وقيمها .

06 : التّحضّر ليس قدرا محتوما يحصل للمجتمع حصولا لازما ، إنّما هو أمر مكتسب يتحقّق ببذل الجهد للوصول إلى الأهداف المنشودة ، وإنّ أهمّ مقياس يمكن الاعتماد عليه لمعرفة سير الحضارة في الطّريق السّليم يكمن في المعرفة للعناصر الثّلاثة التي يتجسّد فيها الفعل الحضاري ، وهي الإنسان الكون الحياة ، وإنّ الذي يستطيع أن يعرّف الإنسان على تلك العناصر ويبصّره بكيفية تسخيرها هو الله الخالق الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى .

07 : للدّين دور عظيم في دفع النّهضة الاقتصادية ، لأنّ المؤمن يرى دنياه مرحلة لامتحان مسرحه الأرض ، وعليه فإنّ المؤمن المفلح هو الذي يقبل تحدّي الابتلاء ، ويقبل على الحياة بنيّة العبادة لله ، وإذا كانت العبادة مستغرقة لأعمال المعاش كلّها فإنّ المؤمن مكلّف بأن يعبد الله بحسب ما أوتي من قوّة فإذا توفّرت له الأسباب للممارسة السّياسيّة أو الاقتصادية وجب عليه أن اقتحام هذا الميدان أو ذاك في حركة دائبة ضربا في الأرض وابتغاء لفضل الله والأمّة المؤمنة أمّة منفتحة على العالم تسعى لهدايته وتقتبس ما يناسبها من العلوم والتّجارب وبذلك تتعايش مع النّاس في تعاون وسلام .

08 : المال في الإسلام وسيلة انتفاع البشر ، وهبهم الله إيّاه وحمّلهم مسؤوليّة التّصرّف فيه وإنّ التّنويه بشأنه يفضي إلى السّعي في تحصيله للوفاء بحاجات النّاس في معاشهم ، وهذا يحرّرهم من هموم الدّنيا فيستغنون عن التّسوّل من غيرهم أو الاعتداءِ عليهم ، وينعم المجتمع بالأمن والاستقامة من جرّاء السَّعَةِ الماديّة التي توفّرها موارده المالية ، حيث يتمكّن بالثّروة المتوفّرة من إصلاح سائر شؤونه ، فتتحقّق كثير من المقاصد النّبيلة كنشر العلم ، والإعداد للجهاد ، والاعتناء بصحّة الأفراد ، وغير ذلك من وجوه المصالح التي تستدعي النّفقات ، والمؤمن مهيّأ بتصوّراته الإيمانية لمتاع الدّنيا ، وبتعاليم شريعته لاجتناب التّرف والإسراف وحبس المال عن الإنفاق ، فلا يبخل على نفسه بالطيّبات فإذا اتّسعت الغلاّت ودعت دواعي الإقبال على الاستهلاك لم يتأخّر لينشط الاقتصاد ولا يتقهقر الإنتاج .

ومن ثمرات معرفة نظرة الإسلام للمال التّخفيف من التّكالب عليه وتحصين النّفس من آفات الكبر والحسد ، وترسيخ الاطمئنان في النّفوس أنّ العبد محاط بعناية الله ، وأنّ أقوات الأرض ومواردها لا تنضب .

ونظرة الأمل هي النّظرة التّي يدعو إليها الإيمان للابتعاد عن النّظرة التّشاؤميّة التّي توهم أنّ الموارد الموجودة في الطّبيعة لا تكفي لإشباع حاجات النّاس .

ومن الثّمرات أيضا أنّ التّفاضل بين النّاس يكون بالعمل والصّلاح ، وليس بالأحساب والحظوظ الموروثة ، فأيّ فرد وفّى شروط الكفاءة كان متاحا له أن يمارس من الأعمال ما يحسنه ، و هذا يفسح المجال للّذين يكدحون في سبيل الكسب ، ويتكفّلون بأعباء التّنمية الاقتصاديّة إذا خُلّي بينهم وبين الصّدارة والإدارة ، وما دامت عبادة الله هي القيمة العليا للحياة ، فلا يستهين المؤمن برجال المهن والصّناعات ، فالتّقديم بالتّقوى والإتقان ، فالتّاجر التّقي كالعالم التّقي وكغيره من المتّقين ، وكلّ ميسّر لما خلق له ومسؤول عنه .

09 : إذا كان العدل مطلوبا لذاته لصلاح أمر الدّولة والمجتمع وتجنّبا لنقيضه الذّي يؤذن بخراب العمران ، فإنّه يطلب أيضا استجابة لأمر الله ، ومهما يكن من عدل الحكّام أو جورهم فإنّ الرّعيّة لا يرجى منها أن تتقبّل حكما لا تشارك فيه عن طيب خاطر ، أمّا حين يتأسّس المجتمع على الإيمان فإنّ العباد حكّاما ومحكومين يخضعون لأحكامه ، فهم يعلمون أنّهم مهما استخفوا من النّاس بالظّلم لا يمكن أن يفلتوا من رقابة الله ، ومهما ملكوا من أسباب القوّة والمكر لا يأمنوا من مكر الله ، فكلّ ما تنظّمه السّياسة الشّرعية للدّولة يجد القبول لدى غالب الأفراد ، لأنّه مقتضى الحقّ ومظنّة الخير في تقديرهم ، ويتأكّد سلطانه في نفوسهم لأنّه موضع حساب الله وجزائه ، وإنّ إشراك الأفراد على هذا النّحو في إبداء أرائهم من شأنه أن يشعر الجميع بأنّهم من ذوي الشّأن في تصريف شؤون الحياة ، وأنّ القرارات التّي يتّخذها الحكّام قد شاركوا في صناعتها فتنشأ في نفوسهم الهمّة في التّنفيذ ، أمّا حين تحكم السّلطة بالاستبداد فإنّ المشاريع الصّادرة منها تؤول إلى الفشل بسبب اللّامبالاة وإن كانت حقا ، لذلك أوجبت الشّريعة على الأمّة رقابة الحاكم فإذا حاد عن الحقّ ولم يرع الأمانة فلها الحقّ في تقويمه ، والشورى ضرب من المشاركة السّياسيّة التّي ينهض بها القادرون على تحمّل أعباء الحكم ومسؤولياته ، من خلال تكافل سياسي يجعل من السّيادة وظيفةً مشتركة بين

الحاكم والمحكوم لتبادل الآراء والخبرات ، من أجل اختيار أفضل المواقف خدمة للصّالح العام ، والشوّرى كمبدأ من مبادئ الحكم عرفت في الفكر السّياسي منذ عصور سابقة لظهور الإسلام ، فلم تكن ابتكارا إسلاميا غير أنّ الإسلام طوّرها حيث منحها الصّبغة الدّينيّة ، لأنّها تؤدّي إلى التّفكير في المسائل العامّة بجدّ والاشتراك في الحكم بشكل غير مباشر ، وتوجيه الرّعيّة إلى مراقبة الحكّام ، فتقلّ الهفوات ويحصل السّداد في السّياسات المنتهجة والشّورى على هذا النّحو تجنّد الطّاقات في المعرفة النّظريّة والخبرة العمليّة في حوار نقديّ ، يظهر فيه الحقّ فتحرز الجماعة تقدّما في إبعاد الاستبداد بالرّأي ، وفي إعداد الرّعيّة لتفكّر مع حكّامها في خططهم ومشاريعهم لتتمكّن من معرفة أين يكون التّحرّك ، فتتابع القرارات من بدايتها بوعي وتأمّل وتتدرّب على ممارسة الدّور القيادي من أجل إعداد نفسها لاستلام القيادة في حالات الفراغ بكفاءة وقدرة ، وتتعلّم كيف تراقب خطواتِ القيادةِ لئلاّ تنحرف ، فتكون لها بالمرصاد من بداية الطّريق قبل أن تتعقّد المشكلات وبذلك يصعب على الولاّة المنحرفين أن يتلاعبوا بمصير أمّتهم بالوعود الكاذبة لأنّ الأمّة قد أُعِدَّت لترصد الحكم في عمليّة محاكمة ومناقشة من بداية الأمر ، انطلاقا من الحريّات الفرديّة التّي تكفلها العقيدة ، ومن واجب الصّدع بالحقّ الذّي يفرضه التّشريع ، وباجتماع المعاني سالفة الذّكر يتحقّق للأمّة شهودها الحضاري فالتّكافل يحشد القوى ويكتّلها ، والتّشاور يرشّد الرّأي فيسدّده ، والنّصيحة تعصم من الزّيغ وتحفظ المسيرة ، فتحصل الخيرات في المجتمع وتقّل الهفوات .

10 : الحضارة الإسلاميّة تمكّنت من شقّ طريقها إلى أعلى مقامات التّحضّر بإتقان وثبات والمساهمة بدور فعّال في خدمة الإنسانيّة ، ولقد أثبت التّاريخ أنّ الإسلام طبع حياة معتنقيه من العرب وغيرهم بطابع العلم والعمل والجدّ حيث أيقظ فيهم الوعي الذّي دفعهم إلى طلب العلم بهمّة ونشاط ، ومن أيّ

جهة كان ، فأشاعوا بذلك أجواءً فكريةً مشحونةً بشتّى صنوف المعرفة ، ممّا دفعهم إلى الابتكار والإبداع ، لكن التّخلّف تسرّب إلى كيانهم بسبب انحسار المبادئ الإيمانيّة عن مظاهر حياتهم والتّكالب على ملاذ الدّنيا ، والصّراعات الدّاخلية ، والضّربات الخارجيّة التّي كانت على يد التّتار والصّليبيين فتقهقرت حركة الإبداع في شتّى الميادين ، وعليه فإنّ الفرضيّة التّي يقرّرها المنطق ويثبتها الواقع التّاريخي والتّي انطلقنا منها في هذه الدّراسة هي : الفرضيّة الأولى التّي تنصّ على أنّ **الإيمان بالله يحقّق التّحضّر في الدّنيا غير أنّ الأمّة في عمومها لم تتّصف به حقّ الاتّصاف فآل أمرها إلى ما هم عليه ،** بينما الفرضيّة القائلة مبادئ الإيمان لا علاقة لها بترقية حياة الإنسان لانحصاره في الجانب النّظري من قضايا الاعتقاد غير صحيحة ، لأنّها مخالفةٌ للنّصوص القرآنيّةِ والتّجربةِ الواقعيّة للمسلمين .

11 : الأمّة برصيدها الفكري والرّوحي بمقدورها أن تحيل كلّ مظاهرِ الهدم في جسدها إلى قيم إبداع وبناء ، لأنّ الإنسان هو الذي يتحكّم في صياغة الظّروف الخارجيّة إن امتلك زمام نفسه وسعى إلى ممارسة عمليّة التّغيير ولأنّ الإسلام منح المنتمين إليه قدرات إضافيّة لتجاوز الصّعاب وشَحَذَ طاقاتهم من أجل الوصول إلى أعلى مقامات الرّقي وإذا كان النّاس يتوجّهون إلى أهدافهم مشيا ، فإنّ الإسلام أعدّ أجيالا عرفوا كيف يسعون إليها وهم يحطّمون الأرقام القياسيّةَ ويتجاوزون الموانع ويقطعون المسافات وقد وصفهم القرآن بأنّهم يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ، لذلك فإنّ المسارعة في الإنجاز لتحقيق الشّهود الحضاري هي عودة إلى أصولنا التي رسم معالمَها كتابنا العزيز ، ووضع ملامحها نبيّنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام ، وجسّد مشاريعَها أجدادنا الرّوّاد ، وعليه فإنّ الانتماء إلى الإسلام يعني الموافقة المبدئيّة على الدّخول في عمل مبرمج مرسوم ، والإيمان يعني التّحقّق بالقناعات بجدوى هذا العمل ، أمّا التّقوى فهي تلك الطّاقة الفذّة التي

توقظ الضّمير فيظلّ متألّقا ما دام يشعر بمراقبة الله ويجيء الإحسان ليضع المسلم المتّقي في القمّة حيث الإبداع في كلّ أعماله .

ثانيا : التّوصيات

ونختم هذه الدّراسة بالتّوصيات الآتية :

01 : ضرورة الاعتناء بالدّراسات العقديّة من خلال الغوص في معاني القضايا الإيمانية بأبعادها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية والثّقافيّة .

02 : التّفكير في تدريس برامج العلوم الإنسانيّة والتكنولوجية وعلوم الطّبيعة انطلاقا من أبعادها العقديّة وضوابطها الشّرعيّة وأهدافها الأخلاقيّة ، تماشيا مع مقصد القرآن الكريم في الدّعوة للنّظر والتّأمّل في مظاهر الكون .

03 : ضرورة التّركيز على الجوانب العمليّة لقضايا الإيمان التّي تصبّ في تزكية النّفوس والنّزوع إلى النّشاط الإيجابي والتّعمير ، والالتفات إلى المشكلات الفكريّة التي يعيشها النّاس في العصر الرّاهن ، دون الانحباس في المسائل التي طرحت في العصور السّابقة .

04 : ضرورة التّفكير في جعل مادّة العقيدة أساسيّة لجميع تخصّصات العلوم الشّرعيّة ، وإبراز الجانب العقدي في مباحث فنون الشّريعة ، من فقه وأصول وتفسير وحديث ، إيمانا منّا أنّ الاجتهاد لاستنباط الأحكام الشّرعيّة إذا لم يكن مصحوبا بالإخبات والخشية ، لا يؤتي ثماره المرجوّة .

05 : إعادة إحياء بعض المصطلحات الحيويّة في الدّراسات الشّرعيّة ، التي ضيّقت معانيها كمفهوم العبادة ، الفقه ، الإيمان ، الأصول ، وغيرها من المصطلحات ، وإعطائها الفهم الحقيقي ، والحجم الطّبيعي الذي جاءت به النّصوص الشّرعيّة .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنيّة

صدر الآيـة	رقمها	الصّفحة
سورة الفاتحة		
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ	02	145
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ	03	145
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ	04	145
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ	05	145
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ	06	145
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ	07	145
سورة البقرة		
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ	06	80
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ	08	50
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ	10	194
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى	11	194
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن	12	194
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا	29	180
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى	30	121 ، 149
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ	31	149 ، 151

قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا	32	149 ، 151
قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ	33	149
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ	34	149
وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ	35	149
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا	36	149 ، 150
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ	37	150
قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا	38	150
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ	39	150
أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ	44	77
وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ	124	94
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا	143	89 ، 92 ، 286
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ	146	33
وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ	155	198
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ	156	198
أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ	157	198
إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	164	162
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ	172	164
كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ	180	273 ، 274

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ	183	122
وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟	195	165 ، 166
ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن	197	123
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ	207	82
كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ	213	68 ، 69 ، 238
يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ	215	135 ، 273
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا	245	267
فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ	251	70
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى	260	22
مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى	261	267
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟	264	143 ، 215
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ	265	194
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن	267	78
ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ	268	78
لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى	273	215 ، 216

سورة آل عمران

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ	14	179
شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ	18	88
قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى	26	142

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ	31	65، 83
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ	64	136
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ	81	18
وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا	103	209، 210
كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	110	108، 288
لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ	128	137
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي	129	137
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ	139	199
إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ	140	199
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ	144	137
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا	145	138
قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ	154	139
فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ	159	254
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم	165	132
وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ	166	132
ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ	168	138، 139
ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ	172	80
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ	173	80، 201

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ	174	81، 201
إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ	175	81، 143
كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا	185	159، 179
إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	190	173
ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا	191	173
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ	192	173
رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي	193	173
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ	194	173
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ	200	198
سورة النّساء		
وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي	05	272
وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ	06	273
يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ	11	196
وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ	33	204، 205
فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ	41	91
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ	59	65، 68، 69
فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ	65	50، 71
قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ	77	159، 179
أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ	78	138

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ	82	69
وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا	93	166 ، 167
إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ	97	200
إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ	98	200
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ	99	200
وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ	100	139 ، 271
وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ	110	85
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ	113	70 ، 71
إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ	142	194
إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ	145	32

سورة المائدة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟	08	239، 240
مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ	32	166
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ	41	36
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟	51	210، 211
قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ	76	143
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟	87	181

سورة الأنعام

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ	07	79

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ	34	198
قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ	63	142
قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ	64	142
وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا	70	178
وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى	80	190
وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا	81	190
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم	82	190
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا	135	76
وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ	138	183
وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ	139	183
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ	140	183
وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ	151	141
قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ	162	81
لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠	163	81
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ	165	277، 278

سورة الأعراف

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ	10	176، 256
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ	23	133
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ	31	164

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ	32	141، 165، 180
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ	54	170، 171
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ	55	171
وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ	56	171
وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا	57	171
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟	96	01، 142، 193
وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟	153	85، 86
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا	179	74، 152

سورة الأنفال

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ	02	28، 29، 39، 49، 51، 52، 76
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ	03	39، 49، 52
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ	04	39، 40، 49، 50، 52
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ	22	74، 152
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟	46	238، 239
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ	55	152
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ	63	205، 506
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ	65	199
ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ	66	199

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ	72	236
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ	73	208
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ	75	204

سورة التّوبة

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ	11	205
أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ	19	278
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ	23	205، 210
ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا	31	137
إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ	40	203
ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم	67	216
وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ	71	209
ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن	80	249
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ	84	249
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ	103	122
وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ	122	47، 48
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن	124	79
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم	125	79، 132

سورة يونس

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ	05	174

إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا	06	161
قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ	31	128
وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا	45	160
أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ	62	190
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ	63	190
لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	64	191

سورة هود

وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى	06	140، 265
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ	28	148
وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن	30	133
وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ	61	121

سورة يوسف

وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا	17	13، 14، 17، 35
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ	39	204
مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ	40	204
وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ	53	118
لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ	111	77

سورة الرّعد

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ	01	126

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ	02	126 ، 171
وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ	03	126 ، 171
وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ	04	126 ، 171
ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ	08	135
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ	09	135
سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن	10	135
لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ	11	135
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ	15	131
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟	29	37

سورة إبراهيم

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ	01	218
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ	07	83
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ	13	131
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ	14	131
وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ	15	131
مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ	16	131
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ	17	131
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً	24	188
تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا	25	188

سورة الحجر

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ	14	79
لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ	15	79
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ	28	150
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن	29	150 ، 151
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ	75	60

سورة النّحل

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا	05	164 ، 183
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ	06	164 ، 183
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ	07	164 ، 183
وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ	08	164
وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ	71	277
وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ	78	54
وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا	84	91
إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ	90	239
مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ	97	165
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ	112	01 ، 84
ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ	125	77 ، 78

سورة الإسراء

وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا	16	104
مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ	18	181
وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا	19	181
كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ	20	181
وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ	36	54
تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ	44	178
وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ	70	149
وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ	90	20
أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ	91	21
أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ	92	21
أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ	93	21

سورة الكهف

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	45	159
ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ	46	272

سورة مريم

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ	08	133
قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ	09	133

سورة طه

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ	65	155

قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ	66	155
فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ	67	155
قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ	68	155
وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا	69	155
فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا	70	155
قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ	71	155
قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا	72	155
إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا	73	155
قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي	84	81
وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ	115	148
وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ	116	148
فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ	117	148
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ	118	148
وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ	119	148
فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ	120	138 ، 148
فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا	121	148
ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ	122	148
قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ	123	275

وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى فَإِنَّ	124	275

سورة الأنبياء

وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ	34	138
كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم	35	138
وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ	47	270
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن	51	78
قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ	68	132
قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ	69	132
وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ	70	133

سورة الحج

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ	05	146
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ	11	196
ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ	41	121
وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ	54	220
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ	77	89، 91
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ	78	89، 91

سورة المؤمنون

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ	12	146
ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ	13	146

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا	14	146
ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ	15	146
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ	16	146
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ	60	84
أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ	61	84، 163
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ	71	148

سورة النّور

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ	23	250
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ	44	163

سورة الفرقان

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	02	127
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا	03	127
تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ	61	162
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ	62	162، 221

سورة الشّعراء

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ	214	113

سورة النّمل

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ	40	83
قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ	44	221
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ	65	136

سورة القصص

طسٓمٓ	01	154
تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ	02	154
نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ	03	154
إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ	04	154
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ	05	154
وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ	06	154
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا	33	138
وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ	57	130 ، 141
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ	58	130
وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ	77	165

سورة العنكبوت

الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن	01 ـــ 02	196
وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ	03	196
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ	43	217
ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ	45	122
وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا	60	141
وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ	64	158
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ	69	31

سورة الرّوم

الآية	رقمها	الصفحة
وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ	06	220
يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	07	220
مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ	31	204
مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ	32	204
فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ	50	12

سورة لقمان

الآية	رقمها	الصفحة
أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي	20	175
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ	33	178 ، 179

سورة الأحزاب

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ	72	151

سورة سبأ

الآية	رقمها	الصفحة
قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ	46	73

سورة فاطر

الآية	رقمها	الصفحة
مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا	02	128
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ	03	128 ، 129
وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ	28	277

سورة يس

الآية	رقمها	الصفحة
ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ	23	143

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا	71	176
وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا	72	176
وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ	73	176

سورة ص

كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ	29	76

سورة الزّمر

قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ	53	86
وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ	69	91

سورة غافر

وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ	38	78
مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا	40	267
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي	75	160

سورة فصّلت

ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ	11	178

سورة الشّورى

فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ	15	239
وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ	27	185 ، 258
وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ	28	254
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	29	258
وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ	38	254

سورة الزّخرف

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا 10 258

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً 11 258

وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ 12 258

لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ 13 258

سورة الجاثية

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ 13 257

سورة الأحقاف

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن 04 127

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى 20 160

سورة محمّد

فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ 19 55

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ 24 76

سورة الفتح

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ 04 28

سورة الحجرات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ 06 250

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ 10 203، 208

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ 11 208

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا 12 208

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ	13	237
قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ	14	36
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟	15	22، 50، 52

سورة ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا	16	135

سورة الذّاريات

وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ	22	140
فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ	23	140
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا	56	140
مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ	57	140
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ	58	140

سورة النّجم

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ	39	272
وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ	40	272
ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ	41	272

سورة القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ	17	69

سورة الحديد

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟	07	278، 279
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا	20	158

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ	21	158

سورة المجادلة

لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ	22	36

سورة الحشر

مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ	07	268، 269
لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ	08	206، 269
وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ	09	206، 213
وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ	10	208
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا	18	162

سورة الممتحنة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ	13	210

سورة الجمعة

هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ	02	86، 115، 120
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن	02	70
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ	09	262
فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ	10	262

سورة المنافقون

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ	01	32، 50
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ	09	139
وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن	10	139

وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ	11	139

سورة الطّلاق

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا	02	141، 142، 203
وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ	03	142، 203

سورة التّحريم

وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ	12	20

سورة الملك

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ	01	127
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ	02	127
ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ	03	127، 172
ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ	04	127، 172
وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ	10	77، 217
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ	15	175، 256، 265
أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ	21	140

سورة القلم

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ	01	217
أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ	35	77
مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ	36	77

سورة المدثّر

وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا	31	39

كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ	38	120
إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ	39	120
فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ	40	120
عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ	41	120
مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ	42	120
قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ	43	120
وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ	44	120
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ	45	120
وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ	46	120
حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ	47	120
فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ	48	120

سورة الإنسان

إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ	02	83
إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا	03	83
وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ	08	82
إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ	09	82

سورة المرسلات

أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ	20	146
فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ	21	146

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ	22	146
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ	23	146
سورة النّازعات		
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ	18	120
وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ	19	120
سورة عبس		
قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ	17	146
مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ	18	146
مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ	19	146
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ	20	146
ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ	21	146
ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ	22	146
سورة الفجر		
وَٱلْفَجْرِ	01	161
وَلَيَالٍ عَشْرٍ	02	161
وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ	03	161
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ	04	161
سورة البلد		
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ	12	212
فَكُّ رَقَبَةٍ	13	212

أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ	14	212
يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ	15	212
أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ	16	212
سورة الشّمس		
وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا	07	60
فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا	08	60
سورة اللّيل		
وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ	01	161
وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ	02	161
سورة الضّحى		
وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ	08	274
سورة العلق		
ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ	01	144، 218
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ	02	144، 218
ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ	03	144، 218
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ	04	144، 145، 218
عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ	05	145، 218
كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ	06	153
أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ	07	153
أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ	09	247

عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ	10	247
أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ	11	247
أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ	12	247

سورة البيّنة

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ	05	192

سورة العاديات

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ	08	273

سورة العصر

وَٱلۡعَصۡرِ	01	198
إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ	02	198
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ	03	198

سورة الماعون

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ	01	212
فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ	02	212
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ	03	212
فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ	04	212
ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ	05	212
ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ	06	212
وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ	07	212

فهرس الأحاديث النّبويّة

صدر الحديث	الصّفحة
اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه	60
أتدورن ما الإيمان وحده	44
إذا ضيّعت الأمانة	240
إذا مرض العبد أو سافر	271
أفلا شققت عن	36، 37
أقسم بيننا وبينهم النّخل	206
أكمل المؤمنين إيمانا	52
ألا أخبركم بأهل الجنّة	277
ألا إنّي أوتيت الكتاب	70
ألا تجيبوني يا معشر	252
أمسك عليك بعض	273
أمّا والله لو شئتم لقلتم	252
أمورا كنّا نصنعها في	183 ، 184
أنتدب الله لمن خرج	41
إنّ الأشعريين إذا أرملوا	214 ، 267 ، 268
إنّ الله بعثني إليكم فقلتم	22
إنّ الله تعالى كتب الحسنات	271
إنّ الله كتب على ابن آدم	22 ، 23
إنّ الله لا يظلم مؤمنا	194
إنّ الله يرضى لكم ثلاثا	238
إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم	250
إنّ بالمدينة أقواما	271

صدر الحديث	الصّفحة
إنّ من أعظم الجهاد	250 ، 251
إنّك إن تذر ورثك أغنياء	273
إنّكم تختصمون لدّي ولعلّ	280
إنّما بعثت لأتمّم مكارم	119
أوجدتم يا معشر الأنصار	252
الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته	23 ، 43
الإيمان بضع وستّون أو بضع	40
إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب	208
أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم	161
بينما رجل يسوق بقرة قد حمل	21
بينما رجل يمشي بطريق	263
تكفّل الله لمن خرج في سبيله	20
ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة	266
الحجّ عرفة	45
الحمد لله أحمده و أستعينه	113 ، 114
ذهب أهل الدّثور بالأجور	274
ذهب أهل الدّثور بالدّرجات	207 ، 261
رأيت سبعين من أهل الصفّة	159
سبعة يُظلّهم الله في ظلّه	240
الشّمس والقمر لا تنكسفان	183
عليكم بالجماعة وإيّاكم	238
العمل في الهرج كهجرة	270
فقال أمسك عليك بعض	273
قال الله يؤذيني ابن آدم	164
قال فقلت إنّهم لم يعبدوهم	53

صدر الحديث	الصّفحة
كلاّ والله لا يخزيك الله	58
كلّ المسلم على المسلم	279
كلّ سلامى من النّاس عليه	214
لا ألفينّ أحدكم متّكئا على	71
لا تزول قدما عبد يوم القيامة	163 ، 280
لا حسد إلاّ في اثنين رجل	275
لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ	208 ، 282
لا يزني الزّاني	49
لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي	215
لقد خشيت على نفسي	58
اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك	273
اللّهمّ ألهمني رشدي وقني شرّ	60
اللّهمّ إنّي أسألك الهدى والتّقى	274
اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الكفر	272
لمّا قدموا المدينة آخى رسول	206
لو كانت الدّنيا تعدل عند الله	161
ليس الشّديد بالصّرعة	122
المؤمن القويّ خير وأحبّ	200
المؤمن للمؤمن كالبنيان	210
ما رأيك في هذا	276 ، 277
ما من مسلم يغرس غرسا	266
ما نفعني مال كمال أبي بكر	273
ما يزال الرّجل يسأل النّاس	215
مثل المؤمنين في توادّهم	209 ، 211
المسلمون شركاء في ثلاث	281

صدر الحديث	الصّفحة
المسلمون على اختلاف	235
من أطاعني فقد أطاع الله	244
من اقتطع مال امرئ مسلم	279
من سلك طريقا يلتمس فيه	220
من ينظر لي ما فعل	296 ، 297
نعمّا بالمال الصّالح للرّجل	273
هذا جبريل أتاكم يعلّمكم	23 ، 37
هذا كتاب من محمّد النّبي	235
هل جرّبتم عليه الكذب	58
والرّؤيا ثلاثة فرؤيا الصّالحة	62
والله ما الفقر أخشى عليكم	159
ويلك قطعت عنق صاحبك	250
يا أيّها النّاس ألا إنّ ربّكم	238
يا رسول الله أرأيت هذا	255
يا رسول الله أصابني الجهد	213
يا رسول الله الذّين يأتون	84
يا رسول الله طهّرني	245
يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم	129
يا معشر الأنصار مقالة	251 ، 252
يغفر الله لرسول الله	251

فهرس المصطلحات الفنيّة

المصطلح	الصّفحة
الأثر	12 ، 13
الإدراك	76
الأسطرلاب	244
الإلهام	59 ، 65
الأوّليّات	58
الإيمان	من 13 إلى 17 ، 24 ، 30
//////////	32 ، 35 ، 28 ، 40 ، 45
التّحضّر	103
التّواتر	56
الثّقافة	96
الجهل	57
الحضارة	من 95 إلى 102 ، 104
	105 ، 108
الحكم	77
الرّشد	78
الزّهد	179
السّلف	38
الشّاهد	88 ، 90
الشّريعة	50 ، 51
الشّك	56
الشّهادة	89 ، 91 ، 92 ، 93
الشّهود	88 ، 89

الظنّ 56 ، 58
العرف 246
العقل الحكيم 77 ، 78
العقل الرّشيد 78
العقل الوازع 77 ، 78
العقيدة 50 ، 51 ، 52
العلم 56
علم العقيدة 52 ، 53
العلم النّظري 54
الفراسة 60 ، 61 ، 65
القياس 59
الكشف 62 ، 64 ، 65
المتواترات 55
المجرّبات 57
المحسوسات 57
المكاشفات 62
ملكة الحكمة 77
المدنيّة 96 ، 97
المواطنة 236
النّظر 59 ، 62
الوازع الأخلاقي 77
وسط 89 ، 90
الوسطيّة 89
الوهم 56 ، 58

فهرس الأعلام

الاسم	الصّفحة
ابن البيطار	229
ابن تيمية	17 ، 18 ، 41 ، 62 ، 73
ابن جرير الطّبري	14 ، 41
ابن حجر العسقلاني	16
ابن حزم الظّاهري	27
ابن خلدون	46 ، 75 ، 97
ابن رشد	227
ابن سيده الأندلسي	19
ابن سينا	227 ، 228
ابن الشّاطر	225
ابن طفيل	227 ، 228
ابن كثير	175
ابن منظور	13 ، 19
ابن النّفيس	228
ابن الهيثم	223
أبو إسحاق الشّاطبي	63 ، 71 ، 75
أبو الحسن الأشعري	34
أبو القاسم الجنيد	64
أبو بكر الرّازي	226 ، 231
أبو بكر الصدّيق	212 ، 243
أبو جعفر الطّحاوي	35

الاسم	الصّفحة
أبو حامد الغزالي	27 ، 47 ، 71 ، 74
أبو حنيفة النّعمان	35
أبو حيّان الأندلسي	16
أبو سفيان	49 ، 57 ، 200 ، 210
أبو سليمان الخطّابي	40 ، 71
أبو سليمان الدّاراني	63
أبو موسى الأشعري	213
الأزهري	19
أسامة بن زيد	36
أسوالد شبنغلر	107
ألبرت أشفيتسر	99
الآلوسي	48
أوغوست كونت	190
البّاقلاّني	14 ، 83
البتّاني	225
البخاري	29
البدر العيني	43
برغسون	116
بلال بن رباح	212
البيضاوي	16
البيهقي	25
تايلور	96 ، 99
جابر بن حيّان	230

الاسم	الصّفحة
الحباب بن المنذر	255
الحسن البصري	39 ، 47 ، 48
حمّاد بن أبي سليمان	34 ، 42
خالد بن يزيد	229 ، 230
خبّاب بن الأرث	212
خبيب بن عدي	191
خديجة بنت خويلد	58
الخوارزمي	222
الرّاغب الأصبهاني	74
الزّمخشري	279
الزّهراوي	228
زغريد هونكة	232
سارتر	189
ساعدة بن كعب	233
سعد الدّين التّفتازاني	23
سعد بن عبادة	234
سعيد حوى	64
سلمان الفارسي	193
سهيل بن عمرو	114
سيف الدّين الآمدي	15
سيّد قطب	248
عبد القاهر البغدادي	61
عبد الله بن عبّاس	69

الاسم	الصّفحة
علي بن أبي طالب	47 ، 160
عمر بن عبد العزيز	241 ، 242 ، 253
الغامديّة	244 ، 245
الفزاري	224
فشر	109 ، 112
القاضي عيّاض	15
كريسي موريسون	170
كلوتس	170
الماتريدي	34
ماعز	244
مالك بن أنس	29
مالك بن نبي	100 ، 101 ، 108 ، 116
المأمون	222
الماوردي	239
مجاهد بن جبر	38 ، 47
محمّد الخضِر حسين	67
محمّد الطّاهر بن عاشور	28 ، 175
محمّد رشيد رضا	25
محي الدّين بن عربي	65
النّووي	30 ، 33
هرقل	49 ، 57 ، 111
ول ديورنت	98 ، 116

فهرس المصادر والمراجع

ــ **أبكار الأفكار في أصول الدّين** : علي بن محمّد الآمدي ، تحقيق أحمد محمّد المهدي ، دار الكتب والوثائق القوميّة ، القاهرة ، مصر 1423 هــ/2002 م .

ــ **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبيّة** : أحمد علي الملاّ ، دار الفكر سوريا 1406 هــ/1968 م .

ــ **إحياء علوم الدّين** : أبو حامد الغزالي دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

ــ **إدارة الذّات** : أكرم رضا ، دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة ، القاهرة ، مصر الطّبعة الثّالثة 1420 هــ/2000 م .

ــ **أدب الدّنيا والدّين** : علي بن محمّد الماوردي ، الشّركة الجزائريّة اللّبنانيّة الجزائر ، الطّبعة الأولى 1427 هــ/2006 م .

ــ **أساس البلاغة** : محمود بن عمر الزّمخشري ، دار بيروت ، بيروت ، لبنان 1404 هــ/ 1984 م .

ــ **أسد الغابة في معرفة الصّحابة** : علي بن محمّد ابن الأثير ، تحقيق خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت الطّبعة الأولى 1418 هــ/1997 م .

ــ **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام** : الخطيب سليمان ، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، بن عكنون ، الجزائر 1990 م .

ــ **أصول الدّعوة** : عبد الكريم زيدان ، دار الكتاب ، البليدة ، الجزائر ، 1990 م .

ــ **أصول الدّين** : عبد القاهر البغدادي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الثّالثة 1401 هــ/1981 م

ــ **أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام** : محمّد الطّاهر بن عاشور ، اعتنى به محمّد الطّاهر الميساوي ، دار النّفائس الأردن ، الطّبعة الأولى1421 هــ/2001 م .

ــ **أصول تشكيل العقل المسلم** : عماد الدّين خليل ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت الطّبعة الأولى 1426 هــ/2006 م .

ــ **إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين : محمّد بن أبي بكر** بن قيّم الجوزيّة ، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة العصريّة بيروت لبنان 1407 هــ/1987 م .

ــ **أفاق جزائريّة** : مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصّبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق سوريا 1406 هــ/1986 م .

ــ **اقتصادنا** : محمّد باقر الصّدر ، دار التّعارف ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانيــة 1411 هــ/1991 م .

ــ **اقتضاء العلم العمل** : الخطيب البغدادي أحمد بن علي ، تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني المكتب الإسلامي بيروت دمشق الطّبعة الخامسة 1404 هــ/1984 م

ــ **إكمال المعلم بفوائد مسلم " شرح صحيح مسلم "** : عيّاض بن موسى ، تحقيق يحيى إسماعيل دار الوفاء ، المنصورة مصر ، الطّبعة الأولى 1419 هــ/1998 م .

ــ **الإبانة عن شريعة الفرقة النّاجية ومجانبة الفرق المذمومة** : ابن بطّة عبد اللّه بن محمّد ، تحقيق رضا بن نعسان معطي ، دار الرّاية الرّيّاض السّعوديّة ، الطّبعة الثّانية 1415 هــ/1994 م

ــ **الأحكام السّلطانيّة والولايات** : علي بن محمّد الماوردي تحقيق سمير مصطفى رباب ، المكتبة العصريّة ، بيروت لبنان 1422 هــ/2001 م

ــ **الأخلاق الإسلاميّة وأسسها** : عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميداني ، دار القلم دمشق ، سورية ، الطّبعة الرّابعة 1417 هــ/1996 م .

ــ **الأخلاق والسّير في مداواة النّفوس** : ابن حزم الظّاهري شركة الشّهاب الجزائر

ــ **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار** : يوسف بن عبد اللّه ابن عبد البرّ ، اعتنى به عبد المعطي أمين قلعجي مؤسّسة الرّسالة القاهرة مصر الطّبعة الأولى 1414 هــ/1993 م .

ــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : يوسف بن عبد اللّه ابن عبد البرّ ، تحقيق الشّيخ على محمّد معوّض ، والشّيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1415 هــ/1995 م .

ــ **الأسس المنطقيّة للاستقراء** : محمّد باقر الصّدر ، دار التّعــارف للمطبوعــات بيروت ، لبنان ، الطّبعة الخامسة 1406 هــ/1986 م .

ــ **الإسلام بين البداوة والحضارة** : قاسم حبيب جابر ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1423 هــ/2002 م .
ــ **الإسلام والأوضاع الاقتصاديّة** : محمّد الغزالي ، مكتبة رحاب ، الجزائر .
ــ **الإسلام وقضايا العصر** : محمّد عمارة ، دار الوحدة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعــة الأولى 1980 م .
ــ **الإسلام ومستقبل الحضارة** : صبحي الصّالح ، دار الشّورى ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1982 م .
ــ **الإسلام ومشكلات الحضارة** : سيّد قطب ، دار الشّروق ، القاهرة ، مصر الطّبعة الثّالثة عشر 1426 هــ/2005 م .
ــ **الأشباه والنّظائر في قواعد وفروع فقه الشّافعيّة** : جلال الدّين السيّوطي ، ضبط خالد عبد الفتّاح شبل أبو سليمان ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الثّالثة 1419 هــ/1999 م .
ــ **الإصابة في تمييز الصّحابة** : ابن حجر العسقلاني محمد بن علي ، اعتنى به علي محمّد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1412 هــ/1992 م
ــ **الاعتصام** : الشّاطبي إبراهيم بن موسى ، شرحه عبد اللّه درّاز ووضع تراجمه محمّد عبد اللّه درّاز ، دار المعرفة بيروت لبنان 1402 هــ/1982 م .
ــ **الأعلام** : خير الدّين الزّركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الرّابعة عشر 1999 م .
ــ **الاقتصاد الإسلامي والقضايا الفقهيّة المعاصرة** : علي أحمد السّالوس ، دار الثّقافة الدّوحة ، مؤسّسة الرّيان للطّباعة والنّشر ، بيروت لبنان 1418 هــ/1998 م
ــ **الاقتصاد في الاعتقاد** : أبو حامد الغزالي ، اعتنى به علي بوملحم ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1993 م .
ــ **الأنساب** : عبد الكريم بن منصور السّمعاني ، دار الجنان ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1408 هــ/1988 م .
ــ **الإنسان في القرآن الكريم** : عبّاس محمود العقّاد ، مكتبة رحّاب الجزائر .

ـ **الإيمان** : أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ودمشق ، الطّبعة الثّانية 1403 هــ/1983 م .

ـ **الإيمان أثره في حياة الإنسان** : حسن التّرابي ، دار القلم ، الكويت ، الطّبعة الأولى 1974 م .

ـ **الإيمان باللّه وأثره في الحياة** : عبد المجيد عمر النجّار ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1997 م .

ـ **الإيمان والحياة** : يوسف القرضاوي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان الطّبعة التّاسعة عشر 1419 هــ/1998 م .

ـ **البصائر النّصيريّة في علم المنطق** : عمر بن سهلان السّاوي ، تعليق محمّد عبده دار الفكر اللّبناني ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1993 م .

ـ **التّبصير في معالم الدّين** : محمّد بن جرير الطّبري ، تحقيق علي بن عبد العزيز بن علي الشّبل ، دار العاصمة الرّياض السّعوديّة الطّبعة الأولى 1416 هــ /1996 م

ـ **التّعريفات** : الجرجاني علي بن محمّد ، اعتنى به محمّد باسل عيون السّود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1421هــ/ 2000 م .

ـ **التّفسير الإسلامي للتّاريخ** : عماد الدّين خليل ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان الطّبعة الخامسة 1991 م .

ـ **التّفكير فريضة إسلاميّة** : عبّاس محمود العقّاد ، مكتبة رحاب ، الجزائر .

ـ **التّكافل الاجتماعي في الإسلام** : محمّد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القـــاهرة مصر ، طبعة 1991 م .

ـ **التّكافل الاجتماعي في الإسلام** : مصطفى السّباعي ، المكتـــب الإســـلامي ، دار الورّاق ، الرّياض ، السّعوديّة ، الطّبعة الأولى 1419 هــ /1998 م .

ـ **التّمهيد لما في الموطّأ من الأسانيد** : ابن عبد البرّ يوسف بن عبد اللّه ، حقّقه عبد الرّزّاق المهدي ، دار إحياء التّراث العربي بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1420 هــ/2000 م .

ـ **الجامع لأحكام القرآن** : القرطبي محمّد بن أحمد ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الخامسة 1417 هــ / 1996 م .

ـ **الحضارة الإنسانيّة وقسط العرب فيها** : عمر فرّوخ ، دار لبنان للطّباعة والنّشر بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1400 هـ/1980 م .
ـ **الحضارة والنّظام العالمي** : علي الشّامي ، دار الإنسانيّة ، بيروت لبنان 1995 م
ـ **الخراج وأحكامه** : حمدان عبد الحميد الكبيسي ، شركات المطبوعات للتّوزيع والنّشر ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 2004 م .
ـ **الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة** : ابن حجر العسقلاني محمد بن علي دار الجيل ، بيروت ، لبنان 1414 هـ / 1993 م .
ـ **الدّعوة إلى الإسلام** : توماس و أرنولد ، ترجمة إبراهيم حسن ، إبراهيم عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النّحراوي ، مكتبة النّهضة المصريّة ، القاهرة ، مصر الطّبعة الثّالثة 1970 م .
ـ **الدّعوة إلى الإصلاح** : محمّد الخضر حسين ، جمع وتحقيق على الرّضا التّونسي الطّبعة الثّانية 1393 هـ / 1973 م .
ـ **الدّولة الإسلاميّة المعاصرة ، الفكرة والتّطبيق** : جمال الدّين محمّد محمود ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1413 هـ/1992 م .
ـ **الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب** : إبراهيم بن نور الدّين بن فرحون المالكي ، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدّين الجنّان ، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى ، 1417 هـ / 1996 م .
ـ **الدّين** : محمّد عبد اللّه درّاز ، دار القلم ، الكويت ، طبعة 1402 هـ/1982 م .
ـ **الذّريعة إلى مكارم الشّريعة** : الحسين بن محمّد الرّاغب الأصبهاني تحقيق أبو اليزيد أبو زيد العجمي دار السّلام القاهرة مصر الطّبعة الأولى 1428 هـ/2007 م
ـ **الذّيل على طبقات الحنابلة** : عبد الرّحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
ـ **الردّ على الدّهريين** : جمال الدّين الأفغاني ، ترجمة محمّد عبده ، المطبعة الرّحمانيّة ، مصر 1344 هـ/1925 م .
ـ **الرّحيق المختوم** : صفيّ الرّحمن المباركفوري ، شركة الشّهاب ، باب الواد الجزائر 1408 هـ/1987 م .

ـ **الرّسالة** : محمّد بن إدريس الشّافعي ، تحقيق أحمد محمّد شاكر ، المكتبة العلميّة بيروت ، لبنان (د ت)

ـ **الرّسالة القشيريّة في علم التّصوّف** : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري تحقيق هاني الحاج ، المكتبة التّوفيقيّة القاهرة ، مصر .

ـ **الرّسول والعلم** : يوسف القرضاوي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّالثة 1406 هـ/1985 م .

ـ **السّلفيّة مرحلة زمنيّة مباركة لا مذهب إسلامي** : محمّد سعيد رمضان البـــوطي دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، طبعة 1397 هـ/2001 م .

ـ **السّياسة الشّرعيّة** : عبد الوهّاب خلاّف : ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان الطّبعة السّادسة 1418 هـ/1997 م .

ـ **السّياسة الماليّة والنّقديّة في ظلّ الاقتصاد الإسلامي** : عوف محمود الكفــراوي مكتبة الإشعاع للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، الإسكندرية ، الطّبعة الأولى 1997 م .

ـ **السّيرة النّبويّة** : أبو الحسن علي الحسني النّدوي ، دار بن كثير دمشق و بيروت الطّبعة الثّانية عشر 1421 هـ/2001 م .

ـ **السّيرة النّبويّة** : عبد الملك ابن هشام ، تحقيق ، محمّد علي القطب ، محمّد الدّالي بلطة ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، لبنان 1424 هـ/2003 م .

ـ **السّيرة النّبويّة الصّحيحة** : أكرم ضياء العمري ، مركز بحوث السنّة والسّيرة بجامعة قطر 1411 هـ 1991 م .

ـ **السنّة** : أبو بكر أحمد بن محمّد الخلاّل ، دراسة و تحقيق عطيّة بن عتيق الزّهراني ، دار الرّاية الرّيّاض السّعوديّة الطّبعة الثّانية ، 1415 هـ / 1994 م .

ـ **السنّة** : عبد اللّه بن أحمد بن حنبل ، تحقيق محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1414 هـ/1994 م .

ـ **الصّحاح ، تاج اللّغة وصحاح العربية** : إسماعيل بن حمّاد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الرّابعة 1990 م .

ـ **الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع** : محمّد بن عبد الرّحمن السّخاوي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

ــ **الطّبقات الكبرى** : محمّد بن سعد ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1968 م .
ــ **العدالة الاجتماعيّة في الإسلام** : سيّد قطب ، دار الشّروق ، القــاهرة ، مصــر الطّبعة التّاسعة 1403 هـــ/1983 م .
ــ **العقيدة الإسلاميّة والفكر المعاصر** : محمّد سعيد رمضان البوطي ، جامعة دمشق مديريّة الكتب الجامعيّة مطبعة خالد بن الوليد 1409 ــ 1410 هـــ/1988 ــ1989 م
ــ **العلم يدعو للإيمان** : أ.كريسي موريسون ، ترجمة محمود صالح الفليكي ، دار ابن كثير ، دمشق ــ بيروت ، الطّبعة الأولى 1427 هـــ/2006 م .
ــ **الغريبين في القرآن والحديث** : لأبي عبيد أحمد بن محمّد الهروي ، تحقيق أحمد فريد المزيدي المكتبة العصريّة صيدا بيروت لبنان الطّبعة الأولى1419هـــ/1999 م
ــ **الفتوحات المكيّة** : محي الدّين بن عربي ، دار صادر ، بيروت لبنان .
ــ **الفرق بين الفرق** : عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، اعتنى به الشّيخ إبراهيم رمضان دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1417 هـــ/1997 م .
ــ **الفصل في الملل والنّحل** : علي بن أحمد بن حزم ، تحقيق محمّد إبراهيم نصير عبد الرّحمن عميرة ، دار الجيل بيروت لبنان الطّبعة الثّانية 1416 هـــ/1996 م.
ــ **الفهرست** : محمّد بن أبي يعقوب ابن النّديم ، مطبعة الاستقامة القاهرة ، مصر .
ــ **القاموس المحيط للفيروزبادي** : ترتيب الطّاهر أحمد الزّاوي ، الدّار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، الطّبعة الثّالثة ، 1980 م .
ــ **القرآن وقضايا الإنسان** : عائشة عبد الرّحمن بنت الشّاطئ ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1972 م .
ــ **الكامل في التّاريخ** : علي بن محمّد عزّ الدّين بن الأثير ، دار صادر ، بيروت لبنان 1402 هـــ/1982 م .
ــ **الكتاب المقدّس** : جمعيّات الكتاب المقدّس المتّحدة 1965 م .
ــ **اللّه** : عبّاس محمود العقّاد ، دار المعارف ، مصر ، الطّبعة السّادسة 1969 م .
ــ **اللّه والعلم الحديث** : عبد الرزّاق نوفل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان الطّبعة الثّالثة 1973 م .

ـ **اللّه يتجلى في عصر العلم** : نخبة من العلماء الأمريكيين ، ترجمة الدّمرداش عبد المجيد سرحان ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .
ـ **المال والحكم في الإسلام** : عبد القادر عودة ، مكتبة الفلاح الكويــت ، الطّبعــة الأولى 1399 هــ/1979 م .
ـ **المبادئ الاقتصاديّة في الإسلام والبناء الاقتصادي للدّولة الإسلاميّة** : علي عبد الرّسول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، طبعة 1968 م .
ـ **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** : أبو محمّد عبد الحقّ بن عطيّة ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1423 هــ/2002 م .
ـــ **المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي** : محمّد شوقي الفنجري ، دار النّهضة العربيّـــة القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1972 م .
ـ **المدخل إلى النّظريّة الاقتصاديّة في المنهج الإسلامي** : أحمد عبد العزيز النّجّار الإتّحاد الدّولي للبنوك الإسلاميّة ، السّعوديّة ، الطّبعة الثّانية 1400 هــ/1980 م .
ـ **المذهب الاقتصادي في الإسلام** : محمّد شوقي الفنجري ، شركة عكـــاظ للنّشـــر والتّوزيع ، جدّة ، الطّبعة الأولى 1401 هــ/1981 م .
ـ **المستدرك على الصّحيحين** : محمّد بن عبد اللّه الحاكم النّيسابوري دار المعرفة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1418 هــ/1998 م .
ـ **المستصفى من علم الأصول** : أبو حامد الغزالي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الثّانية .
ـ **المشكلة الاقتصاديّة ونظريّة الأجور والأسعار في الإسلام** : عبد اللّه عبد الغنـــي غانم ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندريّة ، مصر 1984 م .
ـ **المعجم الفلسفي** : جميل صليبا ، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت ، لبنان 1978 م .
ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : محمّد فؤاد عبـــد البـــاقي ، دار الفكـــر بيروت ، لبنان 1407 هــ/1987 م .
ـ **المعجم الوسيط** : لإبراهيم مصطفى ، و حامد عبد القادر ، و أحمد حسن الزّيّات و محمّد علي النّجّار المكتبة الإسلامية ، اسطنبول ، تركيا 1392هــ/1972 م .

ـ **الملل والنّحل** : محمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني ، تحقيق أمير علي مهنّا ، علي حسن فاعور ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة السّادسة 1417 هـ/1997 م

ـ **المنطق** : محمّد رضا المظفّر ، دار التّعارف ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّالثة 1400 هـ/1980 م .

ـ **المنهج الحركي للسّيرة النّبويّة** : منير محمّد الغضبان ، دار الوفاء المنصورة مصر ، الطّبعة العاشرة 1419 هـ/ 1998 م .

ـ **الموافقات في أصول الشّريعة** : إبراهيم بن موسى أبو إسحاق الشّاطبي ، شرحه وخرّج أحاديثه عبد اللّه درّاز ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّالثة 1424 هـ/2003 م .

ـ **الموسوعة الحركيّة** : فتحي يكن ، دار البشير ، عمان ، الأردن ، الطّبعة الثّانية 1983 م .

ـ **الموسوعة العربيّة الميسّرة** : مجموعة من الباحثين إشراف محمّد شفيق غربال دار الجيل ، بيروت ، لبنان 1416 هـ/1995 م .

ـ **الموسوعة الفلسفيّة** : عبد الرّحمن بدوي ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشـر بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1984 م .

ـ **الموسوعة الفلسفيّة المختصرة** : تعريب فؤاد كامل ، جلال العشري ، عبد السيّد الصّادق ، إشراف زكي نجيب محمود ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

ـ **النّجاة في الحكمة المنطقيّة والطّبيعة الإلهيّة** : ابن سينا ، مطبعة السّعادة ، مصر الطّبعة الثّانية 1397 هـ/1983 م .

ـ **النّظام الاقتصادي في الإسلام** : أحمد محمّد العسّال ، فتحي أحمد عبـد الكـريم مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطّبعة الثّالثة 1400 هـ/1980 م .

ـ **النّظريات السّياسيّة الإسلاميّة** : محمّد ضياء الدّين الرّيس : دار التّراث ، القاهرة مصر ، الطّبعة السّابعة 1976 م .

ـ **الوجيز في أصول الفقه** : عبد الكريم زيدان ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1423 هـ/2002 م .

ــ **إنباء الغمر بأبناء العمر** : محمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1406 هــ/1986 م .
ــ **أنساب الأشراف** : أحمد بن يحيى البلاذري ، تحقيق محمّد حميد عبد اللّه ، معهد المخطوطات بجامعة الدّول العربيّة ، بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .
ــ **أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل** : أبو سعيد عبد اللّه بن عمر البيضاوي ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1408 هــ / 1998 م .
ــ **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** : لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضّبّي ، تحقيق روحيّة عبد الرّحمن السّويفي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1417 هــ / 1997 م .
ــ **بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة** : جلال الدّين عبد الرّحمن السيّوطي تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، لبنان .
ــ **تاج التّراجم في طبقات الحنفيّة** : أبو العدل زين الدّين بن القاسم ابن قطلوبغا مكتبة العناني بغداد ، العراق ، طبعة 1962 م .
ــ **تاج العروس من جواهر القاموس** : محمّد مرتضى الحسيني الزّبيدي ، دراسة وتحقيق ، علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان 1414هــ/1994 م .
ــ **تاريخ ابن خلدون (المقدّمة)** : عبد الرّحمن بن خلدون ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1424 هــ/ 2003 م .
ــ **تاريخ الخلفاء** : جلال الدّين السيّوطي ، دار الجيل بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1415 هــ/1994 م .
ــ **تاريخ الطّبري (تاريخ الأمم والملوك)** : **محمّد بن جرير الطّبري** ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، طبعة 1417 هــ/1997 م .
ــ **تاريخ العلوم الأساسيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة** : مجموعة من الباحثين الهيئة القوميّة للبحث العلمي ، دار الكتب الوطنيّة ، بنغازي ، ليبيا ، الطّبعة الأولى 1996 م .
ــ **تاريخ الفكر الأندلسي** : أنخِل جنثالث بالنثيا ، نقله عن الإسبانيّة حسين مؤنس مكتبة الثّقافة الدّينيّة ، القاهرة ، مصر 1955 م .

ـ **تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم** ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الرّابعة 1966 م .
ـ **تاريخ أوروبا ـ العصور الوسطى ـ** : هـ . أ . ل . فشر ترجمه محمّد مصطفى زيادة و الباز العريني ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر الطّبعة الخامسة .
ـ **تبصرة الأدلّة في أصول الدّين على طريقة الإمام أبي منصور الماتريدي** : أبو المعين ميمون بن محمّد النّسفي ، تحقيق كلود سلامة ، المعهد العلمي الفرنسي للدّراسات العربيّة دمشق ، سوريا ، الطّبعة الأولى 1993 م .
ـ **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه ابن عساكر ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، الطّبعة الثّانية 1399 هـ /1989 م .
ـ **تتمة الأعلام للزّركلي** : محمّد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم ، بيروت لبنان ، الطّبعة الثّانية 1422 هـ/2002 م .
ـ **تدهور الحضارة الغربيّة** : أسوالد اشبنغلر ، ترجمة أحمد الشّيباني ، دار مكتبة الحياة بيروت ، لبنان 1964 م .
ـ **تذكرة الحفّاظ** : محمّد بن أحمد الذّهبي ، دار التّراث العربي ، بيروت ، لبنان .
ـ **تربيتنا الرّوحيّة** : سعيد حوّى ، دار السّلام ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة السّادسة 1419 هـ/1999 م .
ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** : عيّاض بن موسى بن عيّاض ، اعتنى به محمّد سالم هاشم ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان .
ـ **تفسير البحر المحيط** : محمّد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي ، دراسة وتحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1413 هـ/1993 م .
ـ **تفسير التّحرير والتّنوير** : محمّد الطّاهر بن عاشور ، دار سحنون ، تونس .
ـ **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** : محمّد رشيد رضا ، اعتنى به إبراهيم شمس الدّين ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1420 هـ /1999 م

ـ **تفسير القرآن العظيم** : عماد الدّين أبو الفدا إسماعيل بن كثير ، دار الفيحاء دمشق ، دار السّلام الرّيّاض ، الطّبعة الأولى 1414 هـ/1994 م .
ـ **تفسير الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل** : محمود بن عمر الزّمخشري ، تحقيق محمّد مرسي عامر ، دار المصحف ، القاهرة ، مصر الطّبعة الثّانية 1397 هـ/1977 م .
ـ **تفسير سورة هود** : محمّد البهي ، مكتبة وهبة الطّبعة الأولى 1396 هـ/1976 م
ـ **تفسير من وحي القرآن** : محمّد حسين فضل اللّه ، دار الملاك ، بيروت ، لبنان الطّبعة الثّانية 1419 هـ/1998 م .
ـ **تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين** : الحسين بن محمّد الرّاغب الأصبهاني تحقيق عبد المجيد النّجّار ، الطّبعة الأولى 1408 هـ/1988 م .
ـ **تلبيس إبليس** : أبو الفرج عبد الرّحمن بن الجوزي ، تحقيق محمّد عبد القـادر الفاضل المكتبة العصريّة ، صيدا ، بيروت ، لبنان 1423 هـ/2002 م .
ـ **تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل** : أبو بكر محمّد بن الطّيّب الباقلاّني ، تحقيق الشّيخ عماد الدّين أحمد حيدر ، مركز الخدمات والأبحاث الثّقافيّة ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة بيروت لبنان ، الطّبعة الثّالثة 1414 هـ / 1993 م .
ـ **تهذيب التّهذيب** : محمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1325 هـ .
ـ **تهذيب اللّغة** : لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري ، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر 1967 م .
ـ **تيسير التّفسير** : الحاج محمّد بن يوسف اطفيّش ، تحقيق إبراهيم بن محمّد طلاّي المطبعة العربيّة ، غرداية ، الجزائر 1417 هـ/1996 م .
ـ **جامع البيان في تأويل القرآن** : محمّد بن جرير الطّبري ، منشورات محمّد علي بيضون ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1418 هـ /1997 م .
ـ **حجّة اللّه البالغة** : الشّيخ أحمد شاه وليّ اللّه الدّهلوي ، اعتنى به محمّد سالم هاشم ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان 1421 هـ/2001 م .

ـ **حضارة العرب** : غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربيّة 1969 م .
ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** : أبو نعيم الأصبهاني ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1418 هـ/1997 م .
ـ **حياة الصّالحين** : عبد المنعم قنديل ، دار الشّهاب ، باتنة ، الجزائر 1988 م .
ـ **حيّ بن يقظان** : ابن طفيل ، تحقيق فاروق سعد ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الخامسة 1992 م .
ـ **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** : محمّد أمين بن فضل اللّه المحبّي دار صادر ، بيروت ، لبنان .
ـ **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل** : عبد المجيد النّجّار ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا الولايات الأمريكيّة المتّحدة ، الطّبعة الثّالثة 1425 هـ/2005 م
ـ **دائرة معارف القرن العشرين** : فريد وجدي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الثّالثة 1971 م .
ـ **خلفاء الرّسول** : خالد محمّد خالد ، دار الفكر دمشق ، سوريا ، الطّبعة الأولـى 1415 هـ/1994 م .
ـ **خلق المسلم** : محمّد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، الطّبعة الرّابعة عشر 1420 هـ/2000 م .
ـ **دائرة المعارف الإسلاميّة** : مجموعة من الباحثين ، طبعة 1352 هـ/1933 م .
ـ **دراسات في علم الاجتماع الدّيني** : سامية مصطفى خشّاب ، دار المعارف مصر الطّبعة الثّانية 1993 م .
ـ **دلائل التّوحيد** : جمال الدّين القاسمي ، تعليق خالد عبد الرّحمن العك ، دار النّفائس ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1412 هـ/1991 م .
ـ **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**: يوسف القرضاوي ، مؤسّسة الرّسالة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1422 هـ/2002 م .
ـ **ديوان الإسلام** : محمّد بن عبد الرّحمن بن الغزي ، تحقيق سيّد كسروي حسن دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1411 هـ/1990 م .

ـ **ديوان حافظ إبراهيم** : اعتنى به أحمد أمين ، أحمد الزّين ، إبراهيم الأبياري المطبعة الأميريّة ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الرّابعة 1948 م .

ـ **رسائل ابن عربي / كتاب التّدبيرات الإلهيّة في إصلاح المملكة الإنسانيّة** : محي الدّين محمّد بن علي بن عربي ، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتّاح ، مؤسّسة الانتشار العربي بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1999 م .

ـ **رسالة التّوحيد** : محمّد عبده ، علّق عليها محمّد رشيد رضا ، اعتنى بها بسّام عبد الوهّاب الجابي ، دار ابن حزم بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1421 هـ/2001 م

ـ **روائع الحضارة العربيّة الإسلاميّة في العلوم** : علي بن عبد اللّه الدفاع ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1418 هـ/1998 م .

ـ **روح الدّين الإسلامي** : عفيف عبد الفتّاح طبّارة ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان الطّبعة الرّابعة عشر 1397 هـ/1977 م .

ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني** : شهاب الدّين محمود بن عبد اللّه الآلوسي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1414 هـ/1994 م .

ـ **زعماء الإصلاح في العصر الحديث** : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان 1979 م .

ـ **سياسة الإنفاق في الإسلام وفي الفكر المالي الحديث** : عوف محمود الكفراوي مؤسّسة شباب الجامعة ، الإسكندريّة ، مصر 1402 هـ/1982 م .

ـ **سير أعلام النّبلاء** : الذّهبي ، الجزء الأخير ، تحقيق عبد السّلام محمّد عمر علّوش ، دار الفكر ، بيروت ، الطّبعة الأولى1417 هـ /1993 م .

ـ **سير أعلام النّبلاء** : شمس الدّين الذّهبي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان الطّبعة التّاسعة 1413 هـ /1993 م .

ـ **سيرة عمر بن عبد العزيز** : عفّت وصال حمزة ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1418 هـ/1998 م .

ـ **شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة** : محمّد بن محمّد بن عمر بن قاسم مخلوف المالكي اعتنى به عبد المجيد خيّالي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1424 هـ/ 2003 م .

ـ **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب** : أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان .
ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة** : أبو القاسم هبة اللّه أبو الحسن بن منصور الطّبري اللاّلكائي ، تحقيق أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، دار طيبة الرّيّاض الطّبعة الخامسة 1418 هـ .
ـ **شرح العقيدة الطّحاويّة** : علي بن علي بن محمّد بن أبي العزّ الدّمشقي ، تحقيق عبد اللّه بن عبد المحسن التّركي و شعيب الأرنؤوط ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت لبنان الطّبعة الثّانية 1424 هـ / 2003 م
ـ **شرح المقاصد** : مسعود بن عمر سعد الدّين التّفتازاني ، تحقيق عبد الرّحمن عميرة ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1419 هـ/1998 م
ـ **شرح حكم بن عطاء اللّه** : الشّيخ زرّوق ، تحقيق عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشّريف ، دار البصائر ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1425 هـ/2004 م .
ـ **شرح صحيح البخاري** : ابن بطّال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ، ضبط نصّه وعلّق عليه أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرّشد ، الرّياض ، السّعوديّة الطّبعة الأولى 1420 هـ/2000 م .
ـ **شروط النّهضة** : مالك بن نبي ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين دار الفكر الجزائر ، ودمشق سوريا ، الطّبعة الرّابعة 1407 هـ/1987 م .
ـ **شعب الإيمان** : أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1410 هـ/1990 م .
ـ **شمس العرب تسطع على الغرب** : زيغريد هونكة ، نقله عن الألمانيّة ، فاروق بيضون ، كمال دسوقي ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة التّاسعة 1421هـ/2000 م .
ـ **صحيح مسلم بشرح النّووي** : يحيى بن شرف النّووي ، اعتنى به محمّد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1421 هـ/2000 م.
ـ **ضوابط المعرفة** : عبد الرّحمن حبنّكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، سوريا الطّبعة الثّانية 1981 م .

ـ **طبقات الحفّاظ** : جلال الدّين عبد الرّحمن السيّوطي ، اعتنى به لجنة من العلماء دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1414 هـ/1994 م .
ـ **طبقات الشّافعيّة** : أبو بكر أحمد بن محمّد ابن قاضي شهبة ، تحقيق د/الحافظ عبد العظيم خان ، عالم الكتب بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1407 هـ/1987 م .
ـ **طبقات الشّافعيّة الكبرى** : تاج الدّين أبو نصر عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي السّبكي تحقيق محمود محمّد الحلو ، هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان ، الطّبعة الثّانية 1413 هـ/1992 م.
ـ **طبقات الصّوفيّة** : أبو عبد الرّحمن بن الحسين السّلمي : تحقيق وتعليق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1419 هـ/1998 م
ـ **طبقات الفقهاء** : أبو إسحاق الشّيرازي ، هذّبه (ابن منظور) تحقيق إحسان عبّاس ، دار الرّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1970 م .
ـ **عارضة الأحوذي بشرح صحيح التّرمذي** : أبو بكر بن العربي ، اعتنى به جمال مرعشلي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1418 هـ/1997 م
ـ **علم الطّب والجراحة عند علماء العرب والمسلمين** : سمير عرابي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1419هـ/1999 م .
ـ **علم الفلك في التّراث العربي** : علي حسن موسى ، دار الفكر ، دمشق ، سورية الطّبعة الأولى 2001 م .
ـ **علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم العلميّة في بناء الحضارة الإنسانيّة** : أحمد مدحت إسلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر 1420 هـ/1999 م .
ـ **علوم الأدوية والصّيدلة عند علماء العرب والمسلمين** : سمير عرابي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1419هـ/1999 م .
ـ **علوم الفلك والرّياضيات والجغرافيا عند علماء العرب والمسلمين** : سمير عرابي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1419هـ/1999 م
ـ **علوم النّبات والحيوان عند علماء العرب والمسلمين** : سمير عرابي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1419هـ/1999 م .

ـ **علوم الكيمياء والطّبيعيات عند علماء العرب والمسلمين** : سمير عرابـــي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1419هـ/1999 م .
ـ **عمدة القارئ شرح صحيح البخاري** : بدر الدّين بن أحمد العيني ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، مراجعة صدقي جميل العطّار ، الطّبعة الأولى 1418 هـ/1998 م
ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود** : محمّد شمس الحقّ العظيم آبادي ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1419 هـ/1998 م .
ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسّير** : محمّد بن عبد اللّه بن سيّد النّاس ، مؤسّسة عزّ الدّين للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان 1406 هـ/1986 م .
ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** : محمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1402 هـ .
ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري** : عبد الرّحمن بن أحمد زين الدّين أبو الفرج بن رجب الحنبلي ، تحقيق جمع من العلماء ، مكتبة الغرباء الأثريّة ، المدينة المنوّرة الطّبعة الأولى 1417 هـ / 1996 م .
ـ **فتوح البلدان** : أحمد بن يحيى البلاذري ، تحقيق رضوان محمّد رضوان المطبعة المصريّة بالأزهر ، مصر ، الطّبعة الأولى 1350 هـ/1932 م .
ـ **فقه التّحضّر الإسلامي** : عبد المجيد النّجّار ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1999 م .
ـ **فقه السّيرة** : محمّد الغزالي ، مكتبة رحّاب ، الجزائر ، 1407 هـ/1987 م
ـ **فقه السّيرة النّبويّة** : محمّد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر المعاصر بيروت مع دار الفكر دمشق ، طبعة 1417 هـ/1996 م .
ـ **فكرة الأفريقيّة الآسيويّة في ضوء مؤتمر باندونغ** : مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصّبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا 1406 هـ/1986 م .
ـ **فلسفة الحضارة** : ألبرت اشفيتسر ، ترجمة عبد الرّحمن بدوي ، دار الأندلس الطّبعة الثّانية 1400 هـ/1980 م .
ـ **فوات الوفيات والذّيل عليها** : محمّد بن شاكر الكتبي تحقيق عبّاس إحسان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان (د ت)

ـ **في النّظام السّياسي للدّولة الإسلاميّة** : محمّد سليم العوّا ، دار الشّروق ، القاهرة مصر ، الطّبعة الثّامنة 1406 هـ 2006 م .
ـ **في ظلال القرآن** : سيّد قطب ، دار الشّروق ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة الثّانيـة عشر 1406 هـ/1986 م .
ـ **في علم السّياسة الإسلامي** : عبد الرّحمن خليفة ، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندرية ، مصر ، طبعة 1999 م .
ـ **في فلسفة التّاريخ** : أحمد محمود صبحي ، منشورات الجامعة اللّيبيّة (د ت) .
ـ **في فلسفة الحضارة (اليونانيّة ـ الإسلاميّة ـ الغربيّة)** : أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السّلام جعفر ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، الطّبعة الأولى 1999 م
ـ **في فلسفة الحضارة الإسلاميّة** : عفّت الشّرقاوي ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت لبنان الطّبعة الرّابعة 1405 هـ/1985 م .
ـ **في معركة الحضارة** : قسطنطين زريق ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1964 م .
ـ **قبسات من الرّسول** : محمّد قطب ، دار الشّروق ، القاهرة ، مصر ، الطّبعة السّادسة 1400 هـ 1980 م .
ـ **قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن** : نديم الجسر ، منشورات دار الخلود بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّالثة 1969 م .
ـ **قصّة الحضّارة** : ول وايريل ديورنت ، ترجمة زكي نجيب محمود ، دار الجيل بيروت ، لبنان 1419 هـ/1998 م .
ـ **كبرى اليقينيات الكونيّة** : محمّد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق سوريا ، الطّبعة الثّامنة 1402 هـ/1982 م .
ـ **كتاب التّمهيد لقواعد التّوحيد** : محمود بن زيد اللاّمشي ، تحقيق عبـد المجيـد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، الطّبعة الأولى 1995 م .
ـ **كشّاف اصطلاحات الفنون** : محمّد علي التّهانوي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1418 هـ/1998 م .

ـ **كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون** : مصطفى عبد اللّه حاجي خليفة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان 1413 هـ/1992 م .
ـ **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج (في تراجم المالكيّة)** : أحمد بابا التّنبُكتي ، اعتنى به أبو حي عبد اللّه الكندري ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1422 هـ/2002 م .
ـ **لسان العرب** : لأبي الفضل جمال الدّين ، محمّد بن مكرم بن منظور ، الأفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1997 م .
ـ **لسان الميزان** : محمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دراسة وتحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشّيخ على محمّد معوّض مع عبد الفتّاح أبو سنّة ، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1416 هـ/1996 م .
ـ **ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** : أبو الحسن النّدوي ، دار الشّهاب الجزائر الطّبعة الخامسة 1978 م .
ـ **ما هو الاقتصاد الإسلامي** : محمّد عمر شابرا ، المعهد الإسلامي للبحوث والتّدريب للبنك الإسلامي للتّنمية ، جدّة ، الطّبعة الثّانية 1420 هـ/2000 م .
ـ **مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي** : عبد المجيد النّجّار ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1992 م .
ـ **مبادئ الإسلام** : أبو الأعلى المودودي ، الدّار السّعوديّة للنّشر ، جدّة السّعوديّة الطّبعة الثّالثة 1406 هـ/1986 م .
ـ **مجموعة الفتاوى** : أحمد عبد الحليم بن تيمية اعتنى به عامر الجزّار ، وأنور الباز ، دار الوفاء ودار ابن حزم المنصورة مصر الطّبعة الثّانية 1422 هـ/2001 م
ـ **مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة** : محمّد حميد اللّه دار النّفائس ، بيروت ، لبنان الطّبعة السّادسة 1407 هـ 1987 م .
ـ **مجموعة رسائل الإمام الغزالي** : أبو حامد الغزالي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1424 هـ/2003 م .
ـ **محاسن التّأويل** : محمّد جمال الدّين القاسمي ، دار الكتب العلميّة بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1418 هـ/1997 م .

ـ **محيط المحيط** : قاموس مطوّل للّغة العربية ، للمعلّم بطرس البستاني ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت ، لبنان ، طبعة 1998 م .
ـ **مختصر دراسة التّاريخ** : أرنولد توينبي ، ترجمة فؤاد محمّد شبل ، جامعة الدّول العربيّة مصر ، القاهرة ، الطّبعة الأولى 1961 م .
ـ **مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** : ابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق محمّد حامد الفقّي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة 1412 هــ/1992 م .
ـ **مسند الإمام أحمد** : أحمد بن حنبل ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف عبد اللّه بن عبد المحسن التّركي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّانية 1420 هــ/1999 م .
ـ **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** : مالك بن نبي ، ترجمة بسّام بركة وأحمد شعبو ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق 1423 هــ/2002 م .
ـ **مع الأنبياء في القرآن الكريم** : عفيف عبد الفتّاح طبّارة ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان ، الطّبعة السّادسة 1981 م .
ـ **معالم أصول الدّين** : فخر الدّين محمّد بن عمر الرّازي ، اعتنى به طه عبد الرّؤوف سعد دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان 1404 هــ/1984 م .
ـ **معالم السّنن** : أبو سليمان حمد بن محمّد الخطّابي البستي ، اعتنى به عبد السّلام عبد الشّافي محمّد ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، 1416 هــ/1996 م .
ـ **معالم في الطّريق** : سيّد قطب ، دار الشّروق ، القاهرة ، مصر (د ت) .
ـ **معاني القرآن الكريم** : للإمام أبي جعفر النحّاس ، تحقيق محمّد علي الصّابوني معهد البحوث العلمية وإحياء التّراث ، جامعة أم القرى ، مكّة المكرّمة ، السّعودية الطّبعة الأولى 1408هــ/1988 م .
ـ **معاني القرآن و إعرابه** : لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزّجّاج ، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت الطّبعة الأولى 1408 هــ /1988 م .
ـ **معجم البلدان** : ياقوت بن عبد اللّه الحموي ، دار صادر ، بيروت لبنان ، الطّبعة الثّانية 1995 م .

ــ **معجم الفروق اللّغويّة** : أبو هلال العسكري ، تنظيم الشّيخ بيت اللّه بيات مؤسّسة النّشر الإسلامي التّابعة لجامعة المدرّسين بقم ، إيران ، الطّبعة الأولى 1412 هــ .
ــ **معجم الفلاسفة** : جورج طرابيشي ، دار الطّليعة بيروت ، الطّبعة الأولى 1987
ــ **معجم المؤلّفين** : عمر رضا كحّالة ، دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، لبنان
ــ **معجم المصطلحات الصّوفيّة** : أنور فؤاد أبو خزام ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1993 م .
ــ **معجم مقاييس اللّغة** : لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1411هــ/1991 م .
ــ **معيار العلم في فنّ المنطق** : أبو حامد الغزالي ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان الطّبعة الرّابعة 1983 م .
ــ **مفاتيح الغيب (التّفسير الكبير)** : فخر الدّين الرّازي ، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان الطّبعة الأولى 1411 هــ/1990 م .
ــ **مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة** : ابن قيّم الجوزيّة ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1424 هــ/2003 م .
ــ **مفردات ألفاظ القرآن** : الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، سوريا الطّبعة الثّالثة 1423 هــ/2002 م .
ــ **مقاصد الشّريعة الإسلاميّة ومكارمها** : علاّل الفاسي ، دار الغرب الإسلامي الطّبعة الخامسة 1993 م .
ــ **مقاصد الشّريعة بأبعاد جديدة** : النّجّار عبد المجيد ، دار الغرب الإسلامي الطّبعة الأولى 2006 م .
ــ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين** : الأشعري أبو الحسن ، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد المكتبة العصريّة ، صيدا ، بيروت 1419 هــ/1999 م .
ــ **مقدّمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلاميّة** : مفتاح محمّد ديــاب ، الهيئــة القوميّة للبحث العلمي ، بنغازي ، ليبيا ، الطّبعة الأولى 1401هــ/1992 م .
ــ **مقوّمات التّصوّر الإسلامي** : سيّد قطب ، دار الشّروق ، القاهرة ، مصر الطّبعة الخامسة 1418 هــ/1997 م .

ـ **من معالم الحقّ في كفاحنا الإسلامي** : محمّد الغزالي ، شركة الشّهاب ، الجزائر
ـ **من مفاهيم القرآن في العقيدة والسّلوك** : البهيّ محمّد ، دار الفكر ، بيروت القاهرة ، مصر ، الطّبعة الأولى 1393 هــ/1973 م .
ـ **من وصايا الرّسول** : طه عبد اللّه العفيفي ، دار الفكر والاعتصام القاهرة مصر
ـ **مناهج الأدلّة في عقائد الملّة** : ابن رشد (محمّد بن أحمد أبو الوليد) ، تقديم وتحقيق محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو مصريّة القاهرة ، مصر ، الطّبعة الثّالثة .
ـ **منهج التّربية الإسلاميّة** : محمّد قطب ، دار الشّروق ، بيروت لبنان ، الطّبعة الخامسة 1404 هــ 1984 م .
ـ **منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن** : محمّد سعيد رمضان البوطي : دار الفكر دمشق وبيروت ، الطّبعة الثّالثة 1419 هــ / 1998 م .
ـ **منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع** : محمّد السيّد يوسف ، دار السّلام القاهرة ، مصر ، الطّبعة الثّانية ، 1424 هــ/2004 م .
ـ **منهج تربوي فريد في القرآن الكريم** : محمّد سعيد رمضان البوطي ، دار الشّهاب باتنة ، الجزائر 1985 م .
ـ **منهجيّة التّغيير في المنظّمات** : طارق السّويدان ، مؤسّسة قرطبة للإنتاج الفنّي الرّياض ، السّعوديّة الطّبعة الأولى 1422 هــ/2001 م .
ـ **مهارات لا بدّ منها للصّعود** : فتحي محمّد ، دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة القاهرة ، مصر ، الطّبعة الثّالثة 1421 هــ/2001 م .
ـ **موسوعة أعلام الفلســفة** : روني إيلي ألفا ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان الطّبعة الأولى 1412 هــ/1992 م .
ـ **موسوعة التّصوّف الإسلامي** : توفيق العجم ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1999 م .
ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرّجال** : شمس الدّين الذّهبي ، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ، الطّبعة الأولى 1416 هــ/1995 م .
ـ **ميلاد مجتمع** : مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصّبور شاهين ، دار الفكر ، الجزائر ودمشق ، سوريا الطّبعة الثّالثة 1406 هــ/1986 م .

ـ **نحو مجتمع إسلامي** : سيّد قطب ، دار الكوثر ، برج الكيفان ، الجزائر (د ت)
ـ **نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث** : محمّد المبارك ، دار البعث الإسلامي قسنطينة ، الجزائر 1989 م .
ـ **نظام الحكم في الإسلام** : محمّد يوسف موسى ، العصر الحديث للنّشر والتّوزيع بيروت ، لبنان ، الطّبعة الثّالثة ، 1408 هــ/1988 م .
ـ **نظام الحكم في عهد الخلفاء الرّاشدين : حمد محمّد الصّمد** ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، بيروت ، لبنان ، الطّبعة الأولى 1414 هــ/1994 م .
ـ **نظام الحياة في الإسلام** : أبو الأعلى المودودي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
ـ **نظرات في القرآن** : محمّد الغزالي دار الشّهاب للطّباعة والنّشر ، باتنة ، الجزائر الطّبعة السّادسة 1986 م .
ـ **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب** : أحمد بن التّلمساني المقرّي ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر بيروت لبنان ، 1388هــ/1968 م .
ـ **نهج البلاغة** : علي بن أبي طالب ، شرح محمّد عبده ، دار المعرفة ، بيروت .
ـ **نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج** : أحمد بابا التّنبتكي ، منشورات كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة ، طرابلس ، ليبيا الطّبعة الأولى 1398 هــ/1989 م .
ـ **هديّة العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين** : إسماعيل باشا البغدادي ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، لبنان 1981 م .
ـ **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزّمان** : أحمد بن محمّد بن خلّكان ، تحقيق عبّاس إحسان ، دار صادر ، بيروت لبنان 1414 هــ/1994 م .
ـ **وقفة مع الفلسفة الغربيّة** : محمّد عبد الرّحيم الزّيني ، المنار للطّباعة ، صـــنعاء الجامعة الجديدة 1996 م .

فهرس الموضوعات

الموضوع : **الصّفحة**

المقدّمة : 01

الفصل الأوّل : الإيمان في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة

المبحث الأوّل : الإيمان لغة وشرعا 12

المطلب الأوّل : الإيمان عند أهل اللّغة 13

المطلب الثّاني : الإيمان على لسان الشّرع 24

المبحث الثّاني : مذاهب العلماء في بيان حقيقة الإيمان 32

المطلب الأوّل : المذاهب المعتبرة في بيان حقيقة الإيمان 32

المطلب الثّاني : علاقة الإيمان بالعقيدة والشّريعة 50

المبحث الثّالث : مصادر المعرفة في العلوم النّظريّة والعقيدة الإسلاميّة 54

المطلب الأوّل : مصادر المعرفة اليقينيّة في العلوم النّظريّة 54

المطلب الثّاني : مصادر المعرفة في العقيدة الإسلاميّة 66

الفصل الثّاني : الحضارة ودور العقيدة في تحقيقها

المبحث الأوّل : الشّهود الحضاري في اللّغة والاصطلاح 88

المطلب الأوّل : الشّهود في اللّغة والشّرع 88

المطلب الثّاني : الحضارة في اللّغة والاصطلاح 95

المطلب الثّالث : قيمة التّحضّر 103

المبحث الثّاني : أهمّية العقيدة في حياة الإنسان 106

المطلب الأوّل : دور العقيدة في صياغة الحضارة 106

المطلب الثّاني : أهمّية الأخلاق في البناء الحضاري 118

الفصل الثّالث : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة والكون في العقيدة

المبحث الأوّل : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة في العقيدة 125

المطلب الأوّل : مظاهر الألوهيّة في الكون والحياة 125

المطلب الثّاني : أهمّية تحرير الوجدان في تحقيق الفعل الحضاري 136
المبحث الثّاني : البعد الحضاري لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة 144
المطلب الأوّل : الآثار الحضاريّة لمعرفة الإنسان معرفة عقديّة 144
المطلب الثّاني : الآثار الحضاريّة لمعرفة الحياة في العقيدة الإسلاميّة 157
المطلب الثّالث : الآثار الحضاريّة لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة 169

الفصل الرّابع : أثر الإيمان في حياة الإنسان

المبحث الأوّل : الإيمان وأثره في الأوضاع الاجتماعيّة 187
المطلب الأوّل : أثر الإيمان في تحقيق الفعل الحضاري على الفرد 187
المطلب الثّاني : أثر الإيمان في تحقيق الفعل الحضاري على المجتمع 203
المطلب الثّالث : أثر الإيمان في تحقيق التّقدّم العلمي 217
المبحث الثّاني : الإيمان وأثره في الأوضاع السّياسية 233
المطلب الأوّل : أثر الإيمان في توحيد الأمّة 233
المطلب الثّاني : أثر الإيمان في تحقيق العدل 239
المطلب الثّالث : أثر الإيمان في إرساء سيادة القانون والحريّات الفرديّة 242
المبحث الثّالث : الإيمان وأثره في الأوضاع الاقتصاديّة 256
المطلب الأوّل : أثر الإيمان في دفع النّهضة الاقتصادية 256
المطلب الثّاني : دور القيم الإيمانيّة في بعث التّنمية الاقتصاديّة 272
الخاتمة : 285
1 ـــ فهرس الآيات القرآنيّة 290
2 ـــ فهرس الأحاديث النّبويّة 317
3 ـــ فهرس المصطلحات الفنيّة 321
4 ـــ فهرس الأعلام 323
5 ـــ فهرس المصادر والمراجع 327
6 ـــ فهرس الموضوعات 350
خلاصة الابتكار .... 01 ، 02
ملخّص البحث باللّغة العربيّة .... 01 ، 09
ملخّص البحث باللّغة الفرنسيّة .... 01 ، 11

خلاصة الابتكـار

أوّلا : حقيقة الإيمان لا تنحصر في الجانب النّظري من مباحث الألوهيّة ، أو التّقرّب إليه بالشّعائر التّعبّديّة المشروعة ، إنّما تشمل مختلف نشاطات الحياة حيث تتجلّى العقيدة في المجال السّياسي في إفراد الله بالحاكميّة ورفض حكم الهوى ، ومجاهدة لقوى الباطل في سبيل الله ، وفي المجال الاقتصادي في الاعتراف لله بمالكيّة المال وخلافة البشر له ، و في القيام في علاقات المعاش بمقتضى التّقوى لله وطاعته ، وفي المجال العلمي بتوحيد معقول العلم ومنقوله في سبيل الازدياد من معرفة الله وتسخيره للتّوسّع في العبادة .

ثانيا : الأمّة حين تكون ملتزمة بدينها حقّ الالتزام ، فإنّها تكون شاهدة على النّاس وهذا يعني وجود العناصر الكثيرة في داخلها ممّن يصلحون لهذا المقام ، وهم الطّليعة الواعية المؤمنة التّقيّة المنضبطة ، التّي تفهم الإسلام حقّ الفهم و تمارسه حقّ الممارسة ، وهي النّخبة الواعية الموجودة في كلّ زمان التي يقف في طليعتها الحكّام والعلماء ، والعامّة من مختلف المهن والصّناعات ، الذين يحملون هذه الشّهادة إلى الله لأنّهم يعيشون الإسلام بقلوبهم وسيرتهم .

ثالثا : التّحضّر لا يحمل في ذاته قيمة إيجابية أو سلبيّة ، بل قيمته تستمدّ ممّا يوفّره من الأمن والطّمأنينة ، وكذلك لا يمكن اعتبار التّقدّم الماديّ مقياسا للتّحضّر ، إنّما المقياس الحقيقي في ذلك ما يتحقّق للنّاس من التّآخي ، فأيّما تحضّر تحقّقت فيه تلك المعاني فهو تحضّر حقيقي ، وأيّما تحضّر جلب معه الخوف والعداوة فهو ليس بتحضّر على الحقيقة .

رابعا : الأمّة برصيدها الفكري والرّوحي بمقدورها أن تحيل كلّ ظواهر الهدم في جسدها إلى قيم إبداع وبناء ، لأنّ الإنسان هو الذي يتحكّم في صياغة الظّروف الخارجيّة إن امتلك زمام نفسه وسعى إلى ممارسة عمليّة التّغيير .

خامسا : الإسلام منح المنتمين إليه قدرات إضافيّة لتجاوز الصّعاب وشحذ طاقاتهم من أجل الوصول إلى أعلى مقامات الرّقي ، وإذا كان النّاس يمشون إلى أهدافهم ، فإنّ الإسلام أعدّ أجيالا عرفوا كيف يحطّمون الأرقام القياسيّة وهم يتجاوزون الموانع ويقطعون المسافات ، وقد وصفهم القرآن بأنّهم يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ، لذلك فإنّ المسارعة في الإنجاز لتحقيق الشّهود الحضاري هي عودة إلى أصولنا التي رسم معالمها كتابنا العزيز ، ووضع ملامحها نبيّنا الكريم ، وجسّد مشاريعها أجدادنا الرّوّاد .

سادسا : الانتماء إلى الإسلام يعني الموافقة المبدئيّة على الدّخول في عمل مبرمج مرسوم ، والإيمان يعني التّحقّق بالقناعات بجدوى هذا العمل ، أمّا التّقوى فهي تلك الطّاقة الفذّة التي توقظ الضّمير فيظلّ متألّقا ما دام يشعر بمراقبة الله ، ويجيء الإحسان ليضع المسلم المتّقي في القمّة ، حيث الإبداع الكامل في كلّ أعماله .

ملخّص البحث

لبسم الله الرّحمن الرّحيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على إمام الأنبياء والمرسلين ، وآل بيته الطيّبين الطّاهرين ، وبعد :

أهمّية البحث

الإيمان بالله عزّ وجلّ وما يتفرّع عنه من عقائد أمر على غاية الأهمّيّة في الحياة ، ذلك أنّ وجوده سبحانه وتعالى حقيقة ثابتة في الأزل و إلى الأبد وهي مستقلّة في ثبوتها عن كلّ موجود ، وعليه فإنّها تستمدّ قيمتها من ذاتها بوصفها الحقيقة الأولى من حقائق الوجود ، وإذا كان الإيمان بالحقيقة يعدّ فضيلة في ذاته ، فكيف به إذا كان إيمانا بأمّ الحقائق ؟ وإذا كان الإيمان مطلبا بذاته فإنّه يطلب أيضا لما يحدثه من آثار في حياة النّاس ، حيث يضفي عليها من خيريّته ما لا تناله أبدا بدونه ، بل إنّ الحياة بدونه لا تكون إلاّ في شقاء .

وهذا يدعو إلى البحث في قضايا الإيمان بمنهج محرّك للنّفوس ، يهدف إلى بيان أثره في تحقيق سعادة الإنسان ، وعليه فإنّ بسط المنافع التّي يحدثها الإيمان وإظهارها للنّاس من شأنه أن يهيّئ النّفوس للإقبال على الله ، لأنّ هذه المنافع إذا لاحت للنّاس فإنّها تدفعهم إلى التّمسّك بها .

ولمّا كان الإنسان حريصا على تحقيق سعادته أسهب الأنبياء عليهم السّلام في بيان ما يجنيه المؤمنون من خيرات ، وما يحصده المنكرون من شقاء وهذا دليل على صلاحية هذا المنهج ، ممّا يدعو إلى تبنّيه واعتماده في عرض حقائق الإيمان .

أمّا عن أسباب اختيار الموضوع فيمكن إجمالها فيما يأتي :

1 ـ ما حدث في هذا العصر من طغيان الفكر المادّي على المبادئ السّامية التي تقوم عليها الحضارات ، حيث تبوّأت المادّة المكانة البارزة ، فاحتجبت إزاءها كثير من حقائق الإيمان التي كانت في أيّام الإسلام الزّاهرة في طليعة

القيم ، و تراجعت أمامها محاولات الوصول إلى المكانة المرموقة بالمبادئ الإيمانية عند كثير من النّاس ، ظنّا منهم أنّ الإيمان بالله من شأنه أن يعطّل الطّاقات عن العمل والإنتاج ، كما يعطّل عن البحث العلمي الذي يؤدّى إلى ذلك ، مستشهدين بما نشأ من تحضّر وعيش رغيد في مجتمعات لا تؤمن بالله إيمانا صحيحا ، وهو ما يغري العقول والنّفوس بالاعتقاد أنّ سعادة الشّعوب لا علاقة للإيمان بوجودها أو فقدها ، إن لم يكن الإيمان سببا عكسيا في ذلك ، وهذه فتنة لا يمكن أن تقاوم إلاّ بمنهج مضاد يبرهن على أنّ سعادة الإنسان مرهون بالإيمان بالله ربّ العالمين .

2 ـ يعود إلى تلك الظّاهرة التي يلحظها رجال الفكر ، وهي : تركيز بعض الأنظمة التّربوية على الجوانب المادّيّة ، و إهمال القيم الرّوحيّة في السّعي لتحقيق أهدافها والنّظر إلى الدّين نظرة استخفاف ، حتّى أصبح التّعليم يعاني من الخواء الرّوحي ، بسبب وقوع عموم الأمّة في موازينها الفكريّة ومشاعرها الوجدانيّة في منطقة الجاذبيّة الغريبة لاعتقادها أنّ السّبيل الوحيد للتّعامل مع الحياة والكون اعتماد موازين الحضارة الغربية .

إلاّ أنّنا لا نشكّ إطلاقا أنّ في السّاحة الفكرية جهودا معتبرة تستحقّ التّنويه لما لها من الحصانة الفكرية والمناعة العقديّة ما يعصمها من التّأثّر بهذه الجاذبيّة ، وهذا يحفّز على الإسهام في تدعيمها وتعزيز مساعيها في دراسة معمّقة ، تجمع ما تفرّق وتفصّل ما أجمل ، وتؤصّل وتحلّل ، مستثمرة في ذلك الوضع الفكري الرّاهن القائم على المنفعة ، حيث يمكن اعتماده بنجاعة لبيان ما يثمره الإيمان في حياة النّاس من المنافع .

3 ـ ما آل إليه أمر المسلمين من ضعف في حياتهم العمليّة ، وهو الشّيء الذي يوقع في نفوس بعضهم أنّ الإيمان بالله لم يحقّق لهم المنافع الدّنيويّة قياسا في ذلك على غيرهم ممّن لا يؤمنون بالله الإيمان الحقّ ، من الأمم التي تعيش حياة الرّفاه والغلبة ، وهذه فتنة تغري بالانسلاخ من الإيمان بالله ، أو

بالتّحلّل من الرّابطة التّي جاء بها الوحي في مجالات الحياة ، والإبقاء على الصّلة الرّوحيّة التّي لا علاقة لها بالحياة الاجتماعية ، وهو ما يحدث اليوم على نطاق واسع متمثّلا في المنزع العلماني الذي فشا في حياة المسلمين لذلك نحتاج إلى دراسة دقيقة ، تعزّز مساعي المصلحين لمقاومة هذه الفتنة ومحاصرة آثارها .

4 ـ هناك ظاهرة بالغة الأهميّة في حياة الشّعوب دلّ عليها القرآن الكريم في آيات عدّة ، هي أنّ قيام الأمم وسيادة الدّول مرتبطان بسنن ثابتة لا تتبدّل وكذا انهيارها الذّي يحصل لأسباب كثيرة منها : الجحود بآيات الله ، أو الغرور بالثّروة الماديّة ، أو الظّلم الاجتماعي والاقتصادي ، أو الاستبداد السّياسي ، أو القعود عن عمارة الأرض ، وغيرها من الأسباب ، ومع ذلك فإنّ كثيرا من مشاريع الإصلاح تهمل المعاني الإيمانيّة وتستبعد اعتبارها من العوامل الفاعلة في إحداث الإصلاح المنشود ، بينما يتركّز اهتمامها على الأموال المرصودة ، والثّروات المدّخرة ، والإمكانات الماديّة المتوفّرة ، ممّا أفضى إلى العجز عن إيجاد السّلم والرّخاء لغالب شعوب العالم ، لأسباب عدّة وعيوب شتّى ، من أهمّها على الإطلاق البعد عن حقيقة الإيمان .

وإيمانا منّا أنّ سعادة الشّعوب وخلاصها مشروطان بالرّجوع إلى دين الله الخالص ، وأنّ الإصرار على الإعراض يزيد البشريّة شقاء وعذابا ، فإنّ الحاجة لبيان أثر الإيمان تتأكّد بكلّ الوسائل والأساليب ، بغية تجديد معاني الإيمان في القلوب والأذهان وبعثها في النّفوس .

غير أنّ حقيقة الإيمان بالله لا تنحصر في التّقرّب إليه بالشّعائر التّعبّديّة المشروعة وهو النّصاب الأدنى الذي لا يكون المسلم بدونه متديّنا ، إنّما تشمل مختلف نشاطات الحياة ، حيث تتجلّى العقيدة في المجال السّياسي في إفراد الله بالحاكميّة ورفض حكم الهوى ، ومجاهدة قوى الباطل طلبا لمرضاة الله ، و في المجال الاقتصادي في الاعتراف لله بمالكيّة المال وخلافة

البشر له ، وتجسيد أبعادها في شعاب الحياة ، وفي المجال العلمي بتوحيد معقول العلم ومنقوله في سبيل الاستزادة من معرفة الله للتّوسّع في العبادة .

عرض الإشكال

وإذا تأمّلنا في حال المسلمين اليوم ، فإنّنا نلاحظ أنّهم يعانون من التّخلّف في كثير من الميادين الحضاريّة مقارنة بغيرهم من الدّول الغربيّة ، وهم يقرّون أنّ الإيمان هو الذّي حقّق لهم نهضتهم في كافة المجالات الحضاريّة ، **فإذا كان الإيمان بالله مصدر قوّتهم وعزّهم ، فلماذا لم تتحقّق هذه القوّة اليوم في ميادين البناء والتّعمير مع وجوده ؟**

ولحلّ هذا الإشكال انطلقت من الفرضيّات الآتية :

الأولى : الإيمان بالله يحقّق التّحضّر في الدّنيا ، غير أنّ الأمّة في عمومها لم يتّصفوا به حقّ الاتّصاف فآل أمرهم إلى ما هم عليه .

الثّانية : إيمان الأمّة محقّق ، غير أنّ مبادئه لا علاقة لها بترقية حياة الإنسان بمختلف مكوّناتها من سياسة واقتصاد واجتماع ، لكونه ينحصر في الجانب النّظري من قضايا الاعتقاد .

وانطلاقا من هذه الفرضيات شرعت في إنجاز هذا البحث لمعرفة الآثار التي أحدثها الإيمان في حياة المسلمين ، للكشف عن سرّ التّحضّر الذي حصل لهم في فترة قياسيّة ، وعن إمكانيّة بعثه من جديد ، معتمدا في هذا على تجربتهم الرّائدة واتّخاذها نموذجا للسّير على منواله ، حتّى نتمكّن من معرفة ما يجب أن نقوم به للوصول إلى ما وصلوا إليه ، قاصدا في كلّ هذا إثبات الفرضيّة الأكثر انسجاما مع مقتضيات نصوص الشّريعة وواقع الأحداث التي عرفوها في تجربتهم التّاريخيّة ، ولتحقيق هذا الغرض اخترت موضوعا أسميته " **أثر الإيمان في تحقيق الشّهود الحضاري** " وعرضته في مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة .

المقدّمة : بيّنت فيها أهمّيّة الموضوع وأسباب اختياره ، ثمّ عرضت إشكاليّة

البحـث والفرضـيّات التـي انطلقـت منهـا ، وعنـاوين الفصـول والمباحـث والمطالـب ، ثـمّ أشـرت إلـى الدّراسـات السّـابقة معلّقـا عليهـا ، وأنهيتهـا ببيـان بعض الضّوابط المنهجيّة التي تقيّدت بها ، والصّعوبات التّي واجهتني .

الفصل الأوّل : الإيمان في القرآن الكريم والسنّة النّبويّة : خصّصته للتّعريف بمصطلح الإيمان ، و جعلته في ثلاثة مباحث ، الأوّل : تناولت فيه الإيمان لغة وشرعا ، ضمن مطلبين تناولت في المطلب الأوّل : الإيمان عند أهل اللّغة ، و في المطلب الثّاني : الإيمان في استعمال الشّرع ، أمّا المبحث الثّاني فقد تناولت فيه مذاهب العلماء في بيان حقيقة الإيمان في مطلبين خصّصت المطلب الأوّل لعرض المذاهب المعتبرة في بيان حقيقة الإيمان أمّا المطلب الثّاني فقد ذكرت فيه علاقة الإيمان بالعقيدة والشّريعة ، وأمّا المبحث الثّالث فقد تناولت فيه مصادر المعرفة في العلوم النّظريّة والعقيدة الإسلاميّة في مطلبين ، الأوّل : عرضت فيه مصادر المعرفة اليقينيّة في العلوم النّظريّة ، وعرضت في المطلب الثّاني مصادر المعرفة في العقيدة الإسلاميّة .

الفصل الثّاني : مذاهب العلماء في تعريف الحضارة ، تعرّضت فيه لبيان أراء العلماء في الحضارة ، ودور العقيدة في البناء الحضاري ، وهذا في مبحثين .
الأوّل تناولت فيه مفهوم الشّهود الحضاري في اللّغة والاصطلاح ، وعرضته في ثلاثة مطالب ، الأوّل : الشّهود في اللّغة والشّرع ، الثّاني : الحضارة في اللّغة والاصطلاح ، الثّالث : قيمة التّحضّر ، أمّا المبحث الثّاني فبيّنت فيه أهمّية العقيدة في حياة الإنسان في مطلبين ، الأوّل : دور العقيدة في صياغة الحضارة ، الثّاني : أهمّية الأخلاق في البناء الحضاري .

الفصل الثّالث : عرضت فيه البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة والكون في العقيدة الإسلاميّة ، وتناولته في مبحثين ، الأوّل : البعد الحضاري لمعرفة الألوهيّة في العقيدة الإسلاميّة ، وقد حرّرته في مطلبين ، الأوّل : مظاهر الألوهيّة في الكون والحياة ، الثّاني : أهميّة تحرير الوجدان في تحقيق الفعل

الحضاري ، أمّا المبحث الثّاني فقد خصّصته لبيان البعد الحضاري لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة في ثلاثة مطالب : الأوّل : الآثار الحضاريّة لمعرفة الإنسان في العقيدة الإسلاميّة ، الثّاني الآثار الحضاريّة لمعرفة الحياة في العقيدة الإسلاميّة ، الثّالث : الآثار الحضاريّة لمعرفة الكون في العقيدة الإسلاميّة .

الفصل الرّابع : أثر الإيمان في حياة الإنسان ، في ثلاثة مباحث ، الأوّل : الإيمان وأثره في الأوضاع الاجتماعيّة ، وقد حرّرته في ثلاثة مباحث ، الأوّل أثره في تحقيق الفعل الحضاري على الفرد ، الثّاني : أثره في تحقيق الفعل الحضاري على المجتمع ، الثّالث : أثره في تحقيق التّقدّم العلمي ، أمّا المبحث الثّاني فقد خصّصته لبيان الإيمان وأثره في الأوضاع السّياسيّة في ثلاثة مطالب ، الأوّل أثر الإيمان في توحيد الأمّة ، الثّاني : أثر الإيمان في تحقيق العدل ، الثّالث : أثر الإيمان في إرساء سيادة القانون الحريّات الفرديّة المبحث الثّالث : الإيمان وأثره في الأوضاع الاقتصاديّة في مطلبين ، الأوّل : أثر الإيمان في دفع النّهضة الاقتصاديّة ، الثّاني : دور القيم الإيمانيّة في بعث التّنمية الاقتصاديّة .

الخاتمة : تناولت فيها النّتائج التي خلصت إليها ثمّ أعقبتها ببعض التّوصيات وذيّلت البحث بوضع فهارس فنّيّة ، وعلى ضوء ما مرّ بنا من مباحث خرجت بجملة من النّتائج أهمّها :

01 : الإيمان بالله وما يتفرّع عنه من عقائد أمر على غاية الأهمّيّة ، لأنّه يحدث آثارا إيجابيّة في حياة النّاس ، حيث يضفي عليها من خيريّته ما لا تناله أبدا بدونه ، وعليه فإنّ بسط المنافع التّي يحدثها من شأنه أن يهيّئ النّفوس للإقبال على الله ، لأنّها إذا لاحت للنّاس فإنّها تدفعهم إلى التّمسّك بأسبابها . غير أنّ الإيمان لا ينحصر في الجانب النّظري لقضايا الدّين ، إنّما هو اعتقاد

وقول وعمل ، حيث يصبح سجيّة في المؤمن تتكيّف بها النّفس فتقوّي ملكة الطّاعة والانقياد حتّى ينقلب المؤمن ربّانيّا .

كما أنّ حقيقة الإيمان تشمل مختلف نشاطات الحياة ، حيث تتجلّى العقيدة في المجال السّياسي في إفراد الله بالحاكميّة ، وفي المجال الاقتصادي في الاعتراف لله بمالكيّة المال وخلافة البشر له ، وفي المجال العلمي بتوحيد معقول العلم ومنقوله لمعرفة الله وتسخيره للعبادة .

02 : الشّهادة على النّاس من مقتضيات التّديّن بالإسلام ومن لوازمه المطلوبة لأنّها تتّجه إلى يوم القيامة بين يدي الله ، على أساس أنّ الشّهادة في الدّنيا هي قيادة النّاس بالوحي الإلهي وفي الآخرة أداؤها لله في يوم الحساب والأمّة حين تكون ملتزمة بدينها حقّ الالتزام ، فإنّها تكون شاهدة على النّاس فتقيم بينهم العدل وتضع لهم الموازين والقيم ، وكون الأمّة شاهدة على النّاس يعني وجود العناصر الكثيرة في داخلها من مختلف الفئات والمهن .

وإنّ الجعل الذي ورد في الآية ليس جعلا مبرما ، فتكون به الأمّة وسطا شاهدة على النّاس في كلّ الأحوال بل هو جعل كلّفت بتحقيقه ، فإن هي وفّت به تحقّق لها الشّهود الحضاري فاستحقّت المدح ، وإن هي أخلّت به تخلّف ذلك الشّهود فلا تستحقّه ، ويلحقها من المؤاخذة بقدر ما تخلّ به .

03 : الحضارة هي ثمرة التّفاعل بين الإنسان والكون والحياة وهذا المصطلح في اللّغة العربيّة واللاّتينيّة يتضمّن معنى المدنية والاستقرار الذي تقتضيه حياة المدينة ، ومن هذا المعنى اللّغوي نشأ مدلولها الاصطلاحي قائما على ما تثمره حياة الاستقرار في الحضور من المكاسب الماديّة والمعنويّة .

04 : لا يمكن اعتبار التّقدّم الماديّ مقياسا للتّحضّر ، إنّما المقياس الحقيقي في ذلك ما يتحقّق للنّاس من الأمن والتّآخي والتّعاون ، وعليه فإنّ التّحضّر وصف موضوعي لحالة من الاجتماع البشري ، فقد يكون محقّقا للسّعادة فيكون خيرا ، وقد لا يكون محقّقا لها فلا يكون كذلك .

05 : التّحضّر الإسلامي مبني على العقيدة الإسلامية ، لأنّها هي التي حرّكت المسلمين للتّفوّق في مختلف الميادين ، وهي التي كانت ترسم المسارات التي يجري عليها البناء الحضاري كلّه ، بل إنّ المجتمع الإسلامي برز إلى الوجود نتيجة نظام ربّاني قائم على العقيدة .

06 : التّحضّر ليس قدرا محتوما يحصل للمجتمع حصولا لازما ، إنّما هو أمر مكتسب يتحقّق ببذل الجهد للوصول إلى الأهداف المنشودة ، وإنّ أهمّ مقياس يمكن الاعتماد عليه لمعرفة سير الحضارة في الطّريق السّليم يكمن في المعرفة للعناصر الثّلاثة التي يتجسّد فيها الفعل الحضاري ، وهي الإنسان الكون الحياة ، وإنّ الذي يستطيع أن يعرّف الإنسان على تلك العناصر ويبصّره بكيفية تسخيرها هو الله الخالق الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى .

07 : تستند قوانين المجتمع المؤمن إلى الشّريعة ، لذلك ما تنظّمه الدّولة من سياسة يجد القبول لأنّه مقتضى الحقّ ومظنّة الخير ، فإذا تضافرت عوامل الطّاعة لأمر الدّين والهيبة للسّلطان السّياسي والاحترام للمجتمع ، كان ذلك أعصم له من أن تشيع فيه الجريمة ، أو تتضاءل همّة أفراده للمصلحة العامّة .
والأمّة المؤمنة أمّة منفتحة على العالم تسعى لهدايته ، وتقتبس ما يناسبها من العلوم والتّجارب وبذلك يتعايش النّاس في تعاون وسلام .

08 : للدّين له دور عظيم في دفع النّهضة الاقتصادية ، لأنّ المؤمن يرى دنياه مرحلة لامتحان مسرحه الأرض ، وعليه فإنّ المؤمن المفلح هو الذي يقبل تحدّي الابتلاء ، ويقبل على الحياة بنيّة العبادة لله ، وإذا كانت العبادة مستغرقة لأعمال المعاش كلّها فإنّ المؤمن مكلّف بأن يعبد الله بحسب ما أوتي من قوّة فإذا توفّرت له الأسباب للممارسة الاقتصادية ، يجب عليه أن يقتحم هذا الميدان في حركة دائبة ضربا في الأرض ابتغاء لفضل الله .
ويجد المؤمنون في الوفاء بحاجاتهم في معاشهم ما يحرّرهم من هموم الدّنيا فيستغني الفرد عن التّسوّل من غيره أو الاعتداء عليه ، وينعم المجتمع بالأمن

والاستقامة من جرّاء السّعة الماديّة التي توفّرها موارده المالية ، حيث يتمكّن بالثّروة المتوفّرة من إصلاح سائر شؤونه ، فتتحقّق كثير من المقاصد النّبيلة كنشر العلم والإعداد للجهاد ، والاعتناء بصّحّة الأفراد وغير ذلك من الوجوه التي تستدعي النّفقات أمّا الحاجة فإذا كانت شديدة الإلحاح فقد تلهي عن الله

09 : الحضارة الإسلاميّة تمكّنت من شقّ طريقها إلى أعلى مقامات التّحضّر بإتقان وثبات ، والمساهمة بدور فعّال في خدمة الإنسانيّة ، ولقد أثبت التّاريخ أنّ الإسلام طبع حياة معتنقيه من العرب وغيرهم بطابع العلم والعمل والجدّ حيث أيقظ فيهم الوعي الذّي دفعهم إلى طلب العلم بهمّة ونشاط ، ومن أيّ جهة كان ، فأشاعوا بذلك أجواء فكرية مشحونة بشتّى صنوف المعرفة ، ممّا دفعهم إلى الابتكار والإبداع .

لكن التّخلّف تسرّب إلى كيان المسلمين ، بسبب انحسار المبادئ الإيمانيّة عن مظاهر حياتهم ، والتّكالب على ملاذ الدّنيا ، والصّراعات الدّاخلية والضّربات الخارجيّة التّي كانت على يد التّتار والصّليبيين ، فتقهقرت حركة الإبداع في شتّى الميادين ، وعليه فإنّ الفرضيّة التّي يقرّرها المنطق ويثبتها الواقع التّاريخي ، والتّي انطلقنا منها في هذه الدّراسة هي : الفرضيّة الأولى التّي تنصّ على أنّ **الإيمان بالله يحقّق التّحضّر في الدّنيا غير أنّ الأمّة في عمومها لم تتّصف به حقّ الاتّصاف فآل أمرها إلى ما هم عليه** ، بينما الفرضيّة القائلة : مبادئ الإيمان لا علاقة لها بترقية حياة الإنسان لانحصاره في الجانب النّظري من قضايا الاعتقاد غير صحيحة ، لأنّها مخالفة للنّصوص القرآنيّة ، والتّجربة الواقعيّة للمسلمين .

Le résumé de la thése

AU NOM D'ALLAH LE TRES MISERICORDIEUX, LE TOUT MISERICORDIEUX

Louange à Allah seigneur des mondes. Que la paix et la bénédiction d'Allah soient sur le sceau des prophètes, Muhammad, et en suite :

Importance du sujet :

La foi en Allah est la chose la plus importante dans la vie, car son existence est une vérité constante dans le temps, du commencement jusqu'à l'éternité. Cette vérité est indépendante dans sa constance de tout être, ce qui justifie sa présence indépendamment de la croyance ou de la non croyance des êtres, du fait que sa valeur et sa sainteté sont inspirées d'elle-même, parcequ'elle est la première des vérités de l'existence, et que la foi en la vérité générale est une qualité en soit, alors qu'en est-il lorsqu'il s'agit de la vérité suprême ?

Ainsi, si la foi est exigée en soit, elle est plus que nécessaire pour les effets positifs et les bénédictions qu'elle procure dans la vie des gens.

Ceci nous invite à explorer les rouages de la foi afin de vérifier ces effets dans la réalisation du bonheur de l'humanité toute entière.

Le choix du sujet de la présente thèse est véhiculé par un certain nombre de raisons. Il s'agit principalement de :

1- La suprématie dans les temps modernes de la pensée matérielle par rapport aux principes fondamentaux, nécessaires à l'épanouissement des civilisations. De tels principes qui - dans l'ère islamique ancienne était très présente dans la vie quotidienne des gens – se sont déperdus au fil des temps, sous

prétexte que la foi en Allah gèle les énergies de l'homme nécessaires au travail et à la productivité, indépendamment de son influence sur les capacités de recherche scientifique et technique. Cette pensée qui domine actuellement est le fait de l'émergence de civilisations puissantes qui ne croient pas en Allah ou qui croient à des formes différentes de divinité égarées. Ceci peut induire les gens à penser que le bonheur des peuples et leur prospérité n'a pas de relation avec leur foi, si ce n'est-elle la source de leur malheur et de leur déclin. Notre modeste étude vise de ce fait à prouver le contraire, et que le bonheur de l'humanité est intimement lié à leur foi profonde en Allah.

2- La focalisation des philosophies et des systèmes éducatifs actuels sur des éléments purement matériels, en négligeant les principes spirituels dans la réalisation de leurs objectifs, notamment les principes ayant trait à la religion. Ce constat de fait est le résultat naturel de la propagation des effets de la civilisation occidentale sur tous les niveaux de la nation musulmane. A travers la présente étude, je souhaiterais contribuer à consolider les efforts intellectuels de certains de nos penseurs, qui ont pris à cœur ces préoccupations, par l'analyse et la synthèse de la situation intellectuelle actuelle de la culture dominante, basée uniquement sur l'intérêt, afin de démontrer l'impact positif de la foi dans la vie des êtres humains.

3- La situation affaiblie des musulmans d'aujourd'hui, et le déclin de leur vie quotidienne, a affaiblie aussi leur foi en Allah comparé aux hâtes et aux égarés qui vivent eux dans la

prospérité et la puissance. Ce ci a conduit malheureusement à la propagation du courant laïque dans la plupart de nos sociétés musulmanes. Ce qui justifie la nécessité d'une étude scientifique pointue, qui contribue à renforcer le courant réformiste pour faire face à cette laïcité et à ces conséquences désastreuses.

4- L'existence d'un phénomène d'une importance capitale dans la vie des peuples et des nations, stipulé notamment dans le saint coran qui concerne le processus de naissance et de développement des civilisations et des nations ainsi que les causes de leur déclin faute de croyance envers Allah et ces versets coraniques, l'orgueil, la vanité et l'injustice sociale, économique et politique…etc. tous ces éléments spirituels sont souvent inexistants dans les projets de réforme de nos sociétés, ce qui a aggravé la défaillance et les dysfonctionnement de nos institutions, et réduit considérablement leur capacité à réaliser la paix et le développement. Ainsi, l'éloignement par rapport à la véritable foi constitue la cause principale de tous les maux sociaux, son existence par contre réalise le bonheur et délivre l'humanité des peines, des injustices, de l'ignorance et de la pauvreté, tout cela est conditionné par le retour à la croyance pure en Allah.

La problématique :

L'observation de la situation des musulmans actuellement nous conduit à découvrir leur retard excessif dans les différents domaines de la civilisation en comparaison avec les autres nations occidentales. Ces musulmans reconnaissent que leur progrès ancien était dû essentiellement à leur foi en Allah, Cependant, pourquoi ce progrès ne

s'est-il pas réalisé aujourd'hui dans les différents domaines, malgré l'existence de cette foi ?

Pour répondre à ces questionnements, je me suis basé sur les hypothèses suivantes :

Hypothèse n°1 : La foi en Allah permet la civilisation de l'homme dans la vie présente et la réussite dans la vie eternelle. Cependant, la nation dans sa globalité n'a pas considéré Allah dans sa juste valeur, ce qui a conduit à la dégradation et au déclin.

Hypothèse n°2 : La foi de l'ensemble de la nation est réalisée, mais ses principes ne concordent pas avec le développement de sa vie quotidienne, du fait qu'elles se limitent à l'aspect théorique de la question de la foi. A la lumière de ces hypothèses, je me suis efforcé, à travers cette étude, à chercher de connaître les effets de la foi dans la vie des arabes et des musulmans, pour découvrir le secret de leur développement rapide dans une époque donnée, et de connaître la possibilité de le refaire à nouveau, visant à justifier l'hypothèse la plus cohérente avec les événements qu'à connu les musulmans à travers l'histoire. Pour se faire, j'ai choisi un thème intitulé : « **L'effet de la foi dans la réalisation du témoignage civilisationnel** », que je développerais à travers une introduction, quatre chapitres et une conclusion.

L'introduction : englobe l'importance du sujet et les raisons de son choix, et énonce la problématique et les hypothèses correspondantes, ainsi que les objectifs visés en passant par l'énoncé et la critique des études antérieures similaires, en concluant par l'énoncé des titres des sections et des paragraphes.

Premier chapitre : La foi dans le saint coran et dans la *Sunna*. Ce chapitre, qui est consacré à la définition du terme « FOI » est divisé en

trois sections. La première concerne la définition linguistique et religieuse de la foi, à travers deux paragraphes : § 1 : la foi chez les linguistiques. § 2 : la foi du point de vue religieux.

La deuxième section : les courants intellectuels et la nature de la foi, divisée en deux paragraphes, le premier traite de l'exposé des courants majeurs qui se sont intéressés à la nature de la foi. Le deuxième est relatif à la relation entre la foi et la « *Chariaa* ».

La troisième section traite des sources scientifiques dans la science théorique et la croyance islamique (*Aquida*). Cette section est divisée à son tour en deux paragraphes. Le premier englobe les sources du savoir dans les sciences théoriques, le deuxième expose les sources du savoir dans la croyance islamique.

Deuxième chapitre : Les grands courants de la définition de la civilisation. Ce chapitre concerne l'exposé de l'état de la pensée sur la civilisation et le rôle de la croyance dans la construction civilisationnelle. Ceci à travers deux sections. La première qui est relative au concept du témoignage civilisationnel par rapport à la langue et à la terminologie, est divisée en trois paragraphes. Le premier concerne le témoignage civilisationnel dans le langage et dans la religion. Le second traite de la civilisation dans le langage et dans la terminologie et le troisième concerne la valeur de la civilisation. La deuxième section qui traite de l'importance de la croyance dans la vie de l'homme se divise en trois paragraphes. Le premier concerne la relation entre la croyance et la civilisation. Le second traite de l'importance de la « *Tazkia* » dans la construction civilisationnelle. Et le troisième concerne la vision de l'islam dans la définition de l'homme et de la civilisation.

Troisième chapitre : la dimension civilisationnelle de la connaissance divine et l'univers dans la croyance islamique. Ce chapitre est divisé en deux sections. La première qui s'intitule : la dimension civilisationnelle de la connaissance divine dans la religion, est divisée en trois paragraphes : le premier concerne la notion de la divinité dans la religion islamique. Le deuxième traite des apparences divines dans la création des êtres vivants. Et le troisième concerne les apparences divines dans l'hégémonie d'Allah sur ces créatures.

Quant à la section deux, qui concerne la dimension civilisationnelle de la connaissance de l'univers dans la croyance islamique, se divise en trois paragraphes. Le premier s'intitule : les effets civilisationnels dans la connaissance de l'homme. Le deuxième paragraphe traite de la nature de la vie dans la croyance islamique. Et le troisième paragraphe concerne l'univers dans la croyance islamique.

Quatrième chapitre : L'effet de la foi sur la vie de l'homme. Ce chapitre est traité à travers deux sections. La première concerne l'effet de la foi sur le comportement de l'individu et de la société, traitée en trois paragraphes. Le premier concerne l'importance de la foi dans la vie de l'homme. Le second concerne l'effet de la foi sur l'individu et le troisième l'effet de la foi sur la société.

La deuxième section est réservée à l'effet de la foi sur la réalisation de la réussite politique, économique et scientifique. Cette section englobe trois paragraphes. Le premier s'intitule : la foi et les situations politiques. Le deuxième concerne la foi et les situations économiques et le troisième : la foi et les situations culturelles.

Conclusion : englobe les résultats obtenus à travers la présente étude suivis des recommandations et des sommaires.

A la lumière de ce qui précède, nous nous somme conclus aux résultats suivants :

01 : La foi en Allah est la chose la plus importante dans la vie, car son existence est une vérité constante dans le temps, du commencement jusqu'à l'éternité. Cette vérité est indépendante dans sa constance de tout être, ce qui justifie sa présence indépendamment de la croyance ou de la non croyance des êtres, du fait que sa valeur et sa sainteté sont inspirées d'elle-même, pars qu'elle est la première des vérités de l'existence, et que la foi en la vérité générale est une qualité en soit, alors qu'en est-il lorsqu'il s'agit de la vérité suprême ? Ainsi, si la foi est exigée en soit, elle est plus que nécessaire pour les effets positifs et les bénédictions qu'elle procure dans la vie des gens. Et si la foi en Allah donne ses fruits dans la vie quotidienne des gens, tel que rapporté par le verset coranique suscité, c'est parce que la relation entre la foi et la réussite dans la vie est une relation conditionnelle, la seconde (la réussite) ne peut se concrétisé sans la présence de la première (la foi). Ceci nous invite à explorer les rouages de la foi afin de vérifier ces effets dans la réalisation du bonheur de l'humanité toute entière.

Aussi, généraliser les bienfaits pratiques procurés par la foi en Allah et les démontrer aux gens a pour conséquences de préparer les âmes à se soumettre à Allah à travers la recherche à mieux le connaitre et à croire plus en lui, pour les croyants, ou à chercher à croire en lui, pour ceux qui ne le sont pas encore, car si les bienfaits de la foi en Allah seraient connus par les êtres, elles les auraient pousser à s'accrocher en ses raisons matérielles et immatérielles pour les atteindre (les bienfaits). La recherche du bonheur par l'homme et sa disposition à n'épargner aucun effort pour l'atteindre a inspiré les différents

prophètes, que le salut soit sur eux, à montrer aux gens les bienfaits réservés aux croyants et au contraire les malheurs récoltés par les mécréants. Ce qui justifie l'efficacité de cette démarche et sa validité dans le temps et dans l'espace, chose qu'ont doit a fortiori adopter dans notre exposé des vérités de la foi.

02 : Le témoignage sur les gens est parmi les nécessités religieuses de l'Islam, parce que celui-ci conduit les gens, dans la vie présente, par la révélation divine, et dans la vie dernière lorsqu'il sert aux règlements des comptes. Ceci dit, lorsque la nation est attachée à sa religion, elle peut en témoigner sur les gens en instaurant la justice, et en imposant les normes et les valeurs, c'est pour cela que celui qui réalise la justice en soi peut en témoigner sur les gens. Et que la nation lorsqu'elle témoigne sur les gens ça sous entend l'existence dans sa composante d'une élite consciente et croyante qui comprend et pratique parfaitement l'islam. Cette élite qui existe en tout temps et lieux est composée en premier rempart de dirigeants honnettes, et de conscients savants, ainsi que de glorieux moudjahidine, sans oublier les simples citoyens de tout métier.

03 : La civilisation est le fruit de la réaction entre l'homme, l'univers et la vie. Ce terme, que ce soit dans la langue arabe ou latine, comprend le sens de la cité et de la stabilité nécessaire à la vie citadine.

04 : Le progrès matériel ne peut être considéré comme une mesure du degré de civilisation des nations sauf si ce dernier permet de réaliser la paix, la fraternité et l'entraide parmi les gens. Ainsi, la civilisation est la description objective de l'état de la sociologie humaine, si elle réalise le bonheur elle est considéré comme bénéfique, dans le cas contraire, elle ne sert qu'aggraver les malheurs de la société.

05 : La civilité islamique ne peut se réaliser qu'à travers la croyance islamique qui a jadis poussé les musulmans à s'épanouir dans tous les domaines de la vie, et qui a dessiné les voies de toute la construction civilisationnelle de l'époque. C'est même, la chose qui a permis à la société musulmane d'apparaitre à l'existence.

06 : La civilité n'est guère un destin obligatoire pour les peuples, mais une conséquence réalisable par la volonté et les efforts fournis pour atteindre les objectifs assignés. Le meilleur baromètre pour connaitre la bonne démarche de la civilisation est celui qui permet de connaitre les trois éléments constitutifs du fait civilisationnel qui sont : l'homme, l'univers et la vie. Parce que la réussite dans la démarche de création de la civilisation se base sur la connaissance parfaite de la nature de ses matériaux et de ses éléments primaires.

07 : La société construite sur la base de la foi légifère conformément à la religion, notamment en ce qui concerne ses principes et ses textes législatifs, ou bien même sa doctrine et ses décisions prises par la concertation et la « *CHOURA* ». Ainsi dit, tout projet engendré par la politique légitime de l'Etat trouve son approbation parmi les individus. La combinaison de tous ces éléments d'obéissance envers la religion et envers les gouverneurs permet la sauvegarde de la société contre la propagation des crimes, et la diminution de la volonté des individus à améliorer l'utilité publique. Aussi, la nation musulmane est une nation ouverte sur le monde. Elle réagit avec lui positivement en cherchant à le guider sur le droit chemin, en lui procurant les bienfaits de ses ressources intellectuelles et de ses expériences scientifiques et humaines, ce qui permet aux êtres humains de vivre dans l'harmonie et la paix.

08 : La religion à un rôle primordial dans la croissance économique, parce que le croyant ne voit en la vie qu'une étape d'épreuves dont le décor est la nature du ciel et de la terre. Ainsi, le véritable croyant est celui qui accepte le défit des épreuves avec patience et force morale, par la prière et par le bon sens dans le traitement de celles-ci. En effet, prier Allah est une obligation vitale à pratiquer selon les capacités du croyant. Ainsi, lorsque l'environnement se présente pour la pratique économique, il doit saisir l'occasion qui lui est présenté sans aucune hésitation. Cette démarche de satisfaction des besoins permet de libérer l'individu des malheurs de la vie, et de l'enrichir en lui évitant de voler ou de demander l'aumône à autrui. Ainsi, la société vit dans la droiture et la sécurité tant que les ressources financières sont disponibles, ce qui lui permet de réformer l'ensemble de ses affaires, et de réaliser ensuite beaucoup de projets nobles tels que la divulgation du savoir, la préparation au « *djihad* », la prise en charge de la santé des individus, et la protection de l'environnement, ainsi que d'autres sources de dépenses diverses.

09 : La civilisation musulmane a pu tracer son chemin jusqu'au plus haut degré de civilité, et a contribué efficacement au développement de l'humanité tout entière. L'histoire nous enseigne en effet que l'Islam a marqué la vie de ces disciples par la science, le travail et la persévérance dans la recherche scientifique qui s'épanouissait dans les différents domaines de la connaissance et de l'innovation. Cependant, cette civilisation a était sévèrement atteinte à cause des conflits et des guerres internes et externes de la part des Tatars et des croisés, et surtout de la recrudescence des valeurs religieuses à cause de la soumission aux désirs de la vie présente, ce qui a causé le déclin de la création et de l'innovation dans tous les domaines. Ainsi, l'hypothèse

qui répond le mieux à la logique et aux faits historiques est la première hypothèse qui stipule que la foi en Allah permets la civilisation de la vie présente, mais la nation tout entière n'est pas caractérisé par cette foi, ce qui a conduit à son déclin. Cependant, la deuxième hypothèse, qui stipule que les principes de la foi n'ont aucun lien avec la promotion des conditions de la vie humaine, parce qu'ils se limitent au coté théorique des questions religieuses, est complètement fausse parce qu'elle est contraire aux textes coraniques et à l'expérience vécue des musulmans.

Université d'Alger
Faculté des sciences Islamiques
Département des Théologies et religions

L'effet de la foi dans la réalisation du témoignage civilisationnel

Thèse présantée pour l'optention du certificat de doctorat en sciences Islamiques
Spécialité Théologie

Présantée par l'étudiant : Abdelghani AkAk

L'année universitaire : 2009 – 2010

Université d'Alger
Faculté des sciences Islamiques
Département des Théologies et religions

L'effet de la foi dans la réalisation du témoignage civilisationnel

Thèse présantée pour l'optention du certificat de doctorat en sciences Islamiques
Spécialité Théologie

Présentée par :
Abdelkhani Akak

Sous l'encadrement de
Pr. Amar Djidel

Membres du jury

Nom	Qualité	Grade	Institution
Pr. Chafia Seddik	Président	Professeur d'ES	Université d'Alger
Pr. Amar Djidel	Rapporteur	Professeur d'ES	Université d'Alger
Pr. Abdelkader Bekhouche	Membre	Professeur d'ES	Université de Constantine
Dr. Mohamed Yaich	Membre	Chargé de cours	Université d'Alger
Pr . Salah Naamane	Membre	Professeur d'ES	Université de Constantine
Dr. Ahmed Aissaoui	Membre	Chargé de cours	Université de Batna

L'année universitaire : 2009 – 2010